صفحات من التاريخ الاسلامي في الشمال الإفريقي

(١)

صفحات من

تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي

تأليف

علي محمد محمد الصلابي

دار البيارق

علي محمد محمد الصّلابي

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.
- تحصل على درجة الإجازة العالية «الليسانس» من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقدير ممتاز وكان الأول على دفعته عام ١٤١٣ / ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٢ / ١٩٩٣م.
- نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلامية كلية أصول الدين قسم التفسير وعلوم القرآن عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- صدرت له عدة كتب :

١ - ملامح الوسطية في القرآن الكريم.

٢ - وسطية القرآن في العقائد.

٣ - وسطية القرآن في العبادة والأخلاق والتشريع.

٤ - من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

صفحات من

تاريخ ليبيا الإسلامي

والشمال الإفريقي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

الرقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٩٩٧/١٢/١٨٥٠)

رقم التصنيف : ٩٦١,٢
المؤلف ومن هو في حكمه : علي محمد محمد الصّلابي

عنوان الكتاب : صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي
الموضوع الرئيسي : ١- التاريخ
٢- ليبيا - التاريخ - افريقيا
رقم الايداع (١٩٩٧/١٢/١٨٥٠)

بيانات النشر : عمان: دار البيارق
* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية



الأردن : ص.ب ٨٦٤ عمّان ١١٥٩٢ تلفاكس ٤٦١٠٩٣٧ (٠٦)

لبنان : ص.ب ١١٣/٥٩٧٤ بيروت هاتف ٨٨٢٢٣٧ (٠٣)

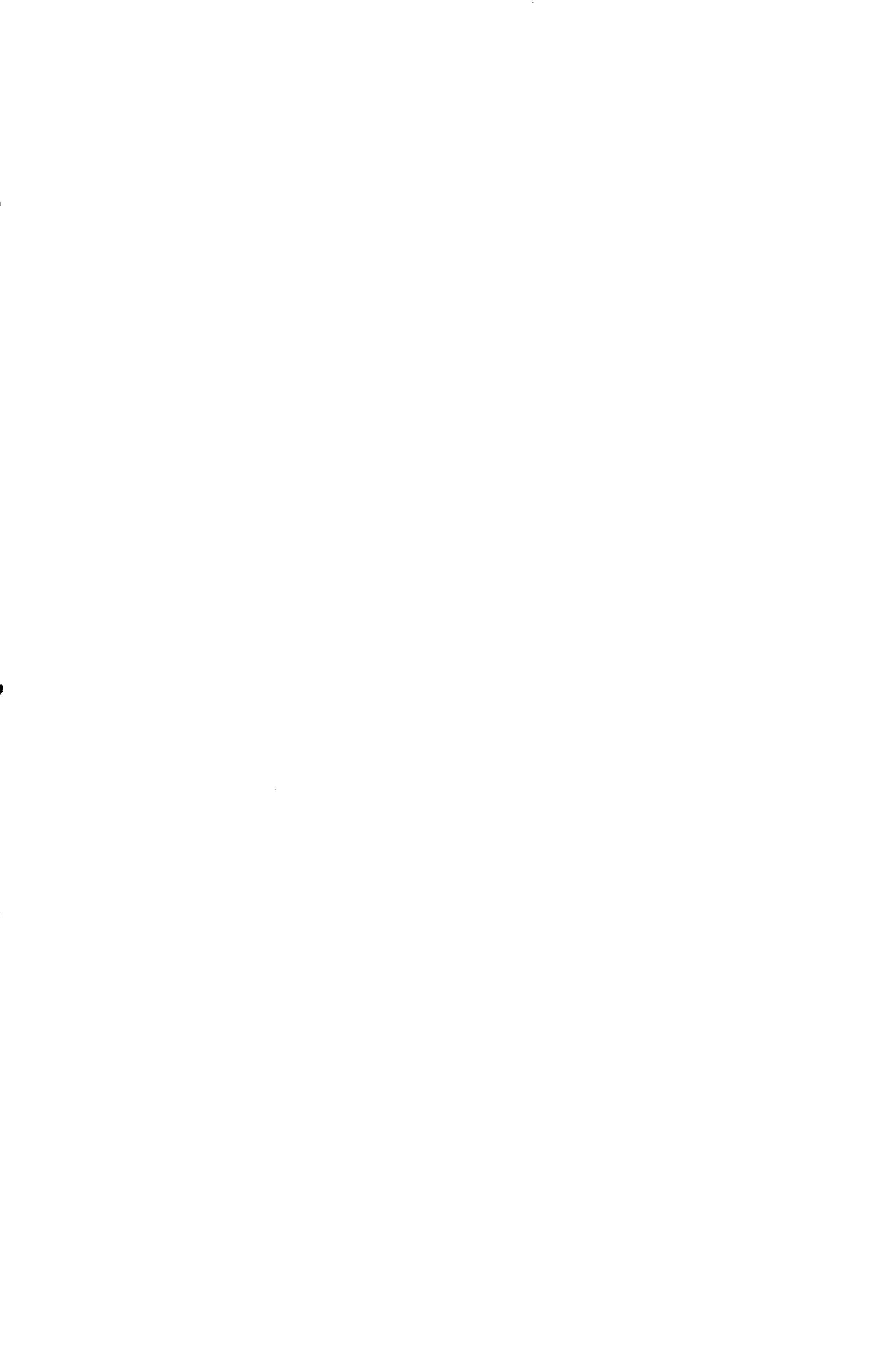
الإهداء

إلى الصحابة الكرام الطيبين الأطهار، السابقين الأبرار وممن سار على نهجهم من العلماء الراسخين والمجاهدين الصادقين والفقهاء العاملين والقادة الربانيين، والجنود المخلصين الذين قدموا أنفسهم وأموالهم وما يملكون من أجل دعوة الله الخالدة فطافوا مشارق الأرض ومغاربها مبشرين ومنذرين أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يكون خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به المسلمين.

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾

المؤلف

علي محمد محمد الصّلابي



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [آل عمران : ١٠٢].

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً﴾ [النساء : ١].

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم، ومن يطع الله ورسوله، فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠].

أما بعد : يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

من هنا كانت البداية : فقد بدأت فكرة تأصيل تاريخ ليبيا الإسلامية تنمو وتزداد يوماً بعد يوم في ذهني حتى سيطرت على مشاعري ووجداني، وكان ذلك خلف أسوار (الحصان الأسود) المعتقل السياسي الرهيب، وزادت الفكرة نضوجاً في (أبو سليم) المعتقل العسكري، حيث قدر الله لي أن ألتقي في مدرسة يوسف عليه السلام

ببعض وجهاء البلاد في فترة الستينات من ذوي المستويات المتنوعة، والخبرات المتعددة، والثقافات المختلفة، الذين حرصوا على توريث تجارتهم وخبراتهم وتاريخهم وتاريخ حركاتهم للأجيال القادمة.

ثم بعد ذلك قدر الله لي – داخل المعتقل – أن أتحصل على نسخة من كتاب عن تاريخ الحركة الإسلامية في الجزائر بقيادة العملاق عبد الحميد بن باديس البربري – رحمه الله – الذي قد أثرّ فيّ حقيقة جهده الجبار في صيانة الهوية الإسلامية في المنطقة، ثم قدر الله لي العيش مع أقطاب المدرسة السلفية آنذاك المتمثلة في تلاميذ الأستاذ الشيخ محمد البشيتي – رحمه الله – عن كثب، ثم قدر الله لي اللقاء ببعض أبناء الحركة السنوسية، وقد تأثرت بسردهم لتاريخ الحركة السنوسية وما قام به الصالحون منهم والمجاهدون في إعزاز الدين ونصرة أهله والدعوة إليه في مشارق الأرض ومغاربها.

وبعد هذه الحصيلة العلمية التاريخية تبلورت لديّ فكرتان : الأولى كتابة تاريخ السجناء السياسيين وقد تم هذا بحمد الله وفضله، والثانية : كتابة تاريخ الحركة السنوسية ودراستها دراسة تحليلية وافية،لذلك كنت شديد الفرح بكل معلومة أتحصل عليها من أفواه رجال الحركة السنوسية فأكتبها على أوراق الصابون والبسكويت، وأوراق حليب الكورنيش بواسطة أقلام الرصاص، وإذا انعدمت بواسطة الجرافيت التي بداخل بطّاريات الشحن الصغيرة، لأن السلطات تمنع دخول الكتب والأوراق والأقلام في المعتقل السياسي.

وممن استفدت منهم في تلك المرحلة الشيخ الفاضل – رحمه الله – محمد القاضي عبد الكبير الفزاني وغيرهم من وجهاء ناحية الجنوب، والأستاذ راشد السنوسي، والشيخ أحمد الطاهر العرفي، والأستاذ عبد الله الشاعري، وغيرهم من

الإسلاميين والوطنيين الذين شجعوني على تلك الفكرة الوليدة التي ما كانت لتنبت في ذهني لولا أن الله ساق لي أسبابها بدخول السجن والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وقضيت في السجن بضع سنين خرجت بخبرات كثيرة منها هذه الفكرة التي بدأت ثمارها بتوفيق الله عز وجل هناك .

وبعد خروجي من السجن في ١٩٨٨/٣/٣ في أحداث خروج السجناء كانت فرحة عظيمة غمرتني بظهور التيار الإسلامي الجارف في أوساط الشباب وامتلاء المساجد، وانتشار الحجاب، وظهور التدين في المناسبات الاجتماعية إلا أنَّه بعد احتكاكي ببعض شباب الصحوة، لاحظت أنها عاطفة جياشة ينقصها العلم الشرعي من الكتاب والسنة وهذا شيء طبيعي في بلاد مثل بلادنا، كما وأنني لاحظت انقطاعاً غريباً عند الأجيال الصاعدة عن تاريخ أجدادهم القريب المتمثل في جهادهم ضد إيطاليا على أسس شرعية دينية عقدية، وكأن الإسلام شيء جديد في بلادي ولم يكن يوماً ما ضارباً بأطنابه في أعماق تاريخها، بل وللأسف الشديد لا يتذكرون من فتوحات الصحابةوالتابعين لليبيا والشمال الإفريقي شيئاً على العموم إلا ثقافة ضحلة لا تسمن ولا تغني من جوع!!

لذلك ازدَدْتُ قناعة بأهمية كتابة تاريخ بلادنا ليس من الحركة السنوسية فقط بل ليمتد من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث، وازدادت الفكرة نضوجاً بعد خروجي من المعتقل الكبير (ليبيا الحبيبة) وتوجهت نحو بيت الله الحرام للتقديم في جامعة المدينة، ثم يسَّرَ الله لي القبول في تلك الجامعة وقدر الله لي أن أكتب كتاباً بشأن المعتقلين السياسيين داخل سجون ليبيا منذ عام ١٩٦٩إلى عام ١٩٨٨م، وقد تناولت في هذا الكتاب مامررنا به من محن ومنح ورحمة وتوفيق ورعاية من المولى عز وجل، وبكتابه ذلك الكتاب تشجعت لمواصلة العمل الجاد والمثمر الذي يفيد الأجيال التي ستحمل هذا الدين دعوة ودولة، فدعوت الله ولا زلت أدعو أن يكون جهداً موفقاً

خالصاً لوجهه الكريم.

وطرحت هذه الفكرة بين إخواني فاستغرب بعض زملائي هذه الفكرة في المدينة النبوية، فأما بعضهم فقال لي : آمال كبيرة لا يوجد من الليبيين من يقوم بها، وأما بعضهم الآخر فقال لي : يبدو أنك تحلم، وبعضهم قال : إِن الساحة غير محتاجة لهذا، وبعضهم قال لي : إِن التاريخ مكتوب ولا داعي من ضياع الوقت، وبعضهم شجعني وأعانني بكل ما يجده لخدمة هذه الفكرة وشرعت في تحقيقها بانقطاعي في الإجازات الصيفية بين مكتبة الحرم المكي والحرم المدني.

وبدأت الكتابة الفعلية في صيف ١٩٩١م في مكة وكنت أبدأ من الصبح في مكتبة الحرم في ذلك الهدوء الجميل وعندما تغلق أبواب المكتبة أنزل للصلاة فأطوف بالبيت الحرام داعياً المولى عز وجل أن يكون خالصاً لوجهه الكريم، ويذلل الصعب وييسِر السبل. ورجعت للمدينة بحمل بعير من المعلومات الجديدة عن الصحابة والعلماء الذين دخلوا ليبيا وانطلقوا في الشمال الإفريقي، ومعلومات عن الدول وكتبتها ولخصتها وأثرتها للنقاش مع إِخواني الطلاب الليبيين وغيرهم ومع الأساتذة في جامعة المدينة النبوية وتفاعل الأساتذة، وأعطيتهم ما كتبته وأخص بالذكر الأستاذ خالد الصاعدي الأستاذ المحاضر في مادة التاريخ في الصف الثالث من الجامعة في كلية الدعوة وعلق عليها واهتم وشجع وأعان بكتب وإرشادات نافعة، وبدأت الفكرة تنمو وتنضج وتتضح، وتفاعل بعض المعتمرين والحجاج من بلادنا الذين غمرتهم الفرحة بهذا العمل الذي رأوا أنه يخصهم وهو منهم ولهم وللأمة، وحضوا على ذلك وقالوا : بأنه عمل جاد لعلاج الهزيمة النفسية التي يمر بها شعبنا المظلوم، وذلك بربطه بتاريخه وأمته وحضارته وعقيدته ودينه وإسلامه، وإذا بالكتب المصورة والوثائق التاريخية تنهال علي في المدينة المنورة من كل حدب وصوب، ووصلت إلى شيء شعرت بأن الله ذلل أسباب المادة، ويسر جمعها وأن الأمر بإذن الله سيتم.

وبعد أن انتهيت من الدراسة في المدينة استخرت واستشرت، وربطت الأمتعة وخصوصاً ما يتعلق بالتاريخ وقصدت بلداً عربياً وفي حي من أحيائه الشعبية في بيت متواضع مبني بالطوب الأحمر تم كتابة خمسمائة صفحة عن الحركة السنوسية، وكتابة الكتاب الأول الذي أقدم له الآن، لقد كانت الفكرة في نفسي عظيمة سيطرت على أحاسيسي ومشاعري واعتبرتها تحدياً من تحديات الحركة الإسلامية المعاصرة في بلادي التي لا بد لها من القيام بها عاجلاً أو آجلاً.

ولا شك قد ازددْت قناعة في هذه الفترة بأهمية التاريخ في تكوين الأمم، وتربية الشعوب، وتحقيق الآمال، وكان مسلكي في كتابة التاريخ يعتمد علي توسيع النقاط البيضاء وتقليل النقاط السودا، والرد على المخالفات العقدية، والانحرافات الشرعية سواء من أفراد أو من دول ملتزماً في ذلك بعقيدة أهل السنة والجماعة، وأقصد بعقيدة أهل السنة والجماعة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلام وأصحابه من عقيدة سليمة وما انبثق عنها من عبادة سنية، وأخلاق بهية، وتصورات ربانية.

من أهداف هذا العمل :

١- تأصيل جذور ليبيا الإسلامية، وأنها كانت بوابة الخير والإسلام لشمال إفريقيا، وأن أصول المد الإسلامي المعاصر ليست حديثة بل ضاربة بأطنابها منذ دخول الصحابة والتابعين لليبيا.

٢- تقرير بأن أصولَ هذا المد الإسلامي في المنطقة أصول سنية لا شيعية ولا خارجية إنما هي ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الطيبين الأطهار، (أهل السنة والجماعة).

٣- تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سنن الله في الآفاق وفي الأنفس والمجتمعات.

وقد انتهجت في كتابي هذا منهجاً يختلف عن منهج صادق النيهوم في كتابه (تاريخنا) الذي اعتمد فيه منهج الفلسفة الملحدة، والعلمانية المشركة في تفسير التاريخ.

وكذلك يختلف منهجي عن منهج كاتب كتاب (الحوليات الليبية) الفرنسي (شارل فيروا) النصراني الحاقد.

وكذلك يختلف منهجي عن منهج كاتب (المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب) لأحمد محمد الأوسي الأنصاري الطرابلسي، رغم أنني استفدت من كتابه من الناحية التاريخية، وترتيب الأحداث.

ولا أزعم أني جئت بجديد في كتابي هذا، وإنما وفقني الله للجمع والترتيب، فإن كان خيراً فمن الله وحده، وإن أخطأت السبيل فأنا عنه راجع إن تبين لي ذلك والمجال مفتوح للنقد والرد والتعليق والتوجيه، كما وأنني أقرر بأنني قد استفدت كثيراً في كتابي هذا من كتاب (منهج كتابة التاريخ الإسلامي) للأستاذ : محمد بن صامل العلياني وكتاب (مدرسة الحديث في القيروان) للأستاذ : الحسين بن محمد شواط، وكتاب (قادة فتح المغرب العربي) للأستاذ محمود شيت خطاب وغيرها من الكتب والمذكرات الدراسية، وقد دونت ما اختصرته من مباحث وأشرت إليه في هامش الكتاب للأمانة العلمية.

خطة هذا الكتاب : حاولت في هذا الكتاب إعطاء أهمية بالغة بتعريف رجالات الفتح الإسلامي من الصحابة والتابعين، ورجالات الدعوة والعلم والفقه، كما وأنني عقدت فصولاً للدفاع عن الصحابة – رضوان الله عليهم – وبينت فضلهم ومكانتهم في الدين، وناقشت بعض الأفكار والمعتقدات التي حادت عن المنهج الصحيح بدون سبٍّ أو شتم أو طعن ولكن بمنهج أهل السنة والجماعة في الجرح والتعديل، وقد قسمت فكرة هذا العمل إلى عدة كتب :

الكتاب الأول : صفحات من تاريخ ليبيا الإسلامي والشمال الإفريقي من قبل الفتح الرسلامي إلى بداية الدولة الأموية.

الكتاب الثاني : عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

الكتاب الثالث : الدولة العبيدية (الفاطمية) الرافضية.

الكتاب الرابع :فقه التمكين عند دولة المرابطين.

الكتاب الخامس : دولة الموحدين.

الكتاب السادس : الدولة العثمانية.

الكتاب السابع : الحركة السنوسية.

وقد قسمت خطة بحث الكتاب الأول الذي بين أيدينا : إلى مقدمة، وخمسة أبواب وخاتمة وهي كالآتي :-

الباب الأول : قواعد في دراسة التاريخ .

الفصل الأول: مفهوم التاريخ وثمرة دراسته.

الفصل الثاني : أهمية المنهج في الدراسات التاريخية.

الفصل الثالث : قواعد في منهج كتابة التاريخ الإسلامي.

الفصل الرابع : قواعد في المصادر.

الفصل الخامس : نبذة عن بعض مشاهير مؤرخي المسلمين.

الباب الثاني : الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي.

الفصل الأول : سكانه.

الفصل الثاني : ديانته.

الباب الثالث : ليبيا قبل الفتح الإسلامي.

الفصل الأول : معالم ليبيا.

الفصل الثاني سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي.

الباب الرابع : الفتح الإسلامي لشمال إفريقية.

الفصل الأول : دواعي الفتح الإسلامي.

الفصل الثاني : بدايات الفتح المبارك.

الفصل الثالث : تثبيت دعائم الإسلام في المنطقة.

الفصل الرابع : معاوية بن حديج وأبرز معالم عهده.

الفصل الخامس : عقبة بن نافع قائد فتح المغرب العربي.

الفصل السادس : قادة فتح المغرب الأوسط والأقصى.

الباب الخامس : عهد الولاة.

الفصل الأول : كتاب يهدي وسيف يحمي.

الفصل الثاني : الصحابة الذين دخلوا ليبيا واستقروا في مدينة القيروان.

الخاتمة

وأخيراً أرجو من الله أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب، وأخص بالذكر الأخ الفاضل / عبد الحكيم الصادق الفيتوري الذي أشرف على تهذيب، ومراجعة، وطباعة الكتاب الأول.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا إنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المؤلف

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

علي محمد الصّلابي أول ذي الحجة ١٤١٦هـ

الباب الأول

قواعد في دراسة التاريخ

الفصل الأول

مفهوم التاريخ وثمرة دراسته

بادي ذي بدء لا بد من الوقوف والإلمام بمعنى كلمة التاريخ لغة، ودلالتها الاصطلاحية إذا ما أطلقت عند المؤرخين من السلف والخلف، لأن معرفة معاني هذه الكلمة لغةً واصطلاحاً يدخل دخولاً أوَّلياً في فهم هذا العلم الجم، علم التاريخ الذي يعتني بأحوال الأمم ودولهم، وتوثيق أخبارهم وانتشارهم ، وضبط تواريخ ولادتهم ووفياتهم.

مصطلح التاريخ ودلالاته :[١]

التاريخ لغة : هو الإعلام بالوقت والتاريخ، وهذا ما قاله الجوهري : (التاريخ تعريف الوقت والتَّوْريخ مثله يقال أرخت وورخت)[٢].

وقد فرق الأصمعي بين اللغتين فقال : (بنو تميم يقولون : ورخت الكتاب توريخاً وقيس تقول : أرخته تأريخاً)[٣]. وهذا القول من الأصمعي يؤكد أن لفظة التاريخ عربية أصلية وليست معربة عن الفارسية كما ذهب إلى ذلك بعضهم[٤] وقيل

(١) اعلم أيها القارىء أن جل هذا الباب مختصر من كتاب منهج كتابه التاريخ الإسلامي للأستاذ / العلياني.

(٢) الجوهري، الصحاح مادة : أرخ :١/٤١٨.

(٣) الإعلان بالتبويخ، للسخاوي :٦.

(٤) المرجع السابق : ٦.

إن أصل كلمة تاريخ سرياني[1] ومعناه الشهر.

وأما تعريف التاريخ في الاصطلاح : فقد اختلفت عبارات علماء المسلمين في تحديد تعريف له ولعل ذلك راجع إلى سعة الموضوعات التي تدخل في مفهوم التاريخ، ومن الملاحظ أن المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية لم يدونوا تعريفاً كاملاً محدداً لعلم التاريخ وإنما كانوا يكتفون بذكر فوائده وأغراضه، ومن المعلوم أن العلم قد يعرف ببعض أنواعه أو أمثلته أو بذكر غايته، وهذا ما نص عليه الأستاذ خليفة ابن خياط بقوله: (هذا كتاب التاريخ، وبالتاريخ عرفَ الناسُ أمرَ حجهم وصومهم وانقضاء عِدَدِ نسائهم ومحل ديونهم)[2]. وقال قريباً من ذلك الإمام الطبري في مقدمة تاريخه[3].

وكذلك حاول العلامة ابن خلدون، المتوفى سنة ٨٠٨هـ، أن يصيغ تعريفاً محدداً لعلم التاريخ في مقدمته فقال : (إن التاريخ في ظاهره لا يزيد عن أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخلافة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق)[4].

لقد نظر ابن خلدون إلى علل الحوادث وأسبابها وحاول اكتشاف السنن التي

---

(١) علم التاريخ عند العرب، لعبد الحميد العبادي: ٣٤.

(٢) تاريخ خليفة بن خياط ص٤٩ .

(٣) تاريخ الطبري: ١/٤-٥.

(٤) مقدمة ابن خلدون: ٣-٤.

تنتظمها، وأكد على بدايات الحوادث وقيام الدول وتعليل سقوطها، أما المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ، فقد عرف التاريخ ببيان موضوعه بقوله : (الإخبار عما حدث في العالم في الزمان الماضي)[١].

كما عَرَّفَه محمد بن سليمان الكافيجي[٢] المتوفى سنة ٨٧٩هـ بقوله :(هو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته)[٣].

كما عرف المؤرخ الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي التاريخ بقوله : (هو التعرف بالوقت الذي تضبط به الأحوال من مولد الرواة والأئمة ووفاة، وصحة، وعقل، وبدن، ورحلة، وحج، وحفظ، وضبط، وتوثيق وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملمة، وتجديد فرض وخليفة، ووزير وغزوة وملحمة، وحرب وفتح بلد، وبما يتوسع فيه لبدء الخلق وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم وأحوال القيامة ومقدماتها)[٤] الى أن قال : (والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان في العلم)[٥]. وقال في موضع آخر : (أما موضوعه فالإنسان والزمان)[٦].

فلا يخفى أن تعريف السخاوي لا يعد كثيراً عن تعريف الكافيجي، إلا أن السخاوي ركز على مفهوم التاريخ عند علماء الحديث خاصة فقال : (علم أحوال الرجال) وضبط تواريخ ولادتهم، ووفياتهم.

---

(١) انظر إلي علم التاريخ عند المسلمين، لفرانز روزنثال :٢٦.
(٢) انظر الأعلام للزركلي : ٦/١٥٠.
(٣) المختصر في علم التاريخ، للكتاني محمد جعفر : ٣٢٧.
(٤) الإعلان بالتبويخ لمن ذم التاريخ، لحسام القدسي : ٧.
(٥ – ٦) المرجع السابق: ٧.

فهذا الذي سبق – كما مر معنا – هو خلاصة التعريفات بعلم التاريخ عن السلف والتي فحواها الاعتناء بأحوال الأمم ودولهم ، وتوثيق أخبارهم وانتشارهم، وضبط تواريخ ولادتهم ووفياتهم، أما في العصر الحديث فقد أضاف علماء التاريخ المعاصرين ومن لهم ارتباط وثيق بعلم التاريخ واختصاصه.

فقد عرف الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – التاريخ وغايته بقوله :(التاريخ ليس هو الحوادث إنما هو تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزيئات ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمن والمكان)[1].

ويظهر أن الأستاذ سيد – رحمه الله – قد ركز على اللب والغاية من دراسة التاريخ، وتدوين أخباره، وإلا فالحوادث والأخبار مهمة ولا شك في ذلك، بل هي لبنات البناء التي لا يقوم هذا العلم بدونها، وتعريف الأستاذ سيد قريب جداً من تعريف العلامة ابن خلدون، لكن يبدو أن تعريف العلامة ابن خلدون أشمل حيث نص على الاعتناء بالأخبار وتحقيقها، كما أكد على النظر في العلل والأسباب، إلا أنه ينحى في تعريفه منحىً فلسفياً بعيداً عن روح النصوص والآثار، في حين أن الأستاذ سيد قطب كان واضحاً في إدراك غاية التاريخ حسب المنظور الإسلامي.

فالحاصل بما تقدم من تعريفات أن التاريخ علم نظري إنساني يبحث فيه عن حوادث الزمان من حيث التعيين والتوقيت والتفسير والتعليل.

أهداف دراسة التاريخ وثمراته :

بادي ذي بدء يجب أن نعلم أن التاريخ فرع من فروع العلم، وقد اعتبره العلماء الذين كتبوا فيه من العلوم التي تخدم الشريعة الإسلامية سواءً أكان من الناحية

---

(١) في التاريخ فكرة ومنهاج، لسيد قطب : ٣٧.

التفسيرية للنصوص، أو معرفة أحوال الرواة، أو توثيق سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، وأئمة الدين بعدهم من تابعين ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين[١].

ويقرر هذه الحقيقة وينص عليها الإمام المحدث ابن عبد البر النمري[٢] – رحمه الله بقوله : (ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤيدين للدين عن نبيهم صلى الله عليه وسلم ويعني بسيرهم وفضائلهم ويعرف أحوال الناقلين عنهم وأيامهم وأخبارهم حتى يقف على العدول منهم من غير العدول)[٣].

كما لا يخفى أن التاريخ قد نشأ ضمن العلوم الشرعية وعلى أيدي رجال الحديث وصلته بالشريعة وخدمته لها كانت واضحة جلية سواء في ميدان التربية والسلوك، أو في ميدان علم الرجال والجرح والتعديل[٤]، ولهذا استعمل السلف الصالح في دحض حجج الكذابيين الوضاعين للأحاديث علم التاريخ.

فقد جاء عنهم : (لم يستعن على الكذابين بمثل التاريخ)[٥] ونص على ذلك الإمام سفيان الثوري – رحمه الله – فقال : (لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ)[٦].

ولذلك اعتنى كبار المحدثين أمثال الإمام البخاري، ومسلم، وأحمد بن حنبل، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والترمذي، بجوانب من علم التاريخ وصنفوا كتباً كثيرة في

---

(١) انظر الخوارزمي في كتابه مفاتيح العلوم : ٤،٥ حيث جعل علم الأخبار من العلوم المحلقة بعلوم الشريعة.
(٢) هو الأمام يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي أبو عمر، ولد سنة ٣٦٨هـ وساد أهل زمانه في الحفظ والإتقان، له كتب كثيرة، منها : التمهيد، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، وجامع بيان العلم وفضله، وغيرها. كانت وفاته بمدينة شاطبة بالأندلس سنة : ٤٦٣هـ (انظر تذكره الحفاظ : ١١٢٨/٣).
(٣) جامع بيان العلوم وفضله : ٤٦٦.
(٤) أثر الحديث في نشأة التاريخ عند المسلمين، للدكتور : بشار عواد.
(٥،٦) الإعلان بالتوبيخ : ٩.

ذلك، معروفة عند طلبة العلم الشرعي، فإذا كان علم التاريخ بهذه المنزلة المرموقة، ويحتل الحيز الكبير من عناية علماء الحديث والأثر، فينبغي إذاً على دارس التاريخ أن يتحرى الإفادة منه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وفق المنهج السليم لدراسة التاريخ الإسلامي المقرر عن أهل العلم.

المبحث الأول : فوائد دراسة التاريخ

لا ريب أن علم التاريخ يشغل حيزاً لا بأس به في نفوس أهل العلم والمكتبة الإسلامية – كما مر معنا –، فطالما أن علم التاريخ بهذه المنزلة والمكانة فإنه لا يخفى على دارسه بأن له فوائد جمة، وثمار حسان، كما قال الإمام ابن الأثير – رحمه الله – في تاريخه : (ومن رزقه الله طبعاً سليماً، وهداه صراطاً مستقيماً علم أن فوائدها كثيرة ومنافعها الدينوية والأخروية جمة غزيرة)[١].

ولقد ازدادت أهمية الاعتناء بعلم التاريخ في الحقبة الأخيرة من عصرنا الحاضر، حتى وصلت أهمية هذا العلم عند أهل زماننا أن استخدم كأداة لتوجيه الشعوب وتربيتها كما يريد القادة والساسة،بل استعان بهذا العلم أصحاب المذاهب الفكرية الهدامة في فلسفة مذاهبهم المادية وتدعيمها حتى أصبح هذا العلم عند الأوروبيين في مكانة سامية لا يعلوها علم آخر، لذلك أصبحت نظرتهم للتاريخ نظرة تقديس وإجلال؛ لأنه يفسر لهم الوجود وتعليل النشأة الإنسانية والطبيعية ! !

فإذا كان ذلك كذلك عند الغربيين، ففي حق المسلم الذي يطلب العلم لخدمة دينه وعقيدته وشريعته أوجب وأحق، لذلك فعلى المسلم الصادق مع ربه، المخلص لدينه ودعوته، المتبع لنبيه ﷺ أن يعتني بدراسة التاريخ دراسة تخدم دينه، وتنشر دعوته،

---

(١) الكامل في التاريخ : لأ بن الأثير : ٦/١.

وتربط أمته الحاضرة بسلفها الصالح، لا أن يأخذه مجرد معلومات، وحكايات، وأخبار لا تسمن ولا تغني من جوع، مجرد إشباع لرغباته وغريزته النفسية كلا ! إن دراسة التاريخ بوجه عام، وتاريخ الأمة المسلمة على وجه الخصوص لا ينبغي أن يكتفى في دراسته بتحقيق الرغبات والحاجات الدونية، بل من أجل الوصول إلى القمة العلية العلية، ألا وهي إحياء الأمة المسلمة بكتاب الله - عز وجل - وسنة رسوله ﷺ ومعرفة كيفية التعامل مع سنن النهوض والصعود بالأمم، واجتناب سنن السقوط والهبوط في الأمم، ولهذا قال تعالى حاثاً عباده على النظر في تاريخ الأمم : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض**﴾ [غافر : ٨].

فإذا تقرر ذلك صح القول : بأن لدراسة التاريخ ثمرات، وفوائد جلية ومتعددة، يجدها دارس التاريخ خلال دراسته للتاريخ، فمن هذه الثمرات والفوائد التي يجب أن يقف عليها ويتأملها دارس التاريخ، نذكر منها الآتي :

المطلب الأول : الفوائد التربوية

لقد تقرر في محكمات الشريعة أن الله - عز وجل - قد خلق الخلق لعبادته وحده سبحانه، وأناط بالمسلم في هذه الحياة وظيفة تحقيق حقيقة العبادة له سبحانه بمفهومها الكامل الشامل لكافة جوانب الحياة، ووجه النشاط البشري، بأن يحقق كمال الخضوع والمحبة له سبحانه وتعالى، وقد شرع له - سبحانه - لتحقيق هذه الغاية عدة وسائل تربوية، فمن تلك الوسائل دراسة تاريخ الأمم، والنظر في أحوالهم، واقتباس العبر والعظات من حالهم ومآلهم كما أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بركب النبيين الأطهار -عليهم الصلاة والسلام- فقال تعالى : ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ [الأنعام : ٩٠] وكذلك أمر المؤمنين بذلك فقال

تعالى : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً**﴾ [الأحزاب : ٢١] ذلك بأن الاقتداء بالنبيين والصالحين والشهداء والعلماء العاملين والدعاة المخلصين، في صبرهم، وجهادهم، وتحملهم المشاق في سبيل نصرة العقيدة الصحيحة، وإقامة الدين القويم لهو عامل أساسي من عوامل التربية الإسلامية الراشدة، بل أمرنا – سبحانه – بالنظر والتدبر في أحوال ومآلات الأمم السالفة الكافرة منها والمؤمنة على حد سواء، فقال – جل شأنه – : ﴿**أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها**﴾ [محمد : ١٠] ولذلك يجب على المسلمين في هذا العصر الاعتناء بدراسة التاريخ الإسلامي وبالأخص السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين، والفتوحات الإسلامية، وسير العلماء والمجاهدين من سلفنا الصالح، وعرض هذه الصور على الأمة المعاصرة في صورة حية متمثلة في سلوك وأخلاق القادة، والعلماء، والمجاهدين من أبناء الحركات الإسلامية المعاصرة؛ لأن ذلك يبعث في الأمة روح التدين والالتزام، والزهد في الدنيا الفانية، والرغبة في الحياة الباقية، وحب التضحية والجهاد في سبيل الدين العظيم ابتغاء مرضاة رب العالمين.

فإذا ما أحسن عرض التاريخ الإسلامي في أحسن صوره، فإنه يكون من أنفع الوسائل التربوية في مجال إحياء الأمم وتربيتها بالأحداث والسلوك، لأن التربية بالأحداث والسلوك من أهم وسائل التربية القرآنية، لذلك نجد أن القرآن الكريم عنى بهذا النمط من التربية في مواضع كثيرة جداً، كما جاء في عقب غزوة أحد في آخر سورة آل عمران من قوله تعالى : ﴿**وإذ غدوت من أهلك تُبَوِّئُ المؤمنين مقاعد للقتال، والله سميع عليم . .**﴾ الآية ١٢١ إلى الآية ١٨٠، وكذلك وردت في السنة المطهرة والسيرة النبوية تقريراً لمبدأ التربية بالأحداث والسلوك، شواهد كثيرة جداً في ذلك.

يقول الدكتور محمد أمين المصري – رحمه الله – بهذا الصدد : (لدراسة

التاريخ قيمة تربوية من حيث تأثيرها في عقل الدارس وإكسابه عادات خاصة في التفكير فتنشأ لديه العادة التاريخية في تناول الحقائق، والأسلوب التاريخي في التفكير فيها، لأن التاريخ طريقة بحث تقوم على النقد والمقابلة والتحقق ووزن قيم الأدلة وربط السبب بالنتيجة مع التعليل للحوادث وإرجاعها إلى دوافعها)[1].

المطلب الثاني : إدراك السنن الربانية

لقد تقرر فيما سبق أن للتاريخ فوائد تربوية جمة ذكرنا منها التربية بالأحداث، والسلوك، والاقتداء، والآن نتأمل في فوائد دراسة التاريخ ألا وهي التعرف على السنن الربانية وإدراكها في هذا الكون، الكتاب المنظور والمقروء، فمطالعة التاريخ بتدبر تساعد على اكتشاف هذه السنن الربانية، ومعرفتها وكيفية استمطارها وجلبها، أو صرفها، وبهذه الروح وهذه النفسية في قراءة التاريخ نستطيع أن نحقق الغرض المطلوب منا شرعاً في امتثال أمر الله – سبحانه وتعالى – الذي قد أرشدنا إلى التدبر والتفكير والتأمل في سننه الكونية والبشرية، الخارقة والجارية منها، وكيفية التعامل معها في كل الحالات، فقد جاء في محكم التنزيل قوله تعالى آمراً عباده بالنظر في سنن من قبلهم فقال : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم**﴾ [غافر٨٢]، وقال جَلَّ وعلا : ﴿**فهل ينظرون إلا سُنَّة الأولين فلن تجد لسنّة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً**﴾ [فاطر٤٣] وقال تبارك وتعالى :﴿**سُنَّةَ اللهِ التي قد خلت في عباده، وخسر هنالك الكافرون**﴾ [غافر: ٨٥].

وبعد ذلك فلا شك أن من قرأ التاريخ بهذه العقلية الواعية، فإنه يجده قد حوى بين دفتيه من الحوادث، والأخبار ، والسنن المتشابهات، والمواقف المتماثلات، ما يدفعه

---

(١) لمحات في التربية، للدكتور محمد أمين المصري : ٢٢٨

إلى كشف سنن الله في خلقه سواء منها الجارية والخارقة، وبذلك يستطيع أن يسعى للحصول على سنن التمكين ، والابتعاد عن سنن التدمير، واقتفاء سنن الصالحين والمجاهدين ، واجتناب سنن المجرمين المفسدين ، كما هو مقرر– بأن التاريخ يعيد نفسه، فمن عرف سنن الله في خلقه والتزمها زادته صلابة وقوة في المواقف التي ترضي الرب تبارك وتعالى، بخلاف من يجخهلها ، لأن من يجهل مصدر الأحداث وسنن الله – عز وجل – فإنه يكون في حيرة وخوف وقلق لا يعلمه إلا الله ! !

ولكن لا يغيب عنا ونحن بصدد الحديث عن السنن الربانية ، بأنها تنقسم إلى نوعين : نوع يسمى بالسنن الخارقة ، والنوع الثاني يسمى بالسنن الجارية ، وسوف نتناول كلاً منهما بشئ من التفصيل .

النوع الأول : السنن الخارقة :

ويقصد بها التي يجربها الله – سبحانه وتعالى – على خلاف مألوف الناس على يد رسول من رسله تأييداً له في دعوته ضد قومه المستنكرين والمستنكفين عن دعوة الحق سبحانه ، أو تكريماً له وتثبتاً ، كما فعل تبارك وتعالى حين جعل عصا موسى – عليه السلام – حية تسعى ، فقال : ﴿ **قال ألقها يا موسى ! فألقاها فإذا هي حية تسعى**﴾ [طه : ١٩، ٢٠].

أو كما أمر موسى بضرب الصخرة فإذا هي عين جارية ! ! قال تعالى : ﴿**وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً**﴾[البقرة : ٦٠]، وكذلك ما حدث على يدي نبينا محمد ﷺ – وأنزل القرآن الكريم ، وبذلك يتقرر بأن السنن الخارقة هي التي تكون غير مألوفة عند الناس ، وتكون خارجة عن مقدور البشر أن يأتوا بمثلها.

النوع الثاني : السنن الجارية :

وهي تنقسم إلى قسمين : قسم متعلق بالأمور الطبيعية الكونية ، وقسم متعلق بالأمور الشرعية، فالقسم المتعلق بالأمور الكونية الطبيعية يقصد بها سنن الله في تعاقب الليل والنهار وجريان الشمس والقمر في فلك واحد وفق ناموس محدد قدّره الله لها تقديراً، قال تعالى ﴿**لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**﴾ [يس : ٤٠]. أما القسم المتعلق بالأمور الشرعية ، فيقصد بها أوامر الله ونواهيه، ووعده ووعيده، وهي ثابتة لا تبدل، ومطردة غير مقيدة، كسنته في نصر أوليائه، وإهانته لأعدائه، كما لا يخفى أن الله سبحانه وتعالى إذا حكم في الأمور المتمثلة بحكم ما، فإن ذلك لا ينقض ولا يتبدل ولا يتحول، فهو – سبحانه وتعالى – لا يفرق بين المتماثلين، ولا يجمع بين المختلفين، كما قال تعالى : ﴿**أفنجعل المسلمين كالمجرمين**﴾ [القلم :٣٥].

يقول ابن تيمية – رحمه الله – بهذا الصدد : ﴿**ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولولا القياس واطراد فعله، وسنته، لم يصح الاعتبار بها، لأن الاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره كالأمثال المضروبة في القرآن**﴾[1].

ولكن هذه السنن الربانية بجميع أقسامها، إنما تدرك وتعرف من خلال النظر في التاريخ ومتابعة أخبار الأمم ومصائرهم، وكيفية قيام حضارتهم وسقوطها ؟ والتمعن في أسباب ذلك كله، لذلك على المسلم الواعي أن يكثر من مطالعه كتب التاريخ قراءة واعية لإدراك تلك السنن واستخلاص العبر والأمثال منها، وتأطيرها على هيئة كليات تشمل على عدد من الجزيئات، ومن ثمة ربطها بالواقع المعاصر، لتكون نبراساً

١) جامع الرسائل، لابن تيمية : ٥٥

يستضيء به السالكون في مدارج المجاهدين والمربين، وهكذا يجد القارئ المسلم السنن الربانية التي ذكرت في القرآن، يجدها سنناً كلية تضم في طياتها عدداً كبيراً من الجزيئات تغطي حوادث واقعية غير منصوص عليها، وهذه الكليات حية فاعلة مطردة ثابتة كثبات الجبال الراسيات على الأرض، لا تقبل التغيير، ولا النسخ، ولا النقصان ،إنها سنن الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً ! !

وفي ذلك ينص الدكتور عماد الدين خليل بقوله: (والسنن الربانية تجيء في القرآن غير محددة لكي تشمل أكبر قدر من الواقع، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزيئات)[1].

ويقول أيضاً : (كما أن معرفة السنن الربانية تفرض على الجماعة الواعية المدركة والملتزمة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار والهلاك، وأن تحسن التعامل مع تلك السنن ومع قوى الكون مستمدة ذلك من منهج الله الذي سار عليه أنبياؤه ورسله)[2].

كما لا يخفى على دارس التاريخ أن السنن الربانية قد تستغرق وقتاً طويلاً لكي ترى متحققة، رأي العين، في حين أن عمر الفرد محدود، ولذلك لا يمكنه رؤية السنن متحققة بل قد يرى الإنسان جانباً من السنن الربانية، ثم لا تتحقق نهايتها في حياته مما يحول بينه وبين عدم إدراك السنن أو التكذيب بها، وهنا يكون دور التاريخ في معرفة أن السنن الربانية لا بد أن تقع ولو طال الزمان، ولكن لما كان عمرها أطول من عمر الفرد، بل ربما أطول من أعمار أجيال فإنها ترى متحققة من خلال التاريخ الذي يثبت أن سنن الله ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، كما قال تعالى : ﴿**سنة مَنْ قد أرسلنا قبلَكَ من رسلنا، ولا تجد لسنتنا تحويلاً**﴾ [الإسراء: ٧٧].

---

(١) تفسير التاريخ، للدكتور/ عماد الدين خليل : ١٠٩

(٢) المرجع السابق : ١٠٩.

لذلك ومن خلال دراسة التاريخ دراسة واعية يجب أن يعلم القارئ أن حاضره الذي يعيشه إذا كان فيه ما يتصور أنه مخالف لسنن الله أنه غير مستثنى من السنة الربانية، بل هو جزء منها، ولكن للسنة الربانية أجل ووقت، وكل شيء خلقناه بقدر، فالله – سبحانه – قد يؤخر السنة ليبتلي المسلم؛ ليعظم له أجره، ويمد الكافر في غيِّه ليأخذه أخذ عزيز مقتدر، قال تعالى : **﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكّناهم في الأرض مالم نمكّن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قَرناً آخرين﴾** [الأنعام : ٦].

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – في تفسير لهذه الآية الكريمة : (هناك حقيقة ينساها البشر حين يمكِّن الله لهم في الأرض، ينسون أن هذا التمكين إنما تم بمشيئة الله ليبلوهم فيه، أيقومون عليه بعهده وشرطه، من العبوديه له وحده، والتلقي منه وحده أم يجعلون من من أنفسهم طواغيت تدعي حقوق الإلهية وخصائصها، إنها حقيقة ينساها البشر فينحرفون عن عهد الله ويمضون على غير سنة الله، ولا يتبين لهم في أول الطريق عواقب هذا الانحراف، ويقع الفساد رويداً، وهم ينزلقون ولا يشعرون حتى يستوفي الكتاب أجله، ويحق وعد الله، ثم تختلف أشكال الأخذ والنهاية!! فمرة يأخذهم بعذاب الاستئصال، ومرة بعذاب من فوقهم أومن تحت أرجلهم كما وقع لكثير من الأقوام، ومرة بالسنين ونقص الأنفس والثمرات كما حدث لأقوام آخرين، ومرة يذيق بعضهم بأس بعض، فيعذب بعضهم بعضاً، ويدمر بعضهم بعضاً، ويسلط الله عليهم عباداً له – طائعين أوعصاة – دورة السنّة، فالسعيد من رعاها والشقي من غفل عنها، وإنه لمما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغي، أو الملحد الكافر ممكناً له في الأرض غير مأخوذ من الله، ولكن الناس إنما يستعجلون أنهم يرون أول الطريق أو وسطه ولا يرون نهاية الطريق، لأن السنة تستغرق وقتاً طويلاً لكنها تلاحظ من خلال التاريخ)[1].

---

(١) في ظلال القرآن : ١٠٣٨/٢.

وهذا الذي استنبطه الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – من هذه الآيات الكريمة فقد جاء مصرحاً به ومنصوصاً عليه في قوله تعالى : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون**﴾ [الأنعام : ٤٤] فقد فتح الله عليهم أبواب كل شيء عندما نسوا ما ذكروا به من أوامر الله ونواهيه، فلما فرحوا بهذا الفتح وهذا الرزق أخذهم الله بغتة، فإذا درّ الرزق عليهم كان باب الاستدراج كما قال تعالى : ﴿**فمهل الكافرين أمهلهم رويداً**﴾ [الطارق :٧] وكما جاء في حديث أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – قال ﷺ : «إن الله عزّ وجَلَّ يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته» ، ثم قرأ : ﴿**وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد**﴾ [هود : ١٠٢][1].

فلا شك أن هذه الأبواب التي تفتح على الكافرين هي من تمام عدل الله الذي يقضي بأن يعطي كل عامل جزاء عمله ﴿**من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد**﴾ [الإسراء : ١٨] فإنهم لما عرفوا القوانين المادية للتقدم فتح لهم ونالوا ثمرة جهدهم ذلك في الحياة الدنيا، مع أن هذا الفتح وهذا الرخاء لن يكون مثل فتح الله على المؤمنين ورخائه عليهم، وطمأنينة قلوبهم إليه، بل هو رخاء موبوء كله آفات، واختلاط في كل شيء، فساد اجتماعي، وانحدار خلقي، ومعيشة ضنك، وإهدار لكرامة الإنسان وقيمته المعنوية في مقابل المادة التي لا تغني ولا تسمن من جوع !! ولو تأمل المسلم وعاين بنظرة فاحصة في أحوال مَنْ حوله مِن المجتمعات الجاهلية في عالمنا المعاصر، لرأى رأي العين تلك الحياة التي يعيشها هذا العالم الشارد عن منهج الله السوي، حياة الضنك، ومعيشة النكد، وطبيعة الغاب رغم تقدمهم المادي كما يزعمون!! ولكنها الجاهلية أينما كانت وحيثما كانت، إنه الشرود عن منهج الله سبحانه!! إنها سنن الله في الكون التي لا تحابي أحداً من خلقه، ولن تجد لسنة الله

---

(١) متفق عليه لمسلم : انظر صحيح البخاري : (٤٦٨٦)، ومسلم ٤/١٩٩٧ رقم ٢٥٨٣ .

تبديلاً ولا تحويلاً!!

كما لا يخفى أن ثبات السنن الربانية يقابله ثبات في طبيعة الإنسان وخلقه، فالحوافز الإنسانية لم تتغير منذ أن خلق الله آدم عليه السلام، كما أن دوافع الإنسان الفطرية - وهي منطلق نشاطه - لم تزل قائمة كما كانت في الماضي، وما أصلح البشر في الماضي هو الذي يصلحهم في الحاضر، ونورد فيما يلي بعض السنن الربانية على سبيل المثال لا الحصر :

١- سنة سوء عاقبة المكذبين :

لقد تقرر في محكمات نصوص القرآن بأن الذين يكذبون بآيات الله ورسوله ويظلمون الناس بغير حق، ويسعون في الأرض فساداً، وعدهم الله بسوء العاقبة. قال تعالى : ﴿**وقومَ نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آيةً، وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً، وعاداً وثموداْ،وأصحاب الرسِّ، وقروناً بين ذلك كثيراً، وكلاً ضربنا له الأمثال، وكلاً تبَّرنا تتبيراً**﴾ [الفرقان : ٣٧ - ٣٩]. فما جرى من تحقيق هذه السنة في الماضي في أولئك المكذبين، سيجري مثله في الحاضر والمستقبل القريب لكل من أعرض عن ذكر الله وشرعه، ومن فضل الله - سبحانه وتعالى - على الناس وعدله فيهم أن يبقي نعمته المادية والمعنوية عليهم كالأمن ، والاستقرار ، والرزق الوفير، والصحة، وما إلى ذلك إذا هم عصوا وجحدوا وبدلوا نعمة الله كفراً وتكذيباً، قال تعالى : ﴿**وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد**﴾ [إبراهيم : ٧] وقال جل شأنه : ﴿**ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم**﴾ [الأنفال :٥٣].

٢- سنة إناطة التغيير البشري :

وتعتبر هذه من سنن الله - سبحانه - الخالدة التي ناط بالبشرية مسؤولية رقيهم

وانحطاطهم، ومسؤولية اتباعهم للخير أوالشر، حيث إنهم قد منحوا قدراً من الحرية والاختيار، ومع ذلك القدر من الحرية بعث إليهم المولى - عز وجل - الرسل التي جاءتهم بالهداية الربانية التي فيها خير الدنيا والآخرة لمن اتبع المرسلين، قال تعالى : **﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾** [طه : ١٢٣] فإذا وجدت أسباب الهداية فإن النتائج تتبعها كما قال تعالى : **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** [الرعد : ١١] لذلك فإن التغيير يبدأ من النفس سواءً بالارتقاء إلى أعلى، أو بالانتكاس والهبوط إلى أسفل، فهي تعتبر النقط الأساسية في تغيير النفس البشرية من الشر إلى الخير أو العكس، والبشر في كلتا الحالتين هم المسؤولون مباشرة عن إصلاح أنفسهم كما قال تعالى : **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** [الرعد : ١١] لذا يجب مراعاة هذه السنة الربانية في تغيير النفس البشرية، والمجتمعات الإنسانية، ومن تأمل في هذه الآية الكريمة التي قررت هذه السنة الربانية يجدها قد رتبت حدوث التغيير على مراحل، فقد جعلت حدوث التغيير من الله - سبحانه - مترتب على حدوثه من النفس البشرية سواء بالسلب أو الإيجاب، وهذا الترتيب يضع البشريه أمام مَفْرِق الطريق، ويربط في أعناقهم مسؤولية عدم إحداث التغيير في النفس البشرية، والمجتمعات الإنسانية وفق منهج الله القويم، قال تعالى : **﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾** وهذه السنة لا يمكن إدراكها إدراكاً صحيحاً وكلياً إلا باتباع المنهج الرباني الذي يربط بين السنن والأحداث التاريخية، ويحدد العلاقة السليمة بينهما، حيث إن اتباع المنهج الرباني يعطى خير السنن، ويصرف الصوارف قال تعالى : **﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** [البقرة : ٣٨].

٣- سنة الأيام سجال بين الناس :

فمن رحمة الله - سبحانه - أن جعل مداولة الأيام سجال بين الناس من شدة ورخاء، وقوة وضعف، وعز وذل، وصحة وسقم، وغنى وفقر، امتحاناً لهم حتى يعلم

منهم – وهو أعلم بما يفعلون – الشاكرين من الجاحدين، والصابرين من الجازعين، والمجاهدين من القاعدين والمنفقين من الممسكين قال تعالى : ﴿**إِن يمسسكم قَرْحٌ فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيامُ نداولها بين الناس، وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداءَ، والله لا يحب الظالمين**﴾ [آل عمران : ١٤٠].

٤– سنة زوال الأمم بالعلو والطغيان :

قال تعالى : ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إِرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد وثمود الذين جابوا الصخر في الواد وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، فصب عليهم ربك سوط عذاب، إِن ربك لبالمرصاد**﴾ [الفجر : ٦ – ١٤].

فتأمل في هذه الآيات الكريمة التي تقرر سنة من سنن الله الربانية التي لا تحابي أحداً من خلقه،إِنها سنة زوال الأمم بالترف والفساد، زوال الأمم بالتجبر والطغيان، زوال الأمم بالبطر والكبرياء!! قال تعالى : ﴿**وإِذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً**﴾ [الإسراء : ١٦] أي أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات واجتناب المعاصي، فعصوا وفسقوا وحققوا أسباب الزوال والانهيار، فحقَّت عليهم سنة الأخذ والزوال، والتدمير والتنكيل،جزاء فسقهم وعصيانهم ﴿**فحق عليها القول فدمرناها تدميراً**﴾!!

٥– سنة هلاك الأمم بالظلم والإِجحاف :

قال تعالى : ﴿**وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ،وأنشأنا بعدها قوماً آخرين**﴾ [الأنبياء : ١١] فإِذا ما فشى الظلم وعدم إِقامة العدل في أمة من الأمم، فقد تحققت فيهم أسباب الهلاك، وحقت عليهم سنة الله بالهلاك ، ووقعت عليهم القاصمة، لأن الله سبحانه وتعالى قد حرم الظلم على نفسه، وجعله بين العباد محرماً كما في الحديث

القدسي : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[1].

فإذا اختلت الموازين، وانعدمت القيم، وتحكّم الأقوياء في رقاب الضعفاء، وقسم المجتمع إلى طبقات سادة وعبيد، وتلاعب السادة بحدود الله وأوامره فقد حقت عليهم سنة الله التي لا تحابي أحداً من خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ولا تحويلاً ! ! جاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ : «إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد!! وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[2].

٦- سنة لكل أمة أجل :

لا يخفى أن لله سنن ربانية تقرر بأن انهيار الأمم وزوالها لا يكون إلا بأجل مقدر، وهذه السنة في نفس المؤمن مقررة لا خفاء فيها ولا شك، ولكن ضعيف الإيمان الذي يرى موجبات سنة الله في أمة من الأمم، ثم رغم ذلك لا يرى زوال تلك الأمة ! ربما شك في هذه السنة، لذلك فقد جاء في الكتاب العزيز الرد على ما يختلج في النفس الضعيفة من تساؤلات حيال هذه السنة الربانية، فقال تعالى : ﴿**ولكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم، لا يستقدمون ساعة، ولا يستأخرون**﴾ [الأعراف : ٣٤] وقال أيضاً : ﴿**وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، ما تسبق من أمة أجلها، وما يستأخرون**﴾ [الحجر : ٤ - ٥] وهذا ما قررناه وأوضحناه في أول البحث ، من أن سنة الله - سبحانه - لا تتخلف ولكن عمرها أطول من عمر الأفراد، ولا تقع إلا بأجل محدود لا بد من استيفائه كما نص على ذلك القرآن الكريم : ﴿ولكل أمة أجل﴾ .

---

(١) صحيح مسلم : ٤/١٩٩٦، حديث رقم : ٢٥٧٧.
(٢) صحيح البخاري : (٣٤٧٥)، ومسلم : ٣/٣١٥ (١٦٨٨).

٧- سنة نصر الله للمؤمنين :

لقد قفت حكمة الله - سبحانه - وسنته الجارية على استحقاق المؤمنين لنصره، إذا أتوا بشروط هذه السنة، ومن هذه الشروط :

آ- الاستقامة على منهج الله : قال تعالى : **﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً﴾** [الجن : ١٦].

ب- عدم الاشراك به - سبحانه - قال تعالى : **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾** [النور : ٥٥].

جـ- ذكر الله كثيراً قال تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبوا، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون﴾** [الأنفال : ٤٥].

وبعد فإذا ما حقق المؤمنون شروط هذه السنة، فإن نصر الله لهم قريب، كما قال تعالى : **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد﴾** [غافر : ٥١]. وقال : **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾** [محمد : ٧]. وقال : **﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾** [الروم : ٤٧].

٨- سنة إبتلاء المؤمنين :

لقد جاء في محكم التنزيل نصوص محكمة تقرر هذه السنة الثابتة، كقوله تعالي : **﴿أم حسبتم أن تدخلو الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم؟!! مستهم البأساء، والضراء، وزلزلوا، حتى يقول الرسول، والذين آمنوا معه : متى نصر الله؟!! ألاإن نصر اللهّ قريب﴾** [البقرة : ٢١٤] وكذلك جاءت نصوص السنة النبوية الصحيحة تقرر ذلك، فعندما سئل ﷺ : «أي الناس أشد بلاء؟ فقال: الأنبياء؛ ثم

الأمثل فالأمثل؛ يبتلي الرجل على حسب دينه؛ فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ماعليه خطيئه»[1].

وهكذا جرت سنه الله في تمحيص المؤمنين وصقلهم وإعدادهم لينالوا بصبرهم وثباتهم المنزلة العاليه عند الله – سبحانه – وليرفع درجاتهم بما يصيبهم من الأذى، وبما يحصل لهم من الشهادة في سبيل الله ، قال تعالى : ﴿**إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين**﴾ [آل عمران : ١٤٠، ١٤١]. وفي هذه الآيات وسبب نزولها فوائد جمة، ومبادئ قيمة، ودروس هامة للجماعة المسلمة، نذكر منها : تربيتهم على الثبات في المحن، واتخاذ الشهداء منهم، وتمحيص الأنفس واختبارها، وتعريفها بسرائرها، وبواطن أحولها، لذلك فإن الابتلاء للمؤمن سنة من سنن الأنبياء، والصالحين، والصادقين، والشهداء، فما من نبي إلا وقد أوذي وحورب، فمنهم من قتل، ومنهم من ألقي في النار، ومنهم من أخرج من أرضه وعشيرته، وكذلك أتباعهم نالهم من الأذى والقتل والتشريد صنوفٌ عديدة، فلمانجحوا وتجاوزوا هذا الابتلاء الرباني، وثبتوا على الحق المبين؛ حينئذ تنزّل عليهم نصر الله – سبحانه – وأبدلهم بعد خوفهم أمنا، ومكّن لهم في الأرض وجعلهم الوارثين!!

٩– سنة التدافع بين الحق والباطل :

قال تعالي في محكم التنزيل ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض**﴾ [البقرة : ٢٥١]، وقال : ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً، ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز**﴾ [الحج : ٤٠] ولا يخفى أن سنة التدافع من أعظم سنن

---

(١) رواة الترمذي : ٦٠١/٤، وابن ماجة تحت رقم : ٤٠٣٣، وصححه الألباني في الأحاديث الصحيحة : رقم ١٤٣ .

الله الجارية في هذا الكون؛ إذ بدونها تفسد الأرض وتتدهور أحوال الناس؛ لذلك كانت ضرورة بذل الجهد البشري في دفع الباطل بالحق هي من سنن الحياة السوية التي لاتكون إلا بها؛ فإذا ماثبت أصحاب الحق والفضيله؛ وصبروا وصابروا تحقق لهم حينئذ وعد الله بالتمكين؛ وهزيمة الباطل ودحضه؛ واندحار أهله .

بيد أن هذا الصراع بين الحق والباطل معركة لاتنتهي حتى يرث الله الأرض ومن عليها،إنها معركة الحق الواحد مع الباطل المتعدد الأشكال والألوان والأصناف، ولا ينبغي أن يغيب عنا أن الله خالق هذه السنن قد جعل لكل شيء قدراً؛ فقد وهب لهذا الإنسان من القدرات والمواهب والإمكانات والقوى، وإرادة الإستمرار ما يستطيع بها – بعد توفيق الله له – من السيطرة والانتصار على الباطل وأعوانه من شياطين الجن والإنس!! قال تعالى : ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلاً**﴾ [الإسراء : ٦٥] وقال : ﴿**قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدي فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون**﴾ [البقرة : ٣٨] ومن رحمته سبحانه وتعالى بعد أن حكى في كتابه العزيز قصة أول صراع وقع بين الحق والباطل، حينما أمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى الشيطان أن يسجد لآدم – عليه السلام – فأمرهم أن يهبطا إلى الأرض ليواصلا معركة الصراع في ساحة أخرى، فقال تعالى : ﴿**وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين**﴾ [البقرة : ٣٦] فمنذ ذلك الصراع والهبوط إلى الأرض يحذرهم من عدوهم الأساسي، وغوايته، وإصراره على فتنتهم عن صراط ربهم المستقيم، فقال تعالى في محكم التنزيل : ﴿**يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما**﴾ [الأعراف : ٢٧] و قال : ﴿**الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقد تمثلت صور إغواء الشيطان لبني آدم في صور شتى منها :

– عبادة الأصنام والأوثان : فحذر الله عباده من ذلك بقوله : **﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم﴾** [يس : ٦٠ – ٦١].

– الحكم بقوانين الشيطان وإقصاء شريعة الرحمن : فحذر الله عباده من ذلك بقوله : **﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله، ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾** [المائدة : ٤٩] وقال : **﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾** [المائدة: ٥٠].

ومنها – التمسك بالأعراف والتقاليد التي تخالف شرع الله : فحذر عباده ذلك بقوله : **﴿اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم، من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون﴾** [الزمر : ٥٥] وعاب عليهم قولهم إذ قالوا : **﴿أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا!!﴾** [الأعراف : ٧٠] وقولهم : **﴿بل قالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾** [الزخرف : ٢٢] وغير ذلك من أوجه غواية الشيطان لابن آدم .

ومن الجدير بالذكر أنه يجب الوقوف على الحكمة التعليمية لهذه السنة التدافعية بين الحق والباطل، وما هي حقيقة الصراع المحمود الذي تركز عليه الآيات الكريمة ؟ هل هو الصراع الحتمي الذي بنيت عليه النظرية الديالكتيكية الهيجلية في مجال الأفكار وحركة العقل الكلي حتى يصل إلى مرحلة تجلي المتفرد – كما يزعم من لاخلاق لهم – ؟! أو هو الصراع الطبقي في النظرية المادية عند ماركس القائل : (تبدل وسائل الإنتاج حتى يبلغ سيطرة البوليتاريا)[1].

---

(١) انظر تفسير التاريخ الإسلامي : ٢٤٤.

كلا! ليس هذا التدافع ولا ذاك من تكالب الناس على أعراض الدنيا وشهواتها التافهة سواء في المستويات الدنيا بين الأفراد، أو المستويات العليا بين الجماعات والدول والمعسكرات، بل إِنه التدافع الذي يكون لخير البشرية في الدنيا والآخرة، وذلك لا يتحقق إلا بتحقيق العبودية لله وحده، وإِزالة كل طاغوتُ يعبد من دون الله، إِنه كما قال تعالى : ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾ [الأنفال : ٣٩] فالصراع المحمود هو الذي يطرد الفتنة بكل أشكالها وصورها من الأرض، ويحرر البشرية من عبادة الطاغوت وظلماته إلى عبادة الله وحده - سبحانه - ونوره، قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان إِن كيد الشيطان كان ضعيفاً**﴾ [النساء : ٧٦]، فالله سبحانه وتعالى يدفع بأهل الحق أهل الباطل، وقيام المسلمين بهذا الواجب ينفي عنهم شرور ذلك الصراع، وتركهم لهذا الصراع يجلب عليهم شراً مستطيراً، ماترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا ذلوا، كما قال ﷺ : «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[1]، والواقع المعاش دليل لا يحتاج إلى كثير من التدبر!!

يقول الدكتور عماد الدين خليل : (إن الجهاد يضع الأمة الإسلامية أمام مسؤوليتها الحركية الكبرى في العالم، ويمنحها فاعلية دائمة إِزاء التجارب والمواقف البشرية، تتجاوز حدود الزمان والمكان، ويرفعها إلى موقع الشهادة على الناس، ذلك الموقع الوسط المميز المتفرد الذي لن ترتفع إليه إلا عندما تمارس جهادها الدائم في كل الجبهات أمراً بالمعروف، ونهياً عن المنكر، وقتالاً بالكلمة، وكفاحاً مسلحاً.. ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**﴾ [البقرة : ٣٤)[2].

---

(١) رواه أبو داود في سننه : ٣/٢٧٤-٢٨٥ سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم : ١١.

(٢) تفسير التاريخ الإسلامي : ٢٤٩ .

المطلب الثالث : التعرف على معالم تاريخ الإنسانية

بعد أن ذكرنا فائدتين من فوائد ثمرات التاريخ، نذكر الفائدة الثالثة ألا وهي التعرف على معالم تاريخ الإنسانية، والتي تعتبر من أهم الثمرات التي ينبغي أن يطلبها ويتعرف عليها دارس التاريخ، من ذلك، متى بدأ تاريخ الإنسانية؟ وما هي أطواره التي مر بها؟ وما هي أبرز المعالم التاريخية؟.

لا يخفى أن بداية تاريخ الإنسانية وأطوارها كانت منذ آدم، كما قررها القرآن الكريم في عدة مواضع، وكذلك ارتبط هذا التاريخ ارتباطاً أساسياً بتاريخ الأنبياء عليهم السلام منذ آدم إلى نوح حتى نبينا محمد – عليهم الصلاة وأتم التسليم– لذلك سوف نتناول أهم معالم التاريخ الإنساني التي يجب أن يعتني بها دارس التاريخ.

أ– المعلم الأول : معرفة تاريخ الأنبياء :

لا ريب أن معرفة تاريخ الأنبياء – عليهم السلام – ودعوتهم وجهادهم وصبرهم وتحملهم لأذى أقوامهم، ومواقف أقوامهم منهم ومن دعوتهم، ومعرفة مصير الذين آمنوا وصدقوا بدعوة الأنبياء، ومصير الذين كذبوهم، لهو المعلم الأساسي في معرفة تاريخ الإنسانية منذ أن خلق الله سبحانه آدم حتى خاتم الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ب – المعلم الثاني : معرفة سيرة النبي ﷺ :

إن التعرف على معالم سيرة خاتم الرسل والنبيين، وصاحب الشريعة الناسخة لكل الشرائع، والعامة للثقلين الإنس والجن، لهو المفتاح الأساسي في كيفية عبادة الله الحقة، وفهم تطبيق أحكامه على المكلفين المؤمن منهم والكافر، لذلك يجب معرفة أحواله وأقواله، وصفاته، وتقريراته ﷺ والاستفادة من تلك السنن التي أخرجت ذلك الجيل القرآني الفريد الذي خوطب بقوله تعالى : ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾ [آل عمران : ١١٠].

جـ - المعلم الثالث : التعرف على تاريخ الخلفاء الراشدين :

لأن معرفة أحوالهم وسيرتهم وتاريخهم ، وتاريخ الجيل الأول خاصة، والذي يليه ثم الذي يليه من التابعين لهم بإحسان الذين عاشوا في القرون التي تعتبر من القرون الخيرة، الذين قاموا بتطبيق الأحكام الشرعية على الوجه المطلوب منهم، وجاهدوا لنشر الإسلام في ربوع الأرض مشارقها ومغاربها، ودونوا القرآن والسنة والآثار، فقد جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»(١).

د - المعلم الرابع : التعرف على سير العلماء والمجاهدين والدعاة :

فينبغي الاعتناء بسير العلماء والمجاهدين والمصلحين وجهادهم في سبيل الله وإقامة شريعته - سبحانه - بين أقوامهم، لأن في ذلك أسوة حسنة، ومثال يحتذى به بالنسبة للمسلم المعاصر.

هـ - المعلم الخامس : معرفة أثر الإسلام في حياة البشرية :

ويتبين ذلك بمعرفة التجارب التي انتهت إليها المجتمعات الجاهلية المتعددة الأشكال والألوان، وبيان أحوالها الاجتماعية، وكيف رفعها الإسلام من تلك البرائن الآسنة بمنهجه السوي الصالح المصلح لكل زمان ومكان إلى تلك القمة السامقة عندما انطوت تحت لوائه، وطبقت شريعته، قال تعالى ممتناً على هذه الأمة : ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ [الجمعة : ٢].

ويتضح هذا المعلم بتتبع أعمال الهدم والبناء التي قام بها الإسلام في حياة تلك المجتمعات الجاهلية التي حكمها، وما مصير الأفكار والنظم والعقائد التي كانت سائدة؟ وكيف بنى تلك المجتمعات بناء جديداً منطلقاً من العقيدة الإسلامية، وقائماً على العدل والحق والحرية.

---

(١) رواه أبوداود : ٢٠١/٤، والترمذي : ٤٤/٥، والإمام أحمد في مسنده : ١٢٦/٤.

المطلب الرابع : التأكيد على جملة من الحقائق الهامة في حياة البشرية

والجدير بالذكر بعد أن ذكرنا تلك الفوائد أن نسجل الفائدة الرابعة، والتي هي جديرة بالرصد والتسجيل حسب النسق المهيمن لعرض هذه الحقائق للبشرية وتجنيدها وتدجينها، وهذه الفائدة تحمل في طياتها التأكيد على عدة حقائق هامة منها :

١- أول شيء عرفته البشرية هو توحيد الله :

نقول : إن كل من عرض التاريخ وتأمله، ودرسه بوعي وبدون اختزال، يتبين له من الوهلة الأولى، أن الأصل في تاريخ البشرية منذ البداية أنها كانت مهتدية بشرع الله - سبحانه - وهداه، ثم بعد ذلك بأمد بعيد طرأ عليها الانحراف والشرك بعدما نسوا الله فأنساهم أنفسهم!! كما جاء عن حبر الأمة ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : (كانت بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق، فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين)[١].

ثم كلما تاهت فهوم البشرية عن منهج الله وزاغت عقولهم، وانحرفوا عن منهج الله وأصبحوا في دورات تاريخية متعاقبة من الزيغ والضلال، يرسل الله إليهم رسولاً ليردهم إلى صراطه المستقيم وعبادته وحده - سبحانه - ويدعوهم إلى توحيده فيقول لهم على لسان رسوله : ﴿**اعبدوا الله مالكم من إله غيره**﴾ [هود : ٥٠] ولا يخفى أن هذه هي الفطرة التي فطر الناس عليها كما قال ﷺ عن ربه : «يقول الله إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم جاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»[٢].

٢- حقيقة أن الله خالق كل شيء :

لا يخفى على من عنده مسكة من عقل أن الله - سبحانه- خالق كل شيء،

---

(١) راجع تفسير الطبري : ٤/٢٧٥.
(٢) رواه مسلم في صحيحه : ٤/٢١٩٧، حديث رقم : ٢٨٦٥.

وأن الإنسان من خلقه سبحانه وتعالى، وهو مستخلف في هذا الكون لتعميره بمنهج خالق كل شيء - سبحانه وتعالى - فكلما تحققت هذه البديهية في عقل المسلم أتاحت للمختلف أن يأتلف، وأن لا يشعر بأي عداء بينه وبين هذا الكون البديع، والمسلم بهذه العقلية يشعر بالانسياب والاندماج بين ما يعتقده من عقيدة وبين هذا الكون البدي، ولكي يصيغ حياته وفق المنهج الرباني، ينقب في هذا الكون، ويرحل في جنباته ويقيم، ومن مختلف تضاريسه يصيغ معانيه ويعيد!!

فإذا كان هذا شعور المسلم مع الكون الذي هو من خلق الله - سبحانه - فإن الكافر المتنكر لحقيقة أن الله خالق كل شيء من أسرار هذا الكون الطائع لله - سبحانه - المسبح بحمده، فإذا ما فتح له شيء من أسرار هذا الكون البديع تراه يتبجح ويتطاول ويتكبر، ويستعين بأسماء مختلفة بدل الحمد وشكر الله على هذه المعارف، ولكن هذه الأسماء والمصطلحات تخدم كفره وتمرده على خالق هذا الكون البديع، رغم أنه يظل هو الشاذ عن مخلوقات الله صريحاً فيما يقوله من كفر، حيث لا يقول ما ينتظر قوله، وما يمكن قوله!

٣- حقيقة أن الإنسان خلق سوياً :

لقد تقرر في كتاب الله العزيز أن الإنسان خلق في أحسن صورة من اللحظة الأولى قال تعالى : ﴿**لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**﴾ [التين : ٤] وليس كما يزعم من لا دين لهم أصحاب مدرسة النشوء والارتفاء ، بأن الإنسان كان أصله حيواناً ثم تطور فأصبح إنساناً!! كلا ورب الكعبة فقد جاء في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، القول الفصل في هذه الحقيقة فقال تعالى : ﴿ **وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم**

أجمعون﴾ [الحجر : ٢٨ – ٣٠] وقال تعالى : **﴿خلق السموات والأرض بالحق، وصوركم فأحسن صوركم، وإليه المصير﴾** [التغابن : ٣٠].

٤– حقيقة أن الإنسان يحتاج إلى التذكير :

وهذه الحقيقة من البديهيات عند من عرف دين الله – سبحانه – لأن المسلم مهما كانت قوة إيمانه فقد يعتريه الضعف، ويتنكب الطريق في بعض مراحل حياته، لذلك جعل الله سبحانه – برحمته سبيلاً إلى التذكير في نفوس المسلمين، فبعث لذلك الرسل، وأنزل الكتب، وسن للمؤمنين التذاكر فيما بينهم فقال : **﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾** [الذاريات : ٥٥] وقال : **﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله، وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون﴾** [الحديد : ١٦].

٥– الصبر على المشاق :

لا يخفى بعد أن ذكرنا الفوائد السالفة لثمرات دراسة التاريخ، أنه ينبغي أن نسجل الفائدة الخامسة والتي هي من الأهمية بمكان، فالفائدة تحمل في طياتها من معالم التربية الإسلامية الكثير، فكلما ازداد المسلم اطلاعاً على سير الأنبياء عليهم السلام تقوى عنده رابطة الانتماء لذلك السلف الصالح المبارك، ويتأكد له أنه يركن ويأوي إلى ركن عريق ضارب بأطنابه في تاريخ البشرية جميعاً، فإذا ما استقر ذلك في نفس المسلم رضي بما أصابه في سبيل الله، بل زاده ذلك ثباتاً على الحق وطمأنينة في النفس .

٦– القيمة السياسية :

والآن نسجل الفائدة السادسة والتي هي من الأهمية بمكان، فالفائدة هذه تحمل في طياتها من معالم وأصول التربية في السياسة الشرعية، لأن معرفة التاريخ ودراسته دراسة واعية تكسب صاحبها الخبرة العلمية في كيفية التعامل مع أصناف الناس في

كل مراحل الحياة، وتعينه إعانة فعلية في كيفية سياسة البلاد والعباد، وترشده إلى حسن التصرف في الأمور التي يمر بها ! ! لذلك اعتنى الخلفاء والحكام، والسلاطين، والقادة بدراسة التاريخ عناية فائقة، فإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على أن التاريخ يعيد نفسه،وتجارب الأمم قريبة من بعضها .

٧ - الحصانة الفكرية :

ويقصد بالحصانة الفكرية ، هو إتقان البحث المنهجي التاريخي في معرفة ما أحدث من البدع والخرافات بعد عهد النبي ﷺ، لأن التاريخ منهج بحث ووسيلة من وسائل الكشف عن الحقائق وإثباتها، وقد استخدم كثير من العلماء المنهج التاريخي في كشف الأباطيل والخرافات وبيان المحدثات والبدع في الشرع، لأن الدين الحق هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وما لم يكن يومئذ ديناً فلا يكون بعدهم ديناً، ولقد وصف ﷺ الفرقة الناجية بقوله : «ما أنا عليه وأصحابي»[١] ولعل أبرز من استخدم هذا المنهج الإمام ابن تيمية وتلميذاه الحافظ ابن كثير، والعلامة ابن القيم . يقول ابن تيمية - رحمة الله - وهو بصدد مناقشته لقضية المشهد المنسوبة للحسين بمدينة القاهرة فقال : (لم يكن على عهد الصحابة والتابعين، وتابعيهم شيء من المشاهد في بلاد الإسلام - لا الحجاز ، ولا أحد من أهل البيت، ولا صالح، أصلاً بل عامة المشاهد محدثة بعد ذلك!! وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس وتفرقت الأمة، وكثرت فيهم الزنادقة المنتسبون إلى الإسلام، وعلت فيهم كلمة البدع وذلك في دولة المقتدر)[٢].

ويقول أيضاً : (وفي أواخر المئة الثالثة، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية بأرض المغرب ثم جاؤوا بعد ذلك إلى أرض مصر، وقريباً من ذلك ظهر بنو

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني رقم ٢٠٣ .

(٢) انظر مجموع فتاوي ابن تيمية : ١٢٩/٣٥.

بويه الأعاجم وكان من كثير منهم زندقة وبدع قوية، وفي دولتهم قوي بنو عبيد القداح بأرض مصر، وفي دولتهم أظهر المشهد المنسوب إلى علي – رضي الله عنه – بناحية النجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول : إن قبر علي هناك، وإنما دفن علي – رضي الله عنه – بقصر الإمارة بالكوفة)[1].

٨ – ومن فوائد التاريخ أن له فضائل أخلاقية قضائية، لأنه يحفظ الحقائق مهما حاول الناس طمسها وإخفائها، وبذلك ينصف الرجال الذين حاول معاصروهم تجاهلهم ، أو تشويه تاريخهم وحركتهم، وإساءة الظن والقول فيهم، كما أنه يكشف الغطاء عن أدوار خيانية وانحرافات عقدية وسلوكية مارسها بعض الأشخاص الذين كانوا ملء سمع الدنيا وبصرها، بسبب مراكزهم وسلطانهم وإعلامهم مما يجعل معاصريهم يفترون فيكيلون لهم المدح والثناء، وينالون منهم التعظيم وتضفى عليهم ألقاب البطولة والحكمة والرأي وحسن السياسة والتدبير!! بيد أن التاريخ بما يحفظه من حقائق يصحح مثل هذه الأمور ، ويزن الرجال بما قدموه لخدمة أمتهم وعقيدتهم من الخدمات الحقيقية لا الدعائية، والأمثلة على هذا كثيرة لا تحتاج إلى عناء البحث .

٩ – يعين على فهم الواقع :

لا شك أن من ثمرات دراسة التاريخ أنها تكسب الدارس فهماً للواقع والحاضر وتمده بالمقدرة على تحليل واقعه وتفكيكه، لأنه كما قيل في الأمثلة العربية : (ما أشبه الليلة بالبارحة) وعند الإنجليز يقولون : (التاريخ يعيد نفس)!! وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم من وحدة التصرفات عند تشابه الأقوال والبواعث عند قوم ما، قال تعالى : **﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله، أو تأتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم، قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾** [البقرة : ١١٨] وقال

---

(١) رسالة تحت عنوان (رأس الحسين) لابن تيمية ١٦٧ – ١٦٨.

تعالى : ﴿كذبت قبلهم قومُ نوح والأحزابُ من بعدهم، وهمتْ كل أمة برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتُهم فكيف كان عقاب﴾ [غافر : ٥] وقوله تعالى : ﴿وكذلك ما أتى الذين من قبلهم من من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون، أتواصوا به، بل هم قوم طاغون﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣] فهم لم يتوصلوا بتكذيب الرسل فحسب، لذا صح القول : بأن كثيراً من القضايا المعاصرة لها جذور تاريخية بعيدة، فلذلك لا بد لنا من معرفة الماضي البعيد وربطه بالحاضر القريب لكي نفهم ما يدور حولنا ونتفادى مشاكل حاضرنا بأقل خسائر ممكنة .

١٠- معرفة القرون الفاضلة :

لا يخفى أن معرفة القرون الفاضلة التي قال فيها رسول الله ﷺ : «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(١) فمعرفة أهل القرون ومعرفة سماتهم وخصائصهم، وتراجمهم ، وأخبارهم في طلب العلم والجهاد، وفي الزهد والعبادة، وفي كيفية بناء الدولة الإسلامية، ونشر العدل ، ودفع الظلم إلى غير ذلك من أحوالهم ورؤية النماذج الكثيرة الممتازة التي تعد بالآلاف، والتي قامت بتطبيق شرع الله في الواقع العملي، كذلك فإن ثمرة هذه المعرفة تتضح في جانبين هامين : الجانب الأول : بيان البدع والحوادث ومعرفة وقت ظهورها ليتميز ما هو من الدين مما ليس منه، الجانب الثاني : إعادة الأمل وبعث الهمة لمحاولة تنقية المفاهيم الإسلامية مما لحق بها من الانحرفات ، والقيام بالتطبيق العملي من جديد في واقع الحياة.

---

(١) متفق عليه : انظر اللولؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان : ١٨١/٣.

الفصل الثاني

أهمية المنهج في الدراسات التاريخية

لقد تقرر في علم اللغة العربية بأن مدلول كلمة النهج، والمنهج، والمنهاج، كلها متحدة في معنى واحد، وهذه المدلولات اللغوية: تعني الطريق الواضح البين، كما نص على ذلك الجوهري : (يقال : أنهج الطريق، أي : استبان وصار شيئاً واضحاً بيناً، ونهجت الطريق، أيضاً إذا سلكته، وفلان يستنهج سبيل فلان، أي : يسلك مسلكه)[1].

فإذا كان ذلك معنى كلمة المنهج لغة، فمعناها اصطلاحاً : هو السبيل الفكري والخطوات العملية التي يتبعها الباحث في مساره العلمي بقصد تحصيل علم معين، وقد كان علماء المسلمين في القرون الأولى يعبرون عن المنهج بالأصول والقواعد، ولذلك وضعوا أصولاً وضوابط للبحث في مختلف العلوم مثل أصول الحديث (المصطلح) وأصول التفسير، وأصول الفقه وما إلى ذلك، أما المنهج ودلالته في الدراسات التاريخية، سواء بالكتابة والتأليف أم بالدراسة والتعليم، وهذه الشروط تتناول الكتاب ذاته والكتب التي يستمد منها علومه، كما أنها تعنى بالغاية والهدف من الدراسة والكتابة، وتعنى كذلك بالأسلوب والمصطلحات التي يستعملها. وهنا لا بد من ملاحظة الفرق بين نوعين من دلالة كلمة (المنهج) وتحديد المراد بها، فقد تطلق ويراد بها التصورات، والقيم، والمبادئ التي يلتزمها الباحث في بحثه أو كلامه، كما أنها

(١) الصحاح للجوهري : (٣٤٦/١) مادة (نهج) .

تطلق ويراد بها طريقة معينة في البحث العلمي لمادة من المواد العلمية، لذلك فإن لفظة المنهج وحدها إذا أطلقت تعني الطريق أوالسبيل، ولكن يحدد المراد منها ما تضاف إليه، فإذا قلنا المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ، يدل ذلك على التصورات، والمبادئ والمفاهيم المنبثقة من الإسلام، أما إذا قلنا منهج البحث التاريخي، أو منهج إثبات الحقائق التاريخية، فإنه يعني القواعد والطرق التي اصطلح على وضعها بغرض الإعانة على الوصول إلى صحة المعلومات، والتأكد من صوابها، فيصبح المنهج بهذا المعنى الأخير أداة بحث ممكن استخدامها – إلى حد ما – من قبل مجموعة من الباحثين وإن اختلفت مناهج حياتهم، وعقائدهم، وتصوراتهم.

لا يخفى أن كلمة المنهج بالمعنى الأول ليس على إطلاقها ، فإنها عند المسلم محكومة بالتصور الإيماني، والالتزام العقدي، ومقوماته، وقيمه، وتصوراته، عن الله، والكون، والحياة، والإنسان، ونشأته، ووظيفته في هذا الكون وغاية وجوده ومصيره، لذلك لا بد للباحث المسلم من الالتزام بالمنهج الإسلامي وفق القواعد الشرعية والأصول العلمية، في منطلقاته، وتصوراته، وطريقة بحثه حتى يخدم بكتابته الإسلام بنشر مبادئه الصحيحة في العقيدة، وقيمه التربوية والخلقية في أوساط البشرية التائهة، وبتلك الأسس يستطيع المسلم أن يزن أعمال المؤرخين والباحثين في تفسيرهم للتاريخ، والحوادث، والمواقف العامة والخاصة!!

وهذا المفهوم العقدي للمنهج والالتزام به في تلقي العلم ومناهج البحث والدراسة، هو مفرق الطريق بين الباحث المسلم وغير المسلم، فالباحث المسلم ينطلق في بحثه عن الإنسان وحركته وتفسير تاريخه من منطلقات علمية وشرعية ثابتة.

أما الباحث غير المسلم فإنه لعدم إيمانه بالله – سبحانه – وبرسوله ﷺ يفسر الوجود وحقيقة الربوبية والعبودية لله، ووظيفة الإنسان ودوره ومصيره، بالظنون

والأوهام ويرجم بالغيب بدون دليل، ولذلك يكثر بين الباحثين الذين لايؤمنون بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، الاختلافات الحادة، ويعيشون دائماً في اضطرابات وحيرة وشك، وفي صراع نفسي، وتشتت ذهنيّ لايصل بهم إلي معرفة الحقائق على حقيقتها!! ولا شك أن كل هذه الأعراض والأمراض ذات تأثير مباشر على دراساتهم!! ومن أمثال هؤلاء، أولئك الشاردون عن منهج الله – سبحانه – ذلك المدعو إيليا أبو ماضي، الشاعر النصراني حين قال :

جئت لا أعلم من أين ولكن أتيت
ولقد أبصرت قدام طريقاً فمشيت
وسأبقي سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت طريقي لست أدري!!

إلى أن قال هذا الشارد عن منهج الله:

ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبدياً لست أدري
ولماذا لست أدري لست أدري!![1]

فهو بهذه الأبيات يصور لنا حالة الضياع والقلق، والحيرة والشرود التي يعيشها هو وأمثاله من أبناء عصره الذين لايؤمنون بالله رباً، ولابالإسلام ديناً، ولا بمحمد رسولاً!!

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – حاكياً عن تجربة خاضها بنفسه في هذا المضمار بقوله: (ويختفي شعور كالشعور الذي عشته في فترة من فترات الضياع والقلق، قبل أن أحيا في ظلال القرآن وقبل أن يأخذ الله بيدي إلى ظله الكريم، ذلك

---

(١) عبداللطيف شرارة، إيليا أبو ماضي. ومختارات من شعره : ٢١٥.

الشعور الذي خلعته روحي المتعبة على الكون كله، فعبرت عنه بقول :

وقف الكون حائراً أين يمضي؟ ولماذا وكيف لو شاء يمضي ؟

عبث ضائع وجهد غبين ومصير مقنع ليس يرضي

فأنا اليوم – ولله الحمد والمنة – أعرف أنه ليس هناك جهد غبين، فكل جهدي مجزي عليه، وليس هناك تعب ضائع ، فكل تعب مثمر، وأن المصير مرض، وأنه بين يدي عادل رحيم، وأنا أشعر اليوم ولله الحمد والمنة، أن الكون لايقف تلك الوقفة البائسةأبداً، لأن روح الكون تؤمن بربها، وتتجه إليه، وتسبح بحمده، والكون يمضي وفق ناموسه الذي اختاره الله له في طاعة، وفي رضاً، وفي تسليم، وهذا كسب ضخم في عالم الشعور والتفكير، كما أنه كسب ضخم في عالم الجسد والأعصاب فوق ما هو كسب ضخم في جمال العمل، والنشاط، والتأثروالتأثير)[1].

وإنك لتجد في أبحاث الأوروبيين عن الحياة والإنسان ضروباً من التخمين والخبط والقول دون دليل، فهذا الدكتور (هـ، جـ، ويلز) صاحب كتاب معالم تاريخ الإنسانية يخصص الجزء الثاني من كتابه في البحث عن كيفية تكوين الإنسان، ومراحل تطوره!! فيبحث في القردة، وأشباه الإنسان (تالي النياندر) وإنسان العصر الحجري والعصر الجليدي على أساس أن هذا الإنسان الذي عاش هذه الحقبة من الزمن غير الإنسان المعاصر في تكوينه الجسمي والعقلي، وفي مداركه وعواطفه إلى آخرهذه الأحكام التي لا دليل عليها، والحقيقة هي أن أول البشر هو آدم عليه السلام، وأن الله خلقه بيده – تبارك وتعالى – من تراب ونفخ فيه من روحه وجعله في أحسن تقويم وعلمه الأسماء كلها وأسجد له الملائكة .

ومن المؤسف حقاً أن يكون هذا المنهج في البحث الذي يعتمد على الظنون

---

(١) في ظلال القرآن : ٦/٣٣٥٢.

والأوهام ويعرض عن الوحي الرباني ويأخذ أدلته عن نشأة الإنسان من الحفائر والهياكل العظمية والجماجم الحيوانية، هو طريق كثير من الباحثين المسلمين الذين كتبوا فيما يسمى بفلسفة التاريخ!!

واعلم رحمك الله أنه لا يكفي في الدراسات الإسلامية على مختلف أنواعها لكي يصل الباحث فيها إلى الحق والصواب أن يتبع الطرق المنهجيةفقط!! بل لا بد مع ذلك من توفر شروط نفسية وإيمانية في الباحث، لأن الباحث المسلم الواعي بدينه، العارف بمقاصده وأهدافه يتميز عن غيره بأن تصوراته وأهدافه وقناعته الفكرية متلقاة من مصادر ربانية، وبذلك تكون نتائج دراساته أقرب للعدل والصواب قال تعالى : **﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾** [الحديد : ٢٥] فالكتاب الذي جاءت به الرسل هو الذي يتلقى منه الحق والعدل، ويقام على منهجه القسط في الأرض بين الناس، ولا يكون الحق والقسط في غير كتب الله ووحيه المنزل على رسله(١).

لذلك فإن من لوازم المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ أن يكون المشتغل بعلم التاريخ الإسلامي وتفسير أحداثه ذا تصور سليم وعقيدة صحيحة، ودراية بعلوم الشريعة ومقاصدها، إضافة إلى تخصصه التاريخي وتمكنه من ذلك، وإلا لأصبح التاريخ الإسلامي ألعوبة لمئات المناهج والأهواء!! لأن هذا التاريخ هو في الحقيقة تاريخ عقيدة ذات تصورات وأحكام ثابتة مستمدة من مصدر صادق وثيق من وحي العليم الخبير القدير الحكيم السميع البصير المحيط علمه بما كان وما يكون : **﴿هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم﴾** [الحديد : ٣] فالالتزام بالمنهج الإسلامي في الكتابة التاريخية ضرورة علمية، ومصلحة إنسانية، ووظيفية شرعية!!

---

(١) راجع تفسير الآية : ٢٥ من سورة الحديد، في ابن كثير.

يقول الأستاذ سيد قطب – رحمه الله – : (إنه لمن الصعب التصور بإمكان دراسة الحياة الإسلامية كاملة دون إدراك كامل لروح العقيدة الإسلامية وإدراك التصور الإسلامي عن الله والكون والحياة والإنسان، ولطبيعة استجابة المسلم لتلك العقيدة، وهذه الخصائص لا يوجد عند غير الباحث المسلم الملتزم لإسلامه)[1].

إنه لمن مصلحة الإنسانية عموماً أن يتولى كتابة تاريخها وتفسيره بمنهجية علمية أصحاب العقيدة الإسلامية الحقة، لأنهم ينظرون بمنظار هذه العقيدة الشاملة في نظرتها للحياة وللإنسانية، والتي لا تقبل تفرقة بين السلوك العملي وبين الاعتقاد القلبي، والباحث المسلم أولى بتفسير التاريخ البشري كله فضلاً عن تاريخه الإسلامي، وذلك أنه يملك المنهج السليم الذي يزن به كافة الأشياء والقيم وأحداث التاريخ، كما لا يخفى أن ترك الالتزام بالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يوقع الباحث في أخطاء كبيرة تزل بها الأقدام، فهذا محمد عبد الله عنان المؤرخ المصري كاتب من أبناء المسلمين مشهور بدراساته التاريخية يجعل هذا العنوان (أساطير دينية توجه سير التاريخ)!! ففي أحد فصول كتاب له سماه مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، أنكر في هذا الفصل ثلاث قضايا مهمة من قضايا العقيدة وهي المهدي، ونزول عيسى بن مريم – عليه السلام – في آخر الزمان ، ويوم القيامة!! وجعلها من طائفة الأساطير وعرضها عرضاً فيه سخرية واستهزاء بالمؤمنين بها، ولم يفرق بين الكذابين المستغلين لجهل الغوغاء وبين حقائق هذه القضايا العقدية الثابتة بنصوص الشرع ، وإجماع الأمة المسلمة سلفاً وخلفاً!!

وبعد، فلا ريب أن من أولويات القواعد المنهجية وبدهياتها عدم إنكار القضايا العقدية وغيرها من المجمع عليها بسبب وقوع انحراف عند بعض الناس في تطبيقها ، لأن الانحراف لا يعالج بانحراف آخر ، وإنما يعالج الانحراف بإصلاحه ،وإيضاح الحق وتعرية الباطل وكشفه، فإذا وجدنا من يستغل الأحاديث الواردة في المهدي – مثلاً –

---

(١) في التاريخ فكرة ومنهاج : ٤٦ .

فيدعي لنفسه المهدية لغرض سياسي، أو ديني ، أو اقتصادي ، كما حدث ذلك في الواقع التاريخي عندما ادعى العبيديون أن عبيد الله بن ميمون القداح هو المهدي!! وكذلك ادعى محمد بن تومرت المغربي ذلك وغيرهم كثير!! لذلك نقول : بأن العلاج الصحيح لفهم تفسير التاريخ ليس بإنكار النصوص الصحيحة والإجماعات الصريحة، ووصفها بالأساطير، ورميها بلامعقولية!! كلا. بل يكون بإحقاق الحق وإبطال الباطل، واتباع الأمانة المنهجية العلمية في ذلك.

والمنهجية الإسلامية منهجية ملتزمة لتمسكها بالفضائل الخلقية، وأصلية لاستقلالها عن غيرها من المناهج واستمدادها من الأصول الشرعية ورجوعها للمصادر الأصلية، ومن شأن هذه المنهجية الأصلية والملتزمة أن تقي الباحث – بعون الله – من الانحراف والزلل وتصحح له رؤيته، وتُقوِّم أحكامه ونتاجه، حتى وإن وقع في خطأ مما لايسلم منه بشر غير معصوم فإنه سرعان ما يرجع عنه عندما يكتشف ذلك، أو ينبه عليه، فلابد لمن يشتغل بكتابة التاريخ الإسلامي، وتفسير حوادثه، أن يكون مسلماً ملتزماً بعقيدة «ما أنا عليه وأصحابي » عالماً بشريعة الإسلام وأحكامها .

المبحث الأول : مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية

لقد اعتنى علماء المسلمين بوضع قواعد وضوابط يعرفون بها صحة المرويات واتبعوا منهجاً دقيقاً في نقدها، وينبغي للمؤرخ المسلم أن يطلع على ذلك ويستفيد منه في دراساته التاريخية، والمصادر المهمة في هذا الشأن، هي كتب (مصطلح الحديث) أو (أصول علم الحديث) وأسس هذا العلم موجودة في الكتاب العزيز في مثل قوله تعالى: ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا**﴾ [الحجرات : ٦] وفي السنة المطهرة في مثل قوله ﷺ : «نَضَّرَ اللهُ امرأً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمع، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ

أوعى من سامع»[1] ففي قوله ﷺ : «كما سمع» نص في دقة التحري.

وكان الخلفاء الراشدون أول من سن للمحدثين التثبت في الرواية واحتاطوا في قبول الأخبار(فقد جاءت الجدة إلي أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك في كتاب اللّه شيئاً، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال : «حضرت رسول الله يعطيها السدس، فقال له: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها»[2] وكذا روي عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – موقف مشابه مع أبي موسى الأشعري[3] ومن هنا ظهر علم نقد الأخبار والسؤال عن الرجال الرواة، فدونت أخبارهم ورحلاتهم وسنين ولادتهم ووفياتهم، وشيوخهم وتلاميذهم، ليعرف المتصل والمنقطع من الأسانيد، وظهر كذلك علم الجرح والتعديل وهو الكلام في عدالة الرواة لمعرفة الثقة من غيره، كما دونوا علم علل الأحاديث سواء علل الأسانيد أو علل المتون، وقد دون العلماء هذه القواعد وظهرت في كتب خصصت لهذا الشأن مثل كتاب المحدث الفاصل بين الرواي والواعي، للقاضي أبي محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي المتوفى ٣٦٠هـ[4] وكتاب معرفة علوم الحديث، للحافظ أبي عبد الله الحاكم النيسابوري، المعروف بابن البيع، المتوفى سنة ٤٠٥هـ[5] وكتاب الكفاية في علم الرواية للإمام الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي، المتوفى سنة ٤٦٣هـ[6] وكتاب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع للقاضي عياض اليحصبي السبتي، المتوفى سنة ٥٤٤، وكتاب علوم الحديث

---

(١) رواه الترمذي في كتاب العلم: ٣٤/٥، وقال: حسن صحيح.

(٢) تذكرة الحفاظ: للذهني: ٢/١ .

(٣) المرجع السابق: ٦/١.

(٤) المرجع السابق : ٩٠٥/٣.

(٥) المرجع السابق : ١٠٣٩/٢.

(٦) المرجع السابق : ١١٣/٣.

للحافظ أبي عمرو عثمان بن صلاح الدين الكردي المتوفى سنة ٦٤٣هـ[١] فهذه الكتب وغيرها تبين طرق نقد الأخبار وكيفية الموازنة والترجيح بينها عند التعارض، كما أن علماء الجرح والتعديل قد قاموا بجهد في هذا الميدان من أمثال الإمام علي ابن المديني، المتوفى سنة ٢٣٤هـ[٢] وسيد الحفاظ يحيى بن مَعِين المزني، المتوفى سنة ٢٣٣هـ[٣] وأحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ والبخاري المتوفى سنة ٢٥٦هـ وأبي حاتم الرازي المتوفى سنة ٢٧٧هـ[٤] وأبي زرعة المتوفى سنة ٢٦٤هـ[٥] حيث تكلموا في الرجال وفي نقد متون الأحاديث وبيان عللها. ودونوا ذلك في مؤلفات خصصت لهذا الشأن فكتب الإمام البخاري ثلاثة كتب هي التاريخ الكبير، والتاريخ الأوسط، والتاريخ الصغير، والإمام ابن أبي حاتم دوَّن كلام أبيه، وأبي زرعة في كتاب سماه الجرح والتعديل، وابن معين له كتاب دونه تلاميذه باسم تاريخ ابن معين[٦] وكذلك ابن حنبل مروي عنه كتاب العلل، وأيضاً علي ابن المديني له كتاب في علل الحديث[٧]، وقد كتب كل من محمد بن سعد، وخليفة بن خياط كتاباً في الطبقات، كما كتب ابن حبان البستي المتوفى سنة ٣٤٥هـ[٨] كتاباً في الثقات، وكتاباً في المجروحين من المحدثين. وأيضاً كتب الخطيب البغدادي كتاباً جامعاً في أسماء العلماء والرواة الذين نشؤوا في بغداد أو وردوا عليها أثناء رحلاتهم العلمية، كما كتب ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ[٩] كتاباً مماثلاً سماه تاريخ دمشق .

---

(١) المرجع السابق : ١٣٠٥/٤.
(٢) المرجع السابق : ١٤٣/٤.
(٣) المرجع السابق : ٤٢٨/٢.
(٤) المرجع السابق : ٥٦٧/٢.
(٥) المرجع السابق : ٥٥٧/٢.
(٦) كتاب التاريخ ليحيى بن معين، بتحقيق الدكتور / أحمد محمد نور سيف.
(٧) العلل ومعرفة الرجال بتحقيق الدكتور/ مصطفى الأعظمي .
(٨) تذكرة الحفاظ : ٩٢٠/٣.
(٩) المرجع السابق : ١٣٢٨/٤.

وهناك كتب تخصصت في الترجمة للرواة الذين وردت أسماؤهم في الكتب الستة مثل الكمال في أسماء الرجال لعبد الغني المقدسي المتوفى سنة ٦٠٠هـ[١]، وتهذيب الكمال للحافظ المزي المتوفى سنة ٧٤٢[٢]، وتذهيب التهذيب للحافظ الذهبي، وتهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر. وخصصت بعض الكتب لأسماء الضعفاء من الرواة من أكثرها تداولاً كتاب ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، وكتاب لسان الميزان لابن حجر العسقلاني. فكل هذه الكتب وغيرها مما لم نذكرها – لأننا لا نقصد الاستقصاء – لازمة للمؤرخ ومعينة له على نقد الروايات والترجيح بينها، ومعرفة صحيحها من سقيمها، أما كتب التاريخ الإسلامي المتخصصة سواء كانت مصادر أولية مثل السيرة النبوية لابن إسحاق، ومغازي الواقدي، وفتوح البلدان للبلاذري، وفتوح الشام لابن إسماعيل الأزدي، وفتوح مصر لابن عبد الحكم، وكتاب تاريخ خليفة بن خياط، والأخبار الطوال للدينوري، وتاريخ الأمم والرسل لابن جرير الطبري، وجمهرة النسب للكلبي، ونسب قريش لمصعب الزبيري .

أو كانت مصادر ثانوية، فإنها تحوي مادة ومعلومات تاريخية تحتاج إلى نقد وغربلة لمعرفة الصحيح من الزائف، فهي مصادر في المعلومات التاريخية وليست مصادر في الأخبار .

المبحث الثاني : مصادر تفسير الحوادث والحكم عليها

لما كان منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتفسير حوادثه يعتمد في أصوله على التصور الإسلامي، ويجعل العقيدة الإسلامية ومقتضياتها هي الأساس في منطلقاته

---

(١) المرجع السابق : ١٣٧٢/٤.
(٢) المرجع السابق : ١٤٩٨/٤.

المنهجية، وفي تفسير حوادثه والحكم عليها، لذا يمكن القول بأن مصادر منهج كتابة التاريخ الإسلامي في هذا الجانب هي نفس مصادر الشريعة : القرآن، والسنة، والإجماع، والقياس.

يعلل ذلك الدكتور أكرم ضياء العمري بقوله: (لأن التفسير الإسلامي للتاريخ منبثق من تصور الإسلام للكون، والحياة، والإنسان، فهو يقوم على الإيمان بالله تعالى، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى. فهو لا يخرج عن دائرة المعتقدات الإسلامية كما أنه مبني على دوافع السلوك في المجتمع الإسلامي الأول مما يجعل حركة التاريخ الإسلامي ذات طابع متميز عن حركة التاريخ العالمي لأثر الوحي الإلهي فيه)[1].

لذا ينبغي في تفسير التاريخ الاستمداد من هذه المصادر الشرعية لمعرفة دوافع السلوك في المجتمع الذي نشأ وتكوّن على هدى الشريعة وشكّل حياته وتصوراته وفقاً لها، وكانت تعليماتها وأوامرها ونواهيها موجهة لكثير من حركاته في الدعوة إلى الله، وفي الجهاد في سبيل الله، وفي التعليم وفي بناء الدولة ومؤسساتها الإدارية والاجتماعية، وفي علاقات المجتمع الإسلامي مع بعضه ومع غيره من المجتمعات .

ولكي يكون تفسيرنا لحركة التاريخ الإسلامي صحيحاً وواقعياً فإنه يلزمنا معرفة وفهم العوامل التي شكلت المجتمع وتحكمت في حركته وبناء تصوراته وثقافته،وموازنة هذه الحركة التاريخية بالأوامر والنواهي الشرعية، وكم منها متسق مع هذه الأوامر والمتطلبات؟ وكم منها مائل عنها؟ لنعرف مدى الأثر الذي أحدثه الإسلام في حياة المجتمعات الإنسانية، ولنعرف كذلك قيمة الخسائر التي لحقت بالمجتمع الإنساني من جراء الانحراف والبعد عن شريعة الله، وندرك أيضاً فضل الله ورحمته بهذه البشرية،

---

(١) إعادة كتابة صدر التاريخ الإسلامي للدكتور/ أكرم ضياء العمري : ٣.

إذ أخرجهم بهذا الدين من الظلمات إلى النور ومن الجور إلى العدل ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن الشقاء إلى السعادة ومن الخوف والقلق إلى طمانينة الإيمان وأمنه . قال تعالى ﴿**الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد**﴾ [إبراهيم : ١].

فالمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يستمد نظرته ومنهجه من أصول الإسلام ومصادره وهذا سر المفارقة بينه وبين المناهج، ففي مجال تفسير الحوادث التاريخية نجد أنه ليس تفسيراً تبريرياً بل تبرز فيه خصائص الإيمان المستعلي على ما سواه.

يقول الدكتور أكرم العمري في ذلك : (إنه ليس تفسيراً مادياً يحصر المؤثرات على حركة التاريخ البشري في العوامل المادية مثل تبدل وسائل الإنتاج - كما في الفكر الماركسي - أو التفسيرات المعتمدة على أثر البيئة الخارجية - من مناخ وجغرافيا واقتصاد- كما في الفكر المادي الغربي، بل هو يوضح دور الإنسان ومسؤوليته عن التغيير الاجتماعي والتاريخي في إطار المشيئة الإلهية)[١].

لا يخفى أن الرجوع للمصادر الشرعية والتمكن من فهم العقيدة الإسلامية والالتزام بها وإدراك مدى تأثيرها على معتنقيها شروط لازمة للمشتغل بكتابة وتفسير التاريخ الإسلامي، فإذا ما اختل شيء منها أتت الدراسة ناقصة شوهاء متأثرة بالأحوال الفكرية والاجتماعية المحيطة بالباحث، ولذلك وقع كثير من الكتاب المعاصرين في أخطاء كثيرة بعضها راجع لتقصيرهم في العودة إلى المراجع الشرعية، وبعضها ناتج عن الغبش في التصور، وعدم وضوح الرؤية بالغزو الفكري الأوروبي .

كما أنهم نظراً لانطلاقهم الخاطىء في فهم الشريعة وفي معرفة معنى العبودية لله ولوازمها، تراهم يأخذون في الاعتذار عن التشريعات والنظم الإسلامية، ويبحثون لها

---

(١) المرجع السابق : ٣.

عن سند تاريخي قديم بل يحاولون التقريب والملائمة بينها وبين النظم والتشريعات السائدة في الواقع الجاهلي، وهذا المسلك قلب للحقائق والواقع، إذ تكون الجاهلية، ونظمها كأنها هي الأصل، والشريعة ينبغي أن تلائمهاوتوافقها!!

وهذا الأسلوب التبريري لما يشرعه الله ناتج كما قلنا من الانحراف التصوري، وعدم الاعتزاز والاستعلاء بالإيمان والإسلام، وذهول عن قاعدة مهمة وهي أن الشريعة الإسلامية لا تستفتى ولا يطلب منها الحلول لمشكلات نشأت في مجتمع لا يطبق الإسلام.

إن أسلوب التخريجات لمثل هذه القضايا والأوضاع المخالفة للشرع الإسلامي أسلوب مرفوض، إذ ليس من المعقول أن نطلب من الشريعة الإسلامية حل مشكلات الاقتصاد أوالعلاقات الاجتماعية للشعب الأمريكي مثلاً!! لأنه لا بد أولاً من قبول العقيدة الإسلامية والتسليم لشريعة الله وحاكميته وسلطانه، ثم هي بعد ذلك التسليم والالتزام، تقوّم عوج الحياة على منهاجها لا أن نحاول إبقاء عوج الحياة الجاهلية بتسويغ انحرافها وتبريره بفهم متعسف لنصوص الشريعة.

ومن هنا يتبين لنا أهمية الرجوع للمصادر الإسلامية والتلقي منها والالتزام بأحكامها وأن ذلك يوصل بإذن الله إلى نتائج طيبة .

المبحث الثالث : سمات المنهج العلمي عند علماء المسلمين

لا ريب أن سمات المنهج العلمي عند علماء المسلمين واضحة وجلية، لذلك نحاول أن نلخصها في عدة نقاط حتى يستفيد منها طلبة العلم، في بحوثهم العلمية :

١- استعمال الدليل والوثيقة بعد التأكد من صحتها .

٢- حسن الاستدلال باتباع التنظيم والترتيب الملائم للأدلة مع حسن العرض وتحرير المسائل .

٣- الإيمان بكل ما دل عليه الكتاب والسنة ومن ذلك الإيمان بالغيب، وبالجزاء والحساب والقضاء والقدر، وردٌ كل ما خالفهما.

٤- الأمانة في استقصاء الأدلة وإيرادها مع الجمع والترجيح بين الروايات المختلفة وفقاً للقواعد المقررة مع الاستعانة بأقوال العلماء الثقات .

٥- بيان المصادر والمراجع التي أخذت عنها مع الضبط المتقن في نقل الأقوال ونسبتها لأصحابها.

٦- الاعتماد على النصوص الشرعية والحقائق العلمية وعدم الارتباط بالأوهام والطلاسم والظنون والتحرر من ذلك .

٧- التجرد من الهوى والميل الذاتيين، وقد حصل لهم هذا لأنهم ينظرون إلى دلالته دون قرينة صارفة.

٩- عدم قبول المتناقضات، وتقديم المبادئ على الرجال ولذلك لا يسلمون لما ينقل عن المشايخ وهو مخالف للدين، ويقولون : هو أحد أمرين إِما كذب عليهم أو غلط منهم .

١٠- حسن الأدب مع كلام الله سبحانه وتعالى ومع الأنبياء - عليهم السلام - والعلماء والابتعاد عن التجريح الشخصي والاقتصار في النقد على بيان الأخطاء .

وبعد، فهذه هي القواعد العلمية في البحث التي اتبعها المسلمون في كتابتهم ومؤلفاتهم ،وكلها تنطلق من التزامات خلقية، ومبادئ شرعية، لأن الأمر بالصدق

والأمانة، ومجانبة الهوى، وترك القول بدون علم، والوقوف بالعقل عند حدود القدرات البشرية، هو مما يتقرب به المسلم إلى الله ويلتزمه على أنه عبادة مأمور بها .

المبحث الرابع : غاية المنهج في كتابة التاريخ الإسلامي ووسائل تحققه

لا يخفى أن منهج كتابة التاريخ الإسلامي يقوم في جانبه الفكري والتصوري على المبادئ والقيم الإسلامية. ويستمد من التصور الصحيح لقضايا العقيدة والإيمان، لذلك فإن غايته ووجهته، مرتبطة بغاية العقيدة الإسلامية فهو يسعى لتكمل الغاية الأساسية من خلق الإنسان، وهي تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى، بإقامة شريعته، وينبغي أن لا يكون تدوينه ودراسته بدون غاية واضحة وهدف يخدم عقيدته وتصوره الإيماني .

إنه لا بد أن يربط عمله التاريخي بعقيدته ومنهجه لكي يستفيد من الأحداث التاريخية دروساً وتوجيهات مثمرة، لكي يدرك من خلال الوقائع سنن الله وقدره وهيمنته على الثمرات التي يرجوها المسلم من دراسة التاريخ، فالتزام الباحث بمنهج العقيدة، يرسم له طريقة التعامل مع الحدث وكيفية معالجته ودراسته وأخذ العظة منه.

وهكذا يتضح لنا أن الارتباط بالعقيدة الإسلامية في تصوراتها وأحكامها هو الغاية الأولى في منهج كتابة التاريخ عند المسلم، فهو لا يخالف مبدأ ولا حكماً منها ولا يناقضه لا في كتابته وتدوينه للتاريخ ولا في تفسيره للحوادث.

بل عليه أن يستحضر تلك الأحكام والأهداف حال كتابته، وأن يلتزم بها في الارتباط بالعقيدة الإسلامية والانطلاق منها هدف وغاية في المنهج التاريخي، كما أن المنهج التاريخي يعتبر وسيلة من وسائل تثبيت العقيدة وتحقيقها في الواقع العملي . فالالتزام بينهما وثيق ككل عمل المسلم الذي يلتزم بعقيدته ويسعى لتطبيقها في واقع الحياة.

كما أن من غاية المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ الكشف عن الحقائق

التاريخية وإظهارها والقول بالحق فيها وفقاً للمفاهيم والمقاييس الإسلامية، لأن المسلم مأمور بإظهار الحق، والقول به حتى ولو كان ذلك ضده أو ضد قومه أو عشيرته أو من يحبهم لأن الله لا يقبل منا تزوير الحقائق أو إخفائها . قال تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم، أو الوالدين، والأقربين، إن يكن غنياً، أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾** [النساء : ١٣٥].

وإنما عليه أن يعرض ذلك ولكن في مجاله وبحجمه الحقيقي دون تضخيم لهذه الأخطاء، أو تشنيع بها، وإنما تعرض عرضاً متزناً موضحاً الظروف والملابسات التي صاحبت ذلك وأدت إليه، وعليه أن يوضح الموقف الشرعي في مثل هذه الحالة وفقاً للمقاييس والأحكام الشرعية، كما أن الخطأ يعتبر مجالاً من مجالات التربية والإصلاح حتى لا يتكرر وقوع مثله مستقبلاً. والأسوة في ذلك طريقة القرآن الكريم في عرضه للأحداث التاريخية، فإنه لا يجامل المؤمنين فيخفي ما وقع منهم من أخطاء ، وإنما يذكر ما وقع منهم ويعيبه عليهم ويطلب منهم العدول عنه. كما أنه يذكر ما في الجانب الآخر – الكفار – من خير أوشر، قال تعالى موضحاً ما وقع من المؤمنين من المخالفة في غزوة أحد : **﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون. منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل علي المؤمنين﴾** [آل عمران: ١٥٢] وقال أيضاً سبحانه: **﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا، ولقد عفا الله عنهم، إن الله غفور حليم﴾** [آل عمران:١٥٥] وقال سبحانه : **﴿لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة، وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين﴾** [التوبة:٤٧]. ففي هذه الآيات السابقة نجد أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر ما وقع من بعض المؤمنين من أخطاء ولم يجاملهم بالسكوت على شيء من ذلك، ولكنه أيضاً لم

يشنع عليهم بهذا الخطأ، ويخفي الجانب الآخر من محاسنهم، أو يوقعهم في اليأس وعدم إمكانية الإصلاح، وإنما طلب منهم تعديل الخطأ ووعدهم بالعفو والمغفرة.

قال تعالى مبيناً حال الأعراب ليعلمنا الاعتدال وعدم غمط الحق، أو إخفاء الباطل : ﴿**الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، والله عليم حكيم، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم. ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله، وصلوات الرسول، ألا إنه قربة لم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم**﴾ [التوبة : ٩٧ – ٩٩]. وقريباً من هذا المعنى قوله تعالى : ﴿**ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً**﴾ [آل عمران : ٧٥].

وهكذا فالمنهج الإسلامي في دراسة التاريخ منهج وصفي ومعياري. فهو يصف الحادثة التاريخية ويستكمل جوانبها المختلفة ويتحقق من صحة الواقع بكافة وسائل النقل وإثبات الحقائق التي يتميز بها منهجه العلمي، ثم لا يكتفي بهذا الوصف والعرض للوقائع التاريخية بعد أن يتحقق من صحتها وإنما يحاول أن يزن هذه الوقائع بمنهجه المعياري وفقاً للمقاييس والمفاهيم والتصورات الإيمانية. فالأحكام الشرعية والمفاهيم الإيمانية هي الميزان المعياري، الذي توزن به الأحداث والأشياء والقيم والنظم قال تعالى : ﴿**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط**﴾ [الحديد : ٢٥].

وباتباع هذا المنهج في الدراسة تحصل العبرة والتوجيه، وتتحقق الثمرة من دراسة التاريخ، وهي تقويم سلوك الإنسان بما يوافق الحق مع بيان خطر الانحراف واتباع الباطل وترك العمل بمنهج الله الحق، ومن الغايات التي يسعى المنهج الإسلامي إلى

تحقيقها من دراسة التاريخ هي استخدام الأحداث التاريخية في تحقيق الأهداف التعليمية والتربوية لتقويم مسيرة الأمة، والإسهام في رسم خط سيرها وتحديد ملامح مستقبلها، وقد قرر القرآن الكريم والسنة النبوية في عدة مواضع مبدأ استخدام الأحداث التاريخية وجعلها مجالاً لتربية الأمة الإسلامية، وقد جعل الزمن كله ماضيه و حاضره ومستقبله ميداناً لهذا الإعداد وهذه التربية، ففي الماضي عرض تاريخ الأمم السابقة وتاريخ الأنبياء والرسل، وبيّن مواقف تلك الأمم من الدعوة إلى الله ومن رسلهم الذين أرسلوا لهم ثم أوضح نهاية كل أمة من هذه الأمم، وبيّن السمات المشتركة في تاريخ هذه الأمم وفي مواقفها من أنبياء الله، وعلى ضوء هذه المواقف من الرسل في تاريخ هذه الأمم وفي مواقفها من أنبياء الله، وعلى ضوء هذا الموقف من الرسول ورسالته يتحدد الحكم على كل أمة ويعرف مصيرها ونهايتها، وفي الحاضر – وقت نزول القرآن – عرض القرآن كثيراً من أحداث السيرة النبوية ومغازي رسول الله ﷺ، وبيّنَ مواقفَ الناس من الدعوة وأنهم ثلاثة أصناف مؤمن وكافر ومنافق، وقد استخدم الأحداث التي تقع من هذه الأصناف في تربية المؤمنين وإعدادهم وفي كشف أعدائهم ودسائسهم خاصة المنافقين، وهي أحداث عايشوها مباشرة واشتركوا في وقائعها، فعقب عليها القرآن كاشفاً عما في الأحداث والمواقف من الصواب، وما فيها من الخطأ، لكي يأخذ المسلمون الدروس كاملة ويعرفوا أسباب نصرهم وأسباب هزيمتهم.

ومن المعلوم أن التربية بالأحداث المعاصرة أبلغ وأدعى للاستجابة وسرعة التأثير، ذلك أن النفس البشرية تتأثر بالحدث الذي عايشت وقائعه أكثر من تأثرها بشيء آخر، فيكون استثمارها لهذا التأثير في التربية والتوجيه الصحيح أضمن لسرعة الاستجابة، وفي الزمن المستقبل وعد الله المؤمنين بالنصر والتمكين في الأرض وجعل لهذا الوعد شرطاً – هو عبادة الله وحده لا شريك له – مما حفز همم المؤمنين وجعلهم يعملون لتحقيق هذا الشرط لتحصل لهم ثمرته في الحياة الدنيا، وقد تحقق على أيدي الجيل

الأول من هذه الأمة لما حققوا الشرط المطلوب فأورثهم الله مشارق الأرض ومغاربها ومكَّن لهم فيها، ولا يزال هذا الأمر يتحقق للمؤمنين في مختلف العصور والبقاع كلما حققوا شرطه، بل إن آيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ قد أوضحت من معالم المستقبل لما هو أبعد من الحياة الدنيا، وهو الحياة الآخرة، وما سيكون فيها من الأحداث، لتوسع نظرة المؤمن للحياة وللزمن وللتاريخ، فتكون معه زاوية الرؤية أوسع والنظر لديه أرحب وأشمل وأقدر في الاستيعاب والتحليل.

كما أن الشريعة الإسلامية قد أعطت أحداث آخر الزمان أو الفتن والملاحم، وأشراط الساعة كثيراً من الاهتمام والإيضاح حتى يكون المسلم على وعي تام ومعرفة بهذه الأحداث المستقبلية، وهي أحداث تعطي إشارات وعلامات تذكر المسلم وتحثه على سلوك الطريق السوي، ولذلك لا تَفْجَؤُه مثل هذه الأحداث أو تعميه عن استبانة طريق الحق، لأن الذي يعلم ويدرك سبب الأحداث ومصدرها يعرف كيفية تفاديها أو مواجهتها. وهذا العلم يعطيه مقدرة على مواجهة الموقف، بخلاف الذي يجهل سبب الأحداث ومصدرها، فإنه لا يدرك السنن الربانية، وتفاجئه الأحداث وهو لا يعرف سببها الحقيقي، فيورثه ذلك حيرة وقلقاً.

ومن أهم الغايات التي يحققها المنهج الإسلامي في الدراسة التاريخية بيان فساد التصورات والعقائد الجاهلية، وتعريتها ببيان تناقضها ليحذر المسلم منها، وهذه الغاية مهمة جداً في حياة المسلم ليستقيم تصوره فلا يختلط بشيء من المفاهيم والتصورات الجاهلية، لأنه كما قيل : وبضدها تتميز الأشياء، فالتصورات والقيم والمبادئ الجاهلية مضادة للإيمان بالله، ومن مقتضيات الإيمان بالله، البراءة من التصورات الجاهلية والكفر بها قال تعالى : **﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾** [البقرة : ٢٥٦].

وقد قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : (ينقض عرى الإسلام عروة عروة من نشأ في الإسلام ولم يعرف الجاهلية) فمعرفة تاريخ الجاهلية وتصوراتها وقيمها يزيد المؤمن إيماناً وطمأنينة إلى ما عنده من الحق، والمعرفة بمسار الأفكار الجاهلية ودخائلها حصانة ضد الوقوع في شيء منها، لكن لابد أن يسبق هذه الدراسة معرفة تاريخ الجاهلية ونظمها، ويصاحبها إيمان بالله صحيح، واعتزاز بشريعة الله، وفقه بالحلال والحرام، وإلا أتت الدراسة محرفة شوهاء.

المبحث الخامس : وسائل تحقيق المنهج

أما الوسائل التي يتحقق بها المنهج في الواقع العملي فهي تقوم على ثلاثة ركائز أساسية : وهي التصور الصحيح المستمد من الشريعة في مصادرها المتعددة، ثم الرجال الأمناء الصادقون الذين يحملون هذا التصور ويعملون على تحقيقه في واقع حياتهم ودراستهم وتوجيههم وتدريسهم، وفي أخذهم وعطائهم، وفي تحملهم للعمل وأدائهم له، فإنه بغير هذا الصنف من الرجال المخلصين لا يتحقق تطبيق المنهج المطلوب في الواقع، لأنه لا يمكن أن يقوم على تطبيق المنهج الإسلامي في الدراسات التاريخية من لا يؤمن بالإسلام أو من لا يعرف التصور الصحيح في الإيمان ولم يدرس الشريعة الإسلامية ويعرف مصادرها وأحكام الحلال والحرام فيها، فالرجال العالمون بالشريعة الصادقون في علمهم وعملهم هم الذين يحقق الله على أيديهم مثل هذه الأعمال الضخمة الخطيرة، وقد امتدح الله الرجال المؤمنين بقوله : **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه...﴾** الآية [الأحزاب : ٢٣] وبقوله تعالى : **﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾** [النور : ٣٦ - ٣٧].

فالرجال الأمناء المخلصون هم الوسيلة التي تحقق المنهج في الواقع العملي، وبعد توفر التصور الإيماني الصحيح والعلماء الذين يحملون هذا التصور ويؤمنون به يأتي دور المنهج الإسلامي في الكتابة التاريخية، وإذا لم يكن العمل منظماً ومتبعاً في إعداده المنهج العلمي السليم، فإنه يفقد المنهجية العلمية السليمة ويفقد العمل كثيراً من مزاياه، بل دعامة من دعائمه فلا يستطيع الكاتب ولا القارئ تبين المعالم الصحيحة.

وهذه الركائز الثلاثة يكمل بعضها بعضاً، وإن كان بعضها أكبر وأهم من بعض، فالتصور الصحيح هو القاعدة الأساسية التي لا يتصور وجود عمل سليم مع فقدانها، لأنها هي الحاكمة والمهيمنة على كل ما عداها، فهي المنطلق الأساسي والمركز المحوري لكافة الوسائل والغايات، وهي في نفس الوقت وسيلة من الوسائل التي يتحقق بوجودها المنهج الإسلامي، والرجال المخلصون هم الذين يحققون بعلمهم التصور الإيماني في الواقع العملي والسلوكي وخاصة إذا امتلكوا المنهج العلمي السليم وأجادوا تطبيقه في دراساتهم ومؤلفاتهم.

الفصل الثالث

قواعد في منهج كتابة التاريخ الإسلامي

المبحث الأول : قواعد في التصور والاعتقاد

١ - الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية :

وهذا المفهوم لوحدة الأمة الإسلامية يتبعه وحدة التاريخ الإسلامي على مر العصور ووحدة الحضارة الإسلامية في أطرها ومفاهيمها العامة. ودارس التاريخ يتوجب عليه ملاحظة هذه الرابطة المشتركة بين المؤمنين بالله على مر العصور فيدرس تاريخهم على أنه وحدة واحدة نظراً للاشتراك في المفاهيم والدوافع والمؤثرات التي تساعد على صنع الحدث التاريخي وتشكيله، والذي يقرأ سيرة الأنبياء عليهم السلام وتاريخهم كما ورد في القرآن الكريم يجد التوافق التاريخي والاتحاد في المفاهيم والنظرة للأحداث، وهذا أمر لا يستغرب لأنهم كلهم يصدرون عن مشكاة واحدة ويتلقون عن رب واحد ويعودون إلى رسالة واحدة في قواعدها وأصولها، وكذلك تاريخ المؤمنين بالرسل نجد في التوافق فيه هذه المواقف والمفاهيم، وهذا يعبر عن قوانين ثابتة وسنن لا تتغير في حركة الكون وجري التاريخ الخاضع لمشيئة الله وقدره القائم بالحق.

ويجب علينا دراسة التاريخ على أساس التوزيع العقيدي وأن نبرز وحدة التاريخ الإسلامي بسماته وخصائصه العامة، ونبرز التاريخ الجاهلي بسماته العامة على مدار

العصور، وهذا يجنبنا الأخطاء الناشئة من الدراسة على أساس التوزيع الجغرافي أو العائلي أو الزمني، والتي تفتت الوحدة العقيدية والرابطة الإيمانية وتأتي براوبط بديلة من الوطن والقيم والإنسانية، وتلوث التاريخ الإسلامي وتصبغه بألوان غريبة عليه وعلى حركته ودوافع أهله وتوجهاتهم السلوكية والفكرية وتسلكه في أطر ضيقة من هذه الحدود المكانية والعائلية.

المبحث الثاني : الحكم الشرعي في المخلفات الحضارية

ومن قواعد التصور والإيمان معرفة القيمة الحقيقية لمخلفات الأمم وآثارها والحكم الشرعي فيها، فالمسلم الذي يستمد تصوره من الكتاب والسنة ويهتدي بهديهما لا بدل له وهو يدرس تواريخ الأمم أن يزن آثار هذه الأمم ومخلفاتها التاريخية بالميزان الشرعي يعطيها القيمة الحقيقية على ضوء ذلك الميزان العادل، فلا يغالي في تعظيمها وتقديرها كما يفعله فريق من الناس، ولا يغمطها حقاً هو لها.

ولقد أرشدنا القرآن الكريم إلى المنهج الذي نتبعه في دراسة الآثار والوقوف عليها، وبين لنا الفائدة التي من الممكن أن نستفيدها من الوقوف على آثار السابقين، وعرّفنا على القيمة الحقيقية للآثار، فالعلم بتاريخ الأمم السابقة، والتعرف على آثارها لكي يؤتي ثماره لا بد أن يقترن بالعبرة والعظة التي تدفع الدارس والمشاهد والباحث إلى تدبر أحوال نفسه وأسرته ومجتمعه، فلا يدعها أو يدعهم يقترفون ما اقترف غيرهم من الآثام، والإعراض عن منهج الله وعبادة ما لم يأذن به الله، فيهلكهم الله بعذاب أليم كما أهلك من قبلهم، لأن العلم بأمر الله وشرعه والنظر الصحيح والاعتبار المثمر في أحوال السابقين وتقلبات الدهر بهم يساعد على تربية الفرد المسلم ليكون لبنة صالحة في بناء المجتمع، أما ما يفعله كثير من الدارسين من الاكتفاء بالوقوف على

الأطلال ودراستها دراسة وصفية جافة لا حياة فيها، كقولهم : إنهم لا يستعملون من أدوات الطبخ كذا وكذا وطريقتهم في الأفراح كيت وكيت، وإنهم كانوا يحرثون بالمحراث الذي نحرث به... وحصر الاهتمام بالمظاهر الشكلية من قياس الطول والعرض والحجم والمادة المستعملة إلى غير ذلك. إن هذه الدراسة (الأكاديمية) الجافة لا توقظ في القلب شعوراً ولا تنفخ فيه حياة، ولا تنير البصائر لتتأمل وتتفكر وتستفيد وتتعرف على سنن الله وآياته في الأنفس والآفاق، كما أنها لا تتمشى مع المنهج القرآني في عرضه آثار السابقين وطلبه منا أن نسير في الأرض وننظر في سيرنا نظر المستبصر المستفيد، الباحث عن أسباب الدمار الذي حل بأصحاب تلك الآثار ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المجرمين**﴾ [النمل : ٦٩]. وقال تعالى : ﴿**وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين**﴾ [القصص : ٥٨]. فالله يطلب منا أن يكون سيرنا في الأرض وبحثنا عن الآثار ودراستها بغرض إيقاظ القلوب والبصائر وبعث الحياة فيها.

ومناجاة هذه الآثار والأطلال الباقية وسماع أخبارها سماع العظة والعبرة، ومشاهدة آثار قدرة الله وعقابه للمجرمين وإنجائه للصالحين، والتعرف على القيم الحقيقية التي تطيب بها الحياة وتعمر، كل ذلك هو سبب النجاة والفوز عند الله.

وقال تعالى : ﴿**فكأين من قرية أهلكانها وهي ظالمة، فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ [الحج : ٤٥ - ٤٦].

وهذا التأمل في آثار السابقين ينتج عنه اتعاظ يتحول إلى سلوك ونهج علمي في واقع الحياة ملتزم بأمر الله ونهيه، وقد جعل الله ذلك هداية للمستبصرين فقال :

﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون﴾ [السجدة : ٢٦].

كما أنه قد جعل هذا التأمل والنظر في آثار السابقين في مقام الوعظ البليغ وجعله حجة الغافلين حين ينزل بهم عذابه فقال تعالى : **﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال، وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال، فلا تحسبن الله مخلف وعده رُسُلَه إن الله عزيز ذو انتقام﴾** [إبراهيم : ٤٤ – ٤٧].

وفيما يلي نسوق بعض الأيات التي يتبين منها منهج القرآن وطريقته في عرض أخبار السابقين الذين أعرضوا عن منهج الله، ولفت أنظارنا للاتعاظ والعبرة بالمشاهد الباقية من مخلفات القوم وآثارهم.

قال تعالى واصفاً ما وصلت إليه الحضارات القديمة من التقدم العمراني : **﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض وعمروها أكثر مما عمروها﴾** [الروم : ٩]. وقال تعالى : **﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير﴾** [سبأ : ٤٥] وقال تعالى : **﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾** [الأعراف : ٧٤].

وقال عن قوم هود عليه السلام : **﴿أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون﴾** [الشعراء : ١٢٨ – ١٢٩] وقال عن قوم فرعون : **﴿كم**

تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ [الدخان : ٢٥ - ٢٧]. ولكن لما لم يستقم أصحاب هذه الحضارات ويسيروا على الطريق المستقيم ولم يصدقوا الرسل الذين بعثوا إليهم أهلكهم الله ودمرهم وأورث أرض بعضهم قوماً آخرين وبعضها بقيت خاوية خربة لتكون آية للمعتبرين. قال تعالى بعد أن ذكر جملة من الأقوام وتكذيبهم لرسلهم وكفرهم بالله : **﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾** [العنكبوت : ٤٠].

وهذه بعض الآيات التي تدلنا على الشرط في دراسة الآثار والمنهج الذي ينبغي أن يتبع في الدراسة ويوضح لنا القيمة المستفادة منها وهي العظة والاعتبار بما أصاب أصحاب هذه الآثار من الدمار والهلاك لمّا أعرضوا عن عبادة الله وتحكيم شريعته وأن هذه السنة من سنن الله الثابتة في كل من يعرض عن شرعه ويتبع هواه.

المبحث الثالث : الفهم الصحيح للقضاء والقدر

ومن القواعد المهمة في منهج كتابة التاريخ الإسلامي الفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر، وهذه القاعدة الإيمانية قد انحرف التصور الصحيح لها عند المسلمين المتأخرين فمنهم من أنكر ذلك وتنقص المؤمنين به، ومنهم من فهم القضاء والقدر على أنه تواكل وخمول واستسلام مذل. وكلا الموقفين انحراف ومجانب للصواب فالإيمان بالقضاء والقدر وبعلم الله وتقديره لما كان وما هو كائن أمر لازم ولا إيمان لمن لم يؤمن به إذ هو أحد أركان الإيمان «تؤمن بالقدر

خيره وشره»[1].

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وخلق أفعاله ﴿**والله خلقكم وما تعملون**﴾ [الصافات : ١٩٦] فكل أحداث البشرية وأعمالها قد كتبت في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، ولن يحدث في الكون كله فضلاً عن الأرض شيء يخالف سنته وقدره لما ثبت في الحديث الصحيح : «إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب، قال : رب وماذا أكتب؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»[2].

وفي الحديث الآخر : «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات فيكتب علمه وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح...»[3].

فهذه الحقائق لا بد من إدراكها والإيمان بها واستحضارها عند مطالعة الحوادث التاريخية لأن الإيمان بها هو أحد عناصر التقويم والحكم على الحادثة التاريخية فمثلاً انتصار المسلمين على الروم في معركة اليرموك. ولو أردنا أن نبحث عن الأسباب التي أدت إلى هذه النتيجة رغم أن القوتين غير متكافئتين لا في عدد الجيش ولا في نظام التدريب ولا نوعية السلاح وكثرته.

فعدد الروم سبعة أضعاف عدد المسلمين، وجيش الروم جيش نظامي مدرب وجيد التسليح بينما الجيش الإسلامي قليل الأسلحة ضعيف التدريب ويقاتل بعيداً عن مركز خلافته. ومع ذلك حصل له الانتصار، فلو بحثنا في الأسباب المادية المنظورة لنا بحثاً عقلياً مجرداً لما استطعنا أن نقبل نتيجة المعركة مما يضطرنا إلى رد هذه الأخبار

---

(١) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب في الإيمان : باب وصف الله جبريل للنبي ﷺ الإسلام والإيمان رقم (٨).

(٢) رواه أبو داود من حديث عبادة بن الصامت ٤/٢٢٥ رقم ٤٧٠٠ .

(٣) متفق عليه : انظر : اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (٢/٢٠٧).

الواردة بهذه المعلومات، أما إذا بحثنا المسألة من زاوية نظر أوسع وهي أن الأمر ليس أسباب لا بد أن تتبعها نتائجها إنما هناك قدر ومشيئة وخالق يدبر، يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء يذل ومن يشاء.

وأن الأسباب وحدها لا تؤدي إلى نتيجة إلا بقدر الله وتوفيقه، عند ذلك نقبل مثل هذه النتيجة ولا نستغربها، فالمسلم الذي يؤمن بقضاء الله وقدره وبمشيئته سبحانه المطلقة لا ينظر إلى التاريخ على أنه قوالب جامدة من الأسباب والمسببات، بل يدرك أنه ربما تكتمل الأسباب المادية في عمل من الأعمال أو معركة من المعارك ومع ذلك لا تأتي النتائج.

وبهذا يتضح لنا أنه لكي يكون الحكم على الحادثة التاريخية صحيحاً مستكملاً لعناصره لا بد من الفهم الصحيح لعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر وأنها لا تعني ترك التكاليف الشرعية، وترك الأخذ بالأسباب المقدورة والاستعداد بكل الوسائل المستطاعة وبذل الجهد في تحصيلها، ولا يجوز لأحد أن يترك العمل احتجاجاً بالقدر، لأنه لا حجة في ذلك، فما يقع من الأقدار هو في الحقيقة أمر غيبي بالنسبة لنا، ولذلك قال العلماء: (القدر سر الله في خلقه)[1]. وقد نُهي المسلمون عن الجدال في القدر، وورد في الحديث: «إذا ذكر القدر فأمسكوا»[2].

(فالتكاسل وترك العمل ليس مما يوجبه الرضا بالقضاء والقدر كما أن الاعتماد على الأسباب وحدها هو قطع الصلة بالمسبب والفاعل الحقيقي) و(بسب الانحراف في مفهوم القضاء والقدر وقع جملة من الكتاب المعاصرين في أخطاء شنيعة في تقديره للدولة الأموية والحكم عليها حيث قالوا: إن الدولة الأموية شجعت الاتجاه نحو الجبر والإرجاء وقالت: إن أعمالها لا تجوز معارضتها لأن من يعارضها يعتبر منكراً للقدر إذ

---

(١) انظر: منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ٢٠٠.
(٢) أبو نعيم حلية الأولياء (١٠٨/٤) وقد صححه الألباني، انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم (٣٤).

لو أراد الله غير ذلك لكان) (ومن أمثال ذلك أحمد أمين في كتاب ضحى الإسلام وشاكر مصطفى في كتابه دولة بني العباس، والدكتور عفت الشرقاوي في كتابه أدب التاريخ عند العرب).

وقد أطلق هؤلاء الكتاب هذا القول دون أن يوردوا عليه دليلاً، وهذا يرينا مدى التشويه الذي يلحق تفسير حوادث التاريخ الإسلامي عندما توضع في منظور غير إسلامي وعندما تنحرف المفاهيم والتصورات، وهذا الفهم الذي ذهبوا إليه والحكم الذي حكموا به مبني على الجهل بمفهوم القضاء والقدر، وتوهم أن بينه وبين التكاليف الشرعية من الأمر بالمعروف والنهي على المنكر والجهاد في سبيل الله معارضة، وليس الأمر كذلك كما أوضحنا، كما أن الوقائع التاريخية الثابتة تكذب هذا الادعاء فقد قتل كل من غيلان الدمشقي، ومعبد الجهني، اللذين أنكرا القدر في ظل الدولة الأموية، كما قتل الجعد بن درهم والجهم بن صفوان إمام الجبرية بأمر من الخفاء الأمويين.

المبحث الرابع : الإيمان بالغيب

ومن قواعد التصور والاعتقاد المهمة لدارس التاريخ الإسلامي الإيمان بالغيب وهو أحد أركان الإيمان، كما أنه أخص صفات المؤمنين بالله، قال تعالى في أول سورة البقرة : ﴿**الم. ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون**﴾.

ودارس التاريخ الإسلامي إن لم يكن مؤمناً وصحيح التصور في ذلك فإنه لا يستطيع أن يعطي تقييماً علمياً وواقعياً لأحداث التاريخ الإسلامي وحركته الجهادية، لأن المسلم المجاهد عندما يقاتل في سبيل الله يعلم أنه ليس وحده هو الذي يقاتل الكفار وأنه لا يقاتلهم بكثرة عدد الجنود ولا بتفوق السلاح وإتقان الإعداد المادي وحده،

وإنما بما ينزله الله عليهم من السكينة ورباطة الجأش والطمأنينة وبما يمدهم به من الصبر وقوة التحمل، وغير ذلك من الوسائل المتطورة وغير المتطورة فأحياناً ينزل الملائكة تقاتل إلى جانبهم كما حدث في معركة بدر وغيرها من المعارك، وأحياناً بما يجري الله من العوامل الطبيعية كإرسال الريح الشديدة التي فرقت الأحزاب عن المدينة.

قال تعالى : **﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيراً﴾** [الأحزاب : ٩]. وقال ﷺ : «نصرت بالرعب وأُهلكت عادٌ بالدَّبور»[١]. وأحياناً بما يجريه الله على أيدي بعض المؤمنين من الكرامات كما جرى لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة سارية بن زُنَيْم قال ابن حجر : إن سارية له صحبة[٢].

وقد روى هذه الحادثة ابن جرير الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٢٣هـ عن فتح (فسا وداوا بجرد) وقال : وكان عمر قد رأى المسلمين في المنام وأنهم بصحراء وأن العدو سيحيط بهم إن أقاموا بها فنادى في الناس الصلاة جامعة فأخبر الناس بما رأى ثم نادى : (يا سارية الجبل الجبل) وقال : إن لله جنوداً ولعل بعضها أن يبلغهم فما كان من سارية إلا أن أجمع هو ومن معه من المسلمين على الإسناد إلى الجبل ففتح الله لهم وهزم عدوهم[٣]. وقال ابن كثير : إنها رويت بإسناد جيد حسن[٤].

وكما في كتابة البطاقة إلى نهر النيل[٥] عندما توقف فيضان الماء وكان له سنة عند القبط وهي تقديم جارية بكر (عروس النيل) تلقى فيه فيجري.

---

(١) متفق عليه، انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ٢/٥٢٠، ومسلم ٢/٦١٧ .
(٢) الإصابة لابن حجر ٣/٥ – ٧ .
(٣) الطبري ٤/١٧٨ .
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/١٣١ .
(٥) مناقب عمر بن الخطاب : الجوزي ص١٧٣ وابن كثير : البداية والنهاية ٧/١٠٠ .

ولما أرادوا إلقاءها بعد فتح المسلمين لمصر قال لهم عمرو العاص : إن هذا الأمر لا يكون في الإسلام لأنه يهدم ما قبله، وكتب الخبر إلى عمر بن الخطاب فقال في هذه البطاقة : (من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر).

أما بعد فإن كنت تجري من قبلك فلا تجري، وإن كان الله الواحد القهار هو مجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك. فلما ألقاها عمرو فاض النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وكما حدث لعقبة بن نافع الفهري الذي بنى مدينة القيروان، روى ابن الحكم صاحب كتاب فتوح مصر والمغرب قال : حدثنا عبد الملك بن مسلمة حدثنا الليث بن سعد أن عقبة بن نافع غزا إفريقية، فأتى وادي القيروان فبات عليه هو وأصحابه حتى إذا أصبح وقف على رأس الوادي، فقال : يا أهل الوادي اظعنوا فإنا نازلون، قال ذلك ثلاث مرات، فجعلت الحيات تنساب والعقارب وغيرها مما يعرف من الدواب تخرج ذاهبة، وهم قيام ينظرون إليها من حيث أصبحوا حتى أوجعتهم الشمس وحتى لم يروا منها شيئاً، فنزلوا الوادي عند ذلك[1].

وكما حدث في خوض المسلمين البحر إلى جزيرة دارين بخيولهم وجمالهم وأرجلهم بقيادة العلاء بن الحضرمي وكأنهم يمشون على الرمل فلم يغرق لهم دابة ولا إنسان وقد سجل الشاعر عفيف بن المنذر[2] هذا الحدث بقوله :

ألم تر أن الله ذلل بحره ... وأنزل بالكفار إحدى الجلائل

دعونا الذي شق البحار فجاءنا ... بأعجب من فلق البحار الأوائل[3]

وأيضاً حدث مثل هذا أثناء فتح المسلمين للمدائن حيث خاضوا بقيادة سعد بن

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص٢٦٥، تاريخ خليفة بن خياط ص٢١٠ .
(٢) الإصابة لابن حجر ١٣٠/٥ .
(٣) تاريخ الرسل الملوك ابن جرير ٣١٠/٣، البداية والنهاية : ٣٢٩/٦ .

أبي وقاص نهر دجلة، وهي ترمي بالزبد مسودة من كثرة الماء وعمقه.

ودخلوا النهر أفواجاً حتى غطوه من الساحل إلى الساحل من كثرتهم وخرجوا منه أفواجاً ولم يغرق منهم أحد[1]. فالذي لا يؤمن بالغيب وأن لله جنوداً كثيرة من غير الإنس يمد بها المؤمنين متى شاء، فإنه لا يستطيع تفسير مثل هذه الحوادث ولا فهمها الفهم الصحيح، بل تراه إذا جاءه خبر من هذه الأخبار إما أن ينكره بالكلية أو يتعسف في تأويله ليخرجه عن دلالته المقصودة، وذلك تهرباً من إثبات المعجزات للأنبياء عليهم السلام والكرامات للمؤمنين الصالحين، وهؤلاء أصحاب المدرسة العقلية[2] الذين أقاموا العقل مقام النص الشرعي بل جعلوا العقل حاكماً على النص فيؤولون النص ليوافق عقولهم، وقد تلقف المستشرقون في العصر الحديث أفكار هذه المدرسة ونشروها وعظموا من شأنها لموافقتها لما يحملونه من أفكار مادية تتعارض مع الإيمان بالمغيبات، وقد جاراهم في هذا كثير من الكتاب المسلمين في ظل ظروف وتأثيرات معينة حتى من الذين حملوا راية التجديد الإسلامي من أمثال الأفغاني ومحمد عبده ومحمد فريد وجدي ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين وحسين هيكل.

فضلاً عن الكتاب (الليبراليين) الذين تشبعوا بالأفكار العلمانية أثناء بعثاتهم إلى الدول الأوروبية فلم يعد الإسلام في حسهم إلا مجرد تراث حضاري أو تعبد شخصي لا علاقة له بحياة الناس ولا علمهم ولا أنظمتهم ولذلك لم يراعوا الالتزام به في دراساتهم وأبحاثهم.

بل لقد أثار الكثير منه شبهات وافتراءات لا أساس لها في الفكر الإسلامي الصحيح، وهذه الطائفة (الليبراليون) كان لهم دور في إدارة وتوجيه التعليم في العالم الإسلامي ورسم خططه ومناهجه، وقلدوا في ذلك المناهج والدراسات العلمانية في

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٧/٦٤ – ٦٦ .

(٢) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ٢٠٦ .

العالم الأوروبي غربية وشرقية، كما أنهم قد أسهموا بنصيب وافر (مع الأسف) في التأليف عن التاريخ الإسلامي وصياغته بما يتناسب مع الأفكار العلمانية، وقاموا بتفسير حوادث التاريخ الإسلامي تفسيراً يؤكد المذاهب المعاصرة من العلمانية والقومية والاشتراكية والماركسية حتى يوجد لها سنداً تاريخياً.

لذلك لا تخلوا مؤلفات مثل هؤلاء سواء في السيرة النبوية أو صدر الإسلام أو حتى العصور الإسلامية المتأخرة من انحرافات فكرية وجهل بالدراسات الشرعية بل إن بعض ما كتبوه قابل للنقض جملة، فإذا كان هذا حال دراسات أبناء المسلمين فكيف يكون الحال بالدراسات التي أصدرها أعداء الإسلام من طوائف الكفر والإلحاد عن تاريخنا الإسلامي؟ إننا مهما افترضنا فيهم من نزاهة علمية وهي غير متوفرة بطبيعة الحال تجاه الإسلام وتاريخه فإن هناك عنصراً مفقوداً وهو توفر الإيمان بالغيب وهو عنصر بالغ الأهمية في تفسير التاريخ الإسلامي(١).

المبحث الخامس : معرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الأولى

الأمة الإسلامية أمة متراحمة مترابطة، تعرف لذوي القدر منزلتهم ولذوي الفضل فضلهم، فتعطي كلاً حقه بالقسط والعدل، وليست كالأمم الجاهلية المفككة الأواصر التي كلما جاءت أمة لعنت أختها، وكلما جاء جيل إما أن يجعل المسؤولية على الجيل السابق ويتابعه على غير هدى ولا بصيرة، كما حكى الله سبحانه عنهم في كثير من الآيات ﴿**وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون**﴾ [البقرة : ١٧٠] وقال تعالى : ﴿**بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون**﴾ [الزخرف : ٢٢] وقال

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ٢٠٨ .

تعالى : ﴿**وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون**﴾ [الزخرف : ٢٣] أو يحط من قدر الجيل السابق، ويتعالى عليه ويفتخر بما حقق من تقدم مادي لم يحصل لذلك الجيل. والموقف في كلا الأمرين ظلم للجيل السابق وإن بدا في الصورة الأولى وكأنه تقدير وتعظيم، لأنه تقدير في غير محله، وعلى غير مستند من الحق والعدل.

أما هذه الأمة الإسلامية التي شرفت بحمل رسالة الله تعالى، وببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ فإن الله قد رسم لها منهجها وطريقها المستقيم فقال تعالى : ﴿**والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم**﴾ [الحشر : ١٠].

لذلك لا بد من معرفة حق أصحاب رسول الله ﷺ وما لأصحاب القرون الثلاثة الأولى في تاريخ الإسلام من تميز وفضل وفق المقاييس الشرعية دون غلو أو تفريط، فإن الذي أعطاهم هذا التميز والمنزلة النصوص الشرعية إذ ليس الأمر اجتهاداً منا أو افتراء على الحق، فإنه ليس لأحد أن يقرر برأيه المحض دون مستند من الشرع حكماً شرعياً لقوله ﷺ : «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(١).

المبحث السادس : التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام

وهذه القاعدة جليلة عظيمة، فمن رزقه الله تصوراً صحيحاً وفهماً في علم الشريعة يعرف أن البشر يخطئون مهما كانوا محسوبين على الإسلام، فقواعد الإسلام وأحكامه تتلقى من مصدرها الحق - الكتاب والسنة - لا من عمل الناس وسيرتهم - مالم يكن إجماعاً ممن ينعقد بهم الإجماع - ولا حجة في عمل أحد ولا قوله إذا كان

---

(١) رواه مسلم رقم ١٧١٨ .

مخالفاً لنصوص الشرع ولهذا قال الإمام مالك: (ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ) وكثير من الناس يخطئ في هذه المسألة فيظن أن كل ما حدث في التاريخ الإسلامي هو تطبيق لمبادئ الإسلام، أو أن الإسلام أمر بمثل هذه الأفعال التي قام بها المسلمون في ظل الحكم الإسلامي، واعتبر ذلك الحدوث حجة أو مسوغاً للاقتداء به على اعتبار أنه سابقة تاريخية حدثت في المجتمع الإسلامي، لكن من المعلوم أن السوابق التاريخية لا يجوز العمل بها إذا خالفت النصوص الشرعية، أو حدثت نتيجة انحراف وخطأ في المفهوم الإسلامي، أو كانت صادرة عمن لا يحتج بعمله.

ولذلك تراهم إذا تحدثوا عن حضارة الإسلام يذكرون أنواعاً من الأفعال والتنظيمات هي مناقضة تماماً للأحكام الشرعية دون أن يوضحوا أن مثل هذا مما يخالف الأوامر والنواهي الشرعية.

والأمثلة على ذلك كثيرة مثل ما يكتبون عن فن بناء القباب على القبور، ويعرضون كثيراً من المخالفات الشرعية على كونه تقدماً حضارياً، ومن نتائج الحضارة الإسلامية ويفاخرون به غيرهم، وهذا في الحقيقة من فساد التصور والخلط بين انحرافات البشر وأخطائهم وبين أحكام الإسلام، والمفترض في الباحث أن يصطحب قيم الإسلام وموازينه، لأن البشر يخطئون ويصيبون، ويستقيمون على الطريقة فترة وينحرفون فترات، وتتبدل مفاهيمهم وموازينهم إن لم ترجع إلى ضابط ومقياس شرعي، أما أحكام الإسلام وموازينه فهي ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، كما قال تعالى: ﴿**وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم**﴾ [الأنعام: ١١٥].

والذي ينبغي التنبه له أنه في مجال إصدار الأحكام التاريخية على الأشخاص والأحداث أن لا تتأثر أحكامنا بالمنزلة العلمية أو المكانة الاجتماعية للأشخاص الفاعلين في الحدث التاريخي الذي نعالجه مما يدفعنا إلى محاولة تبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب، على حساب تشويه المنهج الإسلامي وهذا لا يعني أننا نسيء الأدب ولا

نلتمس العذر لمن كان له عذر بل إحسان الظن بالمسلم هو المطلوب.

وهناك فرق بين الاعتذار وبين التبرير، والمحذور هو التعصب وتبرير الخطأ وإظهاره بمظهر الصواب (لأن تبرئة الأشخاص لا تساوي تشويه المنهج)[١].

فالمنهج أعظم من الأشخاص وأكبر، وصيانته أولى وأحرى، فالحق لا يعرف بالرجال ولا بكثرة من قاله إنما يعرف الرجال بقدر تمسكهم بالحق وإن كانوا هم القلة، فالجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[٢] والمنهج لا بد أن يبقى مصوناً ومحافظاً عليه من التشويه والتحريف.

المبحث السابع : الإيمان بالسنن الربانية

دراسة التاريخ بوعي وإدراك تساعد الدارس على معرفة السنن الربانية وتكشفها له مما يجعله يستفيد من دراسته، ويخطط لمستقبله على ضوء تلك السنن. وسبق أن ذكرنا أن من ثمرات دراسة التاريخ التعرف على السنن الربانية، والذي يهمنا في هذا الموضوع هو بيان ارتباط الإيمان بالسنن الربانية بمنهج كتابة التاريخ الإسلامي، وذلك أن لله سبحانه وتعالى سنناً ثابتة في حركة الإنسان في هذا الكون وهذه السنن كما عرّفنا عليها القرآن ذات ارتباط وثيق بقضية الإيمان والكفر والعدل والظلم وقضايا السلوك الاجتماعي والأخلاقي للمجتمعات البشرية، والذي يحدد لنا اتجاهات السنن الربانية هو القرآن الكريم فهو الذي عرفنا بالخير وبالشر وحدد دلالة ذلك، وعرفنا بالإيمان بالله وبالشرك وبالحق والباطل والعدل والظلم، وأن أظلم الظلم هو الإشراك بالله قال تعالى : **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾** [لقمان : ١٣].

---

(١) انظر : ظلال القرآن : ٥٣٣/١ .

(٢) انظر : إغاثة اللهفان : ٧٠/١ .

وإن الظالم لا بد أن ينال جزاءه، كما أن بسط الدنيا على أحد من الناس ليس دليلاً على محبة الله له وإنما يكون من باب الاستدراج قال تعالى : **﴿ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم أنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين﴾** [آل عمران : ١٧٨]، وقال تعالى : **﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويداً﴾** [الطارق : ١٧] ثم العاقبة ستكون للمؤمنين، وأن ما يصيبهم في الحياة الدنيا من تعب وعنت وظلم هو للابتلاء والتمحيص وهذا سنة من السنن الربانية.

قال تعالى : **﴿الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾** [العنكبوت : ١ – ٢].

وقال تعالى : **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾** [البقرة : ٢١٤] وأن النصر الحقيقي لا يكون إلا من عند الله **﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾** [آل عمران : ١٢٦] وأنه للمؤمنين متى وفوا بشرط الإيمان **﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾** [الروم : ٤٧] وقال تعالى : **﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾** [المجادلة : ٢١] **﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾** [غافر : ٥١].

وأن الأيام دول بين الناس قال تعالى : **﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين﴾** [آل عمران : ١٤٠] وأن الحياة الهادئة المباركة الآمنة لا تكون إلا في ظل الإيمان والتقوى والاستقامة على منهج الله تعالى كما قال تعالى : **﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾** [الأعراف : ٩٦].

وأن الإعراض عن منهج الله وترك العمل بشريعته يؤدي بالأمة إلى مدارك

الهلاك وضنك الحياة المادية منها والنفسي قال تعالى : ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾ [طه : ١٢٤].

وما أشارت له الآيات من معيشة الضنك في الحياة الدنيا لمن يعرض عن ذكر الله، واقع ملموس مشاهد، فإن المعرضين عن ذكر الله يعيشون إما ضنكاً مادياً في رزقهم أو ضنكاً نفسياً شعورياً، أو هما وقلقاً، لأن المعاصي تكون شؤماً على أصحابها وفساداً في الأرض قال تعالى : ﴿**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**﴾ [الروم : ٤١] وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد «وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[١].

وإن الجهاد سنة ربانية فما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا قال تعالى : ﴿**ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾ [البقرة : ٢١٥]. فالله سبحانه وتعالى يدفع بأهل الخير والصلاح فساد أهل الشر والضلال.

فهذه أمثلة من السنن الربانية التي ذكرها القرآن، ولا يدركها إلا من قرأ القرآن وآمن به وصدقه، ثم إذا بحث الإنسان في الواقع التاريخي للحياة البشرية يجد مصداق ذلك فيزداد إيماناً على إيمانه، ومعرفة وعلماً بواقعه التاريخي الحاضر، ويجد القدرة على دراسة هذا الواقع دراسة تمكنه من اكتشاف الأخطاء ووصف العلاج اللازم لما أصيبت به البشرية من أمراض وانحرافات، حتى تتفادى الوقوع في الانحراف عن السنة الربانية وتصيب من خيرها.

وبذلك يتضح الارتباط الوثيق بين منهج كتابة التاريخ الإسلامي والإيمان بالسنن الربانية في الكون كما دل عليها القرآن وكشفتها التجارب التاريخية، وهذه السنن مرتبة بالأحكام والقوانين الشرعية وتطبيق منهج الله في حياة الناس.

---

(١) المسند ٥/٢٧٧، وابن ماجة ٢/١٣٣٤ .

(٢) انظر : منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص٢٣٥ .

الفصل الرابع

قواعد في المصادر

المصادر بالنسبة للمؤرخ تشكل أهمية كبرى لأنه بدون توفر المصادر لا يستطيع أن يكتب أي بحث تاريخي، والتاريخ معرفة نقلية تعتمد على الأخذ من المصادر، لأن التاريخ خبر عن حدث وقع وانتهى، فلا يغني فيه الخيار والرجم بالغيب ولا التجارب المعملية، كما يفعل الأديب والقاص والشاعر والعالم الفيزيائي.

وما دامت المصادر بهذه الأهمية للمؤرخ فلا بد أن يعتني بها غاية الاعتناء وأن يرتبها الترتيب الصحيح وفق معايير نقدية محددة كدرجة الثبوت والثقة في المصدر كالقرب من الواقعة التاريخية سواء قرب المصاحبة والمعايشة أو القرب الزمني.

فيقدم ما هو أوثق ثبوتاً كالنقل المتواتر ثم ما هو أقل من ذلك وتقدم رواية من هو ألصق بالخبر على من لم تكن هذه صفته، وهنا مجموعة القواعد التي يلزم الباحث في التاريخ بصفة عامة والتاريخ الإسلامي على وجه أخص أن يراعيها أثناء نظره في المصادر واستقاء المعلومات التاريخية ونقدها.

---

(١) انظر :منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص٢٣٦ .

المبحث الأول : اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل المصادر

وذلك أن القرآن الكريم كلام الله الذين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وقد تكفل بحفظه من التحريف والزيادة والنقصان ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [الحجر : ٩] والقرآن قطعي الثبوت، آية آية وكلمة كلمة.

ويأتي بعد القرآن في قوة الثبوت الحديث النبوي الشريف فإن النبي ﷺ كما أخبر الله عنه لا ينطق عن الهوى، وقد حفظ الصحابة رضي الله عنهم أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته وأدوها إلى من بعدهم كما سمعوها.

وقد اتبع علماء الحديث والرواية أرقى منهج علمي وأوثقه في تدوين السنة وفي نقد الرجال والمرويات، وفي الكتاب والسنة ورد كثير من الأخبار التاريخية القديمة كسير الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم، أو الأخبار المعاصرة لنزول الرسالة إلى محمد ﷺ مثل بعض حوادث السيرة النبوية ومواقف أهل الأرض من الدعوة الإسلامية.

كما أنه قد جاء في الكتاب والسنة إشارات إلى الأحداث المستقبلية سواء كان وقوعها في الحياة الدنيا أو الآخرة، وذلك مثل علامات الساعة وأشراطها ومثل أحداث اليوم الآخر، فقد أخبر ﷺ بما تؤول إليه حالة الأمة الإسلامية بعده وما يصيبها من التفرق، وما يكون فيها من حركات الإصلاح والتجديد، كما أخبر أنه ستقع أحداث كثيرة بين يدي الساعة، وهي أشراط الساعة، التي اعتنى العلماء بجمعها وتخصيص أبواب لها في مصنفاتهم بل قد أفردها بعضهم بكتب مستقلة.

والذين لا يعتمدون القرآن والسنة من مصادر دراساتهم وأبحاثهم، فإنهم يحرمون هذه الفوائد النظرة الشمولية والتشخيص الدقيق لاتجاهات الأحداث، وحتى لو عرفوا تشخيص بعض الأسباب، فإنهم لا يستطيعون وصف العلاج الحقيقي للأمراض الاجتماعية والخلقية التي تصيب المجتمعات فتؤثر في تطور الأحداث

وتوجيهها فإن فاقد الشيء لا يعطيه، ولا يملك علاج مثل هذه الأمراض والأدواء إلا الشارع الحكيم ولا يصح أن يتكلم فيه من ليس عنده علم من الشرع.

لذا فإنه لا بد من اعتماد المصادر الشرعية في كل دراسة تعالج وضعاً من الأوضاع الاجتماعية وتساعد على توجيه المجتمع وتنميته سلوكياً واجتماعياً وهذا العمل من أعظم وظائف المؤرخ وأهم ثمرات دراسته.

فالمصادر الشرعية واجبة التقديم باعتبارين :

١ – لأنها أصدق من كل وثيقة تاريخية فيما ورد فيها من الأخبار وذلك لصدق مصدرها، وعلمه وهيمنته كما أنها وصلتنا بأوثق منهج علمي، فالقرآن وصلنا بالتواتر الموجب العلم القطعي في كل آية وكل كلمة بل وكل حرف. وصحيح السنة وصلنا بمنهج علمي دقيق هو أرقى ما تستطيعه الطاقة البشرية.

٢ – والاعتبار الثاني هو لما تدل عليه من السنن الربانية والنظرة الشمولية لتاريخ البشرية كلها على مدار الزمن ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، مما يهيئ للباحث المقدرة على اكتشاف القوانين العامة في حركة البشرية وارتباط ذلك بالهدي والضلال والكفر والإيمان سلباً وإيجاباً، والقرآن والسنة يعطيان الدارس التصورات والمفاهيم والقيم التي في ضوئها تُفَسر أحداث التاريخ ويحكم عليها.

وقد حاول كثير من المؤرخين اكتشاف السنن والروابط التي تربط الأحداث أو ما يسمونه (فلسفة التاريخ) غير أنهم لعدم اهتدائهم بالمصادر الشرعية لم يصلوا إلى نتائج مطمئنة.

فالمسيح في نظرهم هو ابن الله، وأنه قدَّم نفسه قرباناً تكفيراً عن الخطيئة الأولى خطيئة آدم أما بقية التفاسير للتاريخ فإنها تغفل دور الأنبياء والرسل عليهم السلام، وأثر رسالاتهم في تاريخ البشرية، ولا تعطي أيه أهمية لما جاؤوا به من الهدى والنور

والدعوة إلى عبادة الله وحده، ونبذ الشرك والأنداد، وإقامة الحكم بين الناس بالقسط.

يقول أحد الكتاب المعاصرين مبيناً خطر الدراسات التي لا تعتمد المصادر الشرعية وإن كان هو لم يسلم من لوثة الاستشراق ولكن شهد شاهد من أهلها : (المستشرقون سبقوا المسلمين في دراساتهم ذات الطابع الحديث، وكانوا أساتذة لكثير من المسلمين الذين أوفدوا إلى أوروبا للتعمق في الدراسات الإسلامية - هكذا - وطرق البحث فيها.

وقد تأثر بعض هؤلاء المسلمين بأساتذتهم المستشرقين، عادوا فكتبوا ونقرأ ما كتبوا فنلمس أن كتاباتهم تجافي روح الإسلام في كثير من الأحيان، والذي سبب ذلك هو أن هؤلاء الموفدين لم يكونوا قبل إيفادهم على علم واسع بالدراسات الإسلامية، وكتابات هؤلاء المسلمين أكثر خطورة من كتابات المستشرقين أنفسهم، ومرجع ذلك إلى أن القراء يقرؤون للمستشرقين بحذر ولكنهم قد يستسلمون للكاتب المسلم ولا يحذرون منه)[١].

فكل دراسة للتاريخ الإسلام لا تعتمد المصادر الشرعية لا بد أن تصاب بالنقص والتشوه والبعد عن التصور الإسلامي، لأن التاريخ الإسلامي جزء لا يتجزأ من الدراسات الإسلامية وهو تاريخ أمة ذات عقيدة محركة لها ومسيطرة على نشاطها واتجاهاتها.

وبسبب الفصل الحاصل بين الدراسات التاريخية والدراسات الشرعية أتيحت الفرصة لعدد غير قليل - من الذين لم يتلقوا قدراً كافياً من علوم الشريعة - للكتابة في التاريخ الإسلامي، ومن ثم جاءت كتاباتهم صدى للدراسات الاستشراقية، وتحمل كثيراً من لوثة الانحراف الفكري والغزو الثقافي وتمثل الفهم المشوه للشريعة، وحتى المخلصين من هؤلاء الباحثين لا يكادون ينجون من هذه الآثار، وذلك راجع إلى قلة

---

(١) أحمد شلبي التاريخ والحضارة الإسلامي : ٥٨/١ .

البضاعة في الدراسة الشرعية، وللمنهج الذي تلقوا به درسة التاريخ.

إن الواجب يقضي بأن كل من يتصدى لدراسة التاريخ الإسلامي وتدريسه يجب عليه دراسة القرآن الكريم، ومعرفة أسباب النزول وأصول التفسير وأصول علم الحديث ومعرفة الأحكام الشرعية، وعقيدة أهل السنة والجماعة وعقائد الفرق المخالفة لها لأن هذه من أهم المصادر لدراسة التاريخ الإسلامي وخاصة في مجال التحليل والمنظور التاريخي والمنهجية العلمية.

المبحث الثاني : عدم التسليم لكل ما ورد في الكتب المنزلة قبل القرآن

قال تعالى : ﴿**من الذين هادوا يحرفو الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا**﴾ [النساء : ٤٦] وقال تعالى : ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون**﴾ [البقرة : ١٤٦] وقال : ﴿**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير**﴾ [المائدة : ١٥].

وقال : ﴿**ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه، يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا**﴾ [المائدة : ٤١] ففي هذه الآيات وغيرها دلالة واضحة على تحريف اليهود والنصارى لكتبهم المنزلة على رسلهم والواقع يثبت هذا التحريف، فإن الإناجيل التي بين أيدينا قد دونت بعد رفع عيسى عليه السلام بأزمان متطاولة واختلافاتها كثيرة، وما تحويه من الكلام المنكر والقصص الفاسد والشرك بالله، من أكبر الأدلة على تحريفها مما يجعل كل عاقل يقطع بأن هذا ليس مما يرضاه الله ويحبه فضلاً عن أن يكون من كلامه سبحانه وتعالى. فالكتب السماوية السابقة لنزول القرآن منسوخة الشرائع والأحكام

بهذه الشريعة الخاتمة.

أما أخبارها وقصصها فهي مترددة بين الصواب والخطأ؛ لثبوت وقوع التحريف والزيادة والنقص، ولذلك قال رسول الله ﷺ : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا»[1].

المبحث الثالث : معرفة شروط المؤرخ المقبول

ومن المعلوم أن الأخبار التاريخية في ثبوتها وعدالة رواتها واتصال أسانيدها لا تصل إلى درجة الأحاديث النبوية إلا في القليل النادر، مثل ما جاء مروياً عن طريق علماء الحديث، كأخبار السيرة النبوية وخلافة الراشدين، وبعض أخبار الأمم السابقة الواردة عن طريق السنة، إنما غالبها محمول عن الأخباريين منقطع الأسانيد ويكثر فيها المجاهيل بل إن بعضهم يروي بدون إسناد، أو حتى تبيين المصادر التي حمل عنه المؤرخ، ورغم ذلك فإن التاريخ الإسلامي إذا قورن بغيره من تواريخ الأمم نجد أنه قد حفظ وخدم ودوّن في وثائق، وتناقله الخلف عن السلف، وغالب أخباره وحوادثه الرئيسية قد وصلتنا بالاستفاضة والتواتر، وبالروايات المشهورة، ولا يقع الخلاف ويحتاج الأمر إلى التدقيق إلا في تفاصيل الحوادث، وهذا الوضوح التاريخي لا يوجد في تاريخ أمة من الأمم كما هو في التاريخ الإسلامي. والشروط المطلوبة في المؤرخ ليكون مقبول الرواية نوعان :

شروط تتعلق به ذاته، وأخرى تتعلق بما ينقله ويرويه. أما الشروط المتعلقة بذاته فهي :

١ – العدالة، والعدل هو المسلم البالغ العاقل الذي سلم من الفسق وخوارم المروءة[2].

٢ – القدرة على التمييز بين المقبول والمردود من الروايات وذلك بمعرفة الرواة

(١) رواه البخاري، انظر : شرح فتح الباري : ٨/١٧٠، ١٣/٣٣٣ .
(٢) أحمد شاكر : الباعث الحثيث : ٩٢ .

وما قيل فيهم من جرح أو تعديل، ومعرفة الأصول المنهجية في النقد والموازنة بين الروايات المتعارضة وكيفية الجمع بينهما.

٣ - العلم بأصول الأحكام الشرعية وبمقادير الناس وأحوالهم ومنازلهم وبمدلولات الألفاظ ومواقعها.

٤ - مصاحبة الورع والتقوى بحيث لا يأخذ بالتوهم والقرائن التي تختلف.

٥ - الضبط لما يراه أو يسمعه.

٦ - تجنب الغرض والهوى. وهذا أمر يعز وجوده إلا في القلة النادرة.

٧ - حسن التصور للموضوع الذي يكتب، وذلك أن يفهم الموضوع الذي يبحثه فهماً جيداً ويحيط به من كافة جوانبه.

٨ - أن يكون جيد العبارة عف اللسان عن المنكر من القول.

وبخصوص الشروط التي تتعلق بما يرويه المؤرخ فقد ذكر السبكي[(١)] في طبقات الشافعية قاعدة في المؤرخين، وجعل من الشروط اللازمة لما يرويه المؤرخ ما يلي:

١ - اعتماد اللفظ دون المعنى وذلك أن ينقل الكلام بنصه دون أن يتصرف فيه بتقديم أو تأخير أو تدوين المعنى، ومن هنا انتقد العلماء ابن حبان حيث تصرف في ألفاظ الجرح والتعديل المروية عن العلماء في نقد الرواة[(٢)] وعبر عنها من عند نفسه.

٢ - أن يسمي المؤرخ المصدر الذي نقل عنه معلوماته وبذلك تتضح مصادره وتعرف.

---

(١) هو الشيخ تاج الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي ولد سنة ٧٢٧هـ جد في الطلب وتولى التدريس وله مؤلفات كثيرة توفي سنة ٧٧١هـ. انظر الشوكاني البدر الطالع: ٤١٠/١ .

(٢) انظر الذهبي: ميزان الاعتدال: ٥٠٧/٣ في ترجمة ابن حبان.

٣ – أن يكون نقله مضبوطاً.

٤ – زاد السخاوي شرطاً آخر وهو (التحري فيما يراه من الوقائع التي كانت بين أعيان الصدر الأول من الصحابة رضي الله عنهم، لما أمرنا به من الإمساك عما كان بينهم والتأويل له بما لا يحط من مقدارهم، ويلتحق بذلك ما وقع بين الأئمة سيما المتخالفين في المناظرات والمباحثات)[١].

وهذا الشرط مهم للغاية، وعدم مراعاته كان السبب في وقوع كثير من الأخطاء والانحرافات في كتابة التاريخ الإسلامي، وكان ما دُوِّنَ من مثل هذه الأخبار عوناً للمستشرقين والحاقدين على الإسلام وعلمائه فيما نشروه من دراسات عن التاريخ الإسلامي حتى أخفوا معالمه الأساسية، وأظهروه في صورة قاتمة شوهاء لا تزيد على كونها صراعاً على السلطة وتكالباً على الشهوات، وفسروا التاريخ الإسلامي كما يحلو لهم تفسيراً مادياً أو قومياً أو علمانياً.

المبحث الرابع : معرفة حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء والزندقة

من الأمور المهمة في المصادر معرفة الحدود التي تراعى عند الرجوع إلى كتب أصحاب الأهواء من الفرق التي ضلت الطريق، وفارقت الصراط المستقيم إما بدعوى تأويل غير سائغ، أو استجابة لشهوة وهوى، أو عن زندقة وكفر.

وقد اعتنى العلماء بضبط مذاهب الفرق وأقوالهم لكي تعلم وتعرف حتى أفرد بعضهم ذلك بمؤلفات خاصة مثل أبي الحسن الأشعري (ت ٣٣٠) في (مقالات الإسلاميين) وأبي الحسين الملطي الشافعي (ت ٣٧٧) في (التنبيه والرد على أهل

---

(١) السخاوي : الإعلان بالتوبيخ ٦٤ – ٦٥ .

الأهواء والبدع)، وأبي محمد بن حزم (ت ٤٥٦) في كتابه (الفصل في الملل والنحل) ومثل أبي الفتح الشهرستاني (٥٤٨) (في كتابه الملل والنحل).

كما أن أصحاب الفرق أنفسهم قاموا بتدوين مذاهبهم ومعتقداتهم وأخبارهم وتراجم رجالهم وعلمائهم، ومناظراتهم وردودهم على المخالفين لهم ومنهم من اشتغل بالتاريخ العام فدون الأخبار وصاغها وفقاً لمعتقده الديني ومذهبه السياسي فأبرز مثالب خصومه وأخفى كثيراً من جهودهم وحسناتهم، ولأجل هذا فإنه لا بد للمؤرخ المسلم أن يتعرف على مؤلف ما يرجع إليه من المصادر فيتعرف على عقيدته واتجاهه السياسي والمذهبي لأن هذه المعرفة تمكنه من التعامل مع النصوص التي يوردها ذلك المؤرخ بما تكون لديه من خلفية عن اتجاهاته وآرائه ثم يقارنها بغيرها مما عند أصحاب الفرق الأخرى وبما عند الثقات العدول المسلمين.

والموقف من كتب أصحاب الفرق والأهواء ينظر له من ثلاث زوايا هي بحسب موضوع الرواية :

١ - فما كان متعلقاً بنقل حكم من أحكام الشريعة وروايته فإن علماء أصول الحديث قد قرروا في كتبهم أن الرواية عن المبتدعة تنقسم إلى قسمين[١]

القسم الأول : فمن كانت بدعته مكفرة مثل الروافض الذين يسبون أبا بكر وعمر ويكفرون الصحابة، ومثل طوائف الباطنية من قرامطة وإسماعيلية ونصيرية وغيرهم من الزنادقة كالخرمية والحلولية والثنوية، فهؤلاء لا تقبل روايتهم ولا كرامة[٢].

---

(١) ذهب إلى ذلك ابن الصلاح والنووي، والذهبي، والعراقي، وابن حجر، وغيرهم من المتقدمين من علماء الجرح والتعديل مثل محمد بن سيرين، وعبد الله بن المبارك، ومالك بن أنس كما في الكفاية للخطيب : ١٩٤، يردون رواية كل مبتدع.

(٢) راجع الذهبي : ميزان الاعتدال : ٤/١ في ترجمة أبان بن تغلب فقد فصل في ذلك وبين بياناً شافياً.

أما القسم الثاني من المبتدعة الذين لا تصل بدعتهم إلى الكفر والخروج من الملة، فمن كان منهم معروفاً بالكذب أو قلة الضبط فلا تقبل روايته، وهذا شرط في كل راو مبتدع أو غير مبتدع، ومن كان مشهوراً بالورع والتقوى والضبط لما يرويه فتقبل روايته حتى وإن كان داعية لبدعته شريطة أن لا يكون ما يرويه مؤيداً لبدعته، واحتجوا لهذا بإخراج البخاري في صحيحة لعمران بن حطان الخارجي مادح عبد الرحمن بن ملجم – قاتل علي بن طالب – فهو من أكبر الدعاة إلى بدعته، ولكن لما عرف بالورع وأنه لا يكذب أخرج الأئمة حديثه[1].

٢ – ما كان متعلقاً بالأخبار عن أهل السنة سواء في التاريخ العام أم في التراجم الشخصية لهذا لا ينظر فيه إلى تعصب الراوي من عدمه، فمن لاحت عليه أمارات التعصب أسقط خبره؛ لأن الخصومة حجاب ساتر عن رؤية الحقيقة كما قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلـة ولكن عين السخط تبدي المساويا

أما من لا يلحظ عليه التعصب وكان عدلاً في ذاته فيسبر خبره ويقارن بغيره من الأخبار وبالوجهة العامة للمجتمع الإسلامي.

٣ – والزاوية الثالثة في النظر هي روايتهم الأخبار عن أهل طائفتهم ومذهبهم وهذا كالإقرار منهم فهو حجة عليهم، خاصة حكاية أقوالهم ومذاهبهم فهم أعرف ببعضهم بعضاً وبأصول مذهبهم ومنطلقاته الفكرية وكما قيل في المثل : (من فمك أدينك).

---

(١) انظر الحافظ ابن كثير : اختصار علوم الحديث : ١٠٠، والسيوطي في التدريب : ٣٢٤/١، ٣٢٩ .

المبحث الخامس : معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين

فإذا كان الموضوع متعلقاً بديننا من شرح أو تفسير، أو إطلاق أحكام على الشخصيات الإسلامية، أو على علم من علوم الإسلام، أو نظام من النظم الإسلامية أو دراسة لسيرة النبي ﷺ فإنهم لا يصدقون فيما يقولونه، ولا يحل للمسلم أن يأخذ عنهم في هذا المجال، لأنهم ليسوا أهلاً أن يؤخذ عنهم شيء من دين الله، ولأن من شروط البحث في هذه القضايا الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

فإذا كان علماء الإسلام لا يثبتون الأحكام بما يرويه المسلم ضعيف الضبط، فكيف يحق لقوم مؤمنين أن يحملوا عن كافر ساقط العدالة يحمل الحقد والبغضاء على هذا الدين وأهله ما الله به عليم، إن القول في الأحكام الشرعية وفي النظم الإسلامية وفي تقدير رجاله وتاريخه لا يؤخذ إلا من المسلم العارف الثقة، أما غيره فلا اعتبار لقوله ولا لخلافه لو خالف.

المبحث السادس : قواعد في أسلوب العرض

لما كان الأسلوب هو الأداة التي يعرض بواسطتها المؤرخ موضوعه فإنه يلزمه أن يعتني به، ويراعي المستوى العلمي والوسط الاجتماعي الذي يكتب له بحيث يكون واضحاً ومؤدياً للأهداف العلمية التي قصدها من بحثه.

وبما أن دراسة التاريخ في حس المسلم مرتبطة بعقيدته، والتاريخ أداة من أدواته في الدعوة إلى الله وتحقيق عبوديته بإقامة منهجه وتحكيم شريعته فإنه يتوجب عليه ملاحظة بعض القواعد في أسلوب الكتاب وطريقة العرض والتي نوردها فيما يلي :

المطلب الأول : جعل العقيدة الإسلامية المحور الأساسي في عرضه

وذلك بتركيزه على التصورات الإسلامية الصحيحة أثناء العرض الموضوعي للحادثة التاريخية مع ملاحظة المحافظة على الوقائع التاريخية وعدم الإخلال بها وعرضها كما جاءت في مصادرها الصحيحة.

وعليه أن يتابع العقيدة في الحوادث والوقائع وتوجيهها لها، وعليه أن يعتني بعرض النتائج المترتبة عن الالتزام بالعقيدة من حصول النصر والتمكين، وتدفق الخيرات، وانتشار الأمن والطمأنينة في النفوس وانقطاع سبل الفساد، وإيضاح عرض النتائج المترتبة عن الانحراف العقيدي، والتقصير في ذلك، قال تعالى : ﴿**لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلنا بجنتيهم جنتين ذاوتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور**﴾ [سبأ : ١٥ – ١٧].

فإن هؤلاء القوم لما أعرضوا عن دين الله وظلموا أنفسهم أرسل الله عليهم سيل العرم فشتتهم ومزقهم كل ممزق حتى قيل المثل : (تفرقوا أيدي سبا) وهذه سنة الله في كل من أعرض عن عبادته وكذب رسله.

وإن البشرية على طول تاريخها كلما فاءت إلى العقيدة وتمسكت بها احصل لها السعادة والتمكين في الأرض، وكلما بعدت عنها أصيبت بالأمراض الاجتماعية والخلقية وفشا فيها الظلم والجور وسلط عليها الأعداء.

فالتركيز على محور العقيدة والتذكير بها في كل مناسبة، وربط الحوادث بها وبمقتضياتها هو أسلوب القرآن وطريقته في عرضه لتاريخ الأنبياء عليهم السلام، فإنه يركز على الوحدانية وإخلاص العبودية لله، ونبذ الشرك والمشركين، وبيان تناقضهم ويجعل القصص ونتائجها مرتبطة بذلك.

المطلب الثاني : التركيز في العرض على الأهداف والغايات

المؤمن له في الحياة هدف وغاية عليا يسعى دائماً لتحقيقها وهي عبادة الله وحده، وعند دراسته لحقبة معينة من الزمن أو حادثة من الحوادث فإنه ينظر إلى هذه الدراسة على أنها وسيلة من الوسائل للوصول إلى الغاية العليا، فلا ينفق كل جهده في الوسيله ويترك الغاية، ولذلك ينبغي أن لا تشغلنا الدقائق التفصيلية في حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث، والرؤية الشاملة له، وعن الاعتبار الذي يترك في النفس أثراً، وإنفاق الوقت والجهد في البحث عن أمور لا طائل تحتها ولا تعود على الباحث بفائدة ليس من هداف المسلم ولا غايته في الحياة إلا أن يكون البحث في التفصيلات متعلق به مقصد شرعي فلا بأس حينئذ من البحث عنه ومحاولة إثباته. وهذا هو ما يلحظ من توجيه القرآن للذين تجادلوا في عدد أصحاب الكهف، قال تعالى : ﴿**سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل، فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً**﴾ [الكهف : ٢٢].

فالخلاف حول عدد أصحاب الكهف يستخلص من ورائه أن الناس دائماً يتعلقون بالأمور الجانبية التي لا فائدة ترجى من وراء معرفتها، ويختلفون في ذلك ثم يخوضون بالجدل فيه بغير علم ويتركون المقاصد والأمور المهمة، وهي أخذ العبرة من وراء سياق القصة، وإنه ليستوي في أخذ العبرة أن يكون عددهم ثلاثة أو خمسة أو سبعة أو أقل أو أكثر، فالعبرة في أمرهم حاصلة بالعدد القليل والكثير، ولكن إذا وجد علم صحيح بعددهم فإنه لا مانع من الأخذ به وإثباته كحادثة تاريخية، فالذي يجب على المسلم التركيز على الأهداف والغايات والتذكير بها في كل مناسبة[١].

---

(١) حول تفسير الآية راجع : ابن كثير : ٥/١٤٤، سيد قطب : ٥/٢٢٦٥ في الظلال.

المطلب الثالث : أن يكون العرض موحياً بتحبيب الخير وتبغيض الشر

المؤرخ المسلم ليس ناقلاً لما قيل وما حدث في الزمن الماضي فقط، إنما هو صاحب رسالة وحامل مشعل هداية للبشرية، وميزانه في معرفة الخير والشر ليس عرف الناس ولا ما تواضع عليه أهل زمن أو قررته هيئة من الهيئات أو زعيم من الزعماء إنما ميزانه هو شرع الله، ولذلك فإنه إذا درس تاريخ واقعة معينة أو تاريخ شخصية من الشخصيات أو دولة من الدول وجب عليه أن يعرض ذلك بأمانة وصدق، وأن يفحص ويدقق وينقد المصادر والمراجع ويتثبت غاية التثبت، ثم عليه أن لا يظهرالباطل بمظهر الحق، ولا يظهرالخير بمظهر الشر، إنما يسمي الأشياء بمسمياتها الشرعية فالحق حق مهما كان فاعله، والباطل باطل مهما كان قائله، والميزان هو شرع الله، فإذا رأى غدرة أو ظلماً أو إهانة لأحد أو تعدياً لحدود الله فإنه لا بد أن ينبه على أن ذلك تجاوز ومخالفة لشرع الله، وإذا رأى عدلاً وإحساناً وجهاداً في سبيل الله وأمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر أشاد به ومدح صاحبه ليكون قدوة في هذا الفعل الطيب. وهذا من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته.

المطلب الرابع : إبراز دور الأنبياء وأثره في تاريخ البشرية

الأنبياء عليهم السلام يمثلون خط الاستقامة ومنهج الحق في هذا الوجود بما علّمهم الله وأنبأهم به الوحي، وقد جاؤوا بعقيدة واحدة هي إفراد الله بالعبادة والاستسلام له بالطاعة والخلوص من الشرك وأهله.

والإسلام بهذا المعنى هو دين الأولين والآخرين من الأنبياء وأتباعهم، وهو الدين الذي لا يقبل الله سواه. قال تعالى : ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ [آل عمران : ١٩] وقال : ﴿**ومن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخر من الخاسرين**﴾ [آل عمران : ٨٥].

دور الأنبياء وأتباعهم يمثل في تاريخ البشرية كله خطاً مستقلاً ومترابطاً بعضه مع بعض من آدم إلى محمد ﷺ، وتقف بإزائه الجاهليات على تعدد أنواعها واختلاف أصولها، فالجاهليات تشكل أمة واحدة وحزباً واحداً في مقابل أمة الإسلام ودعوة الحق وحزب الرحمن وأتباع الرسل والأنبياء، والتاريخ البشري كله منذ خلق الله آدم عليه السلام وأسكنه الأرض وكلفه في الخلافة فيها وأنزل عليه الهدى، يمثل صراعاً بين الحق والباطل، وبين أتباع الهدى وأتباع الضلال فالأنبياء وأتباعهم يريدون تطبيق شرع الله وتنفيذه، وأعداؤهم من دعاة الباطل يريدون تنفيذ أرائهم وأهواء طواغيتهم وكل فترة يتغلب فيها دعاة الحق وينفذوا منهج الله نجد البشرية تنعم بالأمن والاستقرار وتفيض فيها الخيرات، وذلك لأن منهج الله هو الحق الموافق للفطرة البشرية والمتسق مع ناموس الكون، قال تعالى : ﴿**ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون**﴾ [الأحقاف : ٣] وقال : ﴿**وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقاً**﴾ [الجن : ١٦].

كما أننا نجد أن كل فترة تسيطر فيها الجاهليات تصاب البشرية بالشقاء ويسود فيها الظلم – ولا أظلم من الشرك بالله – وتبتلى بالمصائب وقد وضَّح الشيخ أبو الحَسن الندوي هذا المعنى في كتابه القيم (ماذا خسرالعالم بانحطاط المسلمين؟) وكذلك الأستاذ / سيد قطب رحمه الله في كتابه خصائص التصور الإسلامي في فصل : تيه وركام. حتى إن الأرض لتئن من ذلك الظلم وتفرح بزوال الظالمين، قال تعالى : ﴿**فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين**﴾ [الدخان : ٢٩]، بل إن قطع دابرالظالمين من النعم التي تستوجب شكر الله وحمده : ﴿**فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين**﴾ [الأنعام : ٤٥]. وقال ﷺ : «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلابقايا من أهل الكتاب»[1] فأتباع الرسل هم الذين استثنوا من هذا

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة : ٤/٢١٩٧ .

المقت والسخط. ولأجل ذلك فإن على المؤرخ المسلم أن يبرز هذا الأثر وهذا العمل الذي قام به رسول الله عليه الصلاة والسلام وخلفه عليه أتباعه، وأن يتبع آثاره في الحياة البشرية في عمارة الأرض، وفي أخلاق الناس وفي آدابهم وثقافتهم ونظمهم وفي آثار دعاة الإصلاح وخططهم، فإن كلمة الحق لا تضيع هباءً ولا بد أن تترك أثراً، ولقد امتن الله سبحانه وتعالى على الأمة الإسلامية وعلى العرب خاصة ببعثة محمد ﷺ فقال تعالى : ﴿**كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون**﴾ [البقرة : ١٥١] وقال : ﴿**لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين**﴾ [آل عمران : ١٦٤] وفي آيات سورة الجمعة قوله تعالى : ﴿**هو الذي بعث في الأميِّين رسولاً منهم**﴾ [الجمعة : ٢] فهو الذي زكى أخلاقهم وعلمهم الكتاب والحكمة وما لم يكونوا يعلمون ورفعهم من الضلال المبين – الذي كانوا فيه قبل بعثته – إلى الهدى والنور والصراط المستقيم.

المطلب الخامس : تحري استعمال المصطلحات الإسلامية

لقد كان من تأثير الغزو الفكري الأوروبي للمسلمين أن شاعت بينهم مصطلحات وألفاظ ومفاهيم غريبة عن عقيدتهم وثقافتهم حتى كادت المصطلحات الإسلامية أن تختفي، ووقع في ذلك كثير من الكتّاب الذين كتبوا في التاريخ الإسلامي مع أن كثيراً منهم لا يتّهمون بدين ولا في صدق نية، لكنهم كانوا ضحايا الفكر العلماني الوافد، الذي لم يسلم منه حتى أصحاب الثقافة الشرعية، فنجد مع الأسف أنه قد شاع استعمال كثير من المصطلحات الدخيلة على الفكر الإسلامي ليس في مجال التاريخ الإسلامي وحده، وإنما في أغلب كتب الثقافة الإسلامية، ومن هذه المصطلحات نوع له بريق ومعاني مضللة مثل الوحدة العالمية، الإخاء الإنساني، السعي

لخدمة البشرية، السلام الدولي، التعاون العالمي، المساواة، الحرية، زمالة الأديان، التقارب بين المؤمنين بالله في مواجهة الإلحاد والشيوعية... إلخ.

تلك العبارات الموهمة غير محدودة الدلالة، والمسلم قبل أن ينساق وراء هذه الألفاظ الرنانة ويأخذه بريقها يجب عليه أن يزن مثل هذه المصطلحات بالميزان الشرعي ويسأل نفسه ما هي أصول الوحدة التي ندعوا إليها بمثل هذه العبارات؟ وما ركائزها؟ وعلى أي أساس نقيم هذه الوحدة العالمية؟ ثم هذه الدعوة للمساواة والحرية والعدالة، على أي منهاج تقام وما هو الميزان الذي يحدد دلالة هذه الألفاظ، وما ضوابط ذلك؟ ثم التقارب بين الأديان وهذه الزمالة والتعاون ضد الإلحاد على أي منهج يقوم.

إن هناك منهجاً ربانياً واحداً ومئات من المفاهيم والمناهج الجاهلية، فهل المقصود إقامة البشرية على المنهج الرباني والعبودية لله وحده وتحكيم شريعته؟ أم المقصود إقامة خليط من هذه المناهج ذات المفاهيم المتضادة؟ يجب أن يكون واضحاً. فتصور المسلم وعقيدته أنه لا التقاء بين الحق والباطل، ولا بين الهدى والضلال ولا بين الإسلام والكفر، وأن الكفر وإن اختلفت مناهجه، وتعددت طرقه، وتباينت درجاته فإنه ملة واحدة، سواء صدر من نصارى أو من يهود أو من مشركين أو وثنيين أو شيوعيين. وليعلم أن منهج الرسل عليهم السلام في إقامة الدين الحق لم يكن على شيء من هذا الخليط، إنما قام على البراء من المشركين وإقامة الحنيفية السمحةملة الإسلام.

كما أن هناك مجموعة من المصطلحات الأوروبية جرى ترجمتها واستعمالها لدى طائفة من الكتاب المسلمين، وهي ذات مضامين ودلالات محلية وتاريخية، ولا يمكن فصلها عن ذلك الوسط الاجتماعي والظروف التاريخية والثقافية التي لبست نشوء هذا المصطلح أوذاك، مثال ذلك الديمقراطية، والاشتراكية ، والدكتاتورية، والامبراطورية واليمين والشمال واليسار، والمحافظين،والليبرالي، والامبريالي والأحرار،

والأستقراطية... إلخ.

فمثلاً الديمقراطية لا يمكن أن تستعمل كمفرادف أو بديل لمصطلح الشورى في المفهوم الإسلامي، لأن الشورى في الإسلام مقيدة بالنصوص الشرعية بينما الديمقرطية تعني في أبسط معانيها (حكم الشعب للشعب بالشعب) أي أن الشعب هو مصدر التشريع، وفي مثا ل آخر مصطلح الاشتراكية لا يمكن أن يكون بديلاً لمعنى التكافل الإسلامي، لأن هذا التكافل يرتبط بأهداف ودوافع إيمانية لا تلتقي مع أهداف المذهب الاقتصادي الاشتراكي في طريق ومنهج. وقد تابعنا المستعمرين – مع الأسف – حتى في التوزيع الجغرافي والتوزيع التاريخي الذي استخدموه وتلقينا مصطلحاتهم وأنه لاارتباط لها بواقعنا ولا تاريخنا، فمثلاً في التوزيع الجغرافي يقولون الشرق الأدنى، والشرق الأوسط، والشرق الأقصى.

وذلك أن المستعمر الأوروبي اعتبر نفسه في مركز الأرض فأطلق هذا التوزيع لموقعه، وكذلك التوزيع التاريخي مثل العصور القديمة والعصور الوسطى والعصور الحديثة. وهذا التوزيع مر بمراحل وتقلبات تاريخية عاشتها أوروبا مما يجعل لكل فترة من هذه الفترات مميزات وخصائص ومفاهيم مستقلة تبعاً للتطورات والانقلابات الفكرية والعقائدية التي عاشتها أوروبا في كل حقبة من هذه الحقب، بينما التاريخ الإسلامي بما فيه تاريخ الأنبياء يمثل وحدة واحدة بالنظر إلى المفاهيم والنظم السائدة والتي لا تتبدل تبعاً لتبدل الزمان والدول والحكام، لأنه تاريخ أمة ذات عقيدة واحدة لم تتبدل، ولذلك كان القصد من التوزيع إلى عصور لغرض التأليف والدراسة، فليس بلازم أخذ هذا التوزيع الأوروبي ولا متابعته عليه، لأنه يفتت تاريخنا ويوجد الحواجز بين عصوره، ومما يبعث في النفس أسى وحسرة أن نرى طائفة من المسلمين عندما يعرضون لتاريخ أمة من الأمم الكافرة في التاريخ ينبهرون من تقدمها فيضيفون عليها روح التقدم والحضارة ويثنون عليها ثناءً كثيراً ويفخرون بمنجزاتها وآثارها، وتجدهم

كذلكم يخلعون مثل هذه الألقاب على الدول الكافرة المعاصرة كقولهم العالم المتحضر، والعالم المتقدم، والدول العظمى، في حين يسمون البلدان الإسلامية بالبلدان النامية، والعالم المتخلف، أو دول العالم الثالث.

وهذا الانبهار والإعجاب لفقدانهم للميزان القرآني لمعنى التقدم والحضارة ولانخداعهم بالتيسيرات المادية التي وجدت في هذه الدول، ومن نسيانهم للسنة الربانية التي دل عليها قوله تعالى : ﴿**فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون**﴾ [الأنعام:٤٤]، ومن فقدانهم لمفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبغض في الله أوثق عرى الإيمان.

المطلب السادس : الابتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء

ومما يلزم ملاحظته في عرضه أن لا يستعمل أسلوب التعميم وإنما تكون عباراته محدودة الدلالة، واضحة المعنى، وأن لا يطلق حكماً عاماً على أهل بلد أو على أهل زمان أو على جنس من الأجناس أو ينفي حدوث واقعة معينة، قبل حصول الاستقراء التام، فمثلاً حادثة مقتل الخليفة الراشد الشهيد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وموقف أهل المدينة من ذلك لا يصح أن نقول : إن أهل المدينة كلهم تخاذلوا عن نصرته أو رغبوا في قتله، أو نقول –كما تقول الطائفة المخذولة من الروافض – : إن الصحابة أجمعوا على قتله!! وأنى لهم مثل ذلك!!

بل نقول : إن أهل المدينة قد وقفوا إلى جانب خليفتهم ودافعوا عنه، كما تدل على ذلك الأخبار الصحيحة، ولكنه رضي الله عنه منعهم من ذلك وألزم كل من يرى أن له عليه طاعة بالخروج من الدار، لأنه لا يريد إراقة الدماء ووقوع مذبحة بين المسلمين من أجله، ورأى أن أقصى ما يصل إليه أمر الثوار هو قتله، وفرح بالشهادة

وتأول حديث رسول الله ﷺ في تبشيره بالجنة على بلوى ستصيبه[1]. بهذا الأمر الذي وقع له في حصار الثوار.

ومثل ذلك أن نأتي مجتمع من المجتمعات أو عصر من العصور فنحكم على أخلاق أهله من خلال شعر اثنين أو ثلاثة أو حتى مئة من الشعراء الماجنين، فنقول : إن ذلك عصر مجون وتهتك وخلاعة!! فمن المعروف أن كل مجتمع يحوي عناصر مختلفة من الصالحين والطالحين، والحكم يكون للغالب منهما، كما أنه لا يجوز أن نطلق مثل هذه الأحكام على أسرة من الأسر أو طائفة من الطوائف فنقول مثلاً : إن أسرة بني أمية أسرة ظالمة، أو نقول : إن فرقة المرجئة أو المعتزلة كلهم زنادقة ومنافقين، لأن كل طائفة لا تخلوا من بعض الخيرين أو العوام أو المجتهدين المتأولين، غير أن الحكم يكون للغالب.

---

(١) انظر : البداية والنهاية لابن كثير : ١٨١/٧ – ١٨٣ وانظر فتح الباري شرح صحيح البخاري : ٥٣٠/٧ .

الفصل الخامس

نبذة عن بعض مشاهير مؤرخي المسلمين

المبحث الأول : الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبري

المطلب الأول : ترجمته

هو الإمام المجتهد أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري البغدادي[1]، ولد سنة ٢٢٤هـ، حفظ القرآن في بلدة آمل بطبرستان ثم رحل في طلب العلم سنة ٢٣٦هـ، فلم يزل طالباً للعلم مولعاً به إلى أن مات[2] وقد أكثر الترحال، ولقي نبلاء الرجال، ثم استقر به المقام في بغداد حتى توفي سنة ٣١٠هـ، وصفه الخطيب البغداد بقوله : (كان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها صحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين عارفاً بأيام الناس وأخبارهم)[3].

---

(١) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي : ٢/١٦٢ .

(٢) لسان الميزان : لابن حجر : ١٠٢ .

(٣) تاريخ بغداد : ٢/١٦٣ .

ويقول فيه الناقد الذهبي : (كان من أفراد الدهر علماً وذكاء وكثرة تصانيف قلّ أن ترى العيون مثله)[1].

وقال أيضاً : (كان ثقة صادقاً حافظاً رأساً في التفسير إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام الناس عارفاً بالقراءات وباللغة وغير ذلك)[2].

وكان رحمه الله عف النفس كريماً، وقد كانت له مواقف مع بعض الخلفاء والوزراء[3] فلم يقبل صِلاتهم وهداياهم ولا ما عرضوا عليه من المناصب، ورضي بالكفاف من العيش، وزهد في الدنيا ورغب عنها وقنع بما كان يرد عليه من حصّة من ضيعة يسيرة خلفها والده بطبرستان[4]، وقصر حياته على طلب العلم وكان حصوراً لا يعرف النساء[5]، لذلك كثرت تصانيفه وطال نفسه فيها فكتابه جامع البيان من أطول التفاسير وأشملها، حتى قال في وصفه والثناء عليه أبو حامد الإسفراييني : (لو سافر رجل إلى الصين حتى يُحصِّلَ تفسيرَ محمد بن جرير لم يكن كثيراً)[6].

وكتابه تاريخ الرسل والملوك من أوسع كتب التاريخ وأغزرها مادة وكذلك يصف العلماء كتابه (تهذيب الآثار)[7] بأنه لم يصنف مثله ولا يستطيع أحد ذلك!!

المطلب الثاني : عقيدته

محمد بن جرير الطبري من كبار علماء الأمة ومجتهديها حسن المذهب

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٢٦٧/١٤ .
(٢) المرجع السابق : ٢٧١/١٤ – ٢٧٥ .
(٣) انظر المرجع السابق : ٢٧١/١٤ – ٢٧٥، ولسان الميزان : ١٠٢/٥ – ١٠٣ .
(٤) المرجع السابق : ٢٧٤/١٤ .
(٥) لسان الميزان : ١٠٢/٥ .
(٦) المرجع السابق : ٢٧٢/١٤ .
(٧) البداية والنهاية : ١٤٥/١١ .

والاعتقاد، ثقة في علمه، وقد نقل الذهبي جملاً من كتابه (التبصير في معالم الدين) لكي يدلل على سلامة عقيدته ثم عقب ذلك بقوله : (تفسير هذا الإمام مشحون في آيات الصفات بأقوال السلف على الإثبات لها، لا على النفي والتأويل وأنها لا تشبه صفات المخلوقين أبداً)[1].

وقال في موضع آخر : (كان ابن جرير من رجال الكمال وشُنِّعَ عليه بيسير تشيُّع، وما رأينا إلا الخير، وبعضهم ينقل عنه أنه كان يجيز مسحَ الرجلين في الوضوء ولم نرى ذلك في كتبه)[2].

وللإمام الطبري رسالة في بيان عقيدته[3] يقرر فيها صحة خلافة الخلفاء الراشدين وأن ترتيبهم في الفضل هو حسب ترتيبهم في الخلافة[4] وهذا هو مذهب أهل السنة.

المطلب الثالث : منهجه في الكتابة التاريخية

صنف الإمام أبو جعفر الطبري كتاباً حافلاً في التاريخ البشري وهو من كبار علماء الشريعة وأئمة الفقهاء متضلعاً في كثير من العلوم مثل التفسير والقراءات والعربية ومذاهب الفقهاء والسير والأخبار لذلك كان كتابه (تاريخ الرسل والملوك) مبني على هذه الثقافة الواسعة.

وقد بدأ أبو جعفر كتابه بمقدمة عن الكون – الزمان والليل والنهار والسموات والأرض والشمس والقمر – وعن إبليس وما كان فيه من نعمة وكيف أنه كفر وأفسد،

---

(١) الذهبي المصدر السابق : ١٤/٢٨٠ .
(٢) المرجع السابق ١٤/٢٧٧ .
(٣) طبعت في بومباي على الحجر سنة ١٣١١هـ وحققها عبد الله بن حميد في مكة سنة ١٣٩٤هـ.
(٤) المجموعة العلمية السعودية : ٩ – ١٠ .

وعن خلق آدم ما صار عليه حتى أهبط إلى الأرض[1].

ثم بدأ بتاريخ البشرية منذ هبوط آدم إلى الأرض وما كان في عهده وعهد أبنائه من أحداث، وجعل تاريخ الأنبياء هو المنطلق لتاريخ الإنسانية، وقد أعطى معلومات واسعة عن التاريخ الفارسي، وعقد مقابلة بين تاريخ مدة أيامهم وأيام بني إسرائيل[2].

أما تاريخ الروم فلم يذكر منه إلا ما كان له علاقة بأرض النبوات – العراق والشام والجزيرة العربية – فهو يذكر قصة الإسكندر ومن ملك أرض الشام منذ رفع عيسى عليه السلام إلى عهد النبي ﷺ. أما تاريخ العرب : فقد ذكره مفرقاً من خلال تاريخ الأنبياء مثل هود وصالح عليهما السلام ومثل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ومثل سليمان بن داود، من خلال تاريخ الملوك والجبابرة[3] من الفرس والروم وأعطى معلومات عن قريش ومن جاورها عند ذكره ولادة رسول الله ﷺ ونشأته حتى بعثته وهجرته. ومصادر الطبري فيما ذكر من تاريخ الرسل والملوك والأمم قبل البعثة النبوية هي القرآن الكريم وأقوال علماء التفسير التي يرويها عنهم بالأسانيد وأقوال من سماهم أهل العلم بأخبار الماضين وأمور الأمم السالفين.

وتاريخ الطبري يمثل قمة التأليف التاريخي عند المسلمين في القرون الثلاثة الأولى، من حيث الشمول الزماني والمكاني، وإطالة النفس في بسط الأحداث ومحاولة الإحاطة بكافة جوانبها، وأيضاً من حيث المنهجية العلمية، وذلك بنسبة الأقوال إلى أصحابها مع استقامة النظرة التاريخية وإعطاء صورة متكاملة عن حياة الأمة في دقة وأمانة بعيداً عن النظرات الضيقة والأهواء الحزبية.

---

(١) تاريخ الطبري : ١/٩ – ١٢٦ ط دار المعارف بمصر.

(٢) المرجع السابق : ١/٥٧١ .

(٣) المرجع السابق : ١/٥٥٨ – ٥٦٠ – ٥٦٦ – ٥٦٧ – ٦٠٩ – ٦٣٢ .

ومن ميزات تاريخ الطبري أنه رتبه على السنين بحيث يتمكن الباحث من ملاحظة الأطوار التي مرت بها الأمة الإسلامية في بنائها الحضاري ومعرفة حالات الضعف والقوة التي مرت بها، وملاحظة ارتباط هذا بحركة الجهاد في سبيل الله والالتزام بشريعته، فكلما كانت الأمة ملتزمة بشريعة الله مجاهدة في سبيله كانت قوية مهيبة، وكل ما وقع بها الانحراف وصرف الجهاد في سبيل الله إلى الصراع الداخلي والحفاظ على كراسي الحكم ضعفت وأصابها الهوان.

المطلب الرابع : نظرته للتاريخ

الإمام الطبري من كبار علماء الإسلام ونظرته للتاريخ – أو ما يسمى اليوم بلفسفة وتعليل الحوادث التاريخية – تنبثق من اعتقاده وتصوره الإيماني، فهو مؤمن بالله وبأمره ونهيه، وبعدله وبقضائه وقدره، وبأن له سنناً ماضية لا تبديل لها، ومؤمن بحرية الإنسان وقدرته على الاختيار، وأنه مكلف بوظيفة العبودية لله والخلافة في الأرض، وعمارتها بشرع الله ومنهجه، وبأن الله يثيب الطائع المستجيب ويعاقب العاصي الناكث، ولذلك كانت أحكامه التاريخية على الحوادث تنبثق من هذه النظرة المؤمنة بالله العارضة بشرعه وأحكامه، كما أن تدوينه لتاريخه على حسب سني الملوك والرسل – الذين بأيديهم مهمة التوجيه وسلطة التنفيذ – هو من أجل أن يساعد على توضيح العبرة للمعتبرين ولكي يجلي للبشرية واقعهم الذي كان صفحة وراء صفحة ويريهم كيفية تحقيق سنن الله عليهم، ومن نصرة المؤمنين المنفذين لشرعه من الرسل وأتباعهم، وهلاك الظالمين المحادين لله ولرسوله، يقول الطبري في مقدمة كتابه موضحاً هذه المعاني : (وأنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان من لدن ابتداء ربنا جل جلاله خلقهم إلى حال فنائهم، ممن انتهى إلينا خبره، ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه

فشكر نعمه من رسول مرسل أو ملك مسلط أو خليفة مستخلف، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمة في العاجل نعماً وإلى ما تفضل به عليه فضلاً، ومن آخر ذلك له منهم وجعله لهم ذخراً، ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأه به من نعمة وعجل له نقمة، ومن كفر منهم نعمة فمتعه بما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه، مقروناً ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بذكر زمانه وجعل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه)[1].

لقد أكرم الله سبحانه وتعالى خلقه بالإسلام حتى يتحرر الناس من هيمنة التصورات الفاسدة، والعقائد المنحرفة والمناهج الباطلة، والقيم الحقيرة والأخلاق الرديئة وحتى تنجو البشرية من الفساد والتخبط ومن الظلم والاستبداد.

فالذي يعرف الجاهلية هو الذي يدرك قيمة الإسلام ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه، ونعمة الله المتحققة به. إن جمال هذه العقيدة وكمالها وتناسقها، وبساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها... إن هذا كله لا يتجلى للقلب والعقل كما يتجلى من مراجعة ركام الجاهلية – السابقة للإسلام واللاحقة – عندئذ تبدو هذه العقيدة رحمة حقيقية، رحمة للقلب والعقل ورحمة بالحياة والأحياء، ورحمة بما فيها من جمال وبساطة ووضوح وتناسق، وقرب وأنس، وتجاوب مع الفطرة مباشر عميق[2] وصدق الله العظيم : **﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾** [الملك : ٢٢].

---

(١) تاريخ الطبري : ٦/١ .

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته : ٣٩ .

المبحث الثاني : خليفة بن خياط

المطلب الأول : ترجمته

هو خليفة بن خياط العُصْفُري التميمي أبو عمرو البصري الملقب بشَبَاب. وقد نشأ خليفة في وسط علمي حيث كان والده من أهل الحديث، إلا أنه اهتم إلى جانب الحديث بالتاريخ والسيرة وأيام الناس قال عنه الذهبي – رحمه الله – : (حدث عنه البخاري بسبعة أحاديث أوأزيد في صحيحه) وقال : (كان صدوقاً نسابة عالماً بالسيرة والأيام والرجال، وثقه بعضهم، ولينه بعضهم بلا حجة ومات سنة أربعين ومئتين)[1].

المطلب الثاني : منهجه

كتب ابن خياط كتابين في التاريخ أحدهما في الطبقات والآخر في التاريخ العام وهو معتبر من رجال الحديث ورواته، ومعلوم دقة التزامه بالإسناد خاصة في العصر الذي عاش فيه خليفة، وقد فرق ابن خياط في منهجه في الكتابين، ففي كتاب الطبقات أهمل الإسناد واكتفى بتقديم قائمة مصادره في أول الكتاب، بينما التزم الإسناد في كتاب التاريخ، وإن كانت أسانيده ليست كلها من قبيل الصحيح وإنما فيها إرسال وانقطاع وإعضال وفي رجاله المجهولون والضعفاء الذين لا يحتج بروايتهم عند أهل الحديث.

وقد ركَّز خليفة بن خياط اهتمامه بعلم الحديث ورغبته في خدمته، فنجده يذكر في نهاية كل سنة وفيات العلماء والمشهورين، واستعمل الإسناد الجمعي بكثرة، وأورد معلومات تاريخية بدون إسناد وخاصة قوائم أسماء الموظفين والعاملين في الإدارة الذين يذكرهم بعد نهاية حكم كل خليفة.

كما أنه قدم معلومات موجزة لكنها وافية عن الفتح الإسلامي في عصر

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٤٧٢/١١ – ٤٧٤ .

الراشدين والعصر الأموي، وهو لا يعني بالتفصيلات كثيراً ولا يتتبع أسباب الحوادث ولا نتائجها وإنما يكتفي بعرض الحادثة ذاتها.

ويعد كتاب التاريخ لخليفة بن خياط من أقدم ما وصلنا من الكتب التاريخية المرتبة على النظام الحولي وعلى الرغم من إيجازه فيه إلا أن القارئ يستطيع من خلاله أن يرصد حركة الأمة الإسلامية والاتجاهات التي سارت فيها، خاصة نشاط الفتوح والجهاد في سبيل الله وبسالة المجاهد المسلم وحرصه على إدخال الناس في الدين الحق، وكيف يكون هذا الكيان الكبير والدولة الإسلامية بمجتمعها المترابط ورقعتها الواسعة.

كما أنه لايخلوا من رصد للحركة الفكرية والاتجاهات الدخيلة سواء أكان ذلك إيجابياً أو سلبياً، وهو يقدم معلومات موثقة بعبارات موجزة واضحة في دقة وأمانة علمية دون محاباة لأحد أو تأثر بنظرة حزبية، وكتابته التاريخية بعيدة عن الحشو والمبالغة وعن أسلوب القصص والأيام(١).

قلت : ومن حق الأجيال القادمة والحاضرة أن تعرف من الذين جاؤوا بهذا الدين العظيم إلى بلادنا جملة وتفصيلاً وكيف تربوا وما هي دوافعهم الحقيقية في هذا الفتح العظيم، ولقد لاحظت أن الذين كتبوا عن الفتوحات الإسلامية عموماً وفي الشمال الإفريقي خصوصاً أنهم لم يعطوا لقادة الفتح حقهم من التعريف بهم وبيان عقيدتهم ومبادئهم وحضارتهم التي حملوها معهم من جزيرة العرب الصحراء القاحلة قبل الإسلام، بل وجدت من يحاول تلطيخ القادة وجيوش الفتح الإسلامي، وجعل لذلك الفتح المبارك دوافع اقتصادية ونزعة توسعية واستعباداً للآخرين ولم يكن لهم فيما قالوه أدلة ولا براهين ولا حجج قاطعة، بل حجتهم فيما قالوا أهواء ومتابعة لوحي الشيطان، حرصوا على إخفاء الحقائق الساطعة والأنوار البهية الواضحة، والقدوات

---

(١) راجع : كتاب منهج كتابة التاريخ الإسلامي، للعلياني : ٤٣٢ - ٤٣٦ .

المباركة من قادة وجنود ودعاة وفقهاء وعلماء، واجتهدوا في توسيع النقاط السوداء في تاريخنا وجعلوه تاريخاً دموياً ونزاعاً سياسياً على الملك والسيطرة والزعامة. ونسأل الله العلي الكبير أن يبارك في هذا الجهد المتواضع لتنوير الأجيال وإقامة الحجة على أعوان الشيطان قال تعالى : ﴿**فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض**﴾ [الرعد : ١٧].

الباب الثاني

الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي

لا يخفى أن من الضرورة بمكان ونحن نتكلم عن تاريخ ليبيا أن نتناول الشمال الإفريقي على الجملة بشيء من التعريف به اسماً، وتضاريساً، وسكاناً، وديانة، بحيث تكتمل صورته في ذهن القارئ ويتصور أجناس الناس، وما كانوا عليه من ديانة، وأوضاعهم السياسية والحربية والاجتماعية تصوراً كاملاً حتى يستطيع استخلاص العبر والدروس من ذلك، لأن الحكم فرع عن تصوره، وبذلك يتحقق المقصود من كتابة هذا الكتاب.

الفصل الأول

سكانه

المبحث الأول : أصل كلمة إفريقيا ومدلولها

جاء في كتاب (قادة فتح المغرب العربي) قوله : (أطلق الفنيقيون لفظ أفري (Aphri) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم القديمة (Utlca) وعاصمتهم قرطاجنة مدينتهم الحديثة، وعنهم أخذه اليونان فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر إلى المحيط، ومن ثم سميت هذه المنطقة (افريكا) أي بلاد الأفري واستعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنطقة، وأخذ معنى هذا اللفظ يتسع شيئاً فشيئاً كلما اتسع سلطان الرومان في إفريقية فأصبحت ولاية إفريقية القنصلية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقي من تونس الحالية، والمنطقة الداخلية التي تمتد حتى (فزان)، أما بقية إفريقية الرومانية فسمي الجزء المقابل منها للجزائر الحالية : نوميديا، ويلي ذلك موريتانيا بقسميها القيصرية والطنجية، فإفريقية تشمل كل ما دخل في طاعة الرومان من هذه القارة من برقة إلى طنجة، وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ : إفريقية، فأرادوا به في أول الأمر كل ما يلي مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسي وهذا هو مفهوم إفريقية العام الذي يكاد يعادل مفهوم المغرب.

أما مفهوم إفريقية الخاص فهو يعني الأجزاء الشرقية من المغرب التي تعادل ولاية

إفريقية الرومانية الأصلية، أي البلاد التونسية الحالية مع بعض الأجزاء الغربية لولاية طرابلس (ومنها المدينة) والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر إلى (بجاية) في ولاية (قسنطينة) وعلى ذلك فإقليم إفريقية هو أول أقاليم المغرب)[1].

أصل كلمة المغرب ومدلولها :

جاء في نفس المصدر قوله : (بلاد المغرب مصطلح يقصد به كل من الأقاليم الواقعة غرب مصر والتي تشمل القارة الإفريقية وتتضمن حالياً البلاد الليبية بولاياتها الثلاث (برقة، وطرابلس، وفزان)، وتونس، والجزائر، بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان، وأخيراً المغرب الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمتها الجنوبية، ويمتد طبيعياً نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر والمغرب عند الكتاب الأوائل ويبدأ مما يلي إفريقية غرباً إلى سواحل المحيط، فقد ولى يزيد بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف الثقفي إفريقية والمغرب، وهذا معناه أن المغرب هو غير إفريقية، والمغرب الأقصى، هو بلاد مراكش (المغرب) والمغرب الأوسط هو بلاد الجزائر الحالية، وخط التقسيم بين المغربين : الأقصى والأوسط هو مجرى وادي ملوية أو ما بين تلمسان و(تازا) أما المغرب الأدنى، فهو بلاد القيروان أو ما يسمى اليوم بتونس)[2].

---

(١) قادة فتح المغرب العربي،، محمود شيب خطاب الجزء الأول ١٣ – ١٤ .

(٢) المرجع السابق : ١٤ – ١٥ .

المبحث الثاني : العنصر البشري

المطلب الأول : العنصر البربري

قال صاحب كتاب قادة فاتح المغرب العربي : (البربر سكان المغرب الأصليون، ونقصد هنا بالمغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي، وهم أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي، ومن المعقول جداً أن يكون العرب قد أخذوا لفظ (البربر) عن اللاتينية (Barbari) مع تغيير معناه، إذ كان الأفارقة اللاتينيون يطلقونه عادة على الأهلين.

وقد حاول الكتاب العرب تفسير لفظة : (بربر) فأوردوا في ذلك عدداً من الآراء يمكن تقسيمها إلى قسمين : أولهما : تفسير كلمة (البربر) تفسيراً لغوياً، لأن لغة القوم في رطانة أعجمية تختلط فيها الأصوات التي لا تفهم، فقيل لهم : (ما أكثر بربرتكم)! كما يقال : بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة أما ثانيهما، فتفسير كلمة : (البربر على حسب عادة العرب في تقسيم الشعوب على الأسس المتعارف عليها عندهم في علم الأنساب، إذ قيل : شعب المغرب اتخذ اسم أحد آبائه البعيدين، وهو برّ بن قيس عيلان، ولكن ابن حزم يقول عن ذلك : (... وهذا باطل لا شك فيه، وما علم النسابون لقيس ابناً اسمه : بر أصلاً، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن).

ولم يأتِ القرن الرابع الهجري حتى كانت أنساب البربر قد دونت بالعربية وأصبحت مثل أنساب العرب، والظاهر أن هؤلاء النسابة اتخذوا شجرة الأنساب العربية التي تقسم العرب إلى قسمين كبيرين ينحدران من قحطان وعدنان – نموذجاً – فقسموا قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما : البرانس، والبتر، وقالوا : إن الجماعة الأولى أبناء برنس ابن بربر، وإن الجماعة الثانية أبناء ماد غيس بن بربر الذي لقب

بالأبتر)[1].

وقال أيضاً عن البرانس : البرانس : من قبائلهم المشهورة عشرة : ازداجة، مصمودة، أوربة، عجيسة، كتامة، صنهاجة، أوريغة، ويضاف إليهم حسب رأي البعض لمطة، وهكسورة، وجزولة (كزولة).

وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، فقبيلة هوارة تنحدر من أوريغة، وقبيلة مكيلة تنحدر من هوارة، وقبيلة غمارة تنحدر من مصمودة[2].

وقال أيضاً عن البتر : البتر : من قبائلهم المشهورة أربعة : أداسة ونفوسة وضريسة ونبولوا الأكبر، وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، فمن قبائل (لوا) تعد قبيلتا نفزاوة ولواته، وينحدر من (نفزاوة) قبيلة (وطاطة) وينحدر من (وطاطة) قبيلة (تيرغاش) ومن (تيرغاش) تنحدر قبيلة (ورفجومة)... الخ[3].

والذي يلاحظ أنه رغم انقسام البربر إلى برانس وبتر وانقسام هؤلاء إلى قبائل مختلفة فإن القرابة موجودة بين الجماعتين، كما أن الصلة وثيقة بين فروع كل منهما، فالنسابون يختلط عليهم الأمر إلى درجة أنهم يضعون قبيلة هوارة في البرانس، ثم يعدونها من البتر أو يجعلونها أختاً لقبيلة أداسة البترية (عن طريق الأم) وكذلك الأمر بالنسبة إلى قبيلة زواوة التي تعد من البتر ويعتبرها ابن حزم من كتامة البرنسية.

وابن خلدون يحذو حذو من ينفي انتساب البربر إلى العرب مثل ابن حزم والحق أن للنسابين العرب والبربر العذر في جعل شجرة النسب البربرية أشبه ما تكون بشجرة النسب العربية، بل وفي إلحاق البربر بالأصل العربي فمما لا ريب فيه أن الشبه قريب

---

(١) المرجع السابق : ١٥ – ١٦ .
(٢) المرجع السابق : ١٦ .
(٣) المرجع السابق : ١٦ – ١٧ .

بين العرب والبربر، وهذا أمر وليد البيئة، لأن طبيعة بلاد المغرب يغلب على أهلها الطابع الصحراوي وهي أشبه بطبيعة بلاد العرب مما يترتب عليه نتاج ذو طبيعة متجانسة في الاجتماع والعمران، لذلك ينقسم البربر إلى طائفتين متباينتين، وهما طائفة البربر الحضر (سكان المدر أي البيوت) وطائفة البربر الرحل (سكان الوبر أي سكان الخيام)، وسكان الحضر منهم يسكنون النواحي الشمالية الخصبة والسفوح المزروعة، وسكان الوبر منهم يسكنون الصحارى والواحات التي تلي ذلك جنوباً وشرقاً.

والفوارق بين الطائفتين اجتماعية لا جنسية، إذ أن البربر المستقرين ينزلون النواحي الخصبة بجبال (أوراس) أي جنوب وسط الجزائر الحالية، وجنوب المغرب، وبعض أجزاء تونس الغربية، وطبيعي أن يكونوا على جانب من الحضارة لاتصالهم بالقرطاجنيين، واللاتين، وحضارات البحر الأبيض المتوسط، فاشتغلوا بالزراعة والصناعة وظهر فيهم نفر أخذ بأسباب الحضارة اللاتينية مثل (يوبا) أمير (نوميديا) الذي درس وتربى في روما، (ويوجرتا) عدو الرومان اللدود، و(ماكسن) الذي لعب دوراً سياسياً هاماً في الحرب ما بين روما وقرطاجنة.

أما البربر الظواعن، فهم بدو يعيشون على الرعي ويميلون إلى الإغارة على ما يجاورهم من نواحي العمران، فكان هذا الاختلاف في الأحوال الاجتماعية، سبباً في نزاع طويل وحروب مستمرة بين الفريقين، فكان الرحل لا ينفكون يغيرون على مزارع المستقرين وقراهم، فاضطر هؤلاء إلى أخذ الحذر منهم والاحتماء من شرهم، والاستعانة عليهم باللاتين أو البيزنطيين، مما أدى إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل جلي واضح وكان له أبعد الأثر في مستقبل البلاد السياسي، إذ حال دون اتحاد أهلها، وسهل غزوها ومكن الفاتح (الفتح لا يكون إلا بدعوة الحق) الأجنبي من أن يستعين بفريق على فريق، وحال دون نشوء دولة بربرية واحدة أو شعب متكاثف متناسق. أفاد الرومان من هذه الحال فائدة كبرى،

فاستعانوا بفريق على فريق، فأمكنهم ذلك من البلاد، وثبت قدمهم فيها، أما البيزنطيون، فلم يوفقوا إلى الفائدة من تلك الحال، مما جعل سلطانهم على البلاد ضعيفاً واهياً)[1].

المطلب الثاني : العنصر الإفريقي

تطلق كلمة – الأفارقة – في بعض الكتب ويراد بها العنصر ذي البشرة السوداء على سكان القارة الإفريقية الأصليين، بيد أن في بعض الكتب المعاصرة إذا ما أطلقت هذه الكلمة يراد بها سكان القارة الإفريقية بحدودها الجغرافية الحالية، وتشمل ذوي البشرة السوداء والبيضاء كسكان الشمال الإفريقي (المغرب العربي).

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب في تعريفه للعنصر الإفريقي : (مع أن هذه التسمية نسبة إلى إفريقية، إلا أنه يفهم أن الأفارقة مختلفون عن البربر والروم. وعلى ذلك يمكن أن يكون الأفارقة دخلوا في خدمتهم وانصبغوا بالحضارة الرومانية كما دخلوا في المسيحية. ورغم أن كثيراً من هؤلاء الأفارقة دخلوا في الإسلام، فإن الكثيرين منهم ظلوا يتكلمون لغة خاصة بهم ربما كانت مزيجاً من اللاتينية والبربرية، أو لهجة محلية)[2].

المطلب الثالث : العنصر اليهودي

لايخفى أن تواجد هذا العنصر في العصور الأولى كان ضئيلاً جداً، وسبب تواجده في منطقة الشمال الإفريقي كان لعدة أسباب منها : سبب سياسي : وهو حب

---

(١) المرجع السابق : ١٨ .
(٢) المرجع السابق : (جـ١/١٨).

السيطرة وتوسيع نفوذهم في أرجاء المعمورة. وسبب اقتصادي : حيث كان الشمال الإفريقي ينعم بخيرات البر والبحر. كل هذه الأسباب والدوافع مجتمعة كانت وراء مجيء العنصر اليهودي للمنطقة، حيث وصلوا على هيئة جماعات صغيرة عن طريق الفنيقيين قبل وصولهم الأخير إلى بلاد المغرب أيام الرومان.

يقرر ذلك الأستاذ محمود شيت خطاب بقوله : (وجد العرب – المسلمون – أيام الفتح جماعات من يهود في إفريقية، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها إلى البلاد عن طريق الفنيقيين، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من يهود إلى المغرب على أيام الرومان، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر)[1].

المطلب الرابع : العنصر السوداني

إن كلمة السودان إذا ما أطلقت يراد بها سكان ما وراء البحر الأحمر من القارة الإفريقية، جنوب المغرب العربي، ويدخل في ذلك دخولاً أولياً السودان، وأثيوبيا، وأرتيريا، والصومال، وجيبوتي. حيث يعتبر سبب تواجد هذا العنصر في الشمال الإفريقي سبباً طبيعياً، لأن أراضي الشمال والجنوب مترابطة ترابطاً إلى أبعد الحدود، لدرجة تسهل بينهما عملية التنقل والتجارة والإقامة والتزاوج. لذلك تجد في سكان الشمال الإفريقي ذوي الألوان السوداء الإفريقية.

يقول الأستاذ محمود بهذا الصدد : (إن بلاد المغرب وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية ببلاد السودان الغربية، ونلاحظ أن كتّاب اليونان القدماء يطلقون اسم الأحباش (الأثيوبيين) على أهل الأقاليم الجنوبية من المغرب، والحقيقة أن واحات

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١/ ٢٠).

الصحراء كانت همزة وصل بين المغرب والسودان فكان من الطبيعي أن تكون بالتالي منطقة المزج بين العنصرين الأبيض والأسود)[1].

المطلب الخامس : العنصر الرومي والفرنجي

يقصد بهذا العنصر، العنصر الأوروبي، خاصة سكان فرنسا ومن حولها، أصحاب الوجوه الحمراء، والشعور الصفراء، والعيون الزرقاء، فتواجد هذا العنصر في الشمال الإفريقي كان طبيعياً حيث إنهم - الروم والفرنج - حكموا هذا الإقليم وأقيمت لهم إمبراطوريات لفترة من الزمان لا يستهان بها، لذلك حدث الاختلاط بينهم وبين سكان الشمال الإفريقي بصور عدة منها التزاوج، والإقامة الدائمة حيث بقي منهم في الشمال الإفريقي بصورة دائمة، لذلك تجد في بعض سكان الشمال الإفريقي الشبه الأوروبي من ناحية الملامح الظاهرة واضحة جداً.

يقول الأستاذ شيت في ذلك : (رغم أن البلاد كانت خاضعة للرومان ثم للروم - البيزنط - لمدة طويلة منذ انهيار قرطاجنة أمام روما، إلا أن هؤلاء ظلوا يكونون جماعة منفصلة عن البربر حقيقة، وأنه حدث تزواج واختلاط بين الجماعتين، إلا أن الامتزاج كان محدوداً لم يتجاوز التحالف أو الجوار في الخدمة العسكرية، في بعض الأحيان، وفيما بين الحكم الروماني والحكم البيزنطي وقعت البلاد تحت حكم الوندال الجرمان الذين دخلوها عن طريق إسبانيا في القرن الخامس الميلادي، ورغم القضاء على الوندال نرى أن بعضهم تمكن من النجاة وأنهم لجؤوا إلى داخل البلاد حلفاء أو لاجئين عند بعض القبائل، ومن الطبيعي أن يكون قد حدث اختلاط بينهم وبين البربر والأقرب إلى الحقيقة أن يكون ذلك هو تفسير وجود الشقرة والزرقة بين بعض جماعات البربر،

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١/٢٠).

بدلاً من القول : بأن النموذج للرجل البربري هو الرجل الأشقر، وكلمة الفرنج، يقصد بها الفرنسيس، قال ابن خلدون : وهذه الأمة المعروفة بالإفرنجة، وتسميها العامة بالإفرنسيس، نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى فرانسة... الخ)[1].

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١/٢٠).

الفصل الثاني

ديانته

المبحث الأول : الديانة المجوسية

والديانة المجوسية تدور على قاعدتين اثنتين كما هي مقررة عند أصحاب هذا المعتقد : إحداهما : بيان سبب امتزاج النور بالظلمة، والثانية : بيان سبب خلاص النور من الظلمة، وجعلوا الامتزاج مبدأ، والخلاص معاداً، وكانت هذه الديانة الوثنية أكثر انتشاراً في بلاد الهند والعجم من الرومان والفرنجة، أما تواجدها في فترة من الزمان قبل ظهور اليهودية والمسيحية في الشمال الإفريقي نظراً لعدم وجود دين سماوي في تلك الفترة ثم تواجد الرومان المجوس وغيرهم في المنطقة، مع تأثر أهل البلاد بمن غلب عليهم ومسك بزمام أمرهم.

يقول الأستاذ محمود شيت عن ديانة سكان الشمال الإفريقي : (كانت ديانتهم قبل المسيح المجوسية)[1].

---

(١) المرجع السابق (١/١٩، ٢٠).

المبحث الثاني : الديانة اليهودية

إن الديانة اليهودية هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام، والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى – عليه السلام – مؤيداً بالتوراة، فحرفوها وأشركوا مع الله غيره في العبادة، ونسبوا له الابن تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وقالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء، وقالوا : بأن يد الله مغلولة، وكفروا بالملائكة والنبيين، وانحرفوا عن دين موسى عليه السلام انحرافاً كاملاً، وكان من مواطن انتشار هذه الديانة المحرفة : بلاد الشام وأوروبا، أما الشمال الإفريقي فكان نصيبه النذر اليسير، حيث وصلته هذه الديانة المحرفة عن طريق الفنيقيين على هيئة جماعات صغيرة ضعيفة، وانتهت بمجرد دخول المسيحية عن طريق الروم الذين أقاموا مملكة وإمبراطورية ضخمة في الشمال الإفريقي استمرت فترة من الزمان لا يستهان بها.

يقول الأستاذ شيت : (وجد العرب – المسلمون – أيام الفتح جماعات من يهود إفريقية، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها إلى البلاد عن طريق الفنيقيين، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من اليهود إلى المغرب على أيام الرومان، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر)[1].

المبحث الثالث : الديانة المسيحية

إن المسيحية تطلق على الدين المنزل من عند الله على نبيه عيسى – عليه السلام – وكتابها الإنجيل، إلا أن أتباعها حرفوا الإنجيل وعقيدته الصحيحة حتى أصبحت عقائدهم خليطاً من الوثنية الرومانية والهندية، والفلسفة اليونانية، والتحريفات

---

(١) المرجع السابق : (١/١٩، ٢٠).

اليهودية، فهم الذين يعتقدون عقيدة التثليث بزعمهم أن الله له ثلاث حالات – الأقانيم – فالإله الأب، والإله الابن، والإله الروح القدس. قال تعالى : ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة، وما من إله إلا إله واحد، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب إليم**﴾ [المائدة : ٧٣] وكان لديانة المسيحية حينئذ إمبراطورية كبيرة في روما ومصر، استطاعت أن تبسط نفوذها على مساحات شاسعة من الأراضي، فكان من بين تلك الأراضي أرض شمال إفريقية، حيث وجدت النصرانية إليها سبيلاً عن طريق الكنائس ورهبانها الذين قاموا بإجراء اتصالات مكثفة مع أهالي الشمال الإفريقي، فحققوا نجاحاً عجز عن تحقيقه حكام البلاد وقادة الجند، إلا أن انتشارها كان محصوراً في المدن التي أقاموا فيها فيما بعد، أما بالنسبة لانتشارها في مناطق البدو فكان محدوداً للغاية.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بهذا الصدد : (دخلت المسيحية المحرفة إلى المغرب عن طريق مصر، وعن طريق روما، خلال القرن الثاني الميلادي، فاعتنقها كثير من البربر، وانتشر الرهبان بين البربر، فكانت المسيحية سبيلاً للاتصال بين الرومان في العصر الروماني (١٤٦ إلى ٤٣٥ ق.م)، وبين الأهلين، وكانت الكنائس وسطاً صالحاً للاتصال والتفاهم، وبهذا وفق الرهبان فيما عجز الحكام دونه وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد)[١].

ولكن لما أحست الإمبراطورية الرومانية بجدوى أعمال الكنائس واتصالات الرهبان بالأهالي قامت باتخاذ إجراءات لازمة نحو الحفاظ على وحدتها السياسية، إلا أن أيام الإمبراطور (دسيوس) الذي طلب من جميع رعاياه البراءة من الديانة المسيحية المانوية، وحث رعاياه بإعلان تمسكهم بالديانة الوثنية المتمثلة في عبادة الأباطرة وآلهة روما الوثنية!! ومن هنا كانت بداية نهاية الديانة المسيحية عند البعض، وبلعن بعضهم

---

(١) المرجع السابق : (٣٩/١، ٤٠).

البعض، حينذاك وجد سكان الشمال الإفريقي فرصة للتمرد على الإمبراطورية الرومانية، وأعلنوا ثورة سياسية دينية ضد الرومان.

يقو الأستاذ خطاب بهذا الصدد حينئذ : (رفع البربر علم الثورة على الرومان ثورة سياسية في الواقع دينية في الظاهر، وعبثاً حاولت كنيسة قرطاجنة القضاء على الوندال وعلى الدوناتية، ولم يلبث الوندال أن قبلوا خلفاء للرومان على إفريقية فأنشؤوا يضطهدون الدونانتيين وأعداءهم معاً، وفرضوا على الناس مذهبهم – الآريوسي – الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية – واضطهدوا الكاثوليك وصادورا أملاك الكنيسة وأموالها، وبهذا تفرق أمر المسيحيين في إفريقية واختلف أتباعها شيعاً وأحزاباً فلم يلبث أن ارتد عنها الكثيرون، وضعف أثرها في الداخل)[1].

وهكذا كانت بداية الصراع ونهايته إلا أن هناك نقطة جديرة بالذكر في هذا المقام، وهي عندما اضطربت الأمور، وارتد الناس عن النصرانية، وانتشرت المذاهب المتباينة بين سكان الشمال الإفريقي قام القائد جوستنيان بإحياء فكرة النصرانية من جديد عن طريق إعادة بناء الكنائس وترميمها، وإرسال الدعاة إلى القبائل البربرية لنشر الفكرة النصرانية المنحرفة، وتقوية الروابط الدينية بينهم.

يقول الأستاذ خطاب في ذلك : (اهتم جوستنيان اهتماماً بالغاً بإعادة المسيحية إلى إفريقية، فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها، وشجع البعثات التبشيرية، فأخذت المسيحية تنشط من جديد، وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبرة وفي طرابلس وفي بعض نواحي نوميديا مثل وادي شلف حول تلمسان)[2].

ولكن دور الكنيسة الإفريقية في العصر البيزنطي ونشاطها النصراني انتهى

---

(١) المرجع السابق : (١/٤١).

(٢) المرجع السابق : (١/٤١).

بمجرد تلبس بعض قساوستها بالمعاصي والذنوب، وتدهور أخلاق القائمين على هذه الدعوة، مع وجود عامل آخر لا يقل أهمية عن الذي قبله، وهو خصومة المذهب الدوناتي الحادة للكنيسة، مما جعل الناس يفرون من ظلم الكنيسة وطقوسها!!

وفي هذه الفترة الحرجة نشطت الكنيسة الغربية وأخذت على عاتقها أمر العباد والبلاد، وكان ذلك بزعامة وقيادة جريجوري الأكبر، الذي انتهز الفرصة في تفرق أمر المسيحية في إفريقية، ليتدخل في شؤون إفريقية عن طريق الكنيسة الإفريقية من خلال قساوسته ومن ثم السيطرة على زمام أمور البلاد والعباد.

جاء في كتاب [قادة الفتح المغرب العربي] قوله بهذا الصدد : (بيد أن الكنيسة الإفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال يبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد، فكانت إدارتها مختلة النظام إذ تلاشى النظام الكنسي، واقترف القساوسة ذنوباً كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد، وكانت الدوناتية وخصومتها المشبوبة مع الكنيسة البيزنطية عاملاً آخر من عوامل ضعف هذه الأخيرة، إذ استطاع دعاتها أن يفروا إلى داخل البلاد نجاة من الاضطهاد، وهناك كانوا يثيرون الناس على الكنيسة البيزنطية فيفر منهم الكثيرون، بل أخذ البعض يعمد نفسه من جديد وفق طقوس الدونانتيين.

كانت الكنيسة الغربية قد أخذت تنهض نهضة علمية عظيمة في ذلك الزمن بفضل جهود جريجوري الأكبر، وكانت الخصومة ناشبة بينها وبين كنيسة بيزنطة، فوجد جريجوري في تفرق أمر المسيحية في إفريقية فرصة طيبة يتدخل بها في شؤون كنيسة إفريقية ليكسب رعاياها إلى صفه، فاستعان بقساوسة ذوي قدرة وشهرة، فأخذ مسيحيو إفريقية يتجهون نحو روما متأثرين بما كان جريجوري يذيعه فيهم من نداءات وبما يبذله قساوسته من جهد، وبما حرصت عليه الكنيسة الغربية من إعزاز لأمرالدين

وإخلاص في نشره، وبذلك ازدادت العلاقات العامة بين بيزنطة وإفريقية ضعفاً على ضعف)[1].

وفي أواخر العصر البيزنطي بعد موت هرقل الكبير سنة (٦١٠م) وخلفه أخوه جريجوريوس كانت حينذاك الانقسامات الدينية قد اشتدت في إمبراطورية البيزنط، فأراد هرقل أن يجنب بلاده تلك الفوضى الفكرية، فطلب من رجال الدين في دولته أن يصدروا مذهباً وسطاً يرضي كل الطوائف الدينية!! فكان صدى هذا المذهب في أوساط دولته أن أثار سخطهم جميعاً حتى أصرَّ أساقفتهم ورهبانهم على بقائهم على مذاهبهم القديمة، بل وصل الأمر بهم إلى إعداد العدة لمواجهة الدولة، ولكن هرقل عاجلته المنية فمات وتولى بعده قسطنطين الثالث - الذي كان يعتنق المذهب الأرثوذكسي - فأذاق الرهبان الرافضين العودة إلى أحضان الكنيسة سوء العذاب.

يقول الأستاذ محمود شيت مصوراً تلك الحقبة من الزمان : (في ذلك الحين، كانت الانقسامات الدينية قد اشتدت في بيزنطة وأخذ سعيرها يمتد فيحرق ولاياتها بلظاه، وكان الروم قد توزعتهم المذاهب المختلفة شيعاً وفرقاً، تتصارع وتحترب، وتهبط بالدولة إلى درك عميق، وأحب هرقل أن يخلص بلاده من تلك الفوضى، فأخذ يتصل بكبار رجال الدين في دولته يستطلع رأيهم، حتى استقر رأيه آخر الأمر على إصدار مذهب وسط ترضى عنه الطوائف كلها، فلم يكد المجلس الديني الذي عقده في سنة (٦٣١م) يصدر المذهب الجديد، حتى ثار الناس كلهم عليه، وأنكروه جميعاً... فلم يجد هرقل بداً من أن يصطنع الشدة في إرغام الناس على اتباعه، فاضطهد الكثيرين من رعاياه اضطهاداً شديداً، وشقي به قبط مصر خاصة لما أصابهم على يد (قيرس) الذي ندبه هرقل لتطبيق هذا المذهب في مصر)[2].

---

(١) المرجع السابق : (٤٢/١).
(٢) المرجع السابق : (٤٤/١ - ٤٥).

وقال أيضاً : (ومات هرقل وتولى قسطنطين الثالث عرش الإمبراطورية، وكان عدواً للمذهب الذي ابتدعه هرقل، فلم تكد شكوى أساقفة إفريقية تصل إلى علمه حتى أمر بإخراج الرهبان الذين يرفضون العودة إلى أحضان الكنيسة من الأديرة ومصادرة أملاك الأديرة الخارجية، وبهذا انقلب الحال، ونزل الاضطهاد بأشياع الإمبراطور القديم)[1].

وهكذا أصبحت حالة المسيحية في الشمال الإفريقي مذاهب شتى، وجماعات منشقة، وأفكار غثى، وصراعات حادة بين الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، والرومانية الكاثوليكية، التي كانت عاملاً أساسياً في انقراض النصرانية، حيث ساعدت هذه العوامل أهالي المنطقة أن يقفوا ضدها ويتمردوا عليها، وأن يبحثوا عن بديل يلبي فطرتهم التي ركزها الله عز وجل في نفوس كل البشر، فكانت هذه مقدمة لما بعدها حيث تهيأت نفوسهم لقبول الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال تعالى : **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** [الروم : ٣٠] وقال تعالى : **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾**.

---

(١) أهم المراجع في الفصلين الماضيين التي رجعت إليها : قادة فتح بلاد المغرب محمود شيت خطاب، فتح العرب للمغرب د. حسين مؤنس، تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول، المسالك والممالك لأبي إسحاق الفارسي، مقدمة ابن خلدون، جمهرة أنساب لابن حزم، تاريخ الفتح العربي في ليبيا طاهر الزاوي.

الفصل الثالث

حــــــدوده

يجدر بنا ونحن بصدد ذكر الشمال الإفريقي أن نهتم بتعريف حدوده الجغرافية من وإلى، بحيث تتضح معالمه الحدودية القديمة والجديدة للقارئ، ويتصور المنطقة تصوراً صحيحاً شاملاً.

يقول الأستاذ الحسين بن محمد شواط في تعريفه لحد إفريقية بأن : (إفريقية بكسر الهمزة – وهو المشهور – وقيل بفتحها، والنسبة إليها إفريقي، وقد اختلف الجغرافيون في تحديد هذه البلاد على أقوال، أهما :

١ – قيل : هي الأرض الواقعة بين برقة وطنجة، وعلى هذا فهي تشمل المغرب والجزائر، وتونس، والجزء الأكبر من ليبيا.

٢ – وقيل : هي ما بين برقة وتاهرت، أي الجزائر، وتونس، والجزء الأكبر من ليبيا.

٣ – وقيل : حدها من طرابلس إلى بجاية، أي أنها تشمل تونس وجزءاً من الجزائر وجزءاً من ليبيا.

٤ – وقيل : إنها بين طرابلس وقسنطينة، أي ما يقارب حدود البلاد التونسية حالياً.

٥ – وقيل : هي مدينة القيروان[١].

---

(١) انظر : مدرسة الحديث في القيروان، من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، للأستاذ=

لا يخفى أن كل هذه التعريفات تدور حول تحديد المعالم الحدودية لإفريقية، أما الشمال الإفريقي فمعالمه واضحة حيث إنه يشمل الدول الخمس المعروفة الآن بدول المغرب العربي وهي : ليبيا، وتونس، والجزائر، المغرب، وموريتانيا.

وينص على ذلك الدكتور سعد زغلول بقوله : (بلاد المغرب مصطلح يقصد به الكتاب العرب كل الأقاليم الواقعة غرب مصر، والتي تشمل القارة الإفريقية، والجزائر بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان، وأخيراً المغرب – الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمته الجنوبية – ويمتد طبيعياً نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر)[1].

= (الحسين بن محمد شواط) (١/٣١ – ٣٢).

(١) تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال ص(٦١).

الباب الثالث

ليبيا قبل الفتح الإسلامي

لقد تحدثنا في الباب الثاني عن الشمال الإفريقي على الجملة بشيء من الإيجاز، بيد أننا سوف نتناول في هذا الباب ليبيا ومعالمها الجغرافية، وعناصرها البشرية وديانتها الرسمية قبل الفتح الإسلامي بشيء من التفصيل بعدما أجملنا.

الفصل الأول

معالم ليبيا

المبحث الأول : أصل التسمية

لقد تقرر في علم الآثار أن نسبة لفظة (ليبو) أو (لوبيا) أو (ريبوا) كان يطلقها أهل مصر على القبائل التي تسكن غرب وادي النيل، أما اليونانيون فكانوا يطلقون اسم (ليبي) على شعوب شمال إفريقيا كله باستثناء المصريين.

ذكر الأستاذ طاهر الزاوي في تحديد أصل تسمية المنطقة بليبيا : (وقد عدد المقريزي في خططه كور مصر، فذكر من كور الجوف الغربي : كورة الإسكندرية وكورة مريوط، وكورة لوبيا ومراقية... وذكر في تحديد مصر أنها تحد من الجهة الغربية ببرقة...) ونقل عن القضاعي ما نصه : (الذي يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقية، وفي آخر أرض مراقية تلقى أرض انطابلس وهي برقة)[1].

ويقول جون رايت في ذلك، لقد وجد : (في النقوش المصرية للألف الثاني قبل الميلاد وصف للقبائل التي عاشت في صحراء غرب وادي النيل بأنها (ليبو) أو (ريبو) وبعد قرون من ذلك الوقت أطلق اليونانيون اسم (ليبي) على شعوب شمال إفريقيا كله

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للأستاذ / الطاهر أحمد الزاوي ص (١٤ – ١٥).

باستثناء المصريين)[1].

وبذلك يتقرر أن اسم ليبيا اسماً رسمياً منذ القدم، قد أطلقه اليونانيون على مدينة قورين – شحات –، ثم بعد ذلك عمم على سكان برقة وطرابلس، وكل من كان يقطن غرب منطقة النيل إلى بداية إفريقية – تونس الحالية –.

المبحث الثاني : ليبيا في علم الآثار

إن جزءاً كبيراً من تدوين التاريخ البشري يعتمد على علم الآثار ومحفوظاته الأثرية والفنية، والمخطوطات القديمة، فكان نصيب ليبيا من ذلك العلم النصيب الوافر، حيث وجدت الآلاف من الصور المنحوتة على الصخور في أكثر من عشرين موقعاً، وكانت تحمل في طياتها الأمور الغريبة والعجيبة عن معالم ليبيا البشرية، والفنية، والاجتماعية، والمناخية، والطبيعية، التي تحتاج من أهل الفن أن ينظروا فيها نظرة تأمل وتدبر حتى يستطيعوا أن يقرؤوا ما بين السطور، وما تحت الصور، ويربطوا الغائب بالشاهد من تاريخ المنطقة.

لقد نص المؤرخ الإنجليزي جون رايت في كتابه أنه قد تم العثور على صخور فنية في ليبيا وعلى : (هذه الصخور الفنية القديمة وجد العلماء آلاف الصور في أكثر من عشرين موقعاً، معظمها في فزان، وفي زاوية براك، ومرزق، وسبها، وجبال تبستي، وفي موقع ببرقة قرب حدود مصر والسودان، وفي أربعة أماكن من جبال منطقة طرابلس أيضاً، وكان أول من لاحظ أهمية هذه الرسوم الصخرية هو البحاثة الألماني (هنريش بارت) سنة ١٨٥٠م، غير أنها لم تدرس بالتفصيل إلا في السنوات الثلاثين الماضية، وبقيت الكثير من الرسوم التي تحتاج إلى عشرات السنين لفحصها ودراستها.

---

(١) تاريخ ليبيا، لجون رايت : ص (١٣).

اعتاد فنانو ما قبل التاريخ رسم الحيوانات التي كانوا يصطادونها على سطح الصخور الناعمة ورسموا كذلك مناظر لرجال عراة يطلقون السهام على الوحوش الضخمة، ومما يلفت النظر انقراض واختفاء هذه الحيوانات من ليبيا، بل من إفريقيا الاستوائية على مسافة مئات الأميال جنوبي ليبيا.

وقد غطى فنانو الصيد القدماء سطوح الصخر الناعمة برسوم واضحة للفيلة والزرافى، والتماسيح، ووحيد القرن، وفرس النهر والحيوانات الأخرى التي عاشت زمناً في تلك المنطقة التي أصبحت بعد ذلك من أكبر صحارى العالم، وليست هذه الصحراء الليبية قديمة للغاية، فمنذ عشرة آلاف سنة، كان معظم شمال إفريقيا مركزاً مثالياً للإنسان البدائي، بالنسبة للصيد وجمع الطعام، حيث كانت ترتع قطعان كبيرة من الحيوانات البرية التي ترعى السافانا والحشائش، ولا بد أن الماء كان متوفراً لأفراس النهر، وقد وجدت بقايا أشجار متحجرة في أماكن بالصحراء لم يعد فيها نبات هذه الأيام(١).

المبحث الثالث : حدود ليبيا

إن أبرز معالم حدود ليبيا الجغرفية ثلاث جهات، برقة من الناحية الشرقية، وطرابلس من الناحية الغربية، وفزان من الناحية الجنوبية، أما جهة شمال البلاد طول ساحلها فهي مطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث يصح القول بأن : معالم الحدود الجغرافية لليبيا ابتدأت بحدود غرب مدينة مطروح شرقاً، وحدود غرب رأس أجدير غرباً، وحدود جنوب شرق غدامس غرباً، وحدود جنوب غرب جبل العوينات شرقاً.

---

(١) المرجع السابق : ص (١٣ – ١٤).

الفصل الثاني

سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي

المبحث الأول : العنصر البربري

إن ليبيا تقع على شريط ساحل طويل ممتد إلى أقصى الحدود شرقاً وغرباً مما جعلها محطة لبني البشر على مختلف ألوانهم وأجناسهم، إلا أن الجنس البربري يعتبر من أقدم الأجناس التي عاشت في هذا الساحل الطويل، وهذا ما قرره صاحب كتاب تاريخ ليبيا.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي وهو بصدد حديثه عن سكان ليبيا القدماء : (أمة البربر أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الإفريقي)[1].

وكلمة بربر إذا ما أطلقت تشمل كل من يتكلم لغة أو لهجة معقدة لا تفهم إلا عند بني جنسه، ويدخل في هذا الإطلاق أمة اليونان، وأمة الرومان، وأمة السودان.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي : (وكلمة البربر أطلقت بأربعة إطلاقات في أربعة عهود مختلفة، فأطلقت في عهد هومير على القبائل المعقدة اللغة واللهجة حيثما وجدت، وأطلقت في عهد هيرودوت على الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم،

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للأستاذ طاهر الزاوي ص (١٩ - ٢٠).

وأطلقت في عهد بلتوس على الروم ما عدا سكان روما، وأطلقها العرب في عهدهم على الأمة التي تسكن الساحل الإفريقي لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب، والعرب يطلقون كلمة البربر على الأصوات المتجمعة غير المفهومة)[1].

المبحث الثاني : العنصر القرمنتي

لقد عاش هذا العنصر فيما بين (٣٠٠٠ - ٢٥٠٠ ق.م) في الصحارى الليبية خاصة في مدينة فزان، على رعي المواشي ذات القرون الطويلة، والتجارة مع دول ما وراء البحر ومصر، مما جعله يتأثر بالحالة الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية السائدة حينذاك خاصة مصر، ويعتبر هذا العنصر أول من قام بنقل الحصان والعربة من مصر إلى ليبيا.

يقول جون رايت بهذا الصدد : (كان لمصر تأثير اقتصادي، واجتماعي معتبر على قبائل الصحراء البدائية، ووجدت تجارة نشطة بين وادي النيل والغرب والجنوب الغربي، حيث يبدو أن الناس كانوا يعتنقون الديانة المصرية القديمة ويزاولون طقوس الدفن، ثم كان انتقال الحصان إلى ليبيا عن طريق مصر، وجاءت معه العربة. وبعد سنة ألف قبل الميلاد، استعملت بعض قبائل ليبيا وهم (القرمنتيون) العربة الحصان لغزو قبائل صحراوية أخرى، ولبناء أمبراطورية في فزان وحولها، وفي متحف القلعة بطرابلس نموذج لهذا العربات...) ولا يعرف شيء عن أصل القرمنتيين الذين كانوا يرعون المواشي ذات القرون الطويلة في فزان القديمة، ويحتمل أن يكونوا قد انتقلوا من الساحل نحو الجنوب. وربما كانوا هم الذي أحضروا الحصان والعربة من مصر، وربما أحضروا أيضاً أعمال الحديد لليبيا، ومع مرور الزمن أصبح القرمنتيون يتحكمون في

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للأستاذ طاهر الزاوي ص(١٩ - ٢٠).

طرق التجارة القادمة من ساحل البحر الأبيض المتوسط عبر الصحراء إلى إفريقيا الوسطى، كما سيطروا على مداخل الصحراء مدة تزيد عن ألف عام. وكان الفنيقيون واليونانيون الذين استقروا على الساحل يتاجرون عن طريقهم، ثم حاربوهم وأصبحوا فيما بعد حلفاء لهم، وقد استطاع القرمنتيون بعرباتهم وأسلحتهم المتقدمة وتنظيمهم الواضح، التغلب على قبائل صحراوية أخرى كانت غير منظمة ولا تركب شيئاً في قتالها، وتستخدم أسلحة بدائية جداً)[1].

ولا يخفى أن آثار العنصر القرمنتي، ومظاهر حضارته، ومملكته، لا زالت موجودة حتى وقتنا هذا في منطقة وادي الأجال من الجهة الجنوبية لليبيا، والتي تعتبر عاصمة القرمنتيين آنذاك، حيث مكنهم موقعهم الاستراتيجي أن يتحكموا في التجارة الواردة والصادرة إلى وسط إفريقية، ويصبحوا بذلك مركزاً هاماً للنقل والتجارة.

وهذا ما قرره المؤرخ جون رايت بقوله : (كانت البضائع تنقل من منطقة طرابلس إلى وسط إفريقيا عن طريق ممرين تجاريين عظيمين يلتقيان على بعد ٢٥٠ ميلاً إلى الجنوب من غدامس ثم تواصلان السير كطريق واحد إلى نهر النيجر، وكان لمدن صبراتة وأودية ولبدة مزية على بقية المدن القرطاجية، لأنها تقع إلى الجنوب على مسافة ١٠٠ ميل على الأقل، وبذلك تكون أقرب مركز إلى أسواق إفريقيا الداخلية، وكان المسافرون الذين يريدون اختصار الطريق من النيجر إلى البحر المتوسط يسلكون طريقاً تمر بغدامس وصبراتة، أما القرمنتيون فكانوا يسلكون عدة طرق بالعربات من فزان إلى النيجر، يحملون بضائع البحر المتوسط إلى أعماق إفريقيا ويرجعون بالذهب والفضة والحديد والأحجار الثمينة، ويحضرون من الصحراء نفسها منتجاتها، كريش النعام والتمور وغير ذلك من السلع، وكان القرطاجنيون يدفعون لرجال القوافل أجورهم من العملة، ينفقونها في المدن، أو من الأطعمة والشراب والملابس، وكان القرمنتيون

---

(١) تاريخ ليبيا ص (١٦ – ١٧).

يحكمون من عاصمتهم في جرمة منطقة محدودة من الصحراء، ولكنهم كتجار كانوا يسيطروه على جميع البلاد من الأطلنطي إلى نهر النيل، ومن حدود السودان إلى سواحل البحر المتوسط)[١].

المبحث الثالث : العنصر الفنيقي

لقد اختلف المؤرخون في أصل الفنيقيين، منهم من ذهب إلى أن أصلهم عربي وينحدرون من أصل سامي كان يسكن فلسطين وسواحل الشام، وهذا ما ذهب إليه الأستاذ طاهر الزاوي، ومنهم من قال : إن أصلهم كنعاني هاجروا إلى الشام، وسكنت أمة منهم اليونان، وهذا ما نصره الأستاذ محمود شيت خطاب.

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي مقررا ما ذهب إليه : (الفنيقيون أمة عربية قديمة من الأصل السامي اشتهرت منذ القدم بالتجارة والأسفار البحرية، وكانت مواطنهم فلسطين وسواحل الشام، ومن أشهر مدنهم صيداً، وصور، وطرابلس الشام، وبيروت، وكانوا يترددون على الشمال الإفريقي منذ القرن الثاني عشر ق.م، وأنشؤوا على ساحله محطات تجارية كبيرة لنقل بضائعهم منها إلى الأسواق التي تروج فيها، وكانت عنايتهم بالتجارة والصناعة بالدرجة الأولى في شؤون حياتهم، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين جاؤوا بزراعة الزيتون إلى إفريقية)[٢].

ويقول الأستاذ محمود شيت خطاب ناصراً ما ذهب إليه : (الفنيقيون من الكنعانيين كبعض المغاربة الأقدمين، وفي سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد هاجرت إلى الشام أمم من الكنعانيين وسكنت أمة منهم في القطر الذي سماه اليونان فينقيا.

---

(١) المرجع السابق : (١٦ – ١٧).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص : (٣٠).

وتقع فينقيا في شواطئ أرض الشام في المنطقة المحصورة بين جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، يبلغ اتساعها نحو خمسين كيلوا متراً، ويبلغ طولها نحو خمسمائة كيلو متراً، وهي تمتد من جزيرة (أرواد) شمالاً إلى مدينة عكا جنوبا، وقد أطلق اليونانيون على هؤلاء الكنعانيين كلمة : الفنيقيين، نسبة إلى الكلمة اليونانية، فينكس، ومعناها عندهم : النخل واللون الأحمر، لأن هؤلاء الكنعانيين كانوا يلبسون اللون الأحمر وكانوا يصورون النخل على نقودهم، وعاشت هذه الأمة العظيمة أكثر من (٣١٧٠ سنة) وأحسنت إلى الإنسانية، ومنها تعلمت الإنسانية القراءة والكتابة)[١].

كما وأن تاريخ العنصر الفنيقي من خلال تطوره ينقسم إلى مرحلتين، مرحلة تأسيس مدينة صيدا سنة (١٥٠٠ - ١٢٠٩ق.م)، والتي كانت آنذاك أعظم مدن الفنيقيين، ومرحلة تأسيس مدينة صور سنة (١٣٣١ - ١٢٠٩ق.م)، والتي تزعمت فيها مدينة صور الإمبراطورية الفنيقية.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (وينقسم تاريخ الفنيقيين إلى عصرين :

العصر الأول عصر صيدا، والعصر الثاني عصر صور.

أولاً : عصر صيدا : ويمتد من سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد إلى سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد وفي هذا العصر أسس الفنيقيون عدة مدن في فنيقيا، وكانت أعظم مدنهم هي مدينة صيدا وكانت عاصمتهم، ولهذا سمي هذا العصر بعصر صيدا، وقد دامت عظمة هذه المدينة نحو (٢٣٠) سنة...

ثانياً : عصر صور : وهو يمتد من سنة ١٣٣١ قبل الميلاد إلى سنة ١٢٠٩ قبل الميلاد وفي هذا العصر تزعم أهل مدينة صور الإمبراطورية الفنيقية، وصارت صور من أعظم مدن العالم، وقد استطاع الفنيقيون أن يعيدوا مجدهم الذي كان لهم في العصر

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (٢٢/١).

الأول في أقصر وقت، وقد قوي اتصال أهل صور بأهل الشمال الإفريقي وكونوا في موريتانيا ونوميديا وزوجيتان (تونس حالياً) مدناً كثيرة[1].

ففي هاتين المرحلتين من مراحل تاريخ الفنيقيين قامت لهم حضارة مدنية تعتبر آنذاك تقدماً عالي المستوى، يدل على اهتمامهم بجوانب تحصيل العلوم والتقنية، وتطوير المهن الحرفية، والصناعية والحربية، وتوطيد سرعة الاتصالات العالمية، ولعل آثارهم الباقية في صبراتة، ولبدة، وبعض ضواحي طرابلس تشهد لذلك.

يقول الأستاذ شيت خطاب مشيداً بحضارة الفنيقيين : (قد أجمع المؤرخون على أن الفنيقيين كانوا أول من ركب البحر، وأول من صنع السفن البحرية، وكانوا في تلك العصور القديمة أعظم أمة تجارية صناعية، فكانوا ينظمون قوافل تسير في البر إلى الهند، وبابل، وآشور، وبلاد فارس، لتبيع مصنوعاتهم في تلك الأقطار، كما نظموا قوافل بحرية كانت تذهب إلى شواطئ البحر، تعرض المصنوعات الفنيقية على أمم البحر الأبيض المتوسط، وصاروا يرسلون إلى شواطئ الأقطار البعيدة جاليات منهم لتؤسس مدناً فنيقية تجارية، لتكون مركز الاتصال بينهم وبين تلك الأمم كما أسسوا في إقليم طرابلس الغرب مدينة (بزسيوم) وأطلقوا على تلك الجهة كلمة (بزاسين) ومعنى ذلك في لغتهم : الأرض الكثيرة المياه، وهم الذين أنشؤوا في تونس إقليم (زوجيتان) وسموا تلك الجهة بهذا الاسم.

وظلوا سادات البحر الأبيض المتوسط يفعلون ما يشاؤون ولا ينازعهم فيه أحد إلى سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد، ففي هذا العصر ظهر في البحر سفن أمم جديدة، أخذت الحضارة والصناعة وأصول الملاحة من الفنيقيين وكان من أعظم هذه الأمم الإغريق، التي صارت تحارب سفن الفنيقيين وتضايقهم في شرق البحر الأبيض المتوسط، وكانت لفنيقيا مستعمرات كثيرة في البحر الأوسط، فلما ضايقها الإغريق تركت تلك

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١/١١).

الجهة وولت وجهها شطر بلاد المغرب، فمن هذا التاريخ اشتد اتصال الفنيقيين بالمغاربة وأحدثوا في شمال إفريقية مدناً كثيرة[1].

ويقول في موضع آخر : (وقد استطاع الفنيقيون أن يعيدوا مجدهم الذي كان لهم في العصر الأول في أقصر وقت، وقد قوي اتصال أهل صور بأهل إفريقيا وكونوا موريتانيا، ونوميديا، وزوجيتان (تونس حالياً) ومدناً كثيرة، وقد استولوا على جزيرة (مالطة) وجعلوها محطة لسفنهم التي كانت تسير في البحر الأبيض المتوسط، وظل الفنيقيون متمتعين بسيادة البحر الأبيض المتوسط إلى سنة (٣٣١) قبل الميلاد، ففي هذه السنة احتل الإسكندر المقدوني مدينة صور وخرب معظمها وأذاق أهلها العذاب الأليم، وبهذا الحادث انتهى مجد الفنيقيين وعظمتهم، وورث ملكهم أبناؤهم القرطاجنيون، وقد عاش أهل صور متمتعين بالعز (٨٧٨) سنة، وعاشت الأمة الفنيقية أكثر من (٣١٧٠ سنة)[2].

سبحان الله! فقد أصبحت تلك الأمم والحضارات أثراً بعد عين، وها نحن نسطر في تاريخها وحضارتها كأن لم تكن، وهذا كما لا يخفى تحقيق لسنن الله الثابتة. التي تقرر أن الله سبحانه يمهل الأمم الكافرة ويعطيها شيئاً من التمكين الدنيوي والقوى الظاهرة، إذا أخذت بالأسباب والسنن الكونية قال تعالى : ﴿**كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظوراً**﴾ [الإسراء : ٢٠] ولكن يأخذها أخذ عزيز مقتدر لكفرها وشرها وتمردها على منهج الله القويم، وهكذا كان حال الأمة الفنيقية المشركة الكافرة بربها وتمردها على منهج الله القويم، وهكذا كان حال الأمة الفنيقية المشركة الكافرة بربها فقد وصلت إلى قمة الحضارة المدنية – كما مرّ معنا – حتى ظن أهلها أنهم قادرون عليها إلا أنها كانت تعبد الأصنام الأحياء منها والأموات،

---

(١) المرجع السابق : (١/٢٤، ٢٥، ٢٦).
(٢) المرجع السابق : (١/٢٦).

حتى أصبحت هذه الأوثان والأصنام الهياكل معلم من معالم حضارتها!! فكان من أبرز معالم تمردها عن منهج الله، وكفرها بخالقها تلك الأصنام المسماة بأصنام هرقل المحيطة بجبل طارق، والتي كانوا يتقربون إليها بالأضاحي، والنذور، والدعاء، والخوف، والرجاء!! فلما فعلوا ما فعلوا أتاها أمر ربنا فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴿**سنة الله التي قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾ [الفتح : ٢٣].

المبحث الرابع : العنصر القرطاجني

إن العنصر القرطاجني امتداد طبيعي للعنصر الفنيقي، إذ تعتبر الصلة بمثابة صلة الأب بابنه، وكان سبب وصولهم إلى شمال إفريقية اعتناء الأجداد الفنيقيين بإنشاء المدن وتطويرها خاصة في الشمال الإفريقي، فقد أسسوا مدينة قرطاجنة (تونس) سنة (٨٤٠ق.م) وكان في عهد الأميرة (ديدون) أو (اليسا) حيث قدمت هذه الأميرة وجماعتها، واستقرت في قرطاجنة التي كان يبلغ تعداد سكانها حوالي مليون نسمة، وبذلك أسست أكبر إمبراطورية حينئذ إذ كانت تملك شواطئ الشمال الإفريقي، وأغلب أراضي إسبانيا، وأكثر جزائر البحر الأبيض المتوسط، وكان نظام هذه الإمبراطورية السياسي يدار على نمط النظام الجمهوري المعاصر في مدنها الثلاث الرئيسية - قرطاجنة إفريقية وهذه أعظمها، وقرطاجنة الجزيرة الخضراء بالأندلس عند جبل طارق، وقرطاجنة الخلفاء بكورة تدمير بالأندلس - حيث كان هناك مجلساً مكوناً من مائة عضو من أهل الحل والعقد، وكان لهم رئيسان ينتخبان كل سنة.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي : (وكان نظام حكمها زمن القرطاجنيين أشبه بالجمهوري، وكان يدير شؤون الحكم مجلس مكون من مئة عضو من الأعيان

والتجار، وكان لهم رئيسان ينتخبان كل سنة، وديانتهم الوثنية، وأكبر آلهتهم بعل)[1].

وبعد ست سنوات من استقرار الإمبراطورية القرطاجنية في الشمال الإفريقي بدأت الأمبراطورية بإرسال حملات عسكرية على قبائل البربر التي كانت تسكن المنطقة من حدود برقة الشرقية، إلى ساحل أوروبا الجنوبية حتى جبل طارق الذي كان يسمى آنذاك أعمدة هرقل، وكان الغرض من هذه الحملات إخضاع هذه القبائل لسلطان الإمبراطورية ونفوذها.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (وفي سنة (٤٨٠) ق.م، صار القرطاجنيون يغيرون على القبائل البربرية التي كانت تسكن السواحل حتى أخضوعها لسلطانهم، وشمل نفوذهم من حدود برقة الشرقية إلى بحر الظلمات، كما شمل ساحل أوروبا الجنوبي إلى جبل طارق الذي كان يسمى إذ ذاك أعمدة هرقل)[2].

وفي بدايات سنة (٢٦٤ ق.م) قامت صراعات عنيفة بين إمبراطورية الرومان التي كانت تقطن سواحل أوروبا الجنوبية، وإمبراطورية القرطاجنيين، دامت أكثر من مئة عامة انتهت بتغلب الإمبراطورية الرومانية على القرطاجنيين، حيث انتقلت بعد ذلك زعامة الشمال الإفريقي بأسره إلى الإمبراطورية الرومانية الواقعة جنوب أوروبا.

يقول الأستاذ شيت خطاب في ذلك : (في سنة (٢٦٤) قبل الميلاد، اشتبكت في صراع عنيف مع الرومان دام أكثر من مئة سنة، وأخيراً تغلب عليها الرومان سنة (١٤٦) قبل الميلاد وقضوا عليها القضاء النهائي، ومحو آثارها من الوجود، فتحولت زعامة الدنيا من شمال إفريقية إلى جنوب أوروبا)[3].

---

(١) قادة الفتح العربي في ليبيا ص : (٣١).

(٢) قادة فتح بلاد المغرب (١/٢٧).

(٣) قادة فتح بلاد المغرب (١/٢٧).

وهكذا تحققت فيها سنة الله – سبحانه – في أخذه للأمم الكافرة الظالمة، التي تبغي في الأرض بغير الحق، فقد سلط عليهم الرومان فمزقوهم شر ممزق، قال تعالى : ﴿كذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ [الأنعام : ١٢٩].

المبحث الخامس : العنصر الروماني

فبعد الحروب الطويلة التي دامت حوالي مائة عام بين الإمبراطورية القرطاجنية والإمبراطورية الرومانية، ومن هذه الحروب ثلاث حروب هامة، الأولى كانت سنة ٢٦٤ ق.م وانتهت بانهزام القوات الرومانية في إفريقية وانهزام القوات القرطاجنية في صقلية، والثانية : كانت سنة ٢١٨ ق.م وانتهت سنة ٢٠٢ق.م والتي انتصر فيها القائد العسكري هنبعل القرطاجني على القوات الرومانية في إيطاليا، ثم أعاد الرومان الكرة عليه في معركة زاما سنة ٢٠٢ ق.م ففر إلى الشام ومات في أنطاكية، والثالثة كانت سنة ١٤٩ ق.م وأنتهت ١٤٦ ق.م بانتصار الرومان على القوات القرطاجنية، مما أتاح الفرصة للقبائل البربرية بقيادة (ماكسن) للانضمام إلى القوات الرومانية هرباً من قسوة القرطاجنيين واستبدادهم.

يقول الأستاذ محمود شيت مقرراً ذلك لقد : (أصبحت الدولة الرومانية أعظم دولة في العالم بعد قضائها على قرطاجنة، فقد وقعت ثلاث حروب بين الرومان والقرطاجنيين في المدة ما بين سنة (٢٦٤) إلى (٢٤٦) ق.م فالحرب الأولى : ابتدأت من سنة (٢٦٤) ق.م، وانتهت سنة (٢٤١) ق.م انهزم فيها الجيش الروماني في إفريقية، وانهزم الجيش القرطاجني في صقلية.

والحرب الثانية : ابتدأت سنة (٢١٨) ق.م، وانتهت سنة (٢٠٢)ق.م، انتصر فيها (هنبعل) القائد القرطاجني في إيطاليا في معركة (كان) وقتل فيها من الرومان ما

يربو عن السبعين ألفاً، وكانت سنة (٢١٦) ق.م، وكان (هنبعل) من أكبر قواد القرطاجنيين، وكاد يقضي في هذه المعركة على روما لولا تقاعس دولته عن إمداده بالمال والجند لخلاف كان بينه وبين بعض الرؤساء، وانتصر عليه الرومان في معركة (زاما) سنة (٢٠٢) ق.م ففر إلى الشام ومات في أنطاكية.

الحرب الثالثة : ابتدأت سنة (١٤٩) ق.م، وانتهت سنة (١٤٦) ق.م، رجحت فيها كفة الرومان على القرطاجنيين، واستماتت القرطاجنيون في الدفاع عن عاصمتهم فانتهز البربر فرصة رجحان كفة الرومان فانضموا إليهم بزعامة (ماكسن) البربري، فملك الرومان قرطاجنة وخربوها وأحرقوها بالنار، فأصبحت أثراً بعد عين، وكان ذلك سنة (١٤٦) قبل الميلاد[1].

وبتلك المعارك الثلاثة التي تعتبر الفيصل في الحروب التي نشبت بين الرومان والقرطاجنيين والتي زال فيها ملك قرطاجنة من الوجود بعد أن دام نحو سبعمائة سنة واستولى الرومان على سواحل ليبيا، وتونس، والجزائر، أما سواحل المغرب الأقصى فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها لقيام أهلها بمقاومة مسلحة بقيادة (تاكفراس) لمدة تسع سنوات تقريباً، ولكن بعد ذلك تم الاستيلاء على ناحية المغرب الأقصى سنة ٤٢ بعد الميلاد، وجعلوا عاصمته مدينة (تينجيس، طنجة الحالية) ثم أقاموا عدة مدن عصرية وربطوا بينها بطرق معبدة تشبه الطرق الحديثة، وأنشؤوا على مداخلها ومخارجها أبراجاً قلاعاً تصد الغارات التي يقوم بها المناوئون للإمبراطورية الرومانية.

ولكن ما لبثت الإمبراطورية الرومانية بعد أن أعادت الحياة العمرانية في البلاد حتى قام الحاكم العام الروماني (بونيفاس) بتمرد على سلطان الإمبراطورية الرومانية،

---

(١) قادة فتح المغرب العربي (٢٢/١).

وأعلن عصيانه على سلطة روما التي كانت في حالة حضار وتعاني من سكرات الموت!! ولكن لم يكن لهذا الحاكم قوى عسكرية محلية يستطيع أن يقاوم بها ضربات سلطة روما، فلجأ إلى أعداء الرومان الذين كانت لهم مملكة ودولة قوية في إسبانيا يستعين بها للقضاء على سلطة روما، وكان هذا العدو لسلطة روما هماً واستجاب الوندال بقيادة (جينسريك) فلبوا مباشرة نداء الحاكم الروماني ودخلوا إلى المغرب بجيش مدجج بالأسلحة تعداده نحو ثمانين ألف جندي، وانضم إليهم أكثر أهل المنطقة الكارهين للاحتلال الروماني.

وبذلك كانت القاصمة للحاكم العام الروماني الذي رأى أن الوندال انتهزوا الفرصة بدخولهم للمنطقة وجعلوها تابعة لهم. وأقاموا فيها دولتهم وأصبحت قرطاجنة عاصمة لدولة الوندال بقيادة جنسريك، وهنا أدرك الحاكم العام الروماني (بونيفاس) خطأه في استعانته بالوندال، وكانت هذه نهاية الإمبراطورية الرومانية في الشمال الإفريقي.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بهذا الصدد : (قد ظل المغرب خاضعاً للرومان إلى سنة (٤٢٩) ميلادية، ففي هذه السنة أعلن الحاكم العام الروماني (بونيفاس) العصيان على حكومة روما، التي كانت ضعيفة في ذلك العصر، وقد استعان الرومان على حرب دولته، وهم (الوندال) الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت جنوب إسبانيا، فأسرع ملك الوندال وهو (جينسريك) إلى بلاد المغرب ومعه (ثمانون ألف جندي))، وانضم إليهم كثير من المغاربة لأنهم كانوا يكرهون الاحتلال الروماني لبلادهم، ولكن (بونيفاس) أدرك أنه أخطأ عندما رأى الونداليين يحتلون المغرب لأنفسهم، فصار يحاربهم إلى أن انتصروا عليه، فاحتلوا شواطىء المغرب، وتونس، والجزائر، وجعلوا عاصمتهم مدينة (قرطاجنة)، وغادر (بونيفاس) بلاد المغرب سنة (٤٣١) ميلادية، وبقيت فيها بعض الجيوش التي أرسلتهم إليها الإمبراطورية الشرقية

لإعانة روما سنة (٤٣٥) ميلادية، وفي هذه السنة خرج آخر جندي للرومان من المغرب وبذلك انتهى عصر الرومان الذي دام (٣٩٣) سنة[1].

المبحث السادس : عنصر الوندال

لقد تقرر في كتب التاريخ أن عنصر الوندال يرجع أصله إلى الجرمانيين الذين يطلق عليهم اسم الألمان في عصرنا الحاضر، وكان سبب تواجدهم في إسبانيا بعد الاستيلاء على فرنسا في القرن الرابع الميلادي عدة عوامل منها : التوسع وبسط النفوذ، وتأمين جوانب المعيشة، ومحاولة الوصول إلى الشمال الإفريقي كعمق استراتيجي لمملكتهم في جنوب إسبانيا.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (الوندال هم من الأصل الجرماني (الألمان) زحفوا في القرن الرابع الميلادي على إسبانيا فاحتلوها وأقاموا بها دولة عظيمة، ولما ضعفت الدولة الرومانية صارت تهاجمها القبائل المتبربرة من شمال أوروبا وتستولي على أراضيها، وكان من جملة القبائل التي هاجمت الإمبراطورية الرومانية قبائل الوندال، وبعد أن احتلوا فرنسا تقدموا إلى إسبانيا واستقروا في جنوبها في إقليم الأندلس، وإليهم ينسب هذا الإقليم، فقد كان يسمى فاندولوسيا نسبة إليهم)[2].

وفي فترة تمرد الحاكم العام الروماني بونيفاس - كما مر معنا - على الإمبراطورية الرومانية وفي روما، وطلب الاستعانة من الوندال بقيادة جنسريك، فكان الوندال في ذلك الوقت يملكون القوى العسكرية الرهيبة المكونة من أسطول ضخم من السفن الحربية، وتعداد هائل من القوى البشرية، مما حفزهم لتلبية طلب الحاكم العام

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (٣٢/١).
(٢) المرجع السابق : (٣٣/١).

الروماني الاستعانة بهم، ودخلوا المنطقة بعزيمة الاستيلاء - لا الاستعانة - لصالح المملكة الوندالية وكان لهم ما خططوا ونفذوا، حتى أصبحو فيما بعد تخشاهم الدولتان الشرقية والغربية.

يقول الأستاذ شيت خطاب بهذا الصدد لقد : (مكث جنسريك أكثر من ثلاثين سنة قاهراً منصوراً، تخشاه الدولتان الشرقية والغربية، فلما مات سنة (٤٧٧) ميلادية تولى ابنه (هنريك) وكان قاسياً على الكاثوليك، فقبض سنة (٤٨٣) على خمسة آلاف من رهبانهم وشردهم في الصحراء واغتصب أموالهم وكنائسهم، وفي سنة (٥٢٣) ميلادية تولى على الوندال (هلدريك)، وكان ضعيف الإرادة منحل العزيمة، فخلعوه وولوا مكانه (جليمير) فاستنجد (هلدريك) المخلوع بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه، فكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال من إفريقية، فهاجم (بيليساريوس) القائد الروماني قرطاجنة سنة (٥٤٤) ميلادية وأسر ملك الوندال (جليمير) واسترد جميع الأملاك التي كانت تابعة للوندال وأعادها إلى بيزنطة (القسطنطينية) وزالت دولة الوندال بعد أن ملكت نحو مائة سنة)[١].

المطلب الأول : عودة الرومان إلى الشمال الإفريقي بقيادة بيزنطة

فلما أزاح ملك الوندال (جليمير) الملك السابق المخلوع ضعيف العزم والإرادة (هلدريك) استغاث هذا المخلوع بالإمبراطورية الرومانية واستنجد بقيصر القسطنطينية جوستنيان لاسترجاع ملكه، فوقعت المملكة الوندالية في الشَّرَك نفسه الذي وقعت فيها القوات الرومانية بقيادة بونيفاس - كما مر معنا -.

فلما وصل هذا النداء لجوستنيان انتهز الفرصة الثمينة، فأعلن الحرب على

(١) قادة فتح المغرب العربي : (٣٤/١).

الوندال وأرسل على الفور قواته المدججة بالأسلحة الفتاكة بقيادة قائده الماهر (بيليساريوس) إلى قرطاجنة وكان ذلك سنة ٥٣٤م، فأسر ملك الوندال جليمير، واستولى على كل المناطق الخاضعة لمملكة الوندال، وأعاد كل أملاك الوندال إلى مملكة بيزنطة (القسطنطينية) وزالت دولة الوندال من إفريقية بعد أن ملكتها نحو مائة سنة.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي في ذلك : (ولما خلع (هلدريق) استنجد بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه وكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال من إفريقية وإرجاعها إلى ملك روما، فأنجده وأعلن الحرب على الوندال، وهاجم بيليساريوس القائد الرومي قرطاجنة سنة ٥٢٤م وأسر ملك الوندال (جليمير) واسترد جيمع البلاد التي كانت تابعة للوندال إلى مملكة بيزنطة)[1].

وفي هذه الحقبة من الزمان أسس الرومان في الشمال الإفريقي حضارة مدنية راقية، فقد أقاموا العمران المتطور، والصهاريج الضخمة، والسواقي الشاهقة، والسدود المنيعة، وأصلحوا البنية التحتية والفوقية للبلاد على الجملة، حتى أحس أهالي المنطقة بهذا الاعتناء الخاص بهم من طرف الرومان فطفق الأهالي ينتحلون كل مقومات الحياة الرومانية لدرجة الاندماج الكامل ويتركون عاداتهم البربرية، حتى وصل بجند الإمبراطورية الرومانية أن تنتخب سفاروس القائد البربري لعرش الإمبراطورية سنة ١٩٣م.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي : (ومع طول الزمن وتعاقب السنين اندمج بربر السواحل في الروم بسنة تقليد الضعيف للقوي، واستحسان المغلوب ما عليه الغالب من عادات وتقاليد، ونسي بعضهم قوميتهم وعاداتهم، وأصبحوا رومان في كل مقومات الحياة حتى زالت الفوارق بينهم بين الروم، وبهذا الاندماج أمكنهم أن يتولوا أكبر المناصب في الدولة، فإن سبتيم سيفاروس - وهو بربري الأصل - انتخبه الجند

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا : (ص : ٣٥، ٣٦).

إمبراطوراً لعرش الروم سنة ١٩٣م)[1].

ولكن تفشى الانحلال الاجتماعي، وكثرة الدسائس والمؤامرات والخصومات، والمذاهب الدينية والسياسية أوهن من تعلق نفوس الناس بالإمبراطورية البيزنطية، مع وجود عامل مهم ألا وهو اشتداد ساعد الفرس في القرن السادس، ومع اشتداد هذه العوامل أخذت الإمبراطورية البيزنطية تفرض الأموال الطائلة على الأهالي للاستعداد لمقابلة الفرس، واستخدمت القوة والاضطهاد في نزع هذه الأموال، وأسكتت أصوات الناقمين منهم، مما حدا بالأهالي أن يقفوا موقف المعادي فكانت بداية نهاية الإمبراطورية الرومانية.

يقول الأستاذ محمود شيت : (ولقد كان للانحلال الاجتماعي أثر بالغ على انحلال الدولة، فقد كانت نفوس الناس قد وهنت، وكان الأباطرة أنفسهم أسبق الناس إلى حلقات الملاعب والمسرات، وكانت النساء كذلك سباقات إليها يخالطن الرجال في تبذل انتهى بالمجتمع كله إلى تدهور سريع، ومن هنا نشأت الدسائس والمؤامرات التي تتصل بهذه الألوان من العبث، فنخرت عظام الدولة الواهنة، وأخذت دائرتها تتسع حتى شملت بلاط الإمبراطور، فأحالته مسرحاً لكثير من الخصومات والجرائم والآثام، وكلما انتصر في القصر حزب ارتفعت له في نواحي الدولة أعلام، بعضها أنصار، وبعضها مذاهب مختلفة في الدين والسياسة، وكلما مات حاكم نزل البلاء بأشياعه وأتباعه ومناصريه في العقيدة والرأي وندمائه في المباهج والشراب.

وكانت بيزنطة كلما ازداد بها الضعف انسلخ عنها جزء من أملاكها، وكلما اشتد ساعد جار اقتطع منها على قدر ما يستطيع، حتى إذا كان القرن السادس واشتد ساعد الفرس أقبلوا ينهبون أرض الدولة انتهاباً، فاقتطعوا أكثر آسيا الصغرى والشام

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا : (ص : ٣٥، ٣٦).

ومصر، وأخذوا يستعدون للمضي إلى شمال إفريقيا، فلم يكن للدولة بد من أن تبذل ما قد بقي في كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد هرقل، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالي فأنشأت تعتصر دماء من بقي لها من الرعايا، حتى كادت توردهم موارد التلف، بدؤوا يحتجون ويعترضون، فلجأ الحكام إلى العنف لإسكات أصوات الناقمين منهم، فاشتد الحقد وتأصلت الكراهية بين الجانبين ولم يكد الفريقان يحسان بما بينهما من خلاف بسيط في مسائل الدين، حتى خيل لهم الحقد الدفين أن الخلاف بعيد يتناول كل مرافق الحياة، فنشبت الفتنة وأهوى الحاكم على رأس المحكوم بسياط الظلم، وأبى المحكوم أن يجيب وأن يطيع، فعظم الاضطهاد وسالت الدماء، واشتعلت بعض نواحي الدولة كمصر وإفريقية بهذه النار الحامية فأتت على ما فيها)[1].

ولكن رغم هذا الكبت، وزيادة ضيق الأهالي بالرومان، وعجز المملكة البيزنطية عن متابعة الأحداث، وتذليل الصعاب للأهالي، إلا أن – المملكة البيزنطية – ظلت تسيطر على مقاليد الأمور في الشمال الإفريقي على الجملة حتى سنة ٦٤٧م، ثم كان بعد ذلك عام الفتح الذي دحر فيه الكفر وأهله، ودخل الناس فيه في دين الله أفواجاً.

المبحث السابع : العنصر الإغريقي

ويقصد بالعنصرالإغريقي سكان جزيرة اليونان الحالية، فهذا العنصر اشتهر منذ القدم بالهجرة من موطنه الأصلي بحثاً عن الرزق والأمان، وطلباً للاستقرار والاطمئنان، وقد وقع اختياره من أول وهلة على منطقة برقة الواقعة جنوب شمال موطنه الأصلي، وحيث تعتبر أقرب الأماكن إليه وأشبهها طقساً ومناخاً وبيئة بموطنه الأصلي.

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١/٣٦).

فقد قام هذا العنصر بإرسال مجموعات ستكشافية إلى عدة مدن واستقر أمرهم بعد عملية الاستكشاف على اختيار مدينة قورينا (شحات حالياً) التي تقع على هضبة ترتفع عن سطح الأرض قرابة ٢٤٠٠ قدم، قرب نبع دائم، وكان ذلك سنة (٦٣١ ق.م) وأصبح أرسطوكليس أول ملك لها، ثم تولى ابنه أرسيلوس بعده، ثم باتوس الذي شهدت فترة حكمه توسع في مملكته وزيادة قدوم المهاجرين اليونان، مما أخاف القبائل الأصلية أن يطردوا من هذه المنطقة نظراً لزيادة عدد الوافدين من اليونان فاستنجدوا بأهل مصر لطلب العون على طرد اليونانيين، فاستجاب فراعنة مصر لنداء هذه القبائل الليبية وكان ذلك سنة (٥٧٠ ق.م).

يذكر جون رايت في كتابه تاريخ ليبيا : (بعث اليونانيون مجموعات استكشافية ولم ينجحوا في الاستقرار في الأماكن التي اتخذوها في بداية أمرهم في جزيرة (بلاثيا) وبتشجيع من كاهنة دلفي تحول اليونانيون إلى (أزريس) ولكنهم بعد ست سنوات لبوا دعوة رجال القبائل المحلية لمشاهدة مكان أفضل لاستقرارهم، وكان هذا المكان هو مدينة (شحات) فيما بعد، ذات المطر الغزير، وهناك وعلى بعد عشرة أميال من البحر، وعلى هضبة ترتفع عن سطح الأرض قرابة ٢٤٠٠ قدم، قرب نبع دائم، أقيمت مدينة شحات (قورينا) سنة (٦٣١) قبل الميلاد، وأصبح (أرسطوكليس) الذي سمي (باتوس) الأول ملك لها، وتلاه في الحكم ابنه (أرسيلوس) الأول، حيث حكم ستة عشر عاماً، ثم باتوس الثاني الذي شهد حكمه قدوم المهاجرين من جنوب اليونان وجزر إيجة، وقد أزعج القبائل الليبية المجاورة توسع المستعمرة، لأن الليبيين كانوا يرغبون في أن يشاركوا الأجانب خيرات أرضهم لا أن يطردوا منها، وتدهورت العلاقات مع اليونانيين بعد أن كانت ودية في البداية، والتفت الليبيون إلى مصر يطلبون العون، ولبى نداءهم الفرعون ابريس (أوهابرة) في سنة ٥٧٠ق.م حيث سار نحو برقة يقود جيشاً كبيراً، ولكن اليونانيين كسبوا حرباً مفاجئة وقتل ابريس، وجاء وريثه في الملك فقام بتحسين

العلاقات مع برقة بأن تزوج ابنة (باتوس)[1]. ذلك بعد الصراعات التي والنزاعات بين القوم، وأخذت طريقها بين الملأ في ذاتهم حيناً، والشعب والملأ حيناً آخر، وقد قتل أرسيلوس الثاني بعد أن أجبر على الخروج من قورينا إلى مدينة في الجبل الأخضر شرق ليبيا وهناك تم اغتياله، وفي عام ٥٢٥ ق.م احتل الفرس مصر، فطلبت الملكة فرتينا أم الملك أرسيلوس النجدة، فتقدم الفرس لغزو برقة وهاجموا مدينة المرج ثم ما لبثت أن أستسلمت، وواصلوا مسيرهم إلى مدينة بنغازي.

يقول جون رايت لقد : (كان حكم أرسيلوس بداية لنزاعات داخلية دائمة، انتهت بخلافة ابنه (أرسيلوس) الثالث، فبعد أن اضطر (أرسيلوس) الثاني للهرب من البلد كون جيشاً وهزم (قورينا) ثم أجبر على الرحيل مرة أخرى، والتجأ إلى المرج ولكنه اغتيل هناك وفي عام ٥٢٥ ق.م احتل الفرس مصر، وطلبت منهم النجدة الملكة (فرتينا) أم الملك أرسيلوس الثالث، للانتقام لمقتل ولدها – فتقدم الفرس لغزو برقة – وتركوا قورينا دون أن يلحقوا بها أذى، ولكنهم هاجموا المرج التي استسلمت بعد حصار طويل سنة ٥١٥ ق.م وسار الغزاة غرباً إلى الموقع الذي توجد فيه بنغازي اليوم، ولكنهم في طريق عودتهم إلى مصر فقدوا كثيراً من رجالهم على أيدي رجال القبائل، وماتت الملكة (فرتينا) فيما بعد)[2].

وخلال هذه الفترة من الزمان استعادت برقة استقلالها، وأُسست مدينة (يوسبر ايدس) سنة ٥١٥ ق.م، ثم أنشئت بعد ذلك عدة مدن يونانية أخرى على طول الساحل، منها مدينة توركا – العقورية – مدينة تولمايتا – الدرسية حالياً – ومدينة أبولونيا – مرسى سوسة – وفي عام ٥١٥ – ٤٧٠ ق.م، تولى عرش شحات كل من الملك باتوس الرابع، أرسيلوس، والتعيس، ولكن رغم النزاعات الحادة والصراعات

(١) تاريخ ليبيا : (٢٩، ٣٠).
(٢) المرجع السابق : (٣٥، ٣٦).

القوية بين مدن برقة إلا أنهم توحدوا في وجه قرطاجنة التي لم تعترف أبداً بحقوق الإغريق التجارية في الشمال الإفريقي.

لذلك اهتم الإغريق بالزراعة إلى جانب التجارة، حيث جلبوا الحبوب الجديدة واعتنوا باستصلاح الأراضي التي كانت تغل ثلاثة مواسم في سنة واحدة كما يقول (هيرودوت) فما أن أهل بداية القرن الخامس قبل الميلاد حتى أصبحت شحات واحدة من أكبر عواصم عالم الإغريق تجارياً، ومعمارياً، ومناخاً وموقعاً جغرافياً، بل أصبحت محطة فكرية هامة جداً آنذاك، فقد ساعد أفلاطون بذاته في كتابة قانون قورينا، وقد درس أفلاطون مع فيلسوف قورينا (إيراتشين) وعاش فيها الرياضي المشهور (تيودور) وكانت بها مدرسة للفلسفة، وربما كان أرسيطيبوس القوريني هو الذي أنشأها، كما أن قورينا كانت مركزاً طبياً شهيراً لصفاء هوائها ونقائه، وجودة طقسها، وجمال طبيعتها.

يقول جون رايت : (قد ازدهرت منطقة برقة بصفة عامة تحت حكم البطالمة الذين قاموا ببناء أسوار دفاعية للمدن الخمس : أبولونيا، وبرنسية، وشحات وتوسيرا، وطولميد – طلميثة – والتي كونت اتحاداً فيما بينها، وفي ذلك الوقت بنيت بعض المستوطنات اليهودية بالمنطقة، وفي سنة ١٦٠ ق.م حدث نزاع في مصر بين حكامها الثلاثة بومبي الثالث ويوجريتس وأخيه فيلومتر، والتجأ الأخير فطلب مساعدة الرومان الذين تدخلوا وأعطوا أخا يوجريتس حكم برقة، وهذا بدوره حكم عشرين عاماً، وأوصى بانتقال البلد إلى حكم الرومان بعد موته عام ٦٩ ق.م.

وعاشت منطقة برقة فترة عشرين عاماً في فوضى أهلية قبل أن تنتقل إلى حكم الرومان الصارم، حيث عين مجلس الشيوخ الروماني حاكماً لها اسمه (كورنيليوس مرسيلينوس) سنة ٧٤ ق.م، وخلال الحروب الأهلية الرومانية التي انفجرت، بعد ذلك

بقليل استغل أتباع (بومبي) مدينتي قورنيا وبرنسية كقواعد للانطلاق منها عبر (سرتيكا) للالتحاق بجيش بومبي الرئيسي في تونس، وقد استقر الوضع في العالم الروماني بعد معركة (اكتيوم) سنة ٣١ ق.م، والتي كانت فاصلة لدرجة أن أهالي برقة استمروا لمدة ثلاثة قرون يؤرخون بها، وقد وحد الرومان برقة مع جزر (كريت) كمقاطعة واحدة لمدة ٣٠٠ سنة)[١].

وهكذا انتهت تللك الدول التي عمرت في الأرض أعواماً عديدة، وأزمنة مديدة، شيدوا فيها الصروح الكبيرة، وأقاموا فيها القصور المنيعة، وعتوا في الأرض فساداً، وصالوا واستطالوا على رقاب الناس بغير منهج الله القويم، ولكن ذهبوا وتركوا كل ذلك فما بقي من تلك الدول إلا أثر بعد عين!! ولقد عبر عن تلك النهايات شاعر الزهد أبو العتاهية – رحمه الله تعالى – بأبيات مؤثرات، يحملن في طياتهن العبر البالغة لمن يعتبر، فقال :

أين القرون الماضية ... تركوا المنازل خالية

فاستبدلت بهم ديارهم ... الرياح الهاوية

وتشتت عنها الجموع ... وفارقتها الغاشية

فإذا محل للوحوش ... وللكلاب العاوية

درجوا فما أبقت صروف ... الدهر منهم باقية

لم يبق بعدهم ... إلا العظام البالية

ولقد عتوا زمناً كأنهم ... السباع العاتية

في نعمة وغضارة ... وسلامة ورفاهية[٢]

---

(١)

(٢) قصائد الزهد، لمحمد أحمد سيد ص : (٥٥).

المبحث الثامن : النوميديون

إن النوميديين من قبيلة ماسيلي البربرية، والتي كان يتزعمها آنذاك القائد العسكري مسينيسا الذي كانت تربطه علاقة وثيقة بالإمبراطورية الرومانية، مما جعل قبيلة ماسيلي البربرية تدعم الإمبراطورية الرومانية في حربها مع القوات القرطاجنية بأربعة آلاف فارس مدججين بالأسلحة، وهذا ما جعل الإمبراطورية بعد انتصارها على القرطاجنيين أن تعيد لقبيلة ماسيلي بقيادة زعيمها مسينيسا جميع أراضيها، مما حدا بالقائد مسينيسا أن يفكر في توحيد قبائل البربر وتأسيس مملكة نوميدية تجمع تحت ظلها كل قبائل البربر، واستطاع أن يحقق ما أراد.

يقول جون رايت في ذلك : (عن طريق الحرب والقوة، أصبحت مدينة طرابلس رومانية، ففي عام ٢٨٩ ق.م أخذت قرطاجنة (مسينا) في صقلية من الإغريق، وبذلك غدت في احتكاك مباشر مع روما، وقد سطا الأسطول الروماني على مدن قرطاجنة على ساحل شمال إفريقيا خلال الحرب (البونية) الأولى (٢٦٤ - ٢٤١) ق.م وفقدت قرطاجنة صقلية، ثم اندلعت الحرب البونية الثانية سنة (١٢٨ ق.م) وتم غزو إيطاليا، وخربها (هانيبال) القائد القرطاجني، وردت روما على ذلك فأرسلت سفنها الحربية إلى الساحل الإفريقي الشمالي فهزمت القرطاجنيين عام (٢٠١ ق.م) في معركة (زيما) على الحدود الليبية التونسية الحالية، وربما كان نجاح الرومان راجعاً إلى مساعدة (مسينيسا) زعيم قبيلة (ماسيلي) النوميدية، الذي دعم الرومان بأربعة آلاف فارس في لحظة حاسمة.

وقد كوفئ (مسينيسا) على مساعدته بأن اشترطت روما على قرطاجنة في معاهدة سلام سنة ٢٠١ ق.م أن تعيد (لمسينيسا) جميع الأراضي التي كانت له أو لأجداده في أي وقت مضى، وكان مسينيسا يرى أن المعاهد تعطيه الحق في حجز

أجزاء من منطقة قرطاجنة ليضيفها إلى المملكة النوميدية التي كان يعمل على تأسيسها آنذاك، كان مسينيسا هذا قائداً موهوباً، وقد استطاع توحيد رجال القبائل البدائيين النوميديين وتحويلهم إلى أمة عظيمة على غرار النموذج القرطاجني وكان هذا إنجازاً رائعاً أدى إلى تشكيل دولة لأهالي الصحراء لأول مرة)[1].

ولكن مسينيسا لم يكتفِ بإقامة مملكته بين تلك القبائل فحسب، بل قام بحملة عسكرية على مدينة طرابلس وضواحيها، وسهل جفارة ونواحيها، وتوجه إلى مدينة لبدة، وأوية، وصبراتة وحاصرهن، فلما رأت المملكة القرطاجنية خطر المملكة النوميدية عليها، وأنها لا قبل لها بها، قدمت تعويضات ومبالغ مالية هائلة لمسينيسا قائد الحملة لتأخيره عن المضي قدماً في حملاته العسكرية للمناطق الخاضعة للمملكة القرطاجنية.

وبعد تأزم القضية لم تجد المملكة القرطاجنية بداً من خوض حربٍ خاسرة ضد المملكة النوميدية، مما استدعى الإمبراطورية الرومانية للتدخل لمناصرة المملكة النوميدية التي كانت حليفة لها، وانتهت هذه الحروب التي دامت قرابة أربع سنوات بتدمير قرطاجنة ومدنها، وضمت كل مقاطعاتها إلى ولاية الرومان.

يقول جون رايت عجز القرطاجنيون أمام المملكة النوميدية : (عجز القرطاجنيون أمام مسينيسا، لأن شروط السلام لم تكن تسمح لهم بشن حرب ضده دون موافقة الرومان الذين كانوا يؤيدون سلب الأراضي من الأعداء المهزومين، واستولى مسينيسا على منطقة طرابلس حوالي عام ١٦٥ ق.م وبحجة منعه من مطاردة حصار لبدة، واوية، وصبراتة، توجهت قرطاجنة إلى روما كي تتدخل لوقف اعتداءات مسينيسا، وقد سوت بعثة من مجلس شيوخ روما ذلك النزاع بأن أمرت قرطاجنة بتسليم المدن لمسينيسا ثم أمرت بدفع تعويضات له لتباطئها في عملية التسليم، وبذلك

---

(١) تاريخ ليبيا : (ص : ٤٠).

خضع الساحل الطرابلسي كله لمسينيسا، وامتدت مملكته سنة ١٦١ ق.م من غرب الجزائر إلى سرت.

وبعد عشر سنوات تأزمت قضية شمال إفريقيا، وأصبحت روما تشعر بأن مملكة النوميديين القوية كانت مصدراً خطيراً عليها، كما كانت قرطاجنة من قبل، وعندما دخلت قرطاجنة سنة ١٥٠ ق.م، في حرب يائسة مع مسينيسا تدخلت روما، واعتبرت مهاجمة قرطاجنة للنوميديين خرقاً لشروط اتفاقية السلام لعام ٢٠١ ق.م وأعلنت الحرب على قرطاجنة، وكان هناك دافع آخر لدخول روما هذه الحرب، وهو أنها أرادت الحد من طموح مسينيسا الواسع في جعل قرطاجنة عاصمة لمملكته، وبعد أربع سنوات من الحرب الحصار استسلمت قرطاجنة لروما، واستعبد أهلها، وخربت المدينة العظيمة (١٦٤ ق.م) وضمت مناطقها في شمال تونس إلى ولاية إفريقيا الرومانية، لمنع مسينيسا من احتلالها[(١)].

وبعد وفاة مسينيسا وتولي ابنه الأكبر مسبسا زمام الأمور فترة من الزمن ثم مات، فتولت من بعده زمام الأمور قيادة مشتركة بين أبناء مسبسا وأبناء أخوه جرجوثا الذي انفرد بالسلطة بعد ذلك، وفي هذا العهد ساءت العلاقة بين الرومان والمملكة النوميدية مما حدا بالرومان إلى شن حرب ضروس على المملكة النوميدية تم فيها اعتقال جرجوثا وتعيين أخوه جوبا كصنيعة رومانية إلا أن الحرب الداخلية الأهلية زادت الأمر سوءاً مما دعى الرومان إلى ضم المملكة النوميدية وإخضاعها لسلطان الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت بذلك كُلاًّ مقاطعة إفريقيا القديمة (القرطاجنية)، ومقاطعة إفريقيا الجديدة (المملكة النوميدية) جزءاً من الإمبراطورية الرومانية.

يصور صاحب كتاب تاريخ ليبيا الأحوال التي أدت إلى انهيار المملكة النوميدية

---

(١) تاريخ ليبيا : (ص : ٤٠).

فيقول : (وانتهب حالة شبه الاستقلال للمدن سنة ٤٩ ق.م عندما اندلعت الحروب الداخلية بين (يوليوس قيصر) وبومبي، وكان ملك نوميديا - جوبا الأول - من المؤيدين لبومبي، وأجبر (جوبا) دولة لبدة على تقديم الجيوش والمعدات، ولكن بعد هزيمة بومبي سنة ٤٨ ق.م وموته، اعتصم أتباعه في إفريقيا، وأصبحت لبدة مركزاً لهم، ورست جيوش يوليوس قيصر في إفريقيا سنة ٤٧ ق.م، وقضت على جيش بومبي في العام التالي.

وضمت روما مملكة النوميديين إلى مقاطعة إفريقيا الجديدة، وأصبحت مقاطعة تونس الأصلية باسم (إفريقيا القديمة)، وكعقاب للبدة على مساعدتها لبومبي جعلت مدينة لبدة خاضعة لروما، وغرمت مليون لتر من الزيت كل عام، وأصبحت علاقة منطقة طرابلس سيئة مع روما بعد الحرب، وبعد ود قديم، حيث صارت جزءاً من الإمبراطورية الرومانية)[١].

قلت : إن الباب الذي مضى يذكرنا بقول الله تعالى : **﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾** [سورة آل عمران : ١٣٧] وقال : **﴿فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾** [سورة فاطر : ٤٣] وقال تعالى : **﴿سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك المبطلون﴾** [غافر : ٨٥].

إنك أيها القارىء الكريم تستطيع أن تتأمل في عدة سنن من سنن الله الجارية في الشعوب والأمم والحضارات والدول من خلال الباب الماضي ومن أهم هذه السنن : -

أ - أن هلاك الأمم يكون بفشوا الظلم وعدم إقامة العدل ويكون ذلك عندما تختل الموازين، وتنعدم القيم، وتنحرف الفطرة، ويغيب منهج الله في دنيا

---

(١) تاريخ ليبيا : (ص : ٤١).

الناس، فيحتكم الأقوياء في الضعفاء، ويشرعون قوانين أرضية تجعل المجتمع طبقات فيه العبيد والسادة، ومن حق السادة أن يفعلوا ما يريدون تلبية لأهوائهم وإشباعاً لنزواتهم، فعند ذلك ينزل العقاب وتقع القاصمة. قال تعالى : ﴿**وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين**﴾ [سورة الأنبياء : ١١].

ب - أن انهيار الأمم وزوالها يكون بأجل وإن آجال الأمم أطول من آجال الأفراد قال تعالى : ﴿**ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون**﴾ [الأعراف : ٣٤]، وقال تعالى : ﴿**وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً**﴾ [الكهف : ٥٩].

ج - أن الأمم والشعوب بحاجة دائمة إلى من يذكرها ويردها إلى الصواب لأنه مع تطاول الزمن تنحرف عن الحق لأسباب عديدة ولذلك كان من رحمة الله بالإنسان أنه لم يتركه لفطرته وحدها أو لعقله وحده، ولذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب.

وإذا تأملت وجدت غير ذلك من السنن التي مضت ولا تزال تمضي في الشعوب والدول والأفراد والحضارات والأمم وأن سنن الله لا تحابي أو تجامل ولا ترحم ولا تتبدل.

د - أن الترف والفساد من أسباب زوال الأمم فإذا ما تجبرت أمة من الأمم وعلت في الأرض وأصابها البطر والكبرياء هيأ الله لها أسباب الانهيار والزوال قال تعالى : ﴿**وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً**﴾ [سورة الإسراء : ١٦] أي أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات وترك المعاصي فعصوا وفسقوا فحق عليهم

العذاب والتدمير جزاء فسقهم وعصاينهم والترف وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه إلا أنه حالة نفسية تصيب الشعوب والأمم فتتمرد على منهج الله وليس كل ثراء ترف.

الباب الرابع

الفتح الإسلامي لشمال إفريقية

تمهيد : كان حال الشمال الإفريقي قبل الفتح يلفظ آخر أنفاسه السياسية، والعسكرية، والدينية، والاجتماعية، فبعد دخول القائد جستنيان قرطاجنة واستسلام آخر ملوك الوندال جليمر أخذت الدولة في انحدار سريع وتساقط غريب حيث كانت الإدارة المدنية فيها في غاية من الفساد، كما وأن الاضطهاد الديني والاستغلال المالي، وفوضى الجيش أصبحت تنذر الإمبراطورية بأخطار عظيمة.

فحاولت قيادات الإمبراطورية البيزنطية إجراء بعض الإصلاحات التي تطيل من عمرها إلا أنها باءت كلها بالفشل، حيث ترتب على هذه الإصلاحات بروز دور الكنيسة الإفريقية الذي يعتبر الخطر القاتل للإمبراطورية الذي تمثل في تنازع العاصمتين الكبيرتين – القسطنطينية وإفريقية – على سيادة العالم المسيحي آنذاك، مما ترتب عليه أن أصيبت الكنيسة الإفريقية بأزمة زعزعت أعماقها.

فقد ظهر فيها مذهب سرجيوس بطريق قسطنطينية الذي يقول بالطبيعة الواحدة الإلهية والإنسانية معاً، والذي وقف إلى جانبه هرقل رغبة منه في اكتساب تأييد اليعاقبة، وعارضت الكنيسة الإفريقية ووجهت الاحتجاجات ضد هذا المذهب إلى الإمبراطور والبابا، وانتهى الأمر بأن أعلنت أسقفية قرطاجنة عدم صلاحية الإمبراطور.

وتعقد الموقف عندما وصل إلى إفريقية جماعات من الرهبان والراهبات الذين خرجوا من مصر فراراً من الاضطهاد وبعداً عن مواطن الخطر في الوقت الذي كان المسلمون يفتحون فيه مصر.

كانت هذه حالة المسيحية في الشمال الإفريقي قبل ظهور الإسلام : مذاهب منشقة، وفساد إداري وعدم انتظامه، وإشاعة الرشوة، وتسلط الرومان، وانقسامات البربر، وفساد العدالة الاجتماعية، والظلم والجور، مما كان مهداً خصباً لانتشار الإسلام وقبوله كدين فيه خير الدنيا والآخر[1].

---

(١) راجع كتاب تاريخ المغرب العربي ص (١٢٤).

الفصل الأول

دواعي الفتح الإسلامي

المبحث الأول : الأمة المسلمة ودورها الريادي

لقد تقرر في بديهيات هذا الدين أن غاية وجود الأمة المسلمة في هذه الحياة هي توحيد الله، وتحقيق عبوديته الشاملة في كل مناحي الحياة والممات كما قال تعالى : ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [الذاريات : ٥٦]، فإذا كانت تلك غاية العبودية الشاملة التي تشمل الأمة المسلمة ومن حولها من بني البشر، كان لزاماً على الأمة المسلمة أن تقوم في ذاتها بامتثال الإسلام عقيدة وسلوكاً، ونظام حياة متكاملاً، ثم حمل هذه الأمانة وأعباء تبليغها للناس أجمعين، والجهاد في سبيل الله وأداء الأمانة إلى أصحابها، وإزالة كل العقبات التي تقف في وجه أداء هذه الأمانة إلى الناس أجمعين، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وبذلك يتحقق بسط سيادة الشرع الحكيم على كل بني البشر، ويصبح الجميع يدينون بحاكمية الله سبحانه المطلقة المتمثلة في خضوع الجميع لأحكام الله ورسوله.

يقول الشيخ ابن تيمية – رحمه الله – : (وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد بقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن منع قوتل باتفاق المسلمين)[1].

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص : (١٨).

بيد أن علينا أن ننوه هنا بأن أصل الجهاد في سبيل الله ليس لحمل الناس على اعتناق الإسلام كرهاً، كلا! بل لإزالة الحواجز والعقبات المانعة من سماع دين الفطرة التي فطر الناس عليها، قال تعالى : ﴿**لا إكراه في الدين...**﴾ [البقرة : ٢٥٦] إلا أنه يشرع لذلك لإزالة العقبات والموانع والحواجز التي تمنع بسط حكم الله سبحانه على الأرض، ودخول الناس كلهم تحت سلطان حكمه تبارك وتعالى : ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾ [البقرة : ٢٠٨] وذلك يشرع لرفع الظلم عن المستضعفين في الأرض، كما قال تعالى : ﴿**وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان...**﴾ [النساء : ٧٥].

وبهذه الأهداف السامية، والمطالب العالية قام إمام المجاهدين وسيد الأولين والآخرين ﷺ، فقد أرسل الكتب والرسل إلى القادة والملوك والزعماء حينئذاك، وأرسل السرايا والجيوش لإزالة الحكام الذين تمردوا على منهج الإسلام، فكانت سرية عبد الله بن جحش أول هذه البعوث، واستمر ﷺ في إرسال البعوث والسرايا لإزالة الحواجزالبشرية، والأعراف الجاهلية، والموانع النفسية، والعوائق المادية المانعة من سماع الإسلام وتفهمه بل قاد ﷺ هو بذاته بعض البعوث والغزوات، والتي كان آخرها غزوة تبوك سنة ٩هـ.

والناس في كل هذه المعارك والغزوات مخيرون بين ثلاثة : إما أن يدخلوا في الإسلام ويكونوا للمسلمين إخواناً، وإما أن يختاروا البقاء على كفرهم ويدفعوا الجزية، ويخضعوا لسلطان الله وحكمه، ولهم ما لنا، وعليهم ما علينا، وإما أن يرفضوا هذا وذاك فيكون السيف فاصل بيننا وبينهم، وبذلك يتحقق قوله تعالى : ﴿**لا إكراه في الدين...**﴾.

وهكذا سار على نحو هذا المنهج القويم، والقواعد الجهادية الحكيمة، والأسس النبوية الراشدة، الخلفاء الراشدون الذين حملوا أعباء هذا الدين وطافوا أصقاع الأرض

يبذلون الغالي والنفيس في سبيل تبليغ هذا الدين للناس أجمعين طاعة لله ورسوله، ورحمة بالناس وإشفاقاً عليهم قال تعالى : ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم...**﴾ [الأنبياء : ٢٠٧] وقال تعالى : ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين...**﴾ [الفتح : ٢٩].

المبحث الثاني : مبشرات الفتح الإسلامي

لقد تقرر في السيرة النبوية والأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ قد بشر المؤمنين بعدة بشائر، ومن تلك البشائر بشارته ﷺ بفتح كثير من الممالك والبلاد كفتح العراق وجهة المشرق، كما وعد سراقة بن مالك بن جعشم بسواري كسرى أثناء هجرته المباركة من مكة إلى المدينة، وهذا نص البشارة التي وعد فيها ﷺ سراقة بسواري كسرى الذي كان آنذاك إمبراطور المشرق، فقد جاء في سيرة ابن هشام قوله : (فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة، أو في خرقة، ثم ألقاه إليّ فأخذته، فجعلته في كنانتي، ثم رجعت)[1].

وكذلك وعد ﷺ عدي بن حاتم الطائي – رضي الله عنه – بذلك حيث قال له : (فو الذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز)[2].

أما المبشرات بفتح الشام، فقد بشر بها ﷺ وفد تميم الداري حين قدومه إلى المدينة بقوله : (إذا هلك كسرى، فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر، فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل)[3].

---

(١) سيرة ابن هشام : (٩٧/٢م).
(٢) سيرة ابن هشام : (٥٨١/٤).
(٣) البداية والنهاية : (٥٩/٧).

ولا شك أن هذه بشارة كانت واضحة وجلية بفتح الشام والعراق وبلاد فارس، أما عن بشارات فتح جنوب أوروبا وشرقها، فقد جاءت بها الأحاديث الصحيحة كالتي تبشر بفتح مدينة القسطنطينية الهرقلية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية آنذاك، ومدينة رومية الإيطالية عاصمة البابوية الكاثوليكية.

فقد سئل عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أي المدينتين تفتح أولاً : القسطنطينية أم رومية؟!!

فدعا عبد الله بصندوق له حلق، فأخرج كتاباً فقال : (بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ أي المدينتين تفتح أولاً؟ فقال : مدينة هرقل - يريد القسطنطينية -)[1].

كما وقد جاءت الأحاديث الصحيحة ببشارة فتح مصر المقوقسية التي قال فيها ﷺ : «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً، أو قال : ذمة وصهراً»[2] يشير بذلك إلى هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وإلى مارية القبطية أم إبراهيم، التي أهداها المقوقس حاكم مصر لرسول الله ﷺ وأنجبت ابنه إبراهيم.

وبعد لا ريب أن هذه المبشرات قد أضافت رصيداً مادياً، ومعنوياً وحسياً على أن الفتوحات الإسلامية كانت وفق رؤية واضحة المعالم، بأبعادها المرسومة سواءً بعيدة المدى أو القريبة، حتى جعلت أبا هريرة - رضي الله عنه - يقول حين افتتحت الأمصار زمن عمر، وعثمان - رضي الله عنهما - : (افتحوا ما بدالكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله

(١) رواه الدارمي، وأحمد، وابن أبي شيبة، والحاكم.
(٢) فتح الباري : (٦/٨٠).

سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك).

إن الفتوحات الإسلامية خاضعة لمشيئة الله التي جعلت لكل شيء قدراً (ما افتتحتم من مدينة ولاتفتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك) إذ لا مكان للعفوية والارتجالية في هذا الدين السماوي القويم، فإن كل تحركات هذا الدين القيم كانت محسوبة في علم الله عز وجل، مسطرة في اللوح المحفوظ، لذلك كانت قيادة الرسول ﷺ لتلك الفتوحات التي افتتحها، والمبشرات التي أخبر عنها، كل ذلك كان وفق خطة ربانية شاملة ترفض الارتجالية، وخطة عسكرية منظمة تستنكف عن العفوية، كما قال عنه ربنا تبارك وتعالى : ﴿**وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى**﴾ وجاء في الحديث الصحيح : «والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل»[١].

المبحث الثالث : دعاوي المستشرقين... شبهات وردود

إن الاستشراق والمستشرقين من ولادتهم في القرن العاشرالميلادي في أحضان الكنيسة برعاية اليهود إبان الفتح الإسلامي لأوروبا، حينما توجهت أنظار العالم إلى هذا الفتح الجديد، فخافوا أن ينصرف أتباعهم إلى هذا الدين العظيم، فرأوا – بزعمهم – أن أنجح حيلة لمواجهة هذا المد العظيم، ومحو صورته الوضيئة والإعجاب به في نفوس أتباعهم على وجه الخصوص، وفي نفوس أتباعه على وجه العموم، وهي الطعن فيه، وتشويه محاسنه والتنفير منه.

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تمني الشهادة : (٢٦٨/٣) رقم (٢٤٩٧).

فكان أوائل من خطط لهذا المكر الحاقد، النصراني المدعو (بطرس الجليل) رئيس دير كلوي، الذي راقب الصراع بين الإسلام والنصرانية واستنتج أن القوة المسلحة لاتجدي نفعاً في محاربة الإسلام والمسلمين، وإنما ينبغي اللجوء إلى الغزو الفكري، لذلك توجهت بدايات هذا الكيد للقرآن الكريم بترجمته للاتينية والطعن فيه وتشويه حقائقه، ثم الطعن في شخص الرسول الكريم وفي عالمية دعوته ووسائلها الجهادية والدعوية، وما شاكل ذلك من شبهات أَوْهَنُ من بيت العنكبوت!!

ولكن نظراً لعدم تخصص هذه البحث في تقصي عمل الاستشراق والمستشرقين، وشبهاتهم والرد عليها، نكتفي بإيراد بعض شبهاتهم التي هي وثيقة الصلة ببحثنا هذا، ولكل مقام مقال كما قيل.

الشبهة الأولى : دعوى عدم وجود استراتيجية للفتوحات الإسلامية :

يقول المستشرق (أنتوني نتنج) وهو يجزم برأيه : (والحملات بعيدة جداً على أن تكون نتيجة لتدبير مقصود هادي، إذ يبدو أنها بدأت كغارات قصد منها أن توجد مخارج جديدة للروح الحربية التي كانت تسود القبائل، والتي حظر عليها أن تشتبك في معارك أخوية)[١].

ويقرر فيليب حتى الذي يمثل خلاصة رأي المستشرقين في هذه الدعوى : (كان على أولي الأمر بعد إخضاع الجزيرة أن يوجهوا الجيوش الحسنة الاستعداد إلى بلدان جديدة، وقد جعل الإسلام من المؤمنين أخوة، حتى إن الغزو بين القبائل – والغزو قديم العهد في الحياة البدوية – لم يبق أمراً ترضى عنه السلطة، ولكن كان من الصعب كبح القبائل المتوثبة للغزو والقتال، فكان على أولي الأمر أن يوجهوا القبائل في سبل ومنافذ جديدة... وهكذا بدأت بشكل غزوات تنفيساً للروح الحربية المتأججة في قلوب أبناء

---

(١) راجع كتاب دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين للدكتور / جميل عبد الله المصري : (٣٥).

القبائل، وخلقاً للمجال الحيوي خارج الجزيرة المكتظة بالسكان)[1]!!

لا شك أن هذه الدعوة باطلة من أصلها، وواهية مردودة بالنصوص الثابتة، والوقائع الصحيحة، فلو تأمل عاقل في دين الإسلام لوجده من النظرة الأولى أنه دين يحث أتباعه ويأمرهم بالنظام في حياتهم الخاصة والعامة، وبالتفكير والتأمل في كل حركاتهم وسكناتهم، وبالرؤية العميقة للأحداث، والنظرة البعيدة للأهداف، فخذ لذلك مثلاً للإيضاح والتبيان لما قررناه شعيرة الصلاة فحسب، والتي تعتبر من أبرز مظاهر التدين بدين الإسلام، فانظر في كيفية أدائها على سبيل المثال بصورتها الجماعية في حالة الحرب، وتحديد دور الإمام فيها والمأموم، والسابق والمسبوق، فما أن تتأمل في تلك الشعيرة وكيفية أدائها فتقر بأن هذا الدين عظيم، أساسه التنظيم والدقة في حالات الحرب والسلم.

فإذا كان ذلك في شعيرة الصلاة التي لا فيها إراقة دماء، ولا إهدار أموال، ولا تغريب عن الأهل والأوطان، فكيف يتصور من دين هذا سمته في شعيرة تعبدية كالصلاة، يأمر بشعيرة جهادية عسكرية تتضمن القتال والاستشهاد، وإهدار المال والتضحية بالأولاد، والتغريب عن الأوطان والإخوان، بدون وضع خطة جهادية بأبعادها الاستراتيجية، لإقامة هذه الشعيرة التعبدية؟!![2]

لذلك كان على أصحاب هذه الشبهات أن يقفوا ملياً عند سيرة الرسول ﷺ ويتأملوا بعد تخطيطه وأهدافه ﷺ منذ بداية الرسالة، وكيف قام في مكة بتبليغ دعوة الإسلام لزعماء القبائل، وسادة القوم، وملوك الناس آنذاك، يدعوهم بدعاية الإسلام على أن يؤازروه وينصروه، فكان له ما قصد، فقد قبل أهل المدينة تلك الدعوة وقائدها ﷺ التي كانت بداية إرهاصات قيام دولة الإسلام الأولى التي هاجر إليها ﷺ فيما

---

(١) نفس المصدر السابق ص : (٣٥).

(٢) هذه الفكرة من الأخ عبد الحكيم الصادق، أثناء حوار.

بعد، حيث قام بتثبيت دعائم الدولة الجديدة، وتحمل عبء نشر الدعوة للناس أجمعين، وذلك بإرسال الرسل، والاستعداد للجهاد في سبيل الله وفق خطط واضحة المعالم، والأبعاد، والمضامين والأهداف والمقاصد.

وهكذا استمر الخلفاء الراشدين من بعده ﷺ على هذا النمط من التحرك المدروس بأبعاده الشمولية وأهدافه الشرعية، يحدوهم في كل ذلك حب الخير للناس أجمعين في الدنيا والدين، وبهذا الروح وتلك الاستراتيجية استطاعوا أن يفتحوا قلوب الناس ليدخلوا في دين الله أفواجاً حتى وصلوا إلى بلاد الصين، والروس، وقلب أوروبا، ومجاهل إفريقيا، وصدق رسول الله إذ يقول : «فوالذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف البيت في غير جوار أحد، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز»[1].

الشبهة الثانية : أن الفتوحات الإسلامية كانت حروباً دينية :

وجماع هذه الشبهة يلخصها الدكتور جميل المصري بقوله : (إن المسلمين أصحاب عقيدة، ولكنهم توسلوا بالتعصب الأعمى، وأخضعوا الناس لمبادئهم بالقهر والإرغام، وخاضوا إلى ذلك بحار الدم والقسوة، وإنهم كانوا يحملون القرآن بإحدى يديهم، والسيف باليد الأخرى)[2].

ونقول رغم هذا الإفك المبين، ومواقف هؤلاء المبطلين الذين يعرفون حقيقة الإسلام ودعوته أكثر من بعض المسلمين، كما قال تعالى فيهم : ﴿**يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**﴾ بيد أن الله – سبحانه – أقام حجته عليهم، ودحض شباهتهم بأقلامهم، وألسنتهم، حيث سخر لهم من يفند شبهاتهم من بني جنسهم جلدتهم

---

(١) سيرة ابن هشام : (٥٨١/٤).
(٢) دواعي الفتوحات الإسلامية : ص : (٣٩).

ويتكلمون بألسنتهم، ومن أولئك المستشرقين روزنتال.

يقول المستشرق روزنتال : (... وقد نمت المدينة الإسلامية بالتوسع لا بالتعمق، داعية إلى العقيدة، مناقشة لتلك الحركات الفكرية الموجودة... وفوق كل ذلك فبتقدم الإسلام تهاوت الحواجز القديمة من اللغة والعادات، وتوفرت فرصة نادرة لجميع الشعوب والمدنيات لتبدأ حياة فكرية جديدة على أساس المساواة المطلقة بروح المنافسة الحرة)[1].

ويقول فون كريمر : (كان العرب المسلمون في حروبهم مثال الخلق الكريم، فحرم عليهم الرسول قتل الرهبان، والنساء والأطفال، والمكفوفين، كما حرم عليهم تدمير المزارع، وقطع الأشجار، وقد اتبع المسلمون في حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية، فلم ينتهكوا الحرمات، ولا أفسدوا المزارع، وبينما كان الروم يرمون بالسهام المسمومة، فإنهم لم يبادلوا أعداءهم جرماً بجرم، وكان نهب القرى وإشعال النار قد درجت عليها الجيوش الرومانية في تقدمها وتراجعها، أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى، فلم يحاولوا من هذا شيئاً)[2].

وأجاد المستشرق غوستاف لوبون بالفعل في طريقة عرضه لعدم إكراه المسلمين الناس على الإسلام، وبين أن الإسلام انتشر بالدعوة وبدون إكراه[3].

يقول الدكتور جميل المصري : (والواقع أن مصادرنا لم تبخل علينا بالنصوص الموثقة التي لا تدع مجالاً للشك في أن المسلمين لم يكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام، منفذين أمر الله سبحانه وتعالى : ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى، لا انفصام لها، والله**

---

(١) المرجع السابق : ص : (٤١).

(٢) نفس المصدر : ص (٤١).

(٣) المرجع السابق : ص (٤٢).

سميع عليم﴾ [البقرة : ٢٦٥].

وأما إقبال الشعوب على الإسلام فكان بسبب ما لمسوه في الإسلام نفسه، فهو النعمة العظيمة، ولما لمسوه من المسلمين من التخلق بأخلاق الإسلام والالتزام بأحكامه وأوامره ونواهيه، ولما لمسوه في القادة والجند الذين كانوا يقومون بالدعوة بالتطبيق العملي، فتميزت مواقفهم بأنبل المواقف التي عرفها التاريخ العالمي، فقد كان الخلفاء والقادة يوصون جندهم بالاستعانة بالله، والتقوى وإيثار أمر الآخرة على الدنيا، والإخلاص في الجهاد، وإرادة الله في العمل، والابتعاد عن الذنوب)[١].

الشبهة الثالثة : أن الفتوحات الإسلامية كانت حروباً قومية :

لا يخفى عليك أن هذه الشبهة مردودة من أصلها إذ أن أكبر خصومة للدعوة الإسلامية كانت من قبل العرب سواء أكانوا عرب مكة، أم عرب الشام والعراق، بل التاريخ يثبت أن هؤلاء العرب المتنصرة وغيرهم، هم الذين وقفوا في عدة معارك مع الفرس، والروم ضد المسلمين، فكيف يكون أعداء الدعوة الإسلامية سبباً في الفتوحات الإسلامية، هذا بهتان عظيم؟!!

ولكن لا بأس أن نذكر لك فحوى شبهة القوم، حتى يتضح لك أنها ليست بشبهة وإنما هي المكر والكيد!! وهذا نص الشبهة كما ذكره الدكتور جميل المصري : (وجود العرب في الشام والعراق ومصر، الذين اعتبروا العرب من بني جنسهم، يربطهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين من الروم والفرس).

واعتبروا أن هذه الفتوحات : (من سلسلة الصراع بين الشرق والغرب، استرد بها الشرق الأدنى مجده السامي الغابر)[٢] وذهب إلى هذه الدعوى الباطلة من

---

(١) المرجع السابق : ص (٥٥).

(٢) دواعي الفتوحات الإسلامي ودعاوي المستشرقين : ص (٥٥).

المستشرقين، بروكلمان في كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية، وكلود كاهي، وبرنرد لويس في كتابه العرب في التاريخ، وموريس لومبارد في كتابه : الجغرافيا التاريخية.

الشبهة الرابعة : الفتوحات الإسلامية كانت لأسباب اقتصادية :

ولا ريب أن من تأمل هذه الشبهات وأسباب إثارتها عند هؤلاء المستشرقين، يجد أن هؤلاء المستشرقين قد انطلقوا لتقيم حركة الفتح الإسلامي من منظورهم النصراني البحت، الذي قد تجسم في دوافع حركتهم الاستشراقية، حيث كان أول دافع لهم في حركتهم تلك بعد فشلهم في الحروب الصليبية، كان الدافع الديني، ثم الباعث الاقتصادي الذي سيطر على أذهان القائمين عل حركة الاستشراق سيطرة كاملة، وما تحركات حركة الاستشراق المعاصرة بقيادة أمريكا، وفرنسا، وبريطانيا، وألمانيا، وإيطاليا، في منطقة الشرق الأوسط، وإفريقيا، وشرق آسيا إلا دليل على ذلك، وما حرب الخليج ودوافعها عنا ببعيد!!

لذلك فهم يحاكمون حركة الفتح الإسلامي الرباني بحركتهم الاستشراقية الجاهلية التي مبناها الكفر بالله واليوم الآخر، حيث إنهم لا يتحاكمون إلى كتاب سماوي، بل يرفعون لواء المنهج العلمي في البحث والنقد الأكاديمي – كما يزعمون – لهذا سوف نحاكمهم إلى المنهج العلمي في البحث والنقد، ويكون ذلك على محورين لا غير :

المحور الأول : لماذا لا يلتزمون بقواعد البحث العلمي، والنقد الأكاديمي، حيث عمدوا لمحاكمة حركة الفتح الإسلامي صاحبة الكتاب السماوي والدستور الإلهي، التي لها من المراجع العلمية والبشرية ما لم يكن من قبل ولا من بعد لحركة قط، إلى حركتهم الاستشراقية الجاهلية التي ليس لها سند سماوي، ولا دستور إلهي، ولا مرجعية علمية! أتكون هذه المحاكمة عادلة والحال كما مر معنا؟! أفتونا يا أصحاب

المناهج العلمية، والقواعد الأكاديمية الاستشراقية المسمومة.

المحور الثاني : ثم بعد ذلك قرروا في أنفسهم ما قَرَّروه من الشبهات حيال حركة الفتح الإسلامي الرباني، وطفو إلى المصادر الإسلامية ليتخيروا كلمات، أو يبتروا نصوصاً، أو يتصيدوا عبارات موهمة قد قيلت في سياق معين، فيقطعونها من سياقها، وسباقها، ولحاقها لكي تؤيد ما قرروه من شبهاتهم،!! ويعرضوا جملة وتفصيلاً عن النصوص المحكمات الواضحات ويتسللون منها لواذاً!! أهذا منهج علمي في البحث عن الحقائق؟!! أهكذا تكون قواعد النقد الأكاديمي؟!!

الفصل الثاني

بدايات الفتح المبارك

إرهاصات الفتح :

لقد سبق الفتح الإسلامي لليبيا، إرهاصات، وأحداث، وقضايا سياسية، ونزاعات عرقية، وثورات محلية في مدينتي برقة وطرابلس، التي كان لها أثر بالغ في تغيير مجريات الأحداث السياسية والدينية في المنطقة، وتمهيداً لتهيئة نفوس أهالي ليبيا لقبول الفتح الإسلامي، حيث إنهم كانت قد بلغتهم أخبار فتح المسلمين لبلاد الشام ومصر، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي المسلمين من أولئك البيزنطيين وحكمهم الجائر التعسفي، لذلك حاول نفر من أهالي ليبيا التمرد على نظام الإمبراطورية البيزنطية والخروج إلى ناحية مصر حتى يلتقوا بقائد الجيوش المسلمة عمرو بن العاص - رضي الله عنه - وكان يومئذ حاكم مصر، وما أن وصل هؤلاء النفر حتى أعلنوا إسلامهم، ودخلوا في دين الله سبحانه، وأعطوا ولاءهم لقيادة المسلمين بقيادة عمرو بن العاص، نيابة عن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، رضي الله عنهم.

المبحث الأول : حملة عمرو بن العاص - رضي الله عنه - على برقة

ولما كان الحال في ليبيا كذلك، فقد قرر عمرو بن العاص بناء على تلك المعلومات، أن يضع استراتيجية أمنية وقائية لمصر من الناحية الغربية، حتى يأمن شر الروم القاطنين ناحية برقة وطرابلس، بعد أن أمن فتوحاته الشامية وذلك بفتحه الإسكندرية لذلك قرر عمرو بن العاص – رضي الله عنه – إرسال عقبة بن نافع الفهري – رضي الله عنه – كمقدمة استطلاعية لفتح الشمال الإفريقي، وكان ذلك في عام (٢٢هـ – ٦٤٢م) على الراجح من الأقوال.

يقول ابن عذارى بهذا الصدد : (إن عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر وجه عقبة بن نافع الفهري إلى زويلة، وبرقة فافتتحهما، ثم توجه بنفسه إلى برقة، فصالح أهلها ولا يستبعد أن تكون حملة عقبة بن نافع هذه عبارة عن سرية استطلاعية وإنها هي التي جعلت عمرو بن العاص يمكث بقية سنة ٢١هـ / ٦٤١م ثم إن الفتح قد تم في الشهور الأولى من سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م ثم واصل عمرو سيره إلى طرابلس في سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م أو في أواخرها)(١).

يبدو لي أن فتح برقة لم يكلف عمرو بن العاص – رضي اللهَ عنه – كبير عناء، إذ أن جيشه الذي فتح به مصر لا يتجاوز تعداده الاثني عشر ألفاً، مع الأخذ في الاعتبار أن نسبة الجيش الذي وجهه لفتح برقة ثم طرابلس تعداده كان ضئيلاً قياساً مع حجم قوات الإمبراطورية البيزنطية التي كانت ترابط تلك المنطقة، إلا أن القوة الحقيقية ليس في تعداده وشكله وإنما تكمن في إيمانه بالله واليوم الآخر، وحبه للموت في سبيل الله، مع مراسة فن القتال وخبرته الطويلة في ذلك.

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر للدكتور / صالح مصطفى مفتاح المزيني : ص (٢٨).

يقول الدكتور صالح مصطفى : (فلما انتهى عمرو بن العاص من فتح الإسكندرية، وتنظيم أمورها، سار ببقية جيشه إلى مدينة برقة ثم أصبح مجموع جيشه بعد أن وصلته الإمدادات لا يزيد على الاثني عشر ألفاً، وإذا أدخلنا في حسابنا ما فقده عمرو رضي الله عنه من جند استشهدوا في فتح مصر، وما تركه من جند للدفاع عنها، أدركنا قلة عدد الجيش العربي، الذي وصل به إلى برقة الأمر الذي سهل عليه مهمة السير إلى برقة دون أن يتطلب الإعداد لذلك مجهوداً كبيراً، فلم يكن من الصعب على جيش مثل هذا العدد أن يقطع الطريق فيما بين مصر وبرقة دون أية صعوبة، وقد ساعده على ذلك ما عرف به الجند المسلمون في عصرهم الأول من بساطة في التجهيز للحرب، والتزود لها وخبرة بفنون القتال في الصحراء)[١].

والجدير بالذكر، أنه يجب التنويه هاهنا بخصلة هامة قد ساعدت عمرو بن العاص - رضي الله عنه - أثناء فتح برقة، وهذه خصلة تعتبر منقبة لأهالي برقة، ألا وهي عدم مقاومتهم للجيش الإسلامي رغبة في العيش تحت ظل الحكم الإسلامي العادل بقيادة عمرو بن العاص. ورغم سجيتهم التي ألفت الحروب والتمرد على أنظمة الإمبراطوريات الفنيقية، والإغريقية، والرومانية، والبيزنطية وغيرها، ولذلك تعتبر هذه النقطة عاملاً هاماً من العوامل التي ساعدت الجيش الإسلامي في فتح برقة بدون كبير عناء.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي : (وسار بجيشه - عمرو بن العاص - إلى برقة لفتحها، فلم يحاربه أهلها، وآثروا أن يدخلوا تحت حكم الإسلام ويتمتعوا بما فيه من حرية وعدالة)[٢].

يقول الدكتور صالح مصطفى : (وعندما وصل جش الفاتحين إلى برقة ضرب

---

(١) ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر : ص (٢٩).
(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص : (٤٠).

عليها الحصار، وتتفق معظم المصادر على أن برقة وهي مدينة انطابلس[1] قد فتحت صلحاً، وأن أهلها قد عاهدوا عمرو بن العاص – رضي الله عنه – على أن يدفعوا مبلغاً من الجزية مقدارها ثلاثة عشر ألف دينار، وقد اختلف في سبب تحديد الجزية وعللها بعضهم بأنها كانت تمثل عدد الحالمين ممن آثروا البقاء على مسيحيتهم، ولم يعتنقوا الإسلام فحقت عليهم الجزية باعتبارهم أهل ذمة)[2].

ولا يخفى أن أحكام أهل الذمة، وكيفية أخذ الجزية منهم، وتحديد قيمتها، كل ذلك مسطر في كتب الفقه بشكل مفصل، وما قصدت التكلم في ذلك، وإنما قصدت الإشارة إلى بعض مقاصد أخذ الجزية من أهل الذمة في دولة المسلمين، وهذه المقاصد تدور حول عدة نقاط نذكر منها : تقرير مبدأ لا إكراه في الدين، ولكن عليهم أن يدخلوا بذلك تحت سلطان الدولة المسلمة، وعدم التمرد عليها في حالات الحرب والسلم، وبدفعهم الجزية تعصم دماؤهم وأموالهم، وأعراضهم إلا بحق الإسلام، وبذلك تعطى لهم فرصة معايشة أهل الإسلام بالإسلام لكي يحاوروا أهله وتكون فرصة للدخول فيه، وبدفعهم الجزية يكونون قد ساهموا في نفقات الدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وحرماتهم التي كفلها الإسلام لهم، وأخيراً المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل، بما في ذلك أهل الذمة بدون فرق بين المسلمين دافعي الزكاة وأهل الذمة دافعي الجزية فالكل ينعم بعدل الإسلام ورحمته بضمان تلك الواجبات وغيرها.

وبهذه الروح والأخلاق، وبتلك العدالة والإنصاف، استجاب كثير من الشعوب لنداء الفطرة، دين العدل والمساواة، دين رب الأرض والسماء، بمجرد دخول جيوش

---

(١) انطابلس اسم برقة قبل الفتح الإسلامي وهي كلمة رومية معناها بالعربية، خمس مدن، تسمى الآن العقورية، وشحات، بنغازي، سوسة، المرج.
(٢) ليبيا منذ الفتح حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر : (٢٩).

المسلمين الصادقين إلى أراضيهم، فأصبحوا إخواناً في العقيدة، وحملوا مع الفاتحين الرسالة، وأدوا الأمانة.

فإذا كان ذلك كذلك فيجب الاهتمام بأمر إعداد العدة والجهاد في سبيل الله منهاج النبوة والخلافة الراشدة، وذلك بإقامة هذه الفريضة كما ينبغي، حتى تقام أحكام كثيرة بدونها لا تقام بل تتعطل بالكلية، كما قال تعالى : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطو الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ [التوبة : ٢٩].

وبعد فقد واصل عمرو بن العاص - رضي الله عنه - مسيرته المباركة بعد أن استسلمت مدينة برقة إلى ناحية مدينة طرابلس، وخلال مسيره ناحية الغرب تم فتح بقية المدن التابعة لبرقة كمدينتي توكرة، وبنغازي، ثم وصل إلى مدينة أجدابية التي رفع معظم أهلها شعار الصلح على أن يدفعوا خمسة آلاف دينار فرعوني، ولكن ما لبثوا على دفع الجزية إلا قليلاً حتى أسلم معظم سكانها بعد أن رأوا من الفاتحين من العدالة والمساواة، والصدق والأمانة، والطهارة والعفة، ما لم يروه من قبل في جيوش تلك الإمبراطوريات الهالكة!!

يقول الدكتور صالح مصطفى بهذا الصدد : (وبعد أن خضعت مدينة برقة للجيش الإسلامي، تابع عمرو بن العاص سيره مع الطريق الساحلي القديم مستهدفاً مدينة طرابلس، ففتح في طريقه بقية مدن برقة مثل توكير (توكرة) وبرنيق (بنغازي) وكانتا أطلالاً مهجورة أو على الأقل كانت حالتهما قد تدهورت بحيث لم تستحق أن تذكرا في أخبار الفتح، وكانتا من قبل مدينتين هامتين في الإقليم، وفي نفس السنة ٢٢هـ / ٦٤٢م، وصل عمرو بن العاص إلى مدينة أجدابية فافتتحها صلحاً على أن

يدفع أهلها خمسة آلاف دينار وقد أسلم معظم أهلها، وبينما عمرو بن العاص يواصل سيره نحو طرابلس، كان يعمل على تثبيت فتح برقة وتأمين مواصلاته، ولذلك أرسل عقبة بن نافع على رأس قوة من الجيش لغزو المناطق الداخلية من برقة، بينما واصل هو مسيرته مع معظم الجيش نحو طرابلس)[١].

ولا يخفى أن الدور الذي قام به عقبة بن نافع – رضي الله عنه – خلال هذه الحملة المباركة، كان دور الإسناد، والاستطلاع، والتأمين، حيث أمّن لحملة عمرو بن العاص – رضي الله عنه – مناطق الجنوب حتى وصل مدينة زويلة فافتتحها، بذلك استطاع عمرو بن العاص – رضي الله عنه – أن يسير نحو جهة الغرب وهو آمن من الجهات الثلاث، جهة الشرق لقبول أهلها الإسلام، وجهة الجنوب لقبول أهلها الإسلام والدخول في طاعة جيش عقبة، أما جهة الشمال كانت متمثلة في شريط البحر الأبيض المتوسط وكان آنذاك جهة آمنة، فما بقيت إلا جهة الغرب، لذلك وجه معظم الجيش نحو طرابلس، وما حولها من المدن، فكان له ما قصد.

يقول الدكتور صالح مصطفى : (أما عقبة بن نافع فقد توجه بتلك القوة في اتجاه الجنوب تاركاً ودان[٢] على يمينه، وفاتحاً المناطق الداخلية حتى بلغ مدينة زويلة فافتتحها وفرض على أهلها ثلاثمائة رأس من الرقيق، وبذلك يكون عقبة بن نافع قد مهد لقيام الإسلام في مناطق نائية في الصحراء الجنوبية، إلى حد أن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – قد كتب إلى الخليفة يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع المغرب فبلغ زويلة وأن مَنْ بين زويلة وبرقة سِلْم كلهم، حسنة طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة، وأقر

---

(١) المرجع السابق ص : (٣٠، ٣١).

(٢) ودان : مدينة في جنوب سرت، وكانت مضمومة إليها وهي جزيرة لا تقصر في رخص التمور وكثرتها وجودتها عن أوجلة ويذكر البكري أن ودان مدينة في بلاد البربر وهي من حيز برقة يسكنها قوم من العرب وبينها بين قصر ابن ميميون ستة أيام. انظر معجم ما استعجم : (١٣٧٥/٤).

معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعاً (أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردها في الفقراء ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر، ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم).

وحينما كان عقبة يتجه نحو الجنوب كان عمرو بن العاص يسير نحو طرابلس وفي طريقه إليها مر بسرت[1] ولم يواجه عناءً في فتحها، إذ لم يذكر أحد أنها فتحت عنوة أو صلحاً، مما يدل على أنها لم تكن ذات خطر، فاكتفى المسلمون باستسلامها، ثم ساروا في طريقهم إلى لبدة[2] فوجدوها خراباً مهدمة وحولها قليل من السكان خليط من البربر والروم فافتتحوها دون مقاومة[3].

المبحث الثاني : حملة عمرو بن العاص على طرابلس

ولما انتهى عمرو بن العاص من فتح برقة وتأمين حدودها، تقدم بمعظم جيشه جهة الغرب حتى بلغ مدينة طرابلس ذات الحصون المنيعة، والأسوار الحصينة التي كانت تحيط بها من جميع الجهات شرقاً، وغرباً وجنوباً إلا ناحية الشمال التي كانت مطلة على البحر، فلما رأى عمرو تلك الحصون المنيعة والأسوار الحصينة اختار موقعاً مرتفعاً من ناحية الشرق ورابط فيه، وكان يرسل طلائعه كل يوم لتلك الأسوار لعلهم يجدون مدخلاً إلى داخل المدينة.

يقول الدكتور صالح مصطفى : (ثم تقدم عمر بن العاص بجيشه حتى وصل

---

(١) سرت : وهي مدينة كبيرة على سيف البحر الأبيض المتوسط.

(٢) لبدة : تقع شرق طرابلس بنحو ١٢٤ك.م أسست في أوائل القرن العاشر ق.م احتلها الروم سنة ٤٢ ق.م. انظر : الزاوي : معجم البلدان الليبية : ٥ – ٦ .

(٣) المرجع السابق : (٣١ – ٣٢).

إلى مدينة طرابلس، وكانت محصنة، إذ أن الأسوار تحيط بها من جميع الجهات، فيما عدا الجهة البحرية حيث كان الميناء، ورابط عمرو - رضي الله عنه - في موضع مرتفع يشرف على المدينة من جهة الشرق وظل محاصراً لها لمدة شهر)[1].

ويقول الأستاذ الطاهر الزاوي وهو بصدد حديثه عن مناعة مدينة طرابلس وأسوارها : (وقد كان سور طرابلس من المناعة بحيث لم يقدر المسلمون أن يتسوروه، كما لم يقدروا أن يقتحموا أبوابه، وكان السور يحيط بالمدينة من جهة الشرق، والغرب، والجنوب، ولم تكن مسورة من الشمال بينها وبين البحر)[2].

وهكذا استمر عمرو بن العاص في رباطه وحصاره لمدينة طرابلس قرابة الشهر أو يزيد، حتى منّ الله عليهم بتلك الحصون التي ظن أهلها أنها مانعتهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وقذف في قلوبهم الرعب، فقد تمكنت مفرزة من طلائع الجيش المسلم خلال تجوالها الاستطلاعي حول مدينة طرابلس من العثور على معبر إلى داخل المدينة خلال جهة السور الغربية الشمالية، حيث نزلوا إلى البحر فوجدوا أن هنالك سبيل للدخول من تلك الفجوة التي كانت بين نهاية السور وسطح البحر، فدخلوها من فورهم وكانت تلك بداية نهاية الحصار الذي طال قرابة الشهر.

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي : (وبقي المسلمون على حصارها نحو شهر لا يقدرون منها على شيء، وكانت رسلهم تغدو وتروح حول السور علهم يجدون فجوة توصلهم إلى داخل المدينة فلم يجدوا، وفي ذات صباح ذهب سبعة من المسلمين للاستكشاف أو للصيد كما يقول ابن عبد الحكيم، وكانوا مسلحين

---

(١) المرجع السابق : ٣٢ - ٣٣ .

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص : (٦٣ - ٦٤).

بسيوفهم ورماحهم، وساروا حتى وصلوا إلى جهة السور الغربية الشمالية فوجدوا السور غير متصل بالبحر لأنها لم تكن مسورة من الناحية الشمالية كما ذكرنا، وقد يكون البحر في حالة جزر مما زاد في اتساع الطريق بين نهاية السور والبحر، ورأوا من الممكن الوصول إلى داخل المدينة من هذه الفجوة، فدخلوها من فورهم من ناحية الكنيسة القديمة، وهو مكان مرتفع يقع في الشمال الغربي من المدينة، وقد أعملوا سيوفهم في رقاب الروم، وعلت أصواتهم بالتهليل والتكبير، وسمع عمرو وبقية المسلمين تكبير إخوانهم داخل السور فأسرعوا إليهم، وتكاثرالمسلمون، وعلت سيوفهم رقاب الروم فذهلوا وذعروا فلم يسعهم إلا الفرار)[١].

ويبدو واضحاً من هذه القصة أن سكان مدينة طرابلس من الروم وغيرهم لم تكن لهم المقدرة على مقاومة جيوش المسلمين، لذلك تم الاستيلاء على المدينة بدون كبير عناء ولا مقاومة تذكر لا خارج السور ولا داخله، حيث فر من فر، وأما من بقي منهم داخل المدينة فقد اختار الدخول في أمن المسلمين، وحيث كفلوا لهم حماية أنفسهم وأعراضهم، ومعابدهم، وأملاكهم.

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي : (ولما تم استيلاء العرب[٢] على المدينة أمنوا من بقي فيها، وكفلوا لهم أموالهم، ومنعوا التعدي على أعراضهم ومعابدهم وأنفسهم، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن الروم قاوموا العرب بالسيف حينما اقتحموا عليهم

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا : (٦٣، ٦٤٥).

(٢) وددنا من شيخنا الفاضل أن يسمى هذه الجيوش بما سماها الله عز وجل في كتابه قال تعالى : ﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ بدل تسميتهم بالعرب، لأن هذا الدين دين عالمي وهذه الجيوش مختلطة من جميع الأجناس التي استسلمت لله ودخلت في دين الله أفواجاً، فكيف إذن حصر هذه الأجناس في جنس واحد؟ بل كيف تسمى هذه الفتوحات الإسلامية بفتوحات عربية كما سمى شيخنا الفاضل مصنفه بهذا الاسم (تاريخ الفتح العربي في ليبيا).

المدينة، مما يدل على أنهم كانوا في حكم المستسلمين، ويقال : إن المسلمين بنوا فيها مسجداً، وإن مسجد أحمد باشا بني على أنقاضه)[1].

المبحث الثالث : حملة عمرو بن العاص على صبراتة

وقبل مغادرة عمرو بن العاص – رضي الله عنه – مدينة طرابلس إلى صبراتة[2]، قام بتثبيت أركان الحكم فيها، وتأمينها ضد هجمات الروم الخارجية، حيث هدم بعض أسوار المدينة مخافة تحصن الأهالي ومقاتلة المسلمين عند مغادرتهم لمدينة طرابلس، ثم بعد ذلك جد السير بهذه الحملة المباركة إلى مدينة صبرة – صبراتة – التي تقع غربي مدينة طرابلس اتجاه الحدود الليبية التونسية، حيث وجه خيله بقيادة عبد الله بن الزبير إلى مدينة صبراتة، ففتحها على حين غفلة من أهلها، وكان ذلك في الصباح الباكر وقت فتح أبوابها، وإخراج الماشية منها لترعى خارج السور.

يقول الدكتور صالح مصطفى : (وبعد أن تم لعمرو بن العاص فتح مدينة طرابلس، وجه خيله على غفلة إلى مدينة صبرة – وهو في اتجاه الحدود التونسية – بقيادة عبد الله بن الزبير، وكان أهل المدينة قد تحصنوا عندما علموا بمحاصرة عمرو بن العاص لمدينة طرابلس، ولكن عندما امتنعت مدينة طرابلس، اطمأن أهل صبرة، وظنوا أن عَمْراً لا طاقة له بهم، ولكن عَمْراً كان قائداً بارعاً، فما أن ظفر بمدينة طرابلس حتى جرد خيلاً كثيفة من ليلته، وأمرهم بسرعة السير، فتقدمت الخيل إلى هذه المدينة في

---

(١) تاريخ الفتح العربي ص : (٣٥).

(٢) صبراتة : مدينة قديمة تقع غربي مدينة طرابلس بنحو ٦٧كم على ساحل البحر الأبيض المتوسط، أنشأها الفنيقيون حوالي ٩٠٠ أو ٨٠٠ ق.م وهي من أعظم المدن التي كانت في الشمال الإفريقي، وكانت أكبر من طرابلس، وأعظم منها عمراناً ومدنيّة، وأوج وتجارة. (راجع تاريخ الفتح العربي في ليبيا : ٦٦).

الصباح الباكر، وكان أهلها قد اطمأنوا، وفتحوا أبواب المدينة، وأخرجوا ماشيتهم لترعى فاستطاع ذلك الجيش أن يحتوي على المدينة بسهولة ويسر)[1].

ولما فتح الله عليهم مدينة صبراتة رأى عمرو بن العاص قائد الحملة المباركة أن التقدم بهذا الجيش الذي استمر في فتح البلدان من برقة وضواحيها، مروراً بأجدابية وريفها، ووقوفاً على سرت وطرقها، ووصولاً إلى ودان ونخيلها، وحصراً لطرابلس وفتحها، وأخيراً صبراتة واستسلامها، لهو إضعاف لقوته، وتشتيت لجهوده، وتحفيز للعدو لضربه، خاصة وأن رجال مخابراته قد أخبرته بأن هناك تجمعات من الروم والقبائل المحلية بدأت تلتقط أنفاسها وترتب أمورها لمحاربته، فلما رأى ذلك أدرك أن التقدم بدون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فيه نوع من التجاوزات العسكرية المقررة لفتح برقة وطرابلس، لذلك كتب إليه يستأذنه في التوغل داخل إفريقية، وأن يمده بالمدد المناسب، وفق الأهداف الجديدة لفح برقة ومن حولها.

يقول الدكتور صالح مصطفى : (ولم يشأ عمرو أن يتقدم لقلة القوة التي معه، ولأنه يعلم أن مدناً كثيرة للروم والقبائل المحلية ما زالت أمامه، كما أن عيونه أخبرته بكثرة تجمعاتهم في تلك المدن، ومن أجل ذلك وتنفيذاً لما تقتضيه الخطط الحربية أراد أن يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب في التقدم نحو إفريقية طالباً منه المدد إذا ما وافق الخليفة على ذلك فكتب له يقول : (إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها، ويفتحها على يديه فعل)[2].

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي ص : (٣٥).

(٢) المرجع السابق : ص (٣٦ - ٣٧).

المبحث الرابع : حملة عمرو بن العاص على مدينة شروس وعودته إلى مصر

لا يخفى أن مدينة شروس الواقعة في جبل نفوسة والتي كانت تدين بدين النصارى، تعتبر قريبة جداً لمدينة صبراتة، لذا حاول عمرو بن العاص – رضي الله عنه – أن يجتهد في فتح هذه المدينة قبل وصول رد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –، فتقدم إليها وما زال بها حتى فتحها، ولكن ما أن فتحها حتى جاءه رد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب على رسالته بشأن الاستراتيجية العسكرية الخاصة بشؤون إفريقية ينص فيها على عدم التوسع بالجيش في فتح هذه الأقاليم.

وهذا نص رسالة خليفة المسلمين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – : (لا إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت)[1].

ولهذا السبب وغيره رجع عمرو بن العاص من جبل نفوسة وتوجه إلى طرابلس، فما أن أقام فيها حتى وصله كتاب المقوقس يخبره فيه بأن الروم يريدون نكث العهد، ونقض ما كان بينهم وبينه، وقد كان عمرو بن العاص قد أبرم عهداً مع المقوقس قبل خروجه من الإسكندرية متوجهاً إلى برقة، بألاَّ يكتمه المقوقس أي أمر يحدث بعده.

يقول الدكتور صالح مصطفى : (ولهذه الأسباب رجع عمرو بن العاص من نفوسة بكتاب عمر رضي الله عنه، أضف إلى ذلك أن عمرو بن العاص كان قد عقد عهداً بينه وبين المقوقس، قبل أن يغادر الإسكندرية، على ألا يكتمه المقوقس أمراً يحدث، وعندما وصل عمرو عائداً إلى إقليم طرابلس، أتاه كتاب المقوقس يذكر له فيه أن الروم يريدون نكث العهد، ونقض ما كان بينهم وبينه، فانصرف عمرو راجعاً

---

(١) نفس المصدر : ص (٣٧).

مبادراً لما أتاه إلى مصر)[1].

وهكذا أنجز عمرو بن العاص هذا الفتح المبارك الذي تجاوز فتح الأراضي إلى فتح القلوب التي آمنت بالله رباً، وبالإسلام ديناً ومنهجاً، وبمحمد ونبياً ورسولاً، فعاشت تلك الشعوب حياة العدل والمساواة، والتسامح والإخاء في ظل تلك الشريعة السمحاء على أيدي أولئك الفاتحين الذين يبتغون بذلك الفتح وجه الله ورضوانه.

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - بهذا الصدد : (لقد كان الفتح الإسلامي فتحاً فريداً في تاريخ البشرية كلها، لم تعرف له من قبل ولا من بعد نظيراً، لم يكن فتحاً للأرض وكنوزها، إنما كان فتحاً لقلوب ساكني الأرض، وغرس بذرة العدل، والتسامح والمساواة، والإخاء فيها، وإن أي إنسان مخلص للإنسانية، يعرف طبيعة الفتح الإسلامي، ويدرك أهدافه وبواعثه ليتمنى أن لو كان مد الإسلام الأول قد غمر الأرض جميعاً، وألقى تلك البذرة الطيبة الخيرة.

إن الحروب الإسلامية والفتوحات ملحوظة فيها أن تتحقق إلى جانب حرية الدعوة وحرية العقيدة، العدالة المطلقة لجميع الناس فإذا هي لم تحمل هذه المقدمات معها لأهلها وللبلاد المفتوحة كذلك، لم تكن حرباً إسلامية ولا فتحاً إسلامياً، ولم تر ثمرتها على ضم رقعة من الأرض إلى العالم الإسلامي، وزيادة رقعة الأرض لم تكن يوماً ذات قيمة في حساب الإسلام، وإنما القيمة كلها لتحقيق النظام العادل الكامل الذي يقوم على الشريعة الإسلامية المنبثقة من العقيد الإسلامية، وهذا الذي كان يضيف إلى الإسلام شعوباً وقلوباً، وهذه هي غاية الفتح الإسلامي لا الأرض ولا الفيء، ولا الغنيمة، ولا الغلبة على البلاد والعباد)[2].

---

(١) المرجع السابق : (٣٨).

(٢) راجع كتاب دراسات إسلامية لسيد قطب : (٤٤، ٤٥، ٤٦).

المبحث الخامس : فاتح ليبيا في سطور

المطلب الأول : اسمه، ونسبه، وميلاده

اسمه ونسبه : لقد تقدم فيما مضى أن قائد فتح برقة وطرابلس هو عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، وكنيته أبو عبد الله، وأبو محمد[١]، وأمه سلمى بنت حرملة[٢]، وتلقب بالنابغة، وهي من عنزة[٣].

ميلاده : وأما فيما يتعلق بميلاده، فإن الكتب التي ترجمت لعمرو – رضي الله عنه – فيما أعلم لم تنص على تحديد السنة التي ولد فيها، لكنه روى البيهقي عن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – أنه قال : (أذكر ليلة ولد عمر بن الخطاب).

يقول الحافظ ابن حجر – رحمه الله – بعد أن ذكر هذا الأثر : (فكان عمره لما ولد عمر – رضي الله عنه – سبع سنين)[٤].

إسلامه : لقد أسلم عمرو في شهر صفر، سنة ثمان للهجرة، وكان إسلامه هو وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة – رضي الله عنهم – في وقت واحد[٥].

ولقد سئل عمرو – رضي الله عنه – عن سبب تأخر إسلامه إلى هذا الوقت فقال : (إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وسن، توازي حلومهم الجبال، ما سلكوا فجاً فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً فلما أنكروا على النبي ﷺ أنكرنا معهم ولم نفكر في أمرنا، وقلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا في النبي ﷺ فإذا الأمر بين فوقع في قلبي الإسلام)[٦].

(١، ٢، ٣) القيادة العسكرية في عهد الرسول : للدكتور عبد الله الرشيد ص٣، ٦ اعتمدت على هذا الكتاب في ترجمة عمرو بن العاص.

(٤، ٥) راجع المصدر السابق ص ٦٢٥، ٦٢٦ .

(٦) المرجع السابق ص : (٦٢٥، ٦٢٦).

ولا يخفى أن قصة إسلامه وشدة حيائه من النبي ﷺ قد وردت في صحيح مسلم، حيث قال عمرو – رضي الله عنه – : (... لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب أن أكون قد استمكنت منه فقتلته... فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي فقلت : ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه، قال : فقبضت يدي، قال مالك يا عمرو؟!! قال : قلت : أردت أن أشترط، قال تشترط بماذا؟ قلت : أن يغفر لي، قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ وما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجَلَّ في عيني منه، وما كنتُ أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سُئلْتُ أن أصِفَهُ ما أطَقْتُ لأني لم أكن أملأ عيني منه)[1].

المطلب الثاني : مناقبه

لا يخفى أن له من المناقب الجليلة، والأخلاق النبيلة، والمواقف الحميدة، مما يجعل هذه السطور غير كافية لأداء حق هذا القائد الصحابي الجليل، ولكن يمكن أن نجمل هذه المناقب الجليلة والمواقف الحميدة في عدة نقاط :

١ – أن الرسول ﷺ لم يعدل به أحداً من الصحابة : قد جاء عن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – قوله : (ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد أحداً منذ أسلمنا في حرب)[2].

٢ – شهادة رسول الله ﷺ له بالإيمان : كما جاء عن أبي هريرة – رضي الله عنه – : (إن رسول الله ﷺ قال : «ابنا العاص مؤمنان هشام، وعمرو»)[3].

---

(١) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإسلام ما كان قبله وكذا الهجرة والحج : (١/١١٢) رقم ١٢١.

(٢) وهذا الحديث أخرجه البيهقي باب إسلام عمرو بن العاص : (٤/٤٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده : (٢/٣٢٧، ٣٥٣) والحاكم في كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر مناقب هشام بن العاص، المستدرك على الصحيحين : (٣/٢٤٠) وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم.

٣ – شهادة رسول الله ﷺ له بأنه من صالحي قريش : فقد جاء عن أبي مليكة قال : قال طلحة بن عبيد الله سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن عمرو بن العاص من صالحي قريش»[١].

المبحث السادس : أهم صفاته القيادية

المطلب الأول : الشجاعة

من الصفات التي كان يتمتع بها عمرو الشجاعة، فقد كان جريئاً مقداماً ذا شخصية جبارة، لا يهاب خوض غمار الحرب، ولا يخشى الموت، ومن المواقف التي برزت فيها هذه الصفة : ما حدث في معركة اليرموك، حين اشتد القتال بين الروم والمسلمين، حيث أصاب الروم أعين سبعمائة من المسلمين مما اضطرهم إلى الفرار من الميدان، فرأى عمرو أن الموقف يحتاج إلى ثبات فبقي في مكانه ومعه أصحاب الرايات وقاتلوا الروم ببسالة وقوة حتى انتصر عليهم، ومن هذا يتبين أثر تحلي القائد بهذه الصفة في كسب النصر.

المطلب الثاني : الرأي السديد والعقل الراجح

يُعد عمرو – رضي الله عنه – ذا رأي سديد وعقل راجح، فهو معدود من دهاة العرب المقدمين في الرأي، ومما يدل على سداد رأيه أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إذا استضعف رجلاً في رأيه قال : (أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد) يريد خالق الأضداد.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب عمرو بن العاص رقم : (٣٨٤٤).

وقد وقع الإجماع على أنه أحد دهاة العرب، وفي ذلك يقول الثعالبي رحمه الله : (ووقع الإجماع على أن الدهاة أربعة : معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه رضي الله عنهم)، ولرجاحة عقله – رضي اله عنه – بعثته قريش إلى الحبشة للتفاوض مع النجاشي بشأن ردّ المهاجرين إلى مكة.

المطلب الثالث : بُعْد النظر

كان عمرو – رضي الله عنه – يتمتع بصفة بعد النظر، فهو يقدّر كل الاحتمالات ويفترض أن أصعبها يمكن أن يقع، ولهذا كان يأخذ بمبدأ الحيطة، ويشهد لذلك أنه حين فزع أهل المدينة لبس عمرو سلاحه وقصد المسجد، بينما تفرق الناس.

عن عمرو بن العاص – رضي الله عنه – قال : (كان فزع بالمدينة، فأتيت على سالم مولى أبي حذيفة، وهو محتب بحمائل سيفه، فأخذت سيفاً فاحتبيت بحمائله، فقال رسول الله ﷺ : «يا أيها الناس : ألا كان مفزعكم إلى الله وإلى رسوله؟»، ثم قال : «ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان)[1].

المطلب الرابع : القدرة على جمع المعلومات

يُعد جمع المعلومات عن العدو من الأمور الضرورية لتقدير الموقف العسكري، ووضع الخطة المناسبة له، ولهذا كان عمرو – رضي الله عنه – يحرص على جمع المعلومات عن عدوه وعن طبيعة الأرض التي سيقاتل فيها.

ومن الأمثلة على ذلك : ما حدث في غزوة ذات السلاسل، حيث استعان بأخواله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده : (٢٠٣/٤)، أخرجه أحمد والنسائي بسند حسن. انظر : الإصابة في تمييز الصحابة : (٣/٣).

من (بِلَى) في إمداده بالمعلومات الضرورية عن أعدائه، مما كان سبباً في انتصاره عليهم.

ولما كان الاستطلاع أمراً ضرورياً لوضع صورة القائد عن عدوه، وسلاحه، وخططه العسكرية وحلفائه، فإن عَمْراً كان يقدر قيمة هذا الأمر حق قدره سواء كان ذلك بالاستطلاع الشخصي أو بإرسال العيون والأرصاد، ومن الأمثلة على اهتمامه بالاستطلاع الشخصي ما قام به رضي الله عنه من استكشاف مقر قائد الروم (أرطبون) حيث اطلع على مواطن الضعف في مواقع جيش الروم.

المطلب الخامس : الماضي الناصع المجيد

من الصفات القيادية التي توافرت لعمرو – رضي الله عنه – الماضي المجيد، فهو من بني سهم، وهذا البطن من قريش انتهى إليهم الشرف في الجاهلية، حيث كانت لهم السيادة والسلطان في مكة.

وقد اختص بنو سهم من بين بطون قريش الأخرى بأنهم كانوا أصحاب الحكومة، وهي : أشبه ما تكون بالقضاء، وفض المنازعات في المسائل الدقيقة حيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم من العرب إلى زعماء بني سهم الذين اشتهروا بسداد الرأي، والحلم، والدهاء، والحزم.

إن لبني سهم أيضاً الرئاسة على الأمور الخاصة بآلهتهم وهي قريبة الشبه في عصرنا بالأوقاف العامة، وكان الشأن في ذلك : أن يقوم صاحب هذه الوظيفة بالتصرف في هذه الأموال وفق القواعد التي جروا عليها في العمل بأموال أوثانهم.

وأما أبوه فهو العاص بن وائل بن هشام، كان من أشراف قريش وذوي الجاه فيهم ومن أبرز الأدلة على ذلك : أن عمر بن الخطاب لما أسلم وثَبَت عليه قريش حتى أيقن بالهلاك، وبينما هم قائمون على رأسه إذ أقبل العاص بن وائل فقال لهم : خلوا

عن الرجل، أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم؟ وعندئذ انفض المشركون عن عمر.

كما كان عمرو نفسه من ذوي الشرف في الجاهلية ومن عرفوا بسداد الرأي والحزم، فقد حاز الشرف من جميع جوانبه، فهو ذو نسب شريف كما أنه تربى في بيت شريف هو بيت العاص بن وائل، وعاش في بلد شريف هو مكة المكرمة.

المطلب السادس : اتخاذ القرارات الصحيحة وتنفيذها في الوقت المناسب

من الصفات القيادية التي كان يتحلى بها عمرو – رضي الله عنه – اتخاذ القرارات الصحيحة، فقد كان يعمل على اتخاذ قراراته، ثم يقوم بعد ذلك بتنفيذها بدقة كاملة، حتى تؤدي الغرض منها، من الأمثلة على ذلك : ما رآه عمرو من ضرورة اجتماع المسلمين في اليرموك، إذ أن هذا القرار يحقق مصلحة كبيرة في هذه الظرف الحاسم، وهو وحدة المسلمين وإظهار هيبتهم أمام عدوهم حتى لا يطمع فيهم، كما أنه يدفع مفسدة عظيمة وهي تفرق الجيوش الذي هو مظنة الفشل والخذلان، مما يغري أعداءهم بالهجوم عليهم، وبذلك تحيق بهم الهزيمة.

وقد كان عمرو – رضي الله عنه – يعتمد في ذلك على أسس اتخاذ القرارات ابتداء من الاستطلاع، وجمع المعلومات، وتقدير الموقف، وحساب ميزان القوى، ووضع جميع العوامل الضرورية في الحسبان، مثل الطبيعة الجغرافية، والأهمية الاستراتيجية للموقع والطبيعة البشرية، سواء كانت في جانب جنده، أو لدى جنود أعدائه، حتى ينتهي بإصدار القرار المناسب في وقته[1].

---

(١) راجع هذه الصفات، كتاب القيادة العسكرية : ٦٢٧، ٦٢٨، ٦٣٢ .

المبحث السابع : قواعد ومبادئ في الاستراتيجية العسكرية

فإذا كانت تلك صفات شخصية عمرو القائد الماهر البارع، فما هي إذاً أسس استراتيجيته الحربية التي طبقها في تلك الفتوحات الإسلامية؟

المطلب الأول : الحرص على تطوير القدرة الحركية

لما وصل عمرو – رضي الله عنه – إلى مصر حرص على تطور القدرة الحركية لجيشه، وذلك بالاستيلاء على السفن الموجودة في جزيرة (الروضة) لاستخدامها في نقل قواته، كما أن استخدامه لمنطقة غرب النيل كان وسيلة لضمان استخدام القدرة الحركية لقوات المسلمين على أفضل وجه.

ثم إن إصراره على هدم أسوار الإسكندرية لم يكن إلا وسيلة لإزالة كل ما يعيق من استخدام القدرة الحركية، وكان اهتمام عمرو بالشؤون الإدارية، والمباغتة، والاقتصاد بالقوى وغيرها، إنما هو من أجل القدرة الحركية وتوفير الظروف المناسبة لاستخدامها على أفضل وجه ممكن.

ومما سبق : يتبين أن هذا المبدأ لدى عمرو – رضي الله عنه – يقوم على ركيزتين أساسيتين هما : الركيزة الأولى : إزالة السدود والحواجز التي يمكن أن تعيق القدرة الحركية. الركيزة الثانية : اختيار محاور العمليات التي تساعد المسلمين على تطبيق هذا المبدأ.

المطلب الثاني : الشدة على أعداء المسلمين

عندما قام عمرو بفتح الإسكندرية الثاني سنة (٢٥هـ) غدر أهل قرية تسمى (خربة) وكان أهلها رهباناً بمؤخرة جيش عمرو وقتلوهم، ولما وصل عمرو إلى

الإسكندرية وأقام بها وجه مولاه ويسمى (وردان) فقتلهم وخرب قريتهم وتسمى الآن : (خراب خربة وردان).

ومن هذا الموقف : نستنتج أن شدة عمرو وصلابته تزداد عندما يتعرض المسلمون للغدر، وذلك لكي يردع الأعداء عن التمادي في ارتكاب مثل هذا الخلق الذميم، وحتى يحفظ للمسلمين هيبتهم ويضمن لهم الأمن والسلامة، وبعد أن فتح عمرو الإسكندرية وضع السيف في رقاب الروم الذين كانوا بها، ثم كلموه في ذلك فرفع السيف عنهم وبنى في ذلك الموضع مسجداً يعرف : بمسجد الرحمة في الإسكندرية.

ومن هذا الموقف : ينبغي أن يعلم أن عَمْراً – رضي الله عنه – كان يترك في مثل تلك الظروف القاسية التي تدعو إلى الشدة والصلابة مجالاً للرحمة والشفقة، فعندما يأتيه من يطلب الرحمة فإنه يستجيب له، لأنه كان ينطلق من منطلق البناء والإصلاح، لا الحقد أو حب الانتقام.

وقد كان عمرو – رضي الله عنه – صلباً عند خوض القتال، ففي بلبيس – مثلاً – قام بتصفية قوات العدو وإبادتها كاملة، ومن الجدير بالذكر أن استعمال الشدة لدى عمرو – رضي الله عنه – في المجتمع الجديد إنما هو مجرد وسيلة وليس غاية في حد ذاته، لمتطلبات البناء السلمي الذي يفتقر إلى الاستقرار والهدوء.

المطلب الثالث : ادخار القوى

لقد كانت قوات المسلمين في جميع الحروب التي خاضوها أقل من قوات أعدائهم، ولهذا فكر القادة العسكريون اقتداءً بالرسول القائد ﷺ في إيجاد البديل الذي يعوض عن هذا النقص في العدد والمعدات، فطبقوا مبدأ ادخار القوى.

ومن هؤلاء القادة : عمرو بن العاص – رضي الله عنه – فقد كان يحسن تطبيق هذا المبدأ كلما دعته الضرورة إليه، ومن الأمثلة على ذلك : أن عمرواً – رضي الله عنه – عندما أراد فتح أجنادين وجد أن (أرطبون) الروم قد وضع قوتين لهما شأنهما في كل من (إيلياء) و(الرملة) ففصل عمرو جيشه إلى قوتين صغيرتين وعين على كل واحدة منهما قائداً، وأمرهما بمنع أي تحرك لقوات الروم إلى (أجنادين)، أما القوة الرئيسية فإنه جعل مهمتها مقاتلة جيش الروم، وبهذا الأسلوب تحقق لعمرو النصر على أعدائه الرومان.

المطلب الرابع : خفة الحركة

كان عمرو رضي الله عنه يؤمن بمبدأ خفة الحركة، ويحسن تطبيقه في الوقت المناسب، ومن الأمثلة على ذلك : أن عَمْراً رضي الله عنه عندما احتل (طرابلس) أمر قواته بالتوجه إلى صبراتة – ليلاً – فتحركت القوات بقيادة عبد الله بن الزبير فدخلها صباحاً، واستسلم أهل المدينة دون قتال، وفي ذلك يقول ابن عبد الحكيم : (كان من بسبرت متحصنين... فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً، ولا طاقة له بهم آمنوا، فلما ظفر عمرو بن العاص بمدينة طرابلس جرد خيلاً كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصبحت خيله مدينة (سبرت) وقد غفلوا، وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم، فدخلوها فلم ينج منهم أحد، واحتوى جند عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو[١].

---

(١) المرجع السابق : ص : (٦٣٤).

المبحث الثامن : أعمال عمرو بن العاص في عهد الرسول

لقد قام عمرو – رضي الله عنه – بأعمال جليلة في عهد الرسول ﷺ وكان من أهم هذه الأعمال الآتية :

١ – قيادة سرية ذات السلاسل لصد هجوم قضاعة على المدينة.

٢ – هدم سواع بعد فتح مكة.

٣ – دعوة ابنَي الجلندى (جيفر، وعباد) إلى الإسلام، وقد ذهب عمرو – رضي الله عنه – إلى عمان ودعاهما إلى الإسلام وصدقا بالنبي ﷺ، وخليا بين عمرو وبين الصدقة والحكم فيما بين قومهم وكانا له عوناً على من خالفه[١].

المطلب الأول : أعماله في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

عقد أبو بكر الصديق لعمرو بن العاص – رضي الله عنه – لواء الجهاد ووجهه لحرب قضاعة حين ارتدت عن الإسلام. ثم وجهه أبو بكر – رضي الله عنه – بعد ذلك إلى فلسطين، وأمره بنجدة أبي عبيدة بن الجراح ومشاورته.

وفي معركة اليرموك كان عمرو – رضي الله عنه – على الميمنة، فكان لمشاركته أثر كبير في انتصار المسلمين، كما كان لعمرو – رضي الله عنه – مشاركة فعالة في حركة الفتح الإسلامي بالشام، فقد قام بمشاركة شرحبيل بن حسنة في فتح بيسان، وطبرية، وأجنادين[٢].

كما قام – رضي الله عنه – بفتح غزة، وسَبَسْطِية، ونابُلُس، واللُّدّ، ويُبْنى

---

(١) انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٦٢/١)، جوامع السيرة لابن حزم : ص (٢٤، ٢٩).
(٢) انظر : تاريخ الطبري : (٦٠٥/٣)، والكامل لابن الأثير : (٤٩٨/٢).

وعَمْواس، وبيت جِبْرين، ويافا، ورَفَح، وبيت المقدس، ولم يقتصر عمرو - رضي الله عنه - على فتح بلاد الشام وحدها، بل شمل أيضاً بعض مشاهير بلاد مصر، حيث كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أصدر أمره إلى عمرو - رضي الله عنه - بعد الفراغ من فتوح الشام أن يسير بمن معه من الجند إلى مصر، فخرج - رضي الله عنه - حتى وصل إلى العريش ففتحها.

كما شملت حركة الفتح أيضاً : الفرما، والفسطاط، وحصن بابليون، وعين شمس، والفيوم، والأشمونين، وأخميم، والبشرود، وتنيس ودمياط، وتونة، ودميرة، وشطا، ودقهلة، وبنا، وبوصير، والإسكندرية، وبلاد إفريقية أخرى مثل : برقة وزويلة وطرابلس(١).

المطلب الثاني : عمرو رجل الآخرة

إن مما يجب التنويه به في هذا المقام، أن حرص عمرو على تولي القيادة العسكرية وغيرها من الولايات، إنما كان يدفعه إلى ذلك الإخلاص للإسلام والمسلمين، والرغبة في ثواب الله تعالى، ويدل على الأمر ما يأتي :

أولاً : شهادة الرسول ﷺ له بالإيمان.

ثانياً : جوابه للرسول ﷺ لمَّا دعاه إلى الاستعداد لغزوة ذات السلاسل. عن موسى بن علي عن أبيه قال : سمعت عمرو بن العاص يقول : بعث إليَّ رسول الله ﷺ فقال : «خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني» فأتيته وهو يتوضأ فصعد في النظر ثم طأطأه فقال : «إني أريد أبعثك على جيش فيسلمك الله، ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة»، قال : قلت : يا رسول الله ما أسلمت من أجل المال ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ فقال : «يا عمرو نِعْمَ المال الصالح

---

(١) المرجع السابق : ٦٣٤ - ٦٤٢ القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ.

للرجل الصالح)[1].

ثالثاً : بكاؤه عند موته وخوفه من الله في تلك الولايات التي صارت إليه، وقد ورد في صحيح مسلم ما يدل على ذلك في حديث طويل : (عن ابن شماسة المهري قال : حضرنا عمرو بن العاص – رضي الله عنه – وهو في سياق الموت، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار... وفيه قال : ثم ولينا أشياء ما أدرى ما حالي بها)[2].

ولقد ثبت أنه كان يدعو في آخر حياته بهذا الدعاء : (اللهم إنك أمرتنا فأضعنا، ونهيتنا فركبنا، فلا برىء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، ولكن لا إله إلا أنت وما زال يقولها حتى مات)[3].

ففي هذه البراهين الساطعة قطع للألسنة المتقولة الذين يتهمون عَمراً بأنه إنما آمن طمعاً في المال أو حباً للرياسة، ولقد زيف الروافض في سيرة عمرو بن العاص ونسبوا إليه روايات ظلماً وبهتاناً وزوراً، ومن ذلك قصة التحكيم التي فندها الإمام أبو بكر بن العربي المالكي في كتابه النافع العواصم من القواصم، فذكر قاصمة التحكيم.

فقال في كتابه القيم : (وقد تحكم الناس في التحكيم فقالوا فيه مالا يرضي الله، وإذا لاحظتموه في الكتب الأكثر عدم الدين، وفي الأقل جهل بين، والذي يصح من ذلك ما روى الأئمة الثقات كخليفة بن خياط، والدارقطني، أنه لما خرج الطائفة العراقية في مائة ألف، والشامية في سبعين أو تسعين ألفاً، ونزلوا على الفرات بصفين، اقتتلوا أول يوم وهو الثلاثاء على الماء فغلب أهل العراق عليه، ثم التقوا يوم الأربعاء

---

(١) أخرجه أحمد في المسند : (١٩٧/٤، ٢٠٢) وأخرجه الحاكم في كتاب البيوع في كتاب لا بأس بالغنى لمن اتقى ثم قال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج : (١١٢/١) رقم : (١٢١).

(٣) سير أعلام النبلاء : (٧٦/٣).

لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين، ويوم الجمعة وليلة السبت ورفعت المصاحف من أهل الشام، ودعوا إلى الصلح، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل، أبو موسى من جهة علي – رضي الله عنه – ومن جهة معاوية عمرو بن العاص، وكان أبو موسى رجلاً تقياً عالماً أرسله النبي ﷺ إلى اليمن مع معاذ وقدمه عمر وأثنى عليه بالفهم، وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله ضعيف الرأي مخدوعاً في القول، وأن العاص كان ذا دهاء وأرب حتى ضربت الأمثال بدهائه تأكيداً، لما أرادت من الفساد، وتبع ذلك بعض الجهال بغضاً وصنفوا فيه حكايات.

وإنما بنوا ذلك على أن عَمراً غدر بأبي موسى في قصة التحكيم صار له الذكر في الدهاء والمكر وقالوا : إنهما لما اجتمعا بأذرع من دومة الجندول وتفاوضا اتفقا على أن يخلعا الرجلين، فقال عمرو لأبي موسى : اسبق بالقول فتقدم فقال : إني نظرت فخلعت علياً من الأمر، ولينظر المسلمون لأنفسهم كما خلعت سيفي هذا من عاتقي، وقال عمرو : إني نظرت فأثبت معاوية على الأمر كما أثبت سيفي هذا في عاتقي وتقلده فأنكره أبو موسى فقال عمرو : كذلك اتفقنا وتفرق الجمع على ذلك الاختلاف.

ورد القاضي أبو بكر بن العربي على هذه الرواية وذكر عاصمة من تلك القاصمة فقال : هذا كله كذب صراح ما جرى منه حرف قط وإنما هو شيء اخترعته المبتدعة ووضعته التاريخية، فتوارثته أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله[(١)].

نقد الرواية الباطلة في قضية التحكيم والتي طعن من خلالها عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري – رضي الله عنهما –

ولما لحادثة التحكيم من أهمية في التاريخ السياسي للدولة الإسلامية، فإنه من الضروري إجلاء حقيقة وقائعها، حيث أسيء تصوير هذا الحادث، بقدر ما أسيء

(١) انظر : العواصم من القواصم، لابن بكر العربي المالكي : ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩ .

تفسيره، فنتج عن الأمرين خلط كثير وإساءة إلى مكانة الصحابة وقدرهم، حيث باتت القصة الشائعة بين الناس عن حادث التحكيم تتهم بعضهم بالخداع والغفلة، وتتهم آخرين بالصراع حول السلطة. وبإخضاع هذه الرواية للنقد والتحليل يلاحظ عليها أمران : ضعف سندها واضطراب متنها. أما سندها ففيه راويان متهمان في عدالتهما : أبو مخنف لوط بن يحيى، وأبو جنان الكلبي.

الأول : ضعيف ليس بثقة (أبو مخنف لوط بن يحيى) :

قال فيه الإمام أبو حاتم : متروك، وقال فيه الدارقطني : ضعيف. وقال فيه ابن معين : ليس بثقة، وقال فيه ابن عدي : شيعي محترف صاحب أخبارهم، وقال فيه الذهبي : أخباري تالف لا يوثق به[1].

أما الثاني : أما أبو جنان الكلبي : قال فيه ابن سعد : كان ضعيفاً[2] وقال البخاري وأبو حاتم : كان يحيى القطان يضعفه، وقال عثمان الدارمي : ضعيف، وقال النسائي : ضعيف[3].

يكفي أن في الرواية المذكورة وجود شيعي محترف طعن في عدالته أهل الجرح والتعديل هذا من ناحية السند. أما من ناحية المتن فهناك أمور عدة تبطل الرواية والذي يهمنا في هذا المبحث أن القول بأن أبا موسى الأشعري كان في قضية التحكيم ضحية خديعة عمرو بن العاص ينافي الحقائق التاريخية الثابتة عن فضله وفطنته وفقهه ودينه والتي تثبت له بتوليه بعض أعمال الحكم والقضاء في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ فقد استعمله النبي ﷺ على زبيد وعدن، واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البصرة وبقي والياً عليها إلى أن قتل عمر وكذلك استعمله عثمان

---

(١) انظر : تحقيق مواقف الصحابة في الفتن د. محمد محزون (٢/٢٥٣).
(٢) ابن سعد في الطبقات : (٦/٣٦٠).
(٣) انظر : تحقيق مواقف الصحابة في الفتن : (٢/٢٥٣).

ابن عفان على الكوفة وبقي والياً عليها إلى أن قتل.

إن مما يؤكد عدم صحة الرواية المذكورة على قضية التحكيم أن العلماء انتقدوها ورووا خلافها في كتبهم، فقد أخرج الدارقطني عن حصين بن المنذر أنه جاء فضرب فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية، فبلغ نبأه معاوية، فأرسل إليه، فقال : (إنه بلغني عن هذا – عمرو بن العاص – الذي بلغني عنه فأتيته فقلت له : أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ قال : قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان من الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى : ما ترى في هذا الأمر؟ قال : أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راض عنهم، قلت : فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال : إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغنِ عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما)[1].

وليس من شك في أمر الخلاف الذي رأى الحكمان رده إلى الأمة أو إلى أهل الشورى ليس إلا أمر الخلاف بين علي ومعاوية حول قتلة عثمان، وهو ما أطبقت على ذكره المصادر الإسلامية[2].

إن سهام الروافض المسمومة وآرائهم المحمومة وجهت للطعن في عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري وغيرهم من الصحابة، وحرص المستشرقون على نشر الروايات المطعونة سنداً ومتناً، وروّج لها أذنابهم من أهل الفكر الغربي والعلماني.

الحجة في عدالة الصحابيين الجليلين :

إن الصحابي الجليل أبا موسى الأشعري تولى أعمال الحكم والقضاء في الدولة الإسلامية منذ عهد رسول الله ﷺ على زبيد وعدن واستعمله عمر على البصرة وبقي

---

(١) العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي ص : (١٧٨).
(٢) انظر : تحقيق مواقف الصحابة في الفتن : (٢/٢٣٣).

والياً عليها إلى أن قتل عمر رضي الله عنه وأقره عثمان – رضي الله عنه – على البصرة، ثم على الكوفة، وبقي والياً عليها إلى أن قتل عثمان فأقره علي رضي الله عنه. فهل يتصور أن يثق رسول الله ﷺ، ثم خلفاؤه من بعده برجل يمكن أن تجوز عليه مثل الخدعة التي ترويها قصة التحكيم؟ هذا وقد شهد الصحابة وكثير من علماء التابعين لأبي موسى – رضي الله عنه – بالرسوخ في العلم، والكفاءة في الحكم، والفطنة والكياسة في القضاء، فهذه شهادة عمر عن أنس قال : (بعثني الأشعري إلى عمر، فقال لي : كيف تركت الأشعري؟ قلت : تركته يعلم الناس القرآن، فقال : أما إنه كيس ولا تسمعها إياه)[1].

وقال الشعبي : كتب عمر في وصيته : (ألا لا يقرّ لي عامل أكثر من سنة، وأقروا الأشعري أربع سنين)[2].

وقد ثبت عن أبي موسى أيضاً أنه كان ممن حفظ القرآن كله على عهد الرسول ﷺ وكان من المشهورين بتعلميه للناس، فإذا علم أن مدار حياة الناس في ذلك العهد – في سلمهم وحربهم – كان على فقه القرآن والسنة، وعلمت مكانة أبي موسى من ذلك حتى خصه عمر بن الخطاب بكتابه المشهور في القضاء وسياسة الحكم[3] فكيف تصور غفلته إلى هذا الحد! فلا يفقه حقيقة النزاع الذي كلف بالحكم فيه، وصدر فيه قراراً لا محل له، وهو قرار عزل الخليفة الشرعي بدون مبرر يسوغ هذا العمل، وقرار عزل معاوية المزعوم، ثم يقع منه ومن عمرو بن العاص ما نسب إليهما من السب والشتم، وهو أمر يتعارض مع ما عرف وتواتر عن الصحابة – رضوان الله عليهم – من حسن الخلق وأدب الحديث بينه وبين أن يخطىء الحكم في القضية التي أوكل إليه

---

(١) ابن سعد الطبقات (٤/١٠٨).
(٢) انظر : تحقيق مواقف الصحابة في الفتن : (٢/٢٢٧).
(٣) انظر : تحقيق مواقف الصحابة في الفتن : (٢/٢٢٩).

النظر في أمرها، فإن ذلك أيضاً هو شأن عمرو بن العاص الذي يعتبر من أذكياء العرب وحكمائهم، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يقضي بين خصمين في حضرته، وبشره حيث سأله : يا رسول الله : أقضي وأنت حاضر؟ بأن له إن أصاب أجران وإن أخطأ أجر واحد حيث قال : «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد»[1].

إن قبول تلك الرواية الرافضية الكاذبة طعن في ورع وتقوى ونزاهة الصحابي الجليل عمرو بن العاص الذي بيَّنت الأحاديث فضله وعمق إيمانه.

إن التاريخ الإسلامي أصبح غرضاً ومرمى لسهام أعداء الإسلام على مختلف مذاهبهم وعقائدهم، ويحاولون أن يوجدوا فجوة بين الإسلام وتاريخه الزاهر حتى يتسنى لهم عزل النشء عن الإسلام وشريعته وتراثه العلمي ولذلك يبذلون قصارى جهدهم لنفث السموم في المجتمع الإسلامي.

لقد حاول المستشرقون ومن قبلهم الروافض أن ينشروا كل رواية باطلة تنقص من الصحابة الكرام، وتطعن في تاريخ الأمة المجيد، وتصور تاريخهم بأنه صراع على السلطة والسيادة والنفوذ.

ولذلك يجب الحذر من كل رافضي كاذب ومستشرق عربيد وعلماني فاجر وكل من سار على نهجهم، ولا بد من الدفاع المستميت عن تاريخنا الخالد والهجوم الشجاع على أوكار الكذابين، ويكون هذا الهجوم المبارك بقذائف الحق العلمية المملوءة بالحقائق الساطعة والأدلة القاطعة والبراهين الدامغة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام : (١٥٧/٨) رقم (٧٣٥٢)، ومسلم رقم (١٧١٦).

الفصل الثالث

تثبيت دعائم الإسلام في المنطقة

لقد كان من مقاصد حملة عمرو بن العاص – رضي الله عنه – لبرقة وطرابلس وبقية مناطق ليبيا، فتح البلاد وإزالة الطاغوت الروماني عن قلوب العباد حتى تتضح له السبل، وتفترق لهم الطرق، وتصبح لهم حرية الاختيار ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله، فقد استمسك بالعروة الوثقى**﴾ [البقرة : ٢٥٦] وبعد ذلك ﴿**فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر**﴾ [الكهف : ٢٩].

ثم كان بعد ذلك الحملة المباركة التي كانت سبباً في دخول ذلك النور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام والتقرب إليها بالقرابين، واتخاذ الأنداد والأرباب من البشر من دونه سبحانه وتعالى، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

المبحث الأول : حملة عبد الله بن سعد على إفريقية

لقد تقرر في كتب التاريخ أن عمراً بن العاص – رضي الله عنه – لما فتح ليبيا بداية ببرقة وانتهاء بطرابلس وصبراتة، رجع بعد ذلك إلى مصر حيث كانت ولايته، ولما تولى عثمان بن عفان – رضي الله عنه – خلافة المسلمين عزله عن ولاية مصر، وعقدها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص، في

احب ميمنة عمرو بن العاص، في فتوحاته الشامية والمصرية.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (كان عبد الله مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر، كان عبد الله قائداً للميمنة منذ توجه من (قيسارية) إلى أن فرغ من حربه، فشهد فتح مصر وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته، وفي حربه هناك كلها، وكان عمرو بن العاص يبعثه إلى أطراف (إفريقية) غازياً ويمده بالجنود فيعود من غزواته ظافراً غانماً)[١].

يقول الدكتور صالح مصطفى : (وفي سنة ٢٦هـ ٦٤٦م عزل عمرو بن العاص - رضي الله عنه - عن ولاية مصر، واستعمل عليها عبد الله بن سعد - رضي الله عنه - وكان عبد الله بن سعد يبعث جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو بن العاص فيصيبون من أطراف إفريقية ويغتنمون)[٢].

ويبدو لي أن جرائد الخيل هذه لم تكن داخلة ضمن الأهداف العامة للحملة التعليمية لترسيخ مبادئ وأسس الدين الحنيف عند أهالي برقة، وطرابلس، ولكن هذه الجرائد كانت تقصد إفريقية - تونس - تمهيداً لفتحها، ومعرفة وضعها، فكان حال هذه الجرائد أشبه ما يكون بكتائب الاستطلاع التي تعتبر مقدمة الجيش وعيونه، فلمّا اجتمعت عن عبد الله بن سعد معلومات كافية عن إفريقية، من ناحية مداخلها ومخارجها، وقوتها وعدادها، وموقعها الجغرافي الاستراتيجي، كتب حينئذ إلى خليفة المسلمين عثمان بن عفان - رضي الله عنه - يخبره بهذه المعلومات الهامة عن إفريقية، ويستأذن بناء على تلك المعلومات بفتحها، فكان له ما طلب.

يقول الدكتور صالح مصطفى : (ولما استأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان بن

---

(١) قادة فتح المغرب العربي : (٥٤/١).
(٢) ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية : ص (٣٩).

عفان في عزو إفريقية، جمع الصحابة واستشارهم في ذلك، فأشاروا عليها بفتحها، إلا أبو الأعور سعيد بن زيد، الذي خالفه متمسكاً برأي عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين.

ولما أجمع الصحابة على ذلك، دعا عثمان للجهاد، واستعدت المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية لجمع المتطوعين، وتجهيزهم، وترحيلهم إلى مصر، لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جلياً فهذا يتضح من الذين خرجوا إليها من كبار الصحابة ومن خير شباب آل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل وكذلك الأنصار فقد خرج في تلك الغزوة، الحسن والحسين، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وابن جعفر، وغيرهم.

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة وحدها في غزوة عبد الله بن سعبد ست مئة رجل، ومن غنث سبع مئة رجل، ومن ميدعان سبع مئة رجل، وعندما بات الاستعداد تاماً خطب عثمان فيهم، ورغبهم في الجهاد، وقال لهم : (لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه، وأستودعكم الله) ويقال : إن عثمان – رضي الله عنه – قد أعان هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس.

وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر، انضم إلى جيش عبد الله بن سعد، وتقدم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الذي يقدر بعشرين ألفاً يخترق الحدود المصرية الليبية، وعندما وصلوا إلى برقة انضم إليهم عقبة بن نافع الفهري ومن معه من المسلمين، ولم يواجه الجيش الإسلامي أية صعوبة أثناء سيرهم في برقة، وذلك لأنها ظلت وفية لما عاهدت المسلمين عليه من شروط زمن عمرو بن العاص، حتى إنه لم يكن يدخلها جابي خراج وإنما كانت تبعث بخراجها إلى مصر في الوقت المناسب، ومما يؤكد بقاء برقة على عهدها لعمرو بن العاص، ما ذكر، أنه سُمِعَ يقول : (قعدت

مقعدي هذا، وما لأحد من قبط مصر علي عهد إلا أهل أنطابلس فإن لهم عهداً يوفى لهم به) كما أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يقول : (ولولا مالي بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلاً أسلم ولا أعزل منها)(١).

وهكذا أغَذَّ السير بهذه الحملة المباركة نحو إفريقية، وكان ذلك بعد انضمام قوات عقبة بن نافع إليها، إلا أن سعداً قائد الحملة ما فتئ يرسل الطلائع والعيون في جميع الاتجاهات لاستكشاف الطرق وتأمينها، ورصد تحركات العدو وضبطها، تحسباً لأي كمين، أو مباغتة تطرأ على حين غفلة، فكان من نتائج تلك الطلائع الاستطلاعية أن تم رصد مجموعات من السفن الحربية تابعة للإمبراطورية الرومانية، حيث كانت هذه السفن الحربية قد رست في ساحل ليبيا البحري بالقرب من مدينة طرابلس، فما هي إلا برهة من الزمن حتى كان ما تحمله هذه السفن غنيمة للمسلمين، وقد أسروا أكثر من مئة من أصحابها، وتعتبر هذه أول غنيمة ذات قيمة أصابها المسلمون في طريقهم لفتح إفريقية.

يقول الدكتور صالح مصطفى بهذا الصدد : (وبعد انضمام عقبة بن نافع إلى هذا الجيش اتجه صوب إفريقية، وكان عبد الله بن سعد يرسل الطلائع في كل الاتجاهات الضرورية، لاستطلاع أحوال المناطق المختلفة، وكانت هذه الطلائع تعود إلى القائد بالأخبار جالبة معها البقر، والشياه، وعلف الدواب، ولما دنا الجيش من طرابلس تقدمته إليها إحدى تلك الطلائع التي كان يرسلها عبد الله بن سعد، فوجد أفرادُها مراكبَ للروم راسية على الساحل، فشدوا عليها وغنموا ما فيها وأسروا مئة من أصحابها، غير أنه لم يتعرضوا للأهلين بشيء، وذلك لأنهم تحصنوا داخل مدينتهم، وكانت هذه أول عنيمة أصابها المسلمون، وكانت هذه المراكب قد وصلت إلى

---

(١) المرجع السابق : ص (٤١، ٤٢).

طرابلس إما للتجارة، أو لتعزيز من كان بها من الروم، إلا أن طليعة الجيش الإسلامي حالت دون تحقيق أحد الهدفين، ولم يتحصن أهل طرابلس بها امتناعاً على ذلك الجيش، وإنما أخافتهم حادثة المراكب، فالتزموا بيوتهم خشية أن يأخذهم عبد الله بن سعد بتهمة التواطؤ مع السفن الرومية)[1].

بيد أن عبد الله بن سعد – رضي الله عنه – اكتفى من أهالي مدينة طرابلس بذلك الموقف السلبي حيال تلك السفن الرومانية، حيث التزموا بيوتهم ولم يتفاعلوا مع ذلك الحدث، لذلك جد السير به إلى إفريقية، وبث طلائعه وعيونه في كل ناحية، حتى وصل جيشه إلى مدينة سبيطلة بأمان، وهناك التقى الجمعان، جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد، وجيش جرجير حاكم إفريقية، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالي مئة وعشرين ألفاً، وكان بين القائدين اتصالات مستمرة، ورسائل متبادلة، فحواها عرض الدعوة الإسلامية على جرجير ودعوته للدخول في الإسلام ويستسلم لأمر الله سبحانه، أو أن يدفع الجزية ويبقى على دينه خاضعاً لسيادة الإسلام، ولكن كل تلك العروض رفضها وأصر واستكبر هو وجنوده!! فلما كان ذلك وضاق الأمر بالمسلمين فكر القائد عبد الله بن سعد، وقال بلسان حاله : أيها الناس عليكم بقتال من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، عليكم بقتال هؤلاء، فنشبت المعركة بين الجمعين، وحمي الوطيس بينهما لعدة أيام حتى وصل مدد بقيادة عبد الله بن الزبير الذي كانت نهاية هذا المستكبر الطاغي جرجير على يديه.

يقول الدكتور صالح مصطفى : (وصل جيش المسلمين إلى مدينة سبيطلة، وفي هذا المكان التقى جيش عبد الله بن سعد، مع جيش جرجير الذي بلغ حوالي مئة وعشرين ألفاً وتبودلت الرسائل بين القائدين، على أن يقبل جرجير الإسلام أو يدفع

---

(١) المرجع السابق، ص : (٢٣).

الجزية غير أنه رفض ذلك فضاق أمر المسلمين، واختلفوا مع عبد الله بن سعد في الرأي فدخل فسطاطة مفكراً، بينما تأهب جرجير للحرب، وجعل ابنته على ديدبان عال وأقسم بأن من يقتل أمير المؤمنين زوجه ابنته، وكان ذلك تشجيعاً لجيشه على قتال المسلمين، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد، فأقسم أن من يقتل جرجير نفسه نفلته ابنته، والتحم الجيشان، وانتصر المسلمون وقتل جرجير على يد عبد الله بن الزبير)[1].

وبذلك كانت نهاية إفريقية إلا أن جرجير كان نصرانياً تابعاً لديانة الإمبراطورية الرومانية، لذلك لما وصل إلى الروم أخبار ما حل بجرجير وجنوده، أخذتهم الحمية ﴿بعضم أولياء بعض﴾ وقرروا مقاتلة عبد الله بن سعد ومن معه، وأخذ الغنائم التي غنمها من إفريقية، فلما أحس عبد الله بن سعد بخطورة ذلك التجمع الروماني رأى رغبة منهم في إبرام الصلح نظراً لعدة نقاط عسكرية، منها : بعد جيش المسلمين عن مركز الإمداد والنجدة، ومخافة تواطؤ قوى الروم والبربر ضده خاصة وأن المعركة التي كانت مع جرجير سقط فيها من الشهداء العدد الكثير، ولكن قبل إبرام الصلح معهم أرسل إلى نائبه في مصر يطلب منه إرسال سفن إليه في أقرب وقت ممكن لحمل الغنائم التي غنمها من إفريقية.

يقول الدكتور صالح مصطفى : (فلما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطلة، غارت أنفسهم وتجمعوا، وكاتب بعضهم بعضاً في حرب عبد الله بن سعد إياهم، فخافوه وراسلوه، وجعلوا له جعلاً على أن يرتحل بجيشه وألا يعترضوه بشيء، ووجهوا إليه ثلاث مئة قنطار من الذهب في بعض الروايات، وفي البعض الآخر مئة قنطار، جزية في كل سنة على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم وقبض المال، وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل

---

(١) المرجع السابق : ص (٤٥).

(١) المرجع السابق، ص : (٤٦).

الصلح فهو لهم وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم، وانصرف راجعاً إلى مصر بعد أن أقام بإفريقية سنة وثلاثة أشهر أو سنة وشهراً في رواية أخرى)[1].

ويقول أيضاً : (وتذكر الرواية أنه عندما وصل إلى طرابلس وافته المراكب فحمل فيها أثقال جيشه وقصد هو وأصحابه إلى مصر سالمين، ووجه إلى عثمان بن عفان - رضي الله عنه - بالأموال التي معه من الخمس وغيره، ومن المرجح أن تكون السفن التي وافته في طرابلس من السفن التي غنمها المسلمون في سورية والإسكندرية، إذ يذكر أرشيبالد : أنه قد سهل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة البيزنطية في الإسكندرية وسورية سليمة أن تكون لديهم سفن حربية إما حاضرة وإما سهلة الإنشاء)[2].

بيد أن هناك روايات تنص على عودة عبد الله بن سعد لإفريقية بعد وصوله إلى مصر، وذلك حين نقض أهلها العهد، وكان ذلك في سنة ثلاث وثلاثين، فانتصر عليهم وقام بتثبيت دعائم النظام الإسلامي هناك، وأقر أهلها على الإسلام، والجزية.

المبحث الثاني : فاتح إفريقية (تونس) في سطور

المطلب الأول : اسمه، وإسلامه، ووفاته

اسمه : عبد الله بن سعد بن أبي السرح بن حبيب بن حذيفة بن حسئل بن عامر ابن لؤي القرشي العامري ويكنى : أبا يحيى، واسم أبي السرح الحسام، وأمه أشعرية واسمها مهابة بنت جابر الأشعرية، أرضعت عثمان بن عفان، فعبد الله بن سعد أخو عثمان بالرضاعة.

---

(٢) نفس المصدر السابق : (٤٦).

إسلامه : أسلم عبد الله قديماً وهاجر إلى المدينة المنورة، فهو من السابقين الأولين وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة، ولما فتح المسلمون مكة المكرمة، عهد رسول الله ﷺ إلى المسلمين بقتل نفر من الكفار سماهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد ففر ابن سعد إلى أخيه بالرضاعة عثمان – رضي الله عنه – فاستأمن له رسول الله ﷺ فأمنه فأسلم عبد الله ذلك اليوم وحسن إسلامه ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر عليه.

ولقد بايعه رسول الله ﷺ يومئذ على الإسلام وقال : الإسلام يجب ما قبله، ولكن عبد الله كان يفر من رسول الله ﷺ أينما رآه خجلاً منه، فذكر ذلك عثمان لرسول الله ﷺ فقال : (الإسلام يجب ما كان قبله) فكان عبد الله بعد ذلك يجلس مع رسول الله ﷺ، وحسن إسلامه بعد ذلك وعرف فضله وجهاده، فأصبح وثيق الإيمان كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته، وكل قول يخالف ذلك لا قيمة له من الناحية التاريخية الصحيحة[1].

وفاته : وبعد الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – اعتزل عبد الله بن سعد الناس وأقام بمدينة عسقلان معتكفاً على الذات، واستعداداً للرحيل من هذه الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية، وكان من دعائه في تلك الخلوة : (اللهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح) وقد استجاب الله – سبحانه – لهذا الرجل الصالح المجاهد، ففي ذات يوم عند طلوع الفجر توضأ، ثم صلى الصبح، فقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب والعاديات، والثانية بفاتحة الكتاب وسورة أخرى، ثم سلم عن يمينه، ثم ذهب ليسلم عن يساره، فقبض الله روحه وكان له ما أراد.

---

(١) انظر قادة فتح المغرب العربي (جـ١ / ٥١، ٥٢، ٥٣).

وكان ذلك سنة ٣٦هـ، ٦٥٦هـ، ودفن بموضع معروف يقال له مقابر قريش بعسقلان في الشام، إلا أن صاحب كتاب (الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية) عبد الملك بن عبد القادر بن علي، يذهب إلى أنه دفن في أوجلة في إحدى واحات ليبيا، ولا يخفى أن ما ذهب إليه صاحب كتاب (قادة فتح المغرب العربي) أصح من حيث ترجيح الرواية، وضبط التواريخ والآثار[1].

المبحث الثالث : مناقب عبد الله بن سعد - رضي الله عنه -

لا ريب أن عبد الله بن سعد – رضي الله عنه – كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته لأرض الشام ومصر، بل كان يرسله يقود حملات جهادية بنفسه على جنوب وغرب مصر من أراضي إفريقيا، التي كانت فيما بعد سبباً لفتح ليبيا وتونس، وبلاد المغرب، والسودان وما حوله، لذلك فعلى هذه الشعوب أن تذكر هذا الرجل صاحب الفضل عليها بعد الله سبحانه، بأفضل ما يذكر به الخلف الصالح سلفهم الصالح، فهو الذي كان سبباً في دخول الإسلام لتلك البلاد وقلوب العباد، وكفى بذلك شرفاً ومنقبة، لذا نحاول أن نتناول بإيجاز ذكر بعض مناقب هذا القائد الصحابي الجليل في مسيرته الجهادية الدعوية.

المطلب الأول : جهاده في مصر

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (كان عبد الله مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر، كان عبد الله معه قائداً للميمنة منذ توجه من قيسارية إلى أن فرغ من حربه، فشهد فتح مصر وكان صاحب

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب : (٦٤/١، ٦٥).

ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته وفي حروبه هنالك كلها، وكان عمرو بن العاص يبعثه إلى أطراف إفريقية غازياً ويمده بالجنود فيعود من غزواته ظافراً غانماً)[١].

المطلب الثاني : جهاده في إفريقية

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (لما ولي عبد الله بن سعد مصر والمغرب بعث المسلمين في جرائد الخيل، فأصابوا من أطراف إفريقية وغنموا، فكتب عبد الله إلي عثمان بن عفان وأخبره بقرب إفريقية من بلاد المسلمين واستأذنه في غزوها واستشار عثمان من عنده من الصحابة، فأشار أكثرهم بالإقدام على غزو إفريقية، فجهز عثامن العساكر من المدينة وأمد عبد الله بجيش عظيم، وخرج في هذه الغزوة ممن حول المدينة خلق كثير، كان فيه عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، والحسن والحسين، لذلك سمي هذا الجيش بجيش العبادلة وسار عبد الله بن سعد بجيشه البالغ تعداده عشرين ألفاً، سنة ست وعشرين وسار عبد الله إلى إفريقية، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع ومن معه من المسلمين – وكان عقبة ومن معه حامية هناك – فساروا جميعاً إلى طرابلس الغرب فقاتلوا من عندها من الروم... ولقد افتتح عبد الله بن سرح إفريقية سهولها وجبالها، وفتح الله على يديه فتحاً عظيماً وانتصر على ملك البربر جرجير في موقع سبيطلة، وأذلت تلك الواقعة أهل إفريقية وأصابهم رعب شديد، فإذا كان كل ذلك ليس فتحاً مستداماً، بل غارة فكيف يكون الفتح؟!!)[٢].

---

(١) المرجع السابق : (١/٥٣، ٥٤).
(٢) المرجع السابق : (١/٥٣، ٥٤).

المطلب الثالث : جهاده في قبرص

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (وفي سنة ثمان وعشرين للهجرة، أجاب عثمان بن عفان معاوية بن أبي سفيان حين كان على أرض الشام إلى فتح قبرص، وقال له : لا تنتخب الناس ولا تقترع بينهم! خيرهم فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه، فسار المسلمون من الشام إلى قبرص، وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليها، فصالحهم على جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة، وفتح المسلمون قبرص وكان لعبد الله فضل كبير في فتحها)[1].

المطلب الرابع : جهاده في بلاد النوبة

يقول في موضع آخر : (بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع لفتح النوبة، فلقي المسلمون بالنوبة قتالاً مريراً، إذ كان أهلها ماهرين برمي السهام، فرشقوا المسلمين بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقودة، ولم يصالحهم عمرو بن العاص ولم يزل يهاجمهم بين حين وآخر حتى عزل عن مصر وولي ابن سعد فغزاهم سنة إحدى وثلاثين هجرية، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالاً شديداً، فأصيبت يومئذ عيون كثيرة من المسلمين، فقال شاعرهم :

لم تر عيني مثل يوم دُمقلة   والخيل تعدو بالدروع مثقلة

فسأل أهل النوبة عبد الله بن سعد المهادنة، فهادنهم الهدنة الباقية إلى اليوم... وعقد لأهل (مقرة) بعد دخول جيش المسلمين (دنقلة) عقداً يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان إلى حدودهم الجنوبية ويفتح النوبة للتجارة والحصول

---

(١) قادة الفتح لبلاد المغرب : (٦١/١، ٦٢، ٦٣).

على عدد من الرقيق في خدمة الدولة الإسلامية، وقد اختلط المسلمون بالنوب والبجة، واعتنق كثير منهم الإسلام)[1].

المطلب الخامس : جهاده في إفريقية ثانياً

ويقول أيضاً : (وفي سنة ثلاث وثلاثين هجرية، أعاد الله عبد الله الكرة على إفريقية حين نقض أهلها العهد، فانتصر عليهم وأعاد النظام إلى ربوعهم، وأقرهم على الإسلام الجزية)[2].

المطلب السادس : جهاده في البحر (غزوة ذات الصواري)

ويقول أيضاً : (وفي سنة أربع وثلاثين هجرية غزا عبد الله غزوة : ذات الصواري في البحر من ناحية الإسكندرية، فلقيه قسطنطين بن هرقل في جمع لم تجمع الروم مثله مذ كان الإسلام، فخرجوا في خمس مئة مركب أو ست مئة والمسلمون في مئتي مركب، وحين علم عبد الله بخبر قدم الروم بهذا الحشد الكثيف، قام بين ظهراني الناس فقال : (بلغني أن ابن هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب، فأشيروا عليَّ! فما كلمه رجل من المسلمين!! فكرر عليهم طلب الاستشارة فأجاب في المرة الثالثة رجل من أهل المدينة كان متطوعاً مع عبد الله بن سعد فقال : (**أيها** الأمير : إن الله جل ثناؤه يقول : ﴿**كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين**﴾، فقال عبد الله : اركبوا باسم الله، فركبوا، وإنما كان في كل مركب نصف شحنته، إذ قد خرج النصف الآخر إلى البر للقتال في منطقة أخرى، قدم أهل الشام وعليهم معاوية بن أبي سفيان وعلى البحر عبد الله بن سعد، وكانت الريح على

---

(١) المرجع السابق : (١/٦١).
(٢) نفس المصدر : (١/٦٣).

المسلمين لما شاهدوا الروم، فأرسى المسلمون والروم، وسكنت الريح، فقال المسلمون : الأمان بيننا وبينكم، فباتوا ليلتهم والمسلمون يقرؤون القرآن ويصلون، وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا، فقربوا سفنهم وقرب المسلمون سفنهم، فربطوا بعضها إلى بعض، وصف عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصبر.

واقتتل الطرفان بالسيوف والخناجر، فقتل من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، وصبر المسلمون يومئذ صبراً لم يصبروا مثله في موطن قط، فجرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة فانهزموا ولم ينج منهم إلا الشريد، في هذه المعركة بالذات تعرضت حياة عبد الله لخطر داهم، فقد قرن مركبه بمركب من مراكب الروم، فكاد مركب العدو يجر مركب عبد الله إليهم، إلا أن أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبين بالسيف فقطعها وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر.

لقد أظهر عبد الله في معركة (ذات الصواري) بطولة فائقة، تلك الغزوة التي أبعدت خطر الروم بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام)[1].

المبحث الرابع : مبادئ في الاستراتيجية العسكرية

لقد تقدم – فيما سبق – أن هذا القائد والصحابي الجليل عبد الله بن سعد صاحب تلك المعارك العظيمة، كان قديراً في وضع الاستراتيجيات الجهادية، والقواعد العسكرية، ومن تلك المبادئ والقواعد التي أسس بنيانها هذا الصحابي الجليل في حياته الجهادية منها : إتقان إدارة الجيش كمّاً وكيفاً، استقرار المؤخرات، حشد القوى، الاقتصاد في القوى، التعرض، الاستعلام والاستطلاع، إعداد الخطة البديلة، المحاربة في

(١) انظر : أسد الغابة لمعرفة الصحابة : (٣/١٥٦).

ميادين القتال، المناورة الحربية.

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب بهذا الصدد : (وكان قديراً على وضع الخطط العسكرية المناسبة وكان يحرص على إنجاز استعداداته الضرورية قبل كل معركة يخوضها، ينجز تحشيد قواته، ويكمل قضاياها الإدارية، ويرسل العيون والأرصاد لتزويده بأنباء العدو المفصلة، كل ذلك يساعده على وضع خطة مثلى تؤمن له النصر المبين)[١].

المبحث الخامس : أهم صفاته القيادية

فقد كان عبد الله بن سعد – رضي الله عنه – ذو مؤهلات قيادية عالية المستوى، تؤهله أن يكون قائداً لتلك الفتوحات المباركة، وأن يخوض غمر تلك المعارك الطاحنة خاصة معركة (ذات الصواري) ومن تلك الصفات القيادية التي كان يتحلى بها : الشجاعة، وعدم الاستبداد بالرأي، وكثرة استشارته لإخوانه، وقبوله للرأي الثاني والانصياع له بكل رحابة صدر، وكان لا يتأثر بكلام الناس، ويفضل أن يكون غازياً لا والياً.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (وكان يمتاز باستشارة ذوي الرأي من رجاله قبل المعركة وفي أثنائها، ولا يأنف أبداً من الانصياع للرأي الصائب بكل رحابة صدر بل كان يشجع كل من له رأي سليم على إظهاره ليطبقه فوراً، وتلك ميزة صاحب الشخصية الرصينة القوية التي لا تؤثر عليها تقولات الناس، والظاهر من سير معاركه التي خاضها أنه كان يؤثر أن يكون في ساحات القتال غازياً على أن يكون في القصور والياً)[٢].

---

(١) المرجع السابق : (٧٣/١).
(٢) نفس المصدر : (٧٣/١).

المبحث السادس : أعماله في عهد الخليفتين عمر وعثمان - رضي الله عنهم -

لقد تولى عبد الله بن سعد – رضي الله عنه – أعمالاً كثيرة ومناصب عظيمة، ففي عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ولاّه الصعيد المصري وفي عهد الخليفة الراشد عثمان – رضي الله عنه – ولاّه مصر كلها، وكان ذلك سنة ٢٥هـ.

أما المناصب القيادية الميدانية التي باشرها عبد الله بن سعد، منها ولاية الميمنة في جيش عمرو بن العاص، وولاية قيادة جيش فتح إفريقية، وكل ذلك كان في عهد عمر ابن الخطاب – رضي الله عنهم – أما في عهد عثمان بن عفان فقد ولاه قيادة فتوحات أرض النوبة، ومدينة قبرص وغيرها.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب (وتولى عبد الله (صعيد) مصر بعد فتحها، وكان عمر بن الخطاب هو الذي ولاه الصعيد، فعقد عثمان بن عفان لعبد الله على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره. وعزل عمرو بن العاص عن مصر. وكان ذلك سنة خمس وعشرين هجرية...)(١).

وأخيراً : يبقى التاريخ دائماً وأبداً ذاكراً لعبد الله بن سعد – رضي الله عنه – فتحه لبلاد تونس الخضراء، وشرقي الجزائر، وقبرص، والنوبة، ونشره لدعوة الإسلام في تلك الربوع، كما أنه يذكر له معاركه البحرية بالتقدير والإعجاب خاصة معركة ذات الصواري، ويذكر له أن قضى حياته كلها مجاهداً لإعلاء كلمة الله، رضي الله عنه من صحابي جليل، الإداري الحازم، والبطل الشجاع، القوي الأمين، القائد الفاتح)(٢).

---

(١) المرجع السابق : (١/٧٤).
(٢) المرجع السابق : (١/٧٤).

الفصل الرابع

توطئة :

بعد أن عاد عبد الله بن سعد – رضي الله عنه – إلى مصر من غزوة ذات الصواري عام ٣٥هـ، حيث علم بخبر فتنة الخروج على خليفة المسلمين عثمان بن عفان – رضي الله عنه – فلما علم ذلك خرج من مصر متوجهاً إلى المدينة حيث عاصمة الخلافة ومقر الخليفة، ولكن ما لبث في المدينة إلا قليلاً، حتى وافاه خبر مقتل عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ثم استخلف بعده الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – الذي بدوره أعاد ترتيب ولاته وعماله في المنطقة، فكان من ضمن أولئك عبد الله بن سعد بن عبادة والياً مكانه.

وهكذا كان والي مصر عبد الله بن سعد القائد الجندي، الذي لم يتأثر بتلك المناصب التي قلما ينزل عنها بشر بيسرإلا إذا كان من أولى التقى والنهى، ونحسب أن فاتح إفريقية من أولئك والله حسبه، لذلك عندما أحس بنشوب الفتنة بين المسلمين اختار مدينة عسقلان التي كانت بعيدة عن مواطن الفتنة مكاناً لخلوته يتعبد الله فيها، حتى توفاه الله وهو في آخر ركعة من صلاة الصبح، فرضي الله عنه وأرضاه، وأدخله فسيح جناته، اللهم آمين.

ثم توالت الأحداث واستلم معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – مقاليد الخلافة سنة ٥٤١ هـ / ٦٦٥م، حيث عزل فيها عبد الله بن عمرو بن العاص والي مصر للمرة الثانية عن منصبه، وعين معاوية بن حديج والياً على مصر، وعقبة بن نافع

عاملاً على إفريقية.

يقول الدكتور صالح مصطفى : (أما بالنسبة لسنة ٥٠هـ / ٦٧٠م وذلك بعد أن عزل معاوية بن أبي سفيان عبد الله بن عمرو بن العاص عن مصر، وولاها معاوية بن حديج، وفي السنة التي تليها ٤٨هـ / ٦٦٨م كان معاوية بن حديج عاملاً على مصر وإفريقية إلى أن عزله معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – عن ولاية إفريقية وأقره على ولاية مصر فقط سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م هذا فضلاً على أنه في هذه الفترة كان عقبة ابن نافع في إفريقية)(١).

المبحث الأول : حملة معاوية بن حديج على ليبيا وإفريقية

لقد تقدم فيما مضى أن معاوية بن أبي سفيان خليفة المسلمين قد عين معاوية بن حديج والياً على مصر، ولما استقرت سلطته في الخلافة كلف معاوية بن حديج أن يتوجه إلى إفريقية نظراً لخبرته بها وسابقة العمل الجهادية فيها، وكان جيشه تعداده قرابة عشرة آلاف مقاتل، وكان الجيش الإسلامي يضم في صفوفه أكابر فقهاء الصحابة وتابعيهم أمثال : عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن أبي الحكم بن العاص وغيرهم.

يقول الدكتور صالح مصطفى : (أما في سنة ٤٥هـ / ٦٦٥م، فقد أرسل معاوية ابن أبي سفيان – رضي الله عنه – بعد أن توطدت سلطته في الخلافة معاوية بن حديج إلى إفريقية، في عشرة آلاف مقاتل وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن مروان، ويحيى بن الحكم بن العاص، وعدة من أشراف قريش)(٢).

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر : ٤٨ .
(٢) المرجع السابق : ٥٠ .

ولقد ذكر في كتب التاريخ أن هذا الجيش الإسلامي بقيادة معاوية بن حديج – رضي الله عنه – كان قد تحرك من مصر متجهاً إلى إفريقية عبر الأراضي الليبية التي كان قد رابط بها كل من عقبة بن نافع، وشريك بن سمى – رضي الله عنهما – لذلك لم يجد جيش معاوية عند مروره بالأراضي الليبية كبير عناء، بل لم يذكر أحد من المؤرخين بأن معاوية وجيشه الإسلامي لقي أية مقاومة من قبل الشعوب القاطنة في الأراضي الليبية، نظراً لالتزامهم إما بالإسلام، أو بالجزية أو العهد.

وبعد عبوره منطقة طرابلس وحدودها توجه إلى تونس التي تعتبر القصد الأول من حملته المباركة، وكانت استرتيجيته في تلك الحملة المباركة السيطرة على مفاصل إفريقية الثلاثة : بنزرت، وسوسة، وجلولاء.

وهكذا كانت البداية فقصد معاوية بجيشه إلى سبيطلة، وسبقته أخباره، وبلغ قيصر الروم خبر هذا الغزو فأرسل نجدة إلى قرطاجنة على طريق البحر، والتقى المسلمون بالروم والبربر بقرب (الجم) فهزموهم، واستعد الروم للقائه في جلولاء، ليكون دفاعهم عن سبيطلة في مواقع بعيدة عنها، هناك جمعوا جيشاً لا يقل عن ثلاثين ألف مقاتل، وتواقع الفريقان خارج أسوار المدينة، ولم يلبثوا أن رجحت كفة المسلمين على الروم، فدخلوا المدينة منهزمين وتحصنوا وراء أسوارها، وحاول المسلمون اقتحامها عليهم فلم يقدروا، وجرح عامتهم واستشهد كثير منهم فتركوها.

ولكن ما يعلم جنود ربك إلا هو فبينما هم راجعون منها إذ بأحد أسوار المدينة قد انهدم وسقط دون أي عامل بشري، الله أكبر فتحت جلولا، فرجع معاوية بجيشه المبارك مسارعين ودخلوا المدينة عنوة، وفر منها من نجا من القتل والأسر، وغنموا كل ما حوته المدينة وكانت هذه الغنيمة من أكبر غنائم إفريقيا في الفتح الإسلامي[1].

---

(١) راجع : الفتح العربي في ليبيا : ٩٩ .

ثم واصل معاوية حملته المباركة للسيطرة على مفاصل إفريقية، فقد بث السرايا في البلاد، وبعث عبد الله بن الزبير إلى مدينةسوسة البحرية التي ما استطاعت مقاومة قوات ابن الزبير ففتحها وثبت فيها دعائم الإسلام، وهكذا واصل معاوية - رضي الله عنه - عمله الاستراتيجي الذي يهدف إلى السيطرة على المدن الحيوية والاستراتيجية التي تعتبر مفاصل إفريقية، فبعث رويفع بن ثابت الأنصاري - رضي الله عنه - إلى مدينة جربة الاستراتيجية ففتحها.

وبعد أن استتب الأمن في إفريقية اتجه معاوية - رضي الله عنه - إلى جبل القرن الذي يسمى اليوم بجبل وسلات، واتخذ منه مقراً لقيادته لمنطقة إفريقية، وبنى بتلك الناحية مساكن سماها قيروان، واحتفر بها آباراً تسمى باسمه (آبار حديج)، وأقام في هذا الجبل قرابة ثلاث سنين.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (واستقر معاوية في جبل القرن وجعله مقراً له، فبقي هناك ثلاث سنين، فبنى بناحية القرن مساكن سماها : قيروان، واحتفر بها آباراً تسمى آبار حديج،، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلى الجنائز)[١].

وأخيراً : عاد معاوية بن حديج - رضي الله عنه - بعد ذلك إلى مصر بناءً على أمر من خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - بعد أن قام بتثبيت دعائم الإسلام في المنطقة، وأسس القواعد الأولى لفتح أوروبا وتبليغ دعوة الإسلام إليها. وهكذا سطر التاريخ لمعاوية - رضي الله عنه - بماء الذهب تلك الآثار الطيبة في الشمال الإفريقي، فاللهم ارضَ عنه وأدخله فسيح جنتك آمين.

---

(١) قادة فتح المغرب العربي : ١/٨٠ .

المبحث الثاني : معاوية بن حُدَيج في سطور

المطلب الأول : اسمه، نسبه، ووفاته

اسمه ونسبه : معاوية بن حديج بن جفنة بن قَتِيرة بن حارثة بن عبد شمس بن معاوية بن جعفر بن أسامة بن سعد بن أشرس بن شبيب بن السكون السكوني، يكنى : أبا نعيم، وقيل : أبا عبد الرحمن.

وقيل : إنه من خولان وليس بشيء والصحيح أنه سكوني، أما قولهم إنه سكوني، وقيل : تجيبي، وقيل : كندي، فمن يرى هذا يظنه متناقضاً، والحقيقة : أن السكوني من كندة، وولد السكون شبيباً، فولد شبيب أشرس، فولد أشرس عدياً وسعداً وأمهما : تجيب بها يعرف أولادهما، فكل تجيبي سكوني، وكل سكوني كندي، فمن نسبه إلى جده الأقرب قال : وكلاهما صواب، وأمه كبشة بنت معدي كرب الشاعرة.

صحب النبي ﷺ وروى عنه حديث : «إن كان في شيء شفاء فشربة عسل، أو شرطة محجم، أو كية بنار، وما أحب أن أكتوى» إسناده صحيح، وهاجر إلى أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – ووفد على عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – والظاهر أنه كان صغيراً على عهد النبي ﷺ فلم يشهد غزواته لذلك نال معاوية شرف الصحبة وما أعظمه من شرف ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ﷺ[1].

وفاته : وفي سنة خمسين الهجرية عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج – رضي الله عنهما – عن إفريقية وأقره على ولاية مصر، ووجه إلى إفريقية عقبة بن نافع الفهري، ثم عزله عن مصر سنة إحدى وخمسين الهجرية، فمات بها سنة اثنتين

---

(١) راجع : المرجع السابق : ٧٦/١ .

(٢) المرجع السابق : ٨٧/١ .

وخمسين الهجرية ٦٧٢[٢].

المطلب الثاني : مناقبه – رضي الله عنه –

لا يخفى أن معاوية بن حديج – رضي الله عنه – قد صاحب عمرو بن العاص – رضي الله عنه – في فتوحاته لأرض مصر والإسكندرية، وكان محل ثقته، وأهل مشورته ورسوله الخاص لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – لذلك كان محل ثقة عمر بن الخطاب كذلك، وهذا إن دل فإنما يدل على أن معاوية بن حديج كان من الشخصيات القيادية الهامة صاحبة المؤهلات الجهادية والقيادية في جيش عمرو بن العاص، لذا سنحاول أن نتناول بإيجاز معالم هذه الشخصية، ومناقبها الجهادية، وعقليتها العسكرية.

١ – جهاده في مصر والنوبة :

أ – شهد ابن حديج فتح مصر مع عمرو بن العاص، وكان رسوله إلى عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – بفتح مصر والإسكندرية، وقد ذكر معاوية بن حديج قصة وفادته إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية فقال : (بعثني عمرو بن العاص إلى عمر ابن الخطاب بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة المنورة في الظهيرة.. فلما دخلت فإذا عمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى، فقال : ما عندك؟ قلت : خير يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية...).

ولا يخفى أن إيفاد معاوية بشيراً بالفتح، دليل على ثقة عمرو به واعتماده عليه وأنه كان شخصية، لامعاً – في جيش المسلمين الذي فتح مصر– في جهاده وعقله ومنطقه وتصرفه، كما أنه يكون دليلاً على أنه كان مقبولاً من عمر بن الخطاب، إذ لا يمكن أن يبعثه عمرو دون أن يكون موضع ثقة عمر وتقديره.

ب – وفي سنة إحدى وثلاثين والهجرية شهد ابن حديج فتح النوبة تحت لواء

عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فذهبت عينه يوم دنقلة من بلاد النوبة فأصبح أعوراً، وياله من وسام جهادي يقابل به الله يوم لا ينفع مال ولا بنون[1].

٢ – جهاده في إفريقية :

غزا ابن حديج إفريقية ثلاث مرات، الأولى : سنة أربع وثلاثين الهجرية في خلافة عثمان بن عفان، حيث كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح والياً على مصر، وكان معه جماعة من المهاجرين والأنصار، ففتح مناطق شاسعة وغنم غنائم عظمية واتخذ قيرواناً عند القرن، ولم يزل فيها حتى خرج إلى مصر.

وغزا معاوية إفريقية سنة إحدى وأربعين الهجرية، ففتح مدينة بنزرت، وكان معه عبد الملك بن مروان، ولما سمع الروم بما أعطى البربر من أموال لعبد الله بن سعد بن أبي السرح، ولمعاوية بن حديج، أجبروا البربر في إفريقية على أن يعطوهم مثل ذلك فاعتذروا لأن ذلك ليس في طاقتهم، ولأنهم كرهوا معاملة الروم واستعبادهم وظلمهم لهم، فوقع القتال بين خليفة جرجير ملك إفريقية، وبين القائد الرومي، فهزم هذا القائد خليفة جرجير، ففر إلى الشام واتصل هناك بمعاوية بن أبي سفيان وزين له فتح إفريقية واصفاً خيراتها وثرواتها، ودله على عورات الروم، فبعث معاوية بن حديج لفتحها فغزاها سنة خمس وأربعين الهجرية.

فقد وجهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل، معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وجماعة من الصحابة والتابعين من بينهم عبد الملك ابن مروان، ومضى معاوية حتى وصل إلى إفريقية وكانت تضطرم ناراً، فنزل بجيشه على قمونية وهي قيروان إفريقية، وكان عامل جرجير هو ملك سبيطلة على رأس ثلاثين ألف مقاتل كان القيصر قد وجههم من القسطنطينية في البحر لمدافعة المسلمين

---

(١) راجع المرجع السابق : ١/٧٨ .

عن إفريقية فلم تغن قوات الروم شيئاً، إذ قاتله معاوية فهزمهم عن حصن (الأجم)، ثم بث السرايا في البلاد، وبعث عبد الله بن الزبير إلى (سوسة) ففتحها، وبعث رويفع بن ثابت الأنصاري بحراً إلى جربة ففتحها، ثم عاد أدراجه إلى طرابلس الغرب التي كان أميراً عليها، وبعث عبد الملك بن مروان إلى جلولاء ففتحها.

واستقر معاوية في جبل (القرن) وجعله مقراً له، فبقي هناك ثلاث سنين، فبنى بناحية القرن مساكن سماها قيروان، واحتفر بها آباراً تسمى آبار حديج، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلى الجنائز.

إنه غزا إفريقية مراراً كثيرة كان آخرها سنة خمسين الهجرية ولكن المؤرخين اقتصرو على ثلاث غزوات منها، وهي أهم غزواته على ما يظهر، وعاد معاوية بعد ذلك إلى مصر بعد أن خلد آثاراً حسنة في إفريقية، وهو الذي بعث عقبة بن نافع سنة خمسين الهجرية لغزو إفريقية[1].

٣ – جهاده في البحر :

أ – كان معاوية بن حديج أول من غزا جزيرة (صقلية) إذ بعث إليها عبد الله بن قيس، فأصاب أصناماً وفضة مكللة بجوهر، وقد وجه معاوية جيشه هذا في مئتي مركب، وكان ذلك سنة ست وثلاثين الهجرية.

ب – وفي سنة تسع وأربعين الهجرية وجه معاوية عقبة بن نافع الفهري في البحر لغزو الروم بأهل مصر[2].

---

(١) المرجع السابق : ٨١/١ .

(٢) المرج السابق : ٨٢/١ .

المطلب الثالث : أهم صفاته القيادية

إن معاوية كان من الأبطال الصناديد، ومن الدهاة المحنكين، ومن رجالات الفتوح الكبار، وكان من ضباط أركان عمرو بن العاص في فتح مصر، ومن ضباط أركان عبد الله بن سعد بن أبي السرح في إفريقية والنوبة، فلما تولي القيادة كان خبيراً بالمغرب، عارفاً لشؤونه وطبيعة أرضه، ونقاط الضعف في أهله، وخبرة معاوية هذه سهلت له فتح كثير من بلاد المغرب.

والذي يتتبع قصة جهاده بإمعان، يجد أن معاوية كان يهوى الجهاد، فكان يفضل دائماً أن يكون غازياً في ساحات الوغى على أن يكون والياً في باحات القصور.

لقد كان جندياً بالطبع، وكان من أسود المسلمين، سألت عائشة أم المؤمنين يوماً رجاله فقالت : (وكيف كان أميركم في غزاتكم؟) تعني معاوية بن حديج، فقالوا : (ما نقمنا عليه شيئاً) وأثنوا عليه خيراً، وقالوا : (إن هلك بعير أخلف بعيراً، وإن هلك فرس أخلف فرساً، وإن أبق خادم أخلف خادماً) فقالت : (أستغفر الله! إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخي، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول :اللهم من رفق بأمتي فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه). وهذا دليل على سهره على مصالح رجاله وحرصه على راحتهم وإرضائهم وإعطائهم ما يستحقون.

لقد كان معاوية شجاعاً مقداماً ذا شخصية قوية نافذة، له قابلية ممتازة على إعطاء القرارات الصائبة، يتحمل المسؤولية ولا يتهرب منها، ذا إرادة قوية ثابتة، يعرف مبادئ الحرب ويطبقها، ويعرف نفسيات رجاله وقابليتهم، يثقون به ويبادلونه حباً بحب وتقديراً بتقدير، له تجربة طويلة في الحرب وماضي ناصع في الجهاد، لقد كان معاوية قائداً ممتازاً، قضى حياته كلها مجاهداً في سبيل الله في البر والبحر على حد سواء.

إن التاريخ يذكر له أنه نشر الإسلام بين عدد لا يحصى من البربر، ونشر لغة

القرآن بينهم، ويذكر له أنه فتح بلاداً شاسعة من شمال إفريقية في تونس، والجزائر، والمغرب، ويذكر له أنه أول من غزا صقلية، فمهد للمسلمين فتحها بعد ذلك، ويذكر له أنه كان قائد القادة من الصحابة والتابعين، رضي الله عن الصحابي الجليل، الإداري الحازم، أمير البحر، وقائد البر، معاوية بن حديج السكوني[1].

---

(١) المرجع السابق : ١/٨٨ - ٨٩ .
من أراد الاستزادة من ترجمة معاوية بن حديج : الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، طبقات ابن سعد، معالم الإيمان لعبد الرحمن الأنصاري، فتح مصر والمغرب لابن الحكم، النجوم الزاهرة لابن تغرى بردي.

الفصل الخامس

عقبة بن نافع قائد فتح الشمال الإفريقي

توطئة :

لا يخفى أن عقبة بن نافع كانت له علاقة قديمة وطويلة ببرقة وطرابلس وإفريقية، الشمال الإفريقي عموماً، مما أكسبه خبرة جيدة بطبيعة البلاد، ومعرفة عادات ونفوس العباد، مما جعله في قائمة المرشحين عند أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – لقيادة الحملة الأخيرة لفتح إفريقية.

المبحث الأول : بداية الفتح المبارك

لقد تقدم – فيما سبق – أن عقبة بن نافع كانت له خبرة بمناطق الشمال الإفريقي إجمالاً، حيث قد أرسله عمرو بن العاص إلى زويلة سنة ٢٢هـ ففتحها، ثم عينه والياً على إفريقية بعد رجوعه إلى مصر، وبتلك الخبرة والخلفية سار عقبة إلى إفريقية في جيش رهيب ومهيب، وكانت بداية مسيرة هذه الجحافل المباركة برقة لأنه كان مقيماً فيها، ثم سار حتى وصل سرت حيث أقام الجيش فيها فترة من الزمان وتوجه خلالها عقبة إلى بلاد ودان، وجرمة، وفزان ففتحها ونشر فيها تعاليم الإسلام.

يقول الدكتور صالح مصطفى : (من المرجح أن عقبة بن نافع قد خرج إلى إفريقية سنة ٤٩هـ / ٦٦٩م كما يذكر ابن عذارى أو في أوائلها ولا سيما أنه قد خرج بعد معاوية بن حديج كما يذكر ابن عبد الحكم، وكان مع عقبة بن نافع في هذه الغزوة بسر بن أبي أرطاة وشريك بن سمى المرادي، وتقدم عقبة بن نافع بقواته إلى أن وصل مغمداش من سرت - وكان بسر بن أبي أرطأة، قد توجه إليها قبل ذلك سنة ٢٦هـ / ٦٤٦م من سرت - فلما وصل عقبة إلى هذه المدينة علم بأن أهل ودان قد نقضوا العهد الذي سبق وأن عقدوه مع بشر بن أبي أرطأة في سنة ٢٣هـ زمن عمرو ابن العاص.

فما كان منه إلا أن ترك جيشه واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي، وزهير ابن قيس البلوي وسار بنفسه وبمن خف معه، حتى قدم ودان فافتتحها، وجدع أذن ملكهم أدباً له، وأخذ منهم ما كان بسر بن أبي أرطأة قد فرضه عليهم وهي ٣٦٠ رأساً ثم واصل سيره إلى مدينة جرمة ولما دنا منها وكان آخرها قصور خاوار، جنوبي فزان، فعندما وصله عقبة، امتنع عليه ولم يتمكن من فتحه وظل محاصراً له شهراً، ثم تخلى عنه متجهاً إلى قصور كوار، وقطع أصبع ملكهم أدباً له وحتى لاتسول إليه نفسه أن يحارب العرب - المسلمين - مرة أخرى وفرض عليهم ٣٦٠ عبداً.

ثم رجع إلى أهل خاوار، حتى تجاوزهم، متظاهراً أنه لن يفتح هذا القصر، حتى اطمأن أهله فرجع عليهم وتمكن من فتحه، ومن هناك انصرف راجعاً حتى وصل إلى موضع زويلة اليوم، قاصداً جيشه الذي غاب عنه خمسة أشهر تحت إمرة عمر بن علي القرشي، وزهير بن قيس البلوي)[1].

وهكذا بعد هذه المسحة العسكرية لمناطق ليبيا والتي استغرقت من عقبة ومن معه

---

(١) ليبيا من الفتح العربي ص : (٥١، ٥٢).

حوالي نصف سنة، رجع بعدها إلى جيشه المرابط في مدينة سرت، ثم سار به إلى ناحية الغرب، وجنوب غرب ليبيا حيث افتتح بلاد مزاتة، وأرسل بعدها سراياه إلى غدامس وقفصة، وسبيطلة ففتحوها.

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي في ذلك : (وواصل – عقبة – سيره حتى وصل إلى معسكره بمغمداس بأرض سرت بعد أن غاب عنهم خمسة أشهر. ولم يلبث عقبة أن توجه إلى إفريقية، واتخذ له طريقاً غير الطريق الساحلي جنوبي جبل نفوسه، وأرسل خيلاً إلى غدامس ففتحها، وواصل سيره إلى إفريقية[1].

المبحث الثاني : تأسيس أول مدينة إسلامية في الشمال الإفريقي

وهكذا واصل عقبة بن نافع سيره حتى وصل القيروان، وهناك رأى ضرورة إنشاء قاعدة أمنية للمسلمين تكون لهم مقراً ينطلقون منه لقتال أعداء الإسلام وملجأ للراحة والتقاط الأنفاس، وترتيب الأمور، إلا أنه لم يعجبه المكان الذي اختاره معاوية ابن حديج من الناحية العسكرية الأمنية، فقرر المسير إلى موضع مناسب عسكرياً، وأمنياً، واقتصادياً، فكان ذلك الموضع المختار مدينة القيروان الحالية، التي كانت تسكنها الحيوانات المفترسة، والوحوش الضارية آنذاك، حتى استنكر عليه بعض من رجاله في اختياره ذلك المكان الموحش!!

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (إن رجاله قالوا له : إنك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض لا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ وسائر ذلك تابعون، فدعا الله عز وجل وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه.

---

(١) تاريخ قادة فتح المغرب العربي، ص : (١٠٤/١).

ومضى إلى السبخة وواديها ونادى : (أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارتحلوا عنا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه) ونظر الناس بعد ذلك إلى أمر معجب، من أن السباع تخرج من الشعاب تحمل أشبالها، والذئب يحمل جروه، والحيات تحمل أولادها، ونادى في الناس : (كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا). فلما خرج ما فيها من الوحوش والهوام، وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشجر)[1].

فلما فرغ عقبة بن نافع من تشييد أول صرح إسلامي في الشمال الإفريقي، أردفه بمسجد كبير جعله منارة للعلم، وقبلة لطلاب العلوم الإسلامية، وملتقى للدعاة والعلماء المجاهدين، وكان ذلك سنة ٥٥هـ، وبعد ذلك تفرغ أكثر لفتح ما بعد القيروان من مدن المغرب العربي، ومطارددة فلول الروم والبربر الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وسوف نتناول هذه الفتوحات في المباحث القادمة إن شاء الله بشيء من التفصيل.

المبحث الثالث : فاتح المغرب في سطور

المطلب الأول : اسمه، ونسبه، ومولده، ونشأته

اسمه ونسبه : هو عقبة بن عبد القيس بن لقيط بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث بن فهر القرشي أبوه : نافع بن عبد القيس الفهري أسلم وكان مع عمرو بن العاص في فتح مصر، وبعثه عمرو إلى برقة، وقد بقي إلى خلافة عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وأمه سبية من (عنزة) اسمها النابغة : فهو أخو عمرو بن العاص لأمه، وفي رواية أنه ابن خالة عمرو بن العاص، وفي رواية : أن عمرو بن العاص خاله، وفي رواية أنه ابن أخ العاص ابن وائل السهمي لأمه، وعلى كل فعقبة من أقرباء عمرو بن

---

(١) تاريخ قادة فتح المغرب العربي : ١/١٠٤.

العاص من جهة الأم أولاً، ومن جهة الأب أيضاً على اعتبار أنهما من قريش.

مولده ونشأته : ولد عقبة قبل الهجرة بسنة واحدة، لذا فقد كانت نشأته في بيئة إسلامية خالصة، ذات طابع عسكري بحت، فحمل سلاحه مجاهداً في العصر الذهبي للفتح الإسلامي الخالد، وبرز في ساحات القتال متحملاً قسطه الأوفى من الجهاد بحرص واندفاع وتجرد وإقدام فقد ولد على عهد رسول الله ﷺ ولا تصح له صحبة، ويقال له صحبة وعلى كل حال فهو صحابي بالمولد وهو آخر من ولي المغرب من الصحابة، وقد تولى منصب القيادة في أيام عمر بن الخطاب الذي لا يولي إلا الصحابة ولا يرضى أبداً أن يعمل صحابي تحت قيادة غير صحابي.

لقد تهيأ الجو المناسب والظروف المناسبة والبيئة المناسبة لعقبة، فاجتمع في تكوينه : الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، ليكون قائداً من ألمع قادة الفتح الإسلامي على الإطلاق خاصة في مناطق المغرب العربي[(١)].

المطلب الثاني : استشهاده

رجع عقبة إلى القيروان، فلما انتهى إلى ثغر إفريقية وهي طبنة أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموا القيروان أفواجاً ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه ومال عقبة بخيل يسيرة يريد (تهوذة) وكان معه حوالي ثلاثمائة فارس، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا الحصن وشتموه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منه وبعث الروم إلى (كسيلة) الذي كان في عسكر عقبة مضمراً الغدر، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة، فقال أبو المهاجر : عاجله قبل أن يقوى جمعه، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة،

---

(١) المرجع السابق : ١/٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤ .

فزحف عقبة على كسيلة، فتنحى كسيلة عن الطريق ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا وأتـرك مشـدوداً علـيَّ وثاقـيـا

إذا قمت عناني الحديـد وأغلقـت مصارع دونـي قد تصـم المنـاديـا

فبلغ عقبة ذلك، فأطلقه وقال له : الحق بالقيروان بالمسلمين وقم بأمرهم، وأنا أغتنم الشهادة. فلم يفعل وقال : وأنا أيضاً أريد الشهادة وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبة، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بتهوذة.

وهكذا كان استشهاد عقبة بن نافع - رضي الله عنه - سنة ثلاث وستين الهجرية ٦٨٣م في معركة تهوذة، وكان مولده قبل الهجرة بسنة واحدة كما أسلفنا ٦٢١م، وقبره يزار بالزاب كما أن أجداث الصحابة الشهداء الذين استشهدوا معه بمكانهم من أرض الزاب يزارون لهذا العهد، وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت، واتخد على المكان مسجد عرف باسم عقبةوهو في عداد المزارات[1].

ولا ريب أن ما أحدثه هؤلاء المعاصرون على قبور أولئك المجاهدين من الصحابة يعتبر انحرافاً واضحاً عن عقيدة عقبة وأصحابه - رضوان الله عليهم - التي من أجلها أتوا من الجزيرة العربية إلى إفريقيا وقاتلوا وقتلوا فيها لأنه كما لا يخفى أن أصل انحراف الأمم السالفة كان مرده إلى الغلو في صالحيهم، فقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة أن أم سلمة - رضي الله عنهما - ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها وما فيها من الصور، فقال ﷺ : (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله).

(١) المرجع السابق : ١/١١١ - ١١٢ .

ويقول الإمام ابن القيم – رحمه الله – بهذا الصدد : (وهذه الأصنام كانت قبور ناس صالحين لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، ومازال الشيطان يوحي إلى عباد القبور، ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم نقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها، والإقسام على الله بها، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويحج إليه ويذبح عنده، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم وكل هذا مما قد علم بالضرورة من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث به رسول الله ﷺ[1].

المبحث الرابع : مناقبه – رضي الله عنه –

إن عقبة بن نافع – رضي الله عنه – قد تولى مناصب قيادية جهادية في أيام عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وصاحب في تلك المناصب القيادية قادة أجلاء أمثال القائد البارع عمرو بن العاص – رضي الله عنه – في فتوحاته لأرض مصر وطرابلس، وكذلك صاحب عبد الله بن أبي السرح، ومعاوية بن حديج في معاركهم في إفريقية، وأخيراً قاد زمام المعارك والفتوحات في الشمال الإفريقي بنفسه، فجعله الله سبحانه وتعالى سبباً مباشراً في تثبيت دعائم الإسلام في تلك المناطق، فهل يا ترى يعرف أبناء هذه الشعوب (مصر، وليبيا، والسودان، وتونس، والمغرب، وموريتانيا)

---

(١) فتح المجيد : ١٨٦ .

فضائل هذه القائد المبارك الذي بذل روحه وكل ما يملكه من أجل إيصال دعوة الإسلامة إليهم؟!! لذا نحاول أن نتناول بإيجاز ذكر بعض مناقبه وعملياته الجهادية، وميسرته الدعوية، وصفاته القيادية.

المطلب الأول : جهاده في مصر وليبيا والنوبة

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب :

أ – شهد عقبة فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص واختط بها أول صرح إسلامي في الشمال الإفريقي كما أسلفنا، فاكتسب عقبة من معارك فتح مصر ومن أساليب عمرو بن العاص في إدارة القتال خبرة عملية وبرزت مواهبه القيادية بصورة مبكرة حينذاك.

ب – بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش من المسلمين إلى (زويلة) ففتحها صلحاً وصار ما بين برقة و(زويلة) سلماً للمسلمين، وكان ذلك سنة إحدى وعشرين الهجرية وقد كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه : أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب، فبلغ (زويلة)، وأن من بين (زويلة) و(برقة) سلم كلهم حسنة طاعتهم، وقد أدى مسلمهم الصدقة، وأقر معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل (زويلة) ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها في الفقراءو ويأخذوا الجزية من الذمة فتحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر ونصف العشر ومن أهل الصلح صلحهم.

ج – وفي هذه السنة، أي سنة إحدى وعشرين الهجرية، بعثه عمرو إلى (النوبة) فلقي المسلمون من (النوبة) قتالاً شديداً، ثم انصرف المسلمون من (النوبة)، وبذلك كان عقبة أول من مهد لفتح (النوبة) من المسلمين.

د – لقد قدر عمرو بن العاص أهمية الحدود الغربية والجنوبية لمصر، لذلك بعث عقبة إلى (زويلة) وسار هو إلى (ليبيا) وبعث عقبة إلى (النوبة) وبذلك كان لعقبة فضل كبير على تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر.

هـ – وحين كان عمرو بن العاص على مصر، كان عقبة على رأس المسلمين في حامية (برقة) وعزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر سنة خمس وعشرين وعقد عثمان لعبد الله بن سعد بن أبي السرح على مصر كلها مضافاً (للصعيد) وغيره فأقر ابن أبي السرح عقبة على منصبه قائداً لحامية (برقة).

و – سار عبد الله بن سعد بن أبي السرح بجيشه البالغ تعداده عشرين ألفاً، سنة ست وعشرين الهجرية، فلما وصلوا إلى (برقة) لقيهم عقبة فيمن معه من المسلمين الذين كانوا حامية هناك، فساروا جميعاً إلى (طرابلس) الغرب فقاتلوا من عندها من الروم وشهد عقبة فتوحات ابن أبي السرح في إفريقية، وأبلى في جهاده تحت راية ابن أبي السرح أعظم البلاء.

ز – لقد كان عقبة على رأس حامية (برقة)، يحمي الحدود الغربية لمصر، فلا يدع الروم يهاجمون مصر من اتجاه ليبيا، وقد حافظ على تلك المنطقة حتى في أخطر الظروف والأحوال.

كما أنه حمى (برقة) من الروم، فأصبحت تلك المنطقة القاعدة المتقدمة للمسلمين التي ينطلقون منها إلى فتح (إفريقية) لذلك كان عقبة قد قدم فائدة عظيمة للمسلمين من الناحية العسكرية.

المطلب الثاني : جهاده في البحر

أ – بقي عقبة في (برقة) بعد ابن أبي السرح أيضاً في أيام معاوية بن حديج

السكوني، وفي سنة تسع وثلاثين الهجرية غزا عقبة الروم في البحر بأهل مصر.

ب - وفي سنة تسع وأربعين الهجرية في أيام معاوية بن حديج السكوني غزا عقبة الروم في البحر، فشتا هناك بأهل مصر.

المطلب الثالث : جهاده من ليبيا إلى القيروان

الفتح : بقي عقبة في (برقة) بعد عثمان بن عفان وفي أيام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وفي سنة إحدى وأربعين الهجرية، استعمل عمرو بن العاص عقبة على (إفريقية) فانتهى إلى (لواتة)، وكانوا قد صولحوا على صلحهم حتى نقضوا ذلك زمن معاوية بن أبي سفيان، فغزاها عقبة فتنحوا ناحية (طرابلس)، فقاتلهم عقبة حتى هزمهم، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم، فأبى عليهم وقال : إنه ليس لمشرك عهد عندنا، إن الله عز وجل يقول في كتابه : ﴿**كيف يكون للمشركين عهد**﴾! ولكن أبايعكم على أنكم توفوني ذمتي، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بايعناكم وعقد عمرو لعقبة على (هوارة) فأطاعوا هم و(لواتة) ثم كفروا، فغزاهم عقبة من سنته فقتل وسبى، وفي سنة اثنتين وأربعين الهجرية افتتح عقبة (غدامس) وقتل وسبى.

وفي سنة ثلاث وأربعين الهجرية افتتح (ودان) ثانية وهي من (برقة) وذلك سنة ست وأربعين الهجرية، فقد خرج عقبة في هذه السنة حتى نزل (مغداش) من (سرت) وكانت ودان نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بسر بن أبي أرطأة سنة ثلاث وعشرين الهجرية، فترك عقبة جيشه في مغداش في أرض سرت، واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي، وزهير بن قيس البلوي، وسار إلى ودان في أربعمائة فارس وأربعمائة جمل، وثمانمائة قربة ماء : على كل جمل قربتان لحمل الماء فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان، وعدم الطاعة، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلداً بلداً...

ولما استتب الأمر لعقبة في بلاد (ودان) سأل عقبة أهلها : هل من ورائكم من أحد؟ فقيل له : جرمة، فسار إليها ثماني ليال من ودان، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا فنزل منها على ستة أميال، وخرج ملكهم يريد عقبة، فأرسل عقبة خيلاً فحالت بين ملكهم وبين موكبه، فأمشوه راجلاً حتى أتى عقبة وقد لغب، وكان ناعماً، فجعل يبصق الدم، فقال له : لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعاً؟! فقال عقبة : أدباً لك إذا ذكرته لم تحارب المسلمين، وفرض عليه ثلاثمائة وستين عبداً.

ومضى من فوره لإنجاز فتح بلاد (فزان) حتى أتى على آخرها، ونشر الإسلام في ربوعها، وهذه أول مرة دخل فيها المسلمون بلاد فزان فاتحين، وسأل عقبة أهل فزان هل من ورائكم أحد؟ فقالوا : أهل خاور، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل وهو قصبة كاوار فسار إليه خمس عشرة ليلة، فلما وصل إليه دعا أهله إلى الإسلام فأبوا، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصنهم فحاربهم وأقام عليه وحاصرهم شهراً دون جدوى، وتقدم بجيشه جنوباً لفتح بقية بلاد كاوار، ففتحها حتى أتى على آخرها وقبض على ملكهم وقطع إصبعه، فقال : لم فعلت هذا بي؟ فقال عقبة : أدباً لك إذا أنت نظرت إلى إصبعك لم تحارب المسلمين، ثم فرض عليهم ثلاثمائة وستين عبداً...

ولقد أقدم عقبة على التغلغل في الصحراء بقوات قليلة خفيفة، لأن الحركة في الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة لقلة المياه فيها ولأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال في مثل هذا الميدان، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التي تتوفر فيها المياه والقضايا الإدارية الأخرى، فليس أمام عقبة غير قوات سكان الصحراء الأصليين، هؤلاء قليلون يمكن التغلب عليهم بقوات خفيفة قليلة كما فعل عقبة... ذلك ما حدا بعقبة على الإقدم لفتح تلك المناطق الصحراوية بقوات خفيفة منتخبة، وفعلاً أنجز واجبه وحقق هدفه في الفتح الصحراوي بسهولة ويسر.

وسار عقبة بجيشه إلى المغرب، وجانب الطريق الأعظم وأخذ إلى أرض (هوارة)، فافتتح كل قصر بها، ومضى إلى (صفر)، فافتتح قلاعها وقصورها، ثم بعث خيلاً إلى (غدامس) فاستعاد فتحها ثانية، والظاهر أنها نقضت عهدها بعد فتحها الأول، فاضطر عقبة إلى فتحها ثانية وتوجه إلى (قفصة) فافتتحها، ثم افتتح (قسطيلة) ثم انصرف إلى القيروان.

لقد طهر عقبة بهذا الفتح كل المقاومات المعادية بين (برقة) و(القيروان)، فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين، حَرِية أن تكون قاعدة رصينة تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي.

المطلب الرابع : تأسيسه أول مدينة إسلامية في الشمال الإفريقي

وأخيراً قد واصل عقبة بن نافع – رضي الله عنه – حملته الطويلة والشاقة في تلك الصحاري الحارة، التي قد بذل فيها الغالي والنفيس من إجل إخراج أهالي تلك المناطق من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام يبتغي بذلك وجه الله سبحانه.

أقول : لقد وصل هذا البطل أخيراً إلى القيروان القديم الذي كان في مدينة قمونية حيث بناه معاوية بن حديج – رضي الله عنه – فلما نظر إلى الموقع من الناحية الاستراتيجية، لم يعجبه اختيار هذا الموقع الذي كان يقع في الوسط الشرقي لإفريقية حيث لم يكن ضارباً في الجهة الشمالية فيكون في منعة جبلية، ولا ضارباً في الجهة الجنوبية فيكون في منعة رملية!!

لذا قرر هذا القائد صاحب النظرة الاستراتيجية بأن يختار موقعاً استراتيجياً بأبعاده الأمنية والدعوية، بحيث يكون دار منعة وعزة للمسلمين وأهلهم، وقاعدة حربية لغزو القواعد الصليبية في عقر دارها، ويكون قاعدة علمية وفقهية جهادية

حركية لتوريث الدين القيم لمن أسلم من أبناء الشمال الإفريقي أو الجنوب الأوروبي، وتثبيت دعائمه حتى لا ترتد أهالي هذه المناطق لجهلهم بالدين وتعاليمه.

فكان له خططه، فقد وقع اختياره على مدينة القيروان الحالية التي تقع قريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث يمكنه رصد الأعداء الصليبيين ومطاردتهم، ثم قربها إلى ناحية الأرض بها سبخة حيث يوجد بها كميات كبيرة من الأعشاب والأشجار التي تأكلها الإبل، وبهذا يكون قد أمن القضية الغذائية.

يذكر الأستاذ محمود شيت خطاب قول عقبة لرجاله : (إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر)، فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين قرب البحر ليتم لهم الجهاد والرباط.

وقال لعقبة بعض أصحابه : قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين، فقال لهم : إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل، فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل، فيخرج، فيقيم في غارته وإلى نصف النهار، فلا تدركها منه غارة أبداً، فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير، فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهم حرس لهم، وهم عسكر معقود إلى آخر الدهر، وميتهم في الجنة.

فاتفق رأيهم على ذلك فقال : قربوها من السبخة، فقالوا : إنا نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء، وحرها في الصيف، فقال : لا بد لي من ذلك، لأن أكثر دوابكم من الإبل وهي التي تحمل عسكرنا، والبربر قد تنصروا وأجابوا النصارى إلى دينهم، ونحن إذ فرغنا من أمرها لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد، ونفتح الأول

منها فالأول، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غادرة البربر النصارى، فركب إلى موضع القيروان اليوم وكان غيضة كثير الأشجار مأوى الوحوش والحيات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه

وكان مع عقبة عشرة آلاف فارس، وانضاف إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه فأمر ببناء القيروان سنة خمسين الهجرية، وأنجز بناءها سنة خمس وخمسين الهجرية، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمائة باع، فأصبحت المدينة معسكراً للمسلمين وأهلهم وأموالهم يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد، فقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها، وكان عقبة في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتنهب، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين ورسخ الدين، وصارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الإسلام في المغرب، وأصبحت القيروان القاعدة الأمنية للمسلمين في شمال إفريقية)[1].

المطلب الخامس : جهاده من القيروان إلى المحيط

وبعد أن أصبحت القيروان القاعدة الأمنية للمسلمين في شمال إفريقية، واطمأن عقبة بن نافع – رضي الله عنه – على الفتوحات التي أنجزها وفق الخطة الاستراتيجية المقررة لفتح الشمال الإفريقي، وحيث كانت بدايتها فتح برقة، وسرت شرقاً، وزويلة وغدامس جنوباً، ومروراً بطرابلس، وسبيطلة غرباً، وأخيراً وقوفاً بالقيروان قرن الشمال الإفريقي، حيث أسست أول مدنية إسلامية في المنطقة.

وهكذا جد السير بالقائد المبارك لتنفيذ الخطة المرسومة، فقد جهز الجيش،

---

(١) المرجع السابق : (١/١٠٥، ١٠٦).

واستخلف على المدينة زهير بن قيس البلوي – رضي الله عنه – إلا أن عقبة الرجل الشهيد – رضي الله عنه – قد أحس بأن هذه المعارك التي يريد أن يخوضها هي آخر عهده بدنيا الناس، لذلك رأى أن يجمع أهله وأولاده يلقي عليهم آخر نظرة، ويوصيهم وصية مودع، فقال لهم بعد أن جمعهم :

وصية مودع :

وهذا نص الوصية كما نقلها ابن عذارى : (فدعا بأولاده قبل مغادرته القيروان، وقال لهم : إني قد بعت نفسي من الله عز وجل، فلا أزال أجاهد من كفر بالله، ثم قال : يا بني أوصيكم ثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها، إياكم أن تملؤوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به اللبيب ويدلكم مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدين ذل بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم، وأعراضكم، وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله، وفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط، فهو أسلم لكم، من احتاط سلم ونجا فيمن نجا، ثم قال : عليكم سلام الله، وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا، ثم قال : اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك)[١].

يا خيل الله اركبي :

يقول الأستاذ خطاب : (وسار عقبة في عسكر عظيم حتى انتهى إلى مدينة (باغاية)، لا يدافعه أحد، والروم يهربون في طريقه يميناً وشمالاً، فحاصرها وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالاً شديداً، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلاً ذريعاً، وغنم منهم غنائم

---

(١) البيان المغرب : (٢٣/١).

كثيرة، واحتمى بها المنهزمون داخل أسوار المدينة، فكره المقام عليهم.

ورحل عقبة فنزل على تلمسان، وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم والبربر، فخرجوا إليه في جيش ضخم، والتحم القتال ووقع الصبر، حتى ظن المسلمون أنه الفناء، ولكنهم هاجموا الروم هجوماً عنيفاً حتى ألجؤوهم إلى الزاب، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب فقيل له : (أربة) وهي دار ملكهم، وكان حولها ثلاث مئة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى، وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم.

ورحل عقبة إلى (تاهرت) فاستغاث الروم بالبربر، فأجابوهم ونصروهم، فقام عقبة في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وقال : (أيها الناس، إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله تعالى عنهم وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحةو وأنتم اليوم في دار غربة، وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم عز وجل لا يسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعل بأسه على القوم المجرمين) والتقى المسلمون بأعدائهم وقاتلوهم قتالاً شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو، ولكنهم انتصروا أخيراً، فانهزمت الروم والبربر، وأخذهم بالسيف وكثر فيهم القتل، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

وسار عقبة حتى نزل على طنجة، فلقيه بطريق من الروم اسمه (يليان) فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه، وأراد عقبة فتح الأندلس، فقال له يليان : أتترك كفار

البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج، ويقطع البحر بينك وبين المدد؟! فقال عقبة : وأين كفار البربر؟ فقال : في بلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس، فقال عقبة : وما دينهم؟ فقال : ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حق، وإنما هم كالبهائم، وكانوا على دين المجوسية يومئذ، فتوجه عقبة، فنزل على مدينة وليلي بإزاء جبل (زرهون) وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين (سبو – ورغة) وهذه المدينة هي المسماة اليوم على لسان العامة بـ (قصر فرعون)، فافتتحها عقبة وغنم وسبى.

وانتهى عقبة إلى (السوس الأدنى) وهو مغرب طنجة، فقاتل جموع البربر الكثيرة وقتل منهم قتلاً ذريعاً، وبعث خيله في كل مكان هربوا إليه، ثم سار حتى وصل إلى السوس الأقصى، وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم، وسار عقبة حتى بلغ (مالبان)، ورأى البحر المحيط، فقال : (يا رب، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك، ثم قال : اللهم اشهد، إني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك)[1].

تأمل هذه العبارات المشحونة بحب الله ورسوله، وبزخم المعاني الجهادية، وبحرارة الشهادة، وحيوية عبودية الله سبحانه وتعالى وتوحيده، فقد استشهد قائدنا عقبة بن نافع – رضي الله عنه – بعدما قال هذه الكلمة التي تكتب بماء الذهب، وهو حينذاك ينظر إلى المحيط الهادي، وكان ذلك سنة ثلاث وستين الهجرية، ٦٨٣م في معركة تهوذة.

---

(١) المرجع السابق : (١/١١٠، ١١١).

المبحث الخامس : أهم صفاته القيادية

لقد كان عقبة بن نافع – رضي الله عنه – مثالاً في العبادة، والأخلاق، والورع، والشجاعة والحزم، والتخطيط، والتفكير الاستراتيجي، مما جعل أمراء المسلمين في عهود مختلفة لا يبغون عنه حولاً في تسلم مناصب حربية كبيرة جداً لقيادة أخطر المعارك في الشمال الإفريقي وغربه، فقد قاد حملة تأمينية على برقة لتأمين الحدود الغربية لمصر، وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب وأوائل عهد عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وقاد حملة على إفريقية في عهد عمرو بن العاص، وعلى طرابلس في عهد عبد الله بن أبي السرح، وبقي قائداً عليهما حتى عهد علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهم أجمعين – لذا سوف نتناول في شخصية عقبة بن نافع أهم صفاته القيادية ومبادئه العسكرية التي أسس بنيانها في معاركه الجهادية المباركة.

المطلب الأول : صفاته القيادية

لقد ذكر الأستاذ محمود شيت خطب أهم صفات عقبة – رضي الله عنه – القيادية حيث قال : (كان عقبة يؤمن أن رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره، والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه ومسألته التأييد والنصر والسلامة والظفر، وكان يؤمن أن النصر من الله جل ثناؤه، وكان يعتقد أن الانتصارات الإسلامية هي انتصارات عقيدة يحملها إلى العالم مؤمنون صادقون، ويذود عنها حماة قادرون، وكان يحب رجاله ويحبونه، ويثق بهم ويثقون به، وقد بلغت ثقتهم حداً جعلهم يعتقدون أنه مجاب الدعوة، فكان يتفقد أصحابه فيما يعود عليهم بالنفع، ويستزيد محسنهم بالتكرمة، ويغض الطرف عن مسيئهم في الأمور الطفيفة غير ذات

البال، ويستعتب مقصرهم بحسن الأدب استعتاب مستعتب له، غير مغتنم للزلة ولا معترض للعثرة ولا مستريح إلى كشف غامض للعورة)[١].

ويقول أيضاً : (كان ميمون النقيبة، كامل العقل، طويل التجربة، بعيد الصوت، بصيراً بتدبير الحرب ومواضعها، ومواضع الفرص والحيل والمكايدة، يحسن تعبئة أصحابه، ويدخل الأمن عليهم والخوف على عدوهم، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، وكان حسن السيرة عفيفاً صارماً متيقظاً سخياً... وكانت له قابلية على إصدار القرارات السريعة الصائبة، ذا إرادة قوية ثابتة، وشخصية رصنية متزنة، يتحمل مسؤوليته كاملة بلا تردد، له نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار يعرف نفسيات مرؤوسيهم وقابلياتهم، وله ماض ناصع مجيد)[٢].

المطلب الثاني : أهم مبادئه العسكرية الاستراتيجية

لا يخفى أن تفرغ عقبة بن نافع للعمل الجهادي، وما كان يتمتع به من صفاته القيادية، وكفايته ومقدرته العسكرية، مما جعله صاحب نظرية في المبادئ الاستراتيجية، كمبدأ المباغتة، وتحشيد القوات، والاقتصاد في المجهود، والالتفاف والمحافظة والمعنويات، والأساليب التعريضية، وإقامة المسالح، وتأمين خطوط المواصلات، وتذليل الأمور الإدارية، واستخدام القواعد الأمنية والاستخبارية، والاستطلاعية، كل ذلك كان يطبقه في أعماله الجهادية، وفتوحاته الإسلامية.

وينص اللواء الركن محمود شيت خطاب لما قررناه من مبادئ إستراتيجية في أعمال عقبة الجهادية وفتوحاته الإسلامية : (وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادئ

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب : (١/١٠٧).

(٢) المرجع السابق : (١/١٣٣).

الحرب، نجد أنه طبق مبدأ (المباغتة) في حروبه، وكانت حروبه (تعرضية)، يعمل على (تحشيد قوته) قبل المعركة، و(يقتصد بالمجهود) ويطبق مبدأ (الأمن) ويعمل على (إدامة المعنويات) ويذلل (الأمور الإدارية) كافة لقواته، يحسب لها أدق حساب، لقد كان عقبة من ألمع القادة الممتازين الذين برزوا في الصدر الأول من أيام الفتح الإسلامي)[١].

ويقول في موضع آخر : (وبدون مبالغة ولا تحيز، فإنه في خلال هذه الفترة القصيرة، قد حقق – عقبة – أعمالاً عسكرية باهرة بلغت حد الروعة والإعجاز، لقد انطلق بكل اندفاع وحماسة لتحقيق الآمال وأمانيه في فتح إفريقية من القيروان، حتى المحيط الأطلسي، وأنجز ذلك في وقت قد لا يصدقه العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحتة)[٢].

---

(١) المرجع السابق : (١٣٤/١).

(١) المرجع السابق : (١٣٤/١).

الفصل السادس

قادة فتح المغرب الأوسط والأقصى

المبحث الأول : أبو المهاجر دينار

لا ريب أن أبا المهاجر دينار ابن أبي دينار، قد كان من ضمن قيادات عقبة بن نافع الميدانية، التي قامت بحمل أعباء فتح المغرب الأدنى، والأوسط، والأقصى، مع عقبة بن نافع، وبعد أن عزل معاوية ابن أبي سفيان – رضي الله عنه – عقبة خلال ولايته على إفريقية سنة خمس وخمسين الهجرية، تم تعيين التابعي أبي المهاجر دينار ابن أبي دينار – رحمه الله – من قبل والي مصر مسلمة بن مخلَّد الأنصاري والياً على إفريقية، إلا أن معاوية خليفة المسلمين بعد برهة من الزمان أعاد عقبة حيث كان، وأصبح أبو المهاجر بعد ذلك جندي من جنود عقبة بن نافع في حملته المباركة على الشمال الإفريقي.

إذن من هو أبو المجاهد؟ وما هي أبرز معالمه في فترة ولايته وما بعدها؟ وما هي أهم صفاته القيادية؟ وكيف قضى نحبه؟ كل ذلك سوف نتناوله بشيء من الإيجاز في هذا المبحث وتلك المطالب.

المطلب الأول : جهاده في فترة ولايته

لا يخفى أن أبا المهاجر دينار بن أبي دينار كان يمتاز بمزايا عسكرية ميدانية عالية، وضبطاً إدارياً رفيع المستوى، وخبرة بطبيعة إفريقية كافية، مما جعلت مسلمة بن مخلد والي مصر يختاره لهذا المنصب الخطير، ويعقد له لواء الحملة.

ويقول اللواء الركن محمود شيت خطاب : (عقد مسلمة بن مخلد لأبي المهاجر على الجيش الذي خرج معه إلى إفريقية، وبعد إنجاز أبي المهاجر تدابيره الإدارية وإعداده خطط الفتح، سار بجيشه إلى قرطاجنة عاصمة الروم في شمال إفريقية، لأن الروم لا زالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة وأن هذا الساحل الخصب المتحضر هو مرتعهم ومواطنهم، فلا بد من تطهير تلك المناطق منهم ليتخلص المسلمون نهائياً من مستعمري إفريقية القدامى، وليحولوا بينهم وبين إشاعة التآمر والدس على الفتح الإسلامي.

ونازل أبو المهاجر (قرطاجنة)، فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر عليهم الحصار، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يحققوا هدفهم بفتح قرطاجنة، طلبوا الصلح، فصالحهم أبو المهاجر بإخلاء جزيرة شريك (شريك) التي كان الروم يتخذونها دوماً مثابة لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين، وذلك لكي يتخذها أبو المهاجر قاعدة أمامية لجنوده يرتكز في عملياته العسكرية عليها، وبهذا أثبت أبو المهاجر بأنه ينظر بعيداً من الناحية العسكرية، فيفضل المواقع السوقية (الاستراتيجية) التي تفيده في الفتح على المال الذي كان بإمكانه أن يفرضه على أهل قرطاجنة مقابل إقراره الصلح بين الطرفين.

وفي رواية : أن أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعاني – صنعاء الشام – إلى جزيرة شريك ففتحها، وكان هدف أبي المهاجر من فتح جزيرة شريك أن يراقب

الروم ويصدهم إذا هموا بالمسير إلى المسلمين بسهولة أثناء غزوه للبلاد، لأن بإمكان قوة الروم المرابطة في تلك المنطقة التي تهدد بسهولة ويسر خطوط المواصلات أبي المهاجر في حالة تغلغل قواته غرباً وجنوباً(١).

وسار أبو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعترض طريقه أحد، حتى وصل (ميلة) في الجنوب الشرقي لبجاية وتبعد عنها بحوالي خمسين ميلاً، فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم فقد تحصنوا فيها، فنازلها أبو المهاجر وفتحها، وغنم ما فيها واستقر فيها، كانت ميله تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهي أحسن مكان يراقب أبو المهاجر منه أمور البربر والروم في تلك الأصقاع، فجعل أبو المهاجر ميلة مقره وأقام فيها سنتين، وكان خلال هذه المدة يتصل بالبربر وينشر فيهم الدين، ويريهم حقيقة المسلمين.

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة لكثرة عددها وغناها وحضارتها ومناعة مواقعها، وكان رئيسها كسيلة ابن لمزم الأوربي، وكان كسيلة قوي الشخصية، ذكي الفؤاد، غيوراً على وطنه، وكان البربر يحبونه ويجلونه، وكان نصرانياً متمسكاً بدينه، ورأى كسيلة أبا المهاجر في ميلة فعلم أنه لا بد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب في المغربين الأوسط والأقصى يدعوا البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم وإجلائهم عن البلاد، واستطاع كسيلة أن يجمع جيشاً من البربر والروم، فسمع أبو المهاجر بجمعه، فسار إليه.

وكان كسيلة قد عسكر بتلمسان، فقصده أبو المهاجر، والتقى الجيشان هناك، فدارات المعركة حامية بينهم، فانتصر المسلمون وأسر كسيلة، فحمل إلى أبي المهاجر، فأحسن إليه أبو المهاجر وقربه، وعامله معاملة الملوك، وتمكن أبو المهاجر من البلاد

---

(١) انظر : قادة فتح بلاد المغرب : (١/١٣٩).

وظفر بكسيلة فأظهر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه، وانتهى إلى العيون المعروفة بعيون أبي المهاجر، فهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط، فصالح أبو المهاجر بربر إفريقية وفيهم كسيلة الأوربي وصالح عجم إفريقية، ثم رجع إلى القيروان وأقام بها)[1].

المطلب الثاني : استشهاده

لقد ذكر في كتب التاريخ أن عقبة بن نافع بعد رجوعه إلى ولاية إفريقية مرة ثانية وإزاحة أبي المهاجر عنها، قرر مواصلة الفتح من حيث توقف أبو المهاجر وكانت آخر محطة توقف فيها أبو المهاجر أثناء حملته المباركة مدينة طنجة التي قد أسر رئيسها كسيلة، فأراد عقبة – رضي الله عنه – التوجه إليها بجيشه إلا أن أبا المهاجر أخبره بأن أهالي طنجة قد أسلموا وأن قائدهم كسيلة معنا وليس هنالك عدو لنا، إلا أن عقبة – رضي الله عنه – كان يخشى ارتداد كسيلة وأهله، نظراً لتجربته الطويلة مع أهالي إفريقية في نقضهم للعهود وخيانتهم للمواثيق لذلك أغَذَّ السير بعقبة نحو طنجة وما حولها.

يقول اللواء محمود شيت خطاب بهذا الصدد : (فلما انتهى إلى ثغر إفريقية وهي طبنة أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموا للقيروان فوجاً فوجاً ثقة منه بما نال العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه ومال عقبة بخيل يسيرة يريد (تهوذة) وكان معه حوالي ثلاثمائة فارس، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه فأغلقوا الحصن وشتموه وهو يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منهم بعث الروم إلى (كسيلة) الذي كان في عسكر

---

(١) المرجع السابق : (١/١٣٩، ١٤٠، ١٤١).

عقبة مضمراً للغدر، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة، فقال أبو المهاجر : عاجله قبل أن يقوى جمعه، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فزحف عقبة على كسيلة، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي مجحن الثقفي :

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا وأتـرك مشـدوداً عليَّ وثاقـيـا

إذا قمت عناني الحديـد وأغلقـت مصارع دونـي قد تصـم المناديـا

فبلغ عقبة ذلك، فأطلقه وقال له : الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين، وأنا أغتنم الشهادة فلم يفعل ذلك وقال : وأنا أيضاً أريد الشهادة وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم، وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبة، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بـ(تهوذة).

وهكذا كان استشهاد أبي المهاجر - رحمه الله - سنة ثلاث وستين الهجرية، ٦٨٣م في معركة تهوذة، وقبره إلى الآن جاثم على أرض مدينة الزاب، معلماً من معالم البطولة والتضحية في سبيل هذا الدين العظيم الذي رفع الناس من وشائج الطين، وروابط الدماء إلى قمم الروابط والوشائج... وشيجة الدين وروابطه، فرحم الله أبا المهاجر، الذي هجر الأوطان، والإخوان والأحباب والمال والأنساب، في سبيل رفع راية لا إله إلا الله، محمد رسول الله في سماء الشمال الإفريقي، وغرسها في أرضية قلوب العباد في تلك البلاد، فأبو المهاجر ما فتئ يبذل فيها الغالي والنفيس حتى سقاها أخيراً بدمه الزكي، ودماء إخوانه الطيبين الأبرار.

فهل يا ترى يعي أبناء هذه الشعوب أحفاد المجاهدين المتقين معاني كلمة لا إله إلا الله، محمداً رسول الله، ويسعوا لنشرها ويقدموا في سبيلها الغالي والنفيس كما فعل أسلافهم من المجاهدين والعلماء من قبل؟!

المبحث الثاني : أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان أبو المهاجر – رحمه الله – يتحلى بصفات ومميزات لا تجدها إلا عند السادة والقادة الصلحاء، مما جعلته يصف في مصف قادة الفتح الإسلام البارزين، ومن تلك الصفات القيادية التي كان يتحلى بها، والمبادئ العسكرية التي استخدمها في حروبه الجهادية، وفتوحاته الإسلامية ما يلي :

المطلب الأول : أهم صفاته القيادية

فقد كان يتحلى بتقوى الله، والتوكل عليه، والفزع إليه، وكان مخلصاً وفياً شهماً غيوراً، وكان يمتاز بالحكمة وبعد النظر والتعامل مع الأحداث بسياسة حكيمة، وكان محباً لرجاله ناصحاً لهم محبوباً لديهم، حسن السيرة، عفيفاً، شجاعاً سخياً، بعيد النظر، صحيح القرارات والخطط.

ويقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (لقد كان أبو المهاجر من أولئك القادة الذين يقاتلون بسيوفهم وعقولهم : يقاتل بسيفه عندما لا يجد مفراً من ذلك، ويقاتل بعقله فيعامل الناس بالحسنى وبالسياسة الحكيمة وبالمنطق السليم وبالعقيدة البناءة المنشئ...

لقد جعل أبو المهاجر رأس سلاحه في حربه تقوى الله، والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه ومسألته التأييد والنصر، وكان محباً لرجاله محبوباً منهم، يثق بهم ويثقون به)[1].

---

(١) المرجع السابق : (١/١٤٧ – ١٤٨).

المطلب الثاني : أهم مبادئه الحربية الاستراتيجية

لا ريب أن المدة التي عاشها أبو المهاجر في ساحات الفداء والعمل الجهادي، قد أكسبته خبرة حربية، وعقلية استراتيجية، وكفاءة سياسية، فقد طبق خلال عمله في ساحات الفداء مبادئ حروب المدن، والعصابات، كمبدأ الحصار، والمباغتة والتعرض، وتحشيد القوة، والاقتصاد في المجهود، والتعاون، والالتفاف، والمرونة والمحافظة على المعنويات، تأمين طرق المواصلات واختيار المقصد وإدامته.

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب معترفاً بأن أبا المهاجر كان قائداً حربياً بدرجة امتياز، إذ يقول : (كان كامل العقل، طويل التجربة بصيراً بتدبير الحرب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايد، حسن التعبئة، وحسن السيرة عفيفاً صارماً حذراً متيقظاً شجاعاً سخياً، بعيد النظر، صحيح القرارات والخطط.

وعند تطبيق أعمال أبي المهاجر العسكرية على مبادئ الحرب، نجد أنه طبق مبدأ (اختيار المقصد وإدامته)، فهو لم ينس أن هدفه نشر الإسلام لجعل الفتح مستداماً، فهو داعية أولاً وقائد ثانياً، وأنه طبق مبدأ (التعرض) فكانت معاركه كلها تعرضية، وأنه طبق مبدأ (تحشيد القوة) قبل البدء بحركاته، فاستفاد من كل مقاتل مسلم، ولم يبق في القيروان إلا الشيوخ والنساء، وأنه طبق مبدأ (الاقتصاد بالمجهود) فلم يفرط بقواته دون مبرر، وأنه طبق مبدأ (الأمن) فلم يستطع العدو مباغتة قواته في أية معركة وأنه طبق مبدأ (التعاون) فوحد جهود رجاله لإحراز النصر، وأنه طبق مبدأ (الأمور الإدارية) بشكل ملحوظ، لقد كان أبو المهاجر قائداً ممتازاً)[1].

ويقول في موضع آخر : (ما فعله أبو المهاجر في مصالحة أهل قرطاجنة بشرط إخلاء جزيرة شريك التي يتخذها الروم قاعدة متقدمة لحركاتهم ضد المسلمين، حتى

---

(١) المرجع السابق : (١/١٤٨).

يحرم الروم من تلك الحيوية، وحتى يستفيد منها المسلمون كقاعدة متقدمة لهم في حركاتهم ضد الروم، لقد فضل أبو المهاجر جزيرة شريك الموقع السوقي الاستراتيجي على المال والغنائم، وهذا دون شك، قرار عسكري في منتهى الأهمية، وله دلالته الواضحة على ما كان يتمتع به أبو المهاجر من بعد النظر، وتفكير عسكري سليم)[1].

ويقول أيضاً : (وفي أيام قيادته في إفريقية عانى أبو المهاجر في إفريقية عانى أبو المهاجر حرب الحصار لقرطاجنة فأجبر أهلها على طلب الصلح والرضوخ إلى شروط أبي المهاجر، وهذا النوع من الحروب يتميز القائد الذي يعانيها بالضبط الشديد والصبر الجميل كما عانى حروب الميدان حول تلمسان، وناهض جيوشاً كثيفة للبربر، وهذا النوع من الحروب، يتميز القائد الذي يعانيها بالشجاعة والإقدام، وبالقابلية على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة، وبالحرص على جمع المعلومات عن العدو وعن أرض المعركة وبالكفاية الممتازة في إدارة المعركة التعبوية)[2].

فرحم الله أبا المهاجر رحمة واسعة، وأدخله فسيح جناته، فقد هاجر، وثابر، وصابر، ورابط، وأوذي، وجاهد، واستشهد في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله وأن يكون الدين كله لله. قال تعالى : ﴿**فالذين هاجروا، وأخرجوا من ديارهم، وأوذوا في سبيلي، وقاتلوا وقتلوا، لأكفرن عنهم سيئاتهم، ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله، والله عنده حسن الثواب**﴾ [آل عمران : ١٩٥].

المبحث الثالث : زهير بن قيس البلوي - رضي الله عنه -

إن زهير بن قيس البلوي – رضي الله عنه – يعتبر من قيادات فتح الشمال

---

(١) المرجع السابق : (١٤٦/١).
(٢) المرجع السابق : (١٤٧/١).

الإفريقي إذ أنه كان صاحب لواء فتح مدينة تونس القديمة، وقاطع دار فلول الروم والبربر الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، الذين تحصنوا في بعض الحصون حول مدينة قرطاجنة القديمة.

المطلب الأول : اسمه، نسبه

هو زهير بن قيس البلوي يكنى أبا شداد، يقال له صحبة، وجزم بعضهم بصحبته، فقال : (هو من الصحابة). شهد فتح مصر وكان فتحها سنة عشرة الهجرية، ومعنى ذلك أن زهيراً ولد في أيام الرسول ﷺ وهو صحابي المولد.

روى زهير عن جماعة من الصحابة، وروى عنه جماعة من التابعين، وقد عده بعضهم من الصحابة[١] الذين شهدوا فتح مصر، فذلك نال زهير شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد، إذ من الواضح أنه كان صغيراً على عهد النبي ﷺ[٢].

المطلب الثاني : جهـاده

١ – شهد زهير فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص، وغزا إفريقية ووليها، وفي سنة اثنتين وستين الهجرية رد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية فاستخلف على القيروان زهيراً، وترك معه جنداً تعدادهم خمسة آلاف رجل مع الذراري والأموال لإعمار القيروان والمحافظة عليها من الغزاة.

٢ – ولما استشهد عقبة بن نافع الفهري في تهوذة سنة ثلاثة وستين الهجرية قصد

---

(١) انظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة : (١١٥/٢).

(٢) انظر : قادة فتح بلاد المغرب : (١٠٥/١).

كسيلة بن لمزم القيروان في جمع كثير من الروم والبربر، فعزم زهير على القتال، فخالفه حنش الصنعاني وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس، فاضطر زهير إلى العودة معهم، فسار إلى برقة وأقام بها. وقد زحف كسيلة البرنسي إلى القيروان سنة أربعة وستين هجرية وانتزعها من يد المسلمين في المحرم، فعظم البلاء على المسلمين، فقام زهير بن قيس خطيباً في الناس، فقال : (يا معشر المسلمين : إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد مَنَّ الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم يفتح الله لكم دون ذلك).

فقال حنش الصنعاني : (لا والله ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم) ثم قال : (يا معشر المسلمين! من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني) فاتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض في إثره ولحق بقصره ببرقة، فأقام بها مرابطاً إلى دولة عبد الملك بن مروان.

وأقبل كسيلة البرنسي بعساكره، فلما قرب من القيروان، خرج من كان بها من المسلمين، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم، فأمن كسيلة من بقي في القيروان من المسلمين وأقام بالقيروان أميراً على سائر إفريقية والمغرب كله وعلى من فيه من المسلمين، إلى أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان. ولم يقيم بالقيروان من المسلمين إلا أصحاب الذراري والأثقال، فأمنهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان واستمر أميراً على البربر ومن بقي بها من المسلمين وأضرم المغرب ناراً، وفشت الردة في البربر، إلى أن استقل عبد الملك بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق، فالتفت إلى المغرب لإعادة الفتح الإسلامي المجيد.

ولما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتنة الداخلية كان زهير مرابطاً في برقة منذ استشهاد عقبة بن نافع الفهري، فذكر عند عبد الملك من

بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم من يد (كسيلة)، وأن يعز الإسلام بهما كما كان في أيام عقبة فقال لهم عبد الملك : من للأمر مثل عقبة؟! فاتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير، وكان من رؤساء العابدين، وأشراف المجاهدين، فوجه إليه عبد الملك، وأمره بالخروج على أعنة الخيل في من معه من المسلمين لغزو إفريقية، فسر ذلك زهيراً وسارع إلى الجهاد.

ولكن زهيراً كتب إلى عبد الملك يعلمه بكثرة الروم والبربر، وبقلة من معه من الرجال والأموال، فأرسل عبد الملك إلى أشراف المسلمين ليحشدوا إليه الناس من الشام وأفرغ عليهم أموال مصر، فسارع الناس إلى الجهاد واجتمع منهم خلق عظيم، فأمرهم أن يلحقوا بزهير، فلما وصلوا إليه خرج بهم إلى إفريقية، فلما دنا من القيروان نزل بقرية يقال لها (قلشانة) وذلك في سنة تسعة وستين الهجرية، فبلغ ذلك كسيلة وكان في خلق عظيم من الروم والبربر، فدعا كبارهم وأشرافهم وشاورهم وقال لهم : (أرى أن ننزل بـ (ممس) لئلا يركبنا من بالقيروان فنهلك، ولأن بالقيروان خلقاً كثيراً من المسلمين ولهم علينا عهداً فلا نغدر بهم، نخاف إن قاتلنا زهيراً أن يثب هؤلاء وراءنا، فإذا نزلنا ممس أمناهم وقاتلنا زهيراً، فإن ظفرنا بهم تعلقنا بالجبال ونجينا. كما أن الماء بـ(ممس) كثير، فأجابوه إلى ذلك ورحل إلى ممس فبلغ ذلك زهيراً، فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح.

وفي اليوم الرابع زحف زهير في آلاف من المقاتلة، وجمع له كسيلة قبيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بممس من نواحي القيروان. وأشرف زهير على عسكر كسيلة في آخر النهار، فأمر الناس بالنزول، فلما أصبح زحف إليه. وأقبل كسيلة ومن معه، والتحم الفريقان، فنزل الضر وكثرالقتل في الجانبين حتى يئس الناس من الحياة، ولم يزل كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل. ومضى الناس في طلب البربر والروم، فلحقوا كثيراً منهم وقتلوهم. وجدوا في طلبهم إلى وادي ملوية وادي بطنجة بالمغرب،

وفتحت (شقبنارية) وقلاع أخر، وفتح مدينة تونس، وفي هذه الوقعة ذل البربر وفنت فرسانهم ورجالهم وخضدت شوكتهم، وقتل رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم، فلجؤوا إلى الحصون والقلاع واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يذكر. وخاف البربر من زهير والمسلمين خوفاً شديداً، وكسرت شوكة (أوربة) من بينهم، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة (وليلي) وكانت فيما بين فاس ومكناسة بجانب جبل زرهومن، ولم يكن لهم بعد هذه الواقعة ذكر.

وعاد زهير إلى القيروان، فرأى بإفريقية ملكاً عظيماً، فأبى أن يقيم بها وقال : إني ما قدمت إلا للجهاد، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك، وكان من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين، فترك القيروان آمنة، وانصرف عنها، وأقام بها كثير من أصحابه فترك القيروان آمنة، لخلو البلاد من عدو ذي شوكة، ورحل في جمع كثير إلى مصر، فبلغ الروم خروجه من إفريقية إلى برقة، فأمكنهم ما يريدون، فخروجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة من القسطنطينية ونهبوا ووافق ذلك قدوم عسكر زهير، فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعاً بأن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم، وأشرف على الروم، فإذا هم في خلق عظيم، فلم يقدر على الرجوع، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا، والروم يدخلونهم المراكب، فنادى أصحابه : النزول، فنزلوا، وكان أكثرهم من التابعين، ونزل الروم إليهم، وتلقوهم بعدد عظيم، فتلاحم القتال وتكاثرت عليهم الروم فقتل زهير وأشراف من كانوا معه من العرب، ولم ينج منهم أحد، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية[1].

---

(١) المرجع السابق : (١٠٥/١، ١٥١، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧).

المطلب الثالث : استشهــاده

لقد كان زهير – رضي الله عنه – من رؤساء العابدين، وأشراف المجاهدين، صاحب فضل ودين، وكان من العباد المخبتين، وكان من العلماء المتفقهين، شهد فتح مصر سنة عشرين الهجرية، وشارك في معارك عقبة بن نافع – رضي الله عنه – وقام باسترداد إفريقية من كسيلة وقتله، ثم بعد نهايته من استرداد إفريقية بلغته معلومات خطيرة، فحواها تحشد الروم من قسطنطينية وصقلية على شواطئ برقة، ومنهم من نزل إلى برقة وقد أخذوا السبي والأموال من المسلمين.

فتوجه لتوه ناحية برقة، فلما أشرف من مرتفعات برقة على الروم وراءهم ماذا يفعلون بسبي المسلمين لم يكن له بد من خوض هذه المعركة وأن يبذل الغالي والنفيس في شواطيء درنة وشحات، فأكرمه الله بالشهادة وثلة ممن معه في تلك المعركة، ودفنوا في مدينة درنة وقبورهم لا زالت موجودة حتى الآن وتسمى مقبرة الصحابة، كان في ذلك سنة ست وسبعين الهجرية، فرضي الله عنهم وأدخلهم فسيح جناته، ورحم الله زهيراً، حقاً إنه كان مجاهداً من المهد إلى اللحد.

المطلب الرابع : أهم صفاته القيادية وتطبيقاته الحربية

أهم صفاته القيادية : لقد امتاز زهير بصفات قيادية عدة منها : الشجاعة، والإقدام والذكاء، والصبر، والنجدة والشهامة، والورع والتقوي والزهد، وكان يحب رجاله ويحبونه، ويثق بهم، وكان ذا تجربة طويلة عملية للحروب، مارسها منذ قدر على حمل السلاح حتى يوم استشهاده.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (كان زهير من رؤساء العابدين وأشراف

المجاهدين، صاحب فضل ودين، وكان من العباد المخبتين، وكان من العلماء المتفقهين)[1].

ويقول في موضع آخر: (لقد كان زهير من رجالات السلف الصالح: شجاعة، وبطولة، وإيماناً، وورعاً... نشأ زهير في بيئة مخلصة تتسم بالشجاعة والإقدام، وترعرع في أيام الجهاد الأولى وفي العهد الذهبي للفتح الإسلامي)[2].

تطبيقاته الحربية: لقد طبق زهير في معاركه مبادئ حربية كثيرة منها: التحشد، والأمور الإدارية، وحماية خطوط المواصلات، وجمع المعلومات، وعمليات استطلاعية، والتعرض.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بعد حديثه عن طلب زهير من عبد الملك يسأله الإمداد بالرجال والأموال: (فأرسل عبد الملك إلى أشراف العرب ليشحذوا إليه الناس من الشام، وأفرغ عليهم أموال مصر بذلك طبق زهير مبدأي التحشد، والأمور الإدارية على أحسن وجه)[3].

ويقول في موضع آخر: (لست أشك أن حامية منطقة برقة التي خلفها زهير وراءه لحماية تلك المنطقة من العدو، ولحماية خطوط مواصلاته، لا يمكن أن تكون في ظلام دامس بعيدة عن الأحداث لا تهتم بالحصول على المعلومات عن نيات العدو المتربص، فلا بد أن يكون له مصادر مختلفة مهمتها الحصول على المعلومات عن العدو من البربر في مختلف الأماكن والأصقاع)[4].

أخيراً: رضي الله عن الصحابي الجليل، والمجاهد من المهد إلى اللحد، الذي أعاد

(١) المرجع السابق: (١٦٢/١).
(٢) المرجع السابق: (١٦٣/١).
(٣) المرجع السابق: (١٦٥/١).
(٤) المرجع السابق: (١٦٧/١).

إفريقية إلى حظيرة الإسلام، وقدم نفسه في سبيل إنقاذ أعراض المسلمين وديارهم، المجاهد الشهيد، زهير بن قيس البلوي.

المبحث الرابع : حسان بن النعان الأزدي الغساني...

بعد أن استقر ملك عبد الملك بن مروان التفت إلى الشمال الإفريقي وأوضاعه العسكرية والسياسية، فرأى أن يندب لتحقيقي أهدافه السياسية والعسكرية في تلك المنطقة حسان بن النعمان، فكتب له بقيادة الحملة على الشمال الإفريقي، فمن هو حسان بن النعمان؟

المطلب الأول : نسبه وأيامه الأولى

هو حسان بن النعمان بن عدي بن مغيث بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن الآزد. أهله من الغساسنة ملوك الشام الذين كانوا موالين للإمبراطورية البيزنطية قبل الفتح الإسلامي، فأسلم بعضهم وبقي بعضهم نصرانياً، فنشأ وترعرع في بيت عريق له ماض مجيد في القيادة والحكم. انتقل جده عمرو بن مزيقياء الذي كان من ملوك اليمن إلى أرض الشام. فكان من أولاده وأحفاده ملوك بني غسان.

كان حسان من التابعين، وقد حدث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت له مكانة مرموقة عند بني أمية وعند الناس، حتى أطلق عليه لقب : الشيخ الأمين[1].

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء : (١٤٠/٤).

المطلب الثاني : جهــاده

١ - لما بلغ عبد الملك بن مروان مقتل زهير بن قيس البلوي، وأصحابه اشتدعليه وعلى المسلمين ذلك، وكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع الفهري وأصحابه. وسأل أشراف المسلمين عبد الملك بن مروان أن ينظر إلى أهل إفريقية، ويؤمنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم، فقال عبد الملك : (ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من حسان بن النعمان الغساني) ولما قتل عبد الله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين الهجرية أصبح عبد الملك بموقف يساعده على إرسال الجيوش إلى إفريقية، إذ اجتمع المسلمون عليه، فجهز جيشاً كثيراً واستعمل عليهم وعلى إفريقية حسان بن النعمان وسيرهم إليها في سنة أربع وسبعين الهجرية وقيل : بعد سنة ٧٦هـ.

٢ - ودأب حسان على إنجاز استحضارات جيشه الذي بلغ تعداداه أربعين ألفاً أقامه أولاً في مصر عدة لما يحدث. وكتب إليه عبد الملك يأمره بالنهوض إلى إفريقية ويقول له : (إني أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك، وأعط الناس واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه).

٣ - ومضى حسان في جيشه الكبير، حتى نزل طرابلس الغرب، فاجتمع إليه من كان بها ومن كان خرج معه من إفريقية وطرابلس، فأرسل مقدمة جيشه إلى إفريقية وعليها محمد بن أبي بكير وهلال بن ثروان اللواتي وزهير بن قيس، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة، وهذا يدل على أنه اجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقى مقاومة، وأن جيشه ازداد عدده بالتحاق سكان تلك المنطقة من المسلمين به، وأنه لاقى مقاومات طفيفة في طريقه من طرابلس إلى القيروان من الحاميات الرومية المتفرقة في المدن الواقعة على

طريق جيش حسان، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة. وإنّ تولي هلال بن ثروان اللواتي، وهو أول بربري مسلم تسند إليه قيادة قوة من المسلمين يدل على أن المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصاراً من أهل البلاد يدلونهم في مسيرهم وينصرونهم ويقاتلون معهم جنباً إلى جنب.

٤ – وما كاد حسان ينجز استحضارات جيشه من كل الوجوه، إلا وسأل أهل إفريقية : من أعظم الملوك بها قدراً؟ فقالوا : صاحب قرطاجنة دارا ملك إفريقية، وقرطاجنة هي المدينة العظمى، قريعة رومة وضرتها وإحدى عجائب الدنيا، وكان يومئذ بها جموع من الروم لا تحصى، ولم يكن المسلمون قط حاربوها وفتحوها عنوة، بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها مالاً أو بلاداً مجاورة كجزيرة شريك.

فلما وصل حسان إلى قرطاجنة رأى بها من الروم والبربر مالا يحصى كثرة، فقتل منهم عدداً كثيراً، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب، فركبوا مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس، ففتحها عنوة، فسباها وغنم ما فيها وأرسل إلى ما حولها من العمال، فاجتمعوا إليه مسرعين، فأمرهم بهدم قرطاجنة وقطع القناة عنها.

وانصرف حسان عن قرطاجنة عائداً إلى القيروان، فعلم أهل بواديها وأقاليمها هروب ملك قرطاجنة عنها، فبادروا إليها فدخلوها، ورحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصاراً شديداً حتى دخلها بالسيف فقتلهم قتلاً ذريعاً وسباهم وأرسل لمن حوله فاجتمعوا إليه مسارعين، خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه، فلما أتوه ولم يبق منهم أحد، أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها، فخربوها حتى صارت كأمس الغابر.

والظاهر أنه هدم بعض أسوارها لكي لا يحتمي بها المدافعون مرة أخرى، وقطع القناة عنها لكي يحرم المدافعين عنها من المياه العذبة. وهذان العاملان نفذهما في فتحه الأول لقرطاجنة، ومن إجرائه هذا، يبدو أنه استهدف من تخريب تلك المرافق في قرطاجنة الناحية العسكرية الحيوية فقط، حتى يحرم الروم وغيرهم من اللجوء إليها أو الدفاع عنها نهائياً، ولكنه لم ينجح في تدمير مرافقها الحيوية كافة، لأن الأحداث المقبلة تدل بوضوح على أن المسلمين لم يخربوها تماماً، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة، حتى إن الروم تحصنوا بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات، وهذا مايفهم من قول النويري : (فهدم المسلمون ما أمكن منها)[1].

وتنبه حسان بعد هذا الحادث إلى أن الروم لا زالوا على شيء من القوة والكثرة في نواحي كثيرة من المناطق المحيطة بقرطاجنة. وأنه لا زالت هناك مدائن وحصون يجتمعون بها بعد أن انقطع رجاؤهم من قرطاجنة نفسها، فقد بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا في (صطفورة) و(بنزرت) وهما مدينتان، فسار إليهم وقاتلهم ولقي منهم شدة وقوة، ولكن المسلمين صبروا، فانهزم الروم، وكثر القتل فيهم ففتح المسلمون تلك البلاد، ولم يترك حسان موضعاً من تلك البلاد إلا وطأه، وخاف أهل إفريقية خوفاً شديداً، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة (باجة) فتحصنوا بها، وتحصن البربر بمدينة (بونة)[2]. فعاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه، فأقام بها حتى صحوا.

لقد كانت معركة قرطاجنة الأولى هي التي أدت إلى هروب القوة الضاربة للروم إلى الأندلس وإلى صقلية وإلى المناطق المحيطة بقرطاجنة والمعركة الثانية ومعركة

(١) نهاية الأرب، ص : (٧٤ب) نقلاً عن قادة فتح المغرب (١٨٠/١).
(٢) بونة : مدينة حصينة بإفريقية تقع على البحر، انظر : معجم البلدان (٣٠٩/٢).

(صطفورة)، و(بنزرت) هي التي أدت إلى تشتيت فلول قوات الروم وبعض حلفائهم البربر، كانت تلك المعارك من معارك استثمار الفوز، طهر حسان منطقة قرطاجنة من قوات الروم الباقية ومن حلفائهم، وكان قرار حسان في الإقدام على المعركة الثانوية قراراً صائباً، لأن تلك القوات لو تركت وشأنها لزاد عددها ولوجدت موطئ قدم ورأس جسر يهيئ للروم العودة مرة أخرى إلى قرطاجنة وما حولها من القسطنطينية أو من صقلية أو من الأندلس، فيستعيدون ماخسروا من مدن ومناطق أخرى، ويجبرون المسلمين مرة أخرى على خوض معركة كبيرة لا يمكن معرفة نتائجها ولا تؤدي إلا إلى خسائر فادحة في الأرواح والمواد، كما تؤدي إلى مضاعفات قد تعرقل ترسيخ أقدام الفتح الإسلامي في إفريقية وتؤخر إنجاز الفتح الإفريقي.

وكان قراره في العودة إلى القيروان، وإقامته فيها حتى برأت جراح أصحابه[1]، وأراح بها أياماً، وأكمل تدابير جيشه الإدارية، كان قراره هذا صائباً، لأنه كان لا بد للجرحى أن يشفوا من جراحهم، ولا بد للجيش من راحة بعد ما نال من رجاله طول القتال، ولا بد للقضايا الإدارية من معالجة وإعداد، وبذلك أصبح جيشه حاضراً للقتال مرة أخرى.

٥ – وسأل حسان أهل القيروان، عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يسلم، فدلوه على امرأة بجبل أوراس يقال لها : الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم خائفون منها، وجميع البربر مطيعون لها، فإن قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك فيه مضاه ولا معاند، وكانت هذه الكاهنة تخبر البربر بأشياء من الغيب ولهذا سميت الكاهنة. كانت بربرية[2]، وقد

(١) انظر : رياض النفوس للمالكي : (٣٢/١).
(٢) قلت :(الكهنة هم الذين يأخذون عن مسترق السمع، وكانوا قبل المبعث كثيراً وأما بعد مبعث=

اجتمع إليها البربر بعد قتل كسيلة، وهي إذ ذاك ملكة (جراوة) من قبائل البربر الكبيرة، وهي يومئذ أعظم ملوك البربر، بل هي ملكة البربر دون منازع، وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم، وربوا في حجرها، فاستبدت عليهم واعتزت على قومها بهم وبما كان لها من الكهانة، فانتهت إليها رئاستهم ووقفوا عند إشارتها.

وعزم حسان على قصدها، فخرج إليها بجيوشه، ولما بلغ موضعاً يقال له : (مجانة)[1] نزل بها، وكانت قلعة لم تفتح، فتحصن بها الروم، فمضى حسان وتركهم، وبلغ الكاهنة أمره فزحفت من جبل (أوراس) في عدد لا يحصى، فنزلت في مدينة (باغاية)[2] فأخرجت من بها وهدمتها، لأنها ظنت أن حساناً يريد حصنها ليتحصن به منها، وأقبل حسان حين بلغه الخبر إلى وادي (مكناسة)[3]، فقيل له : إنها قد أقبلت في عدد لا يحصى، فقال : دلوني على ماء يسع العسكر الذي أنا فيه، فمالوا إلى نهر (نيني)[4] فنزل عليه، وزحفت إليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه. ودنا الطرفان من بعضهما فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار، وأبى أن يقاتلها بالليل،

= النبي ﷺ فإنهم قليل. لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب وكانت ولا زالت الشياطين من الجن تخبر أولياءها من الإنس. والإسلام حرم ذلك. قال تعالى : **﴿ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن والإنس قد استكثرتم من الإنس، وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا إلى ببعض، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله إن ربك حكيم عليم﴾** [الأنعام : ١٢٨] وإخبار الجن الإنس فيه كذب وزور واختلاف. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» رواه أبو داود. هكذا يا أخي الحبيب كانت الشعوب والقبائل والأمم قبل مجيء الإسلام في تيه وضلال وركام من التصورات الباطلة.

(١) مجانة : بلد بإفريقية بينها وبين القيروان خمس مراحل : انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٨٦/٧).

(٢) باغية : مدينة كبيرة بين مجانة وقسنطينة. انظر : معجم البلدان (٤١/٢).

(٣) مكناسة : مدينة بالمغرب في بلاد البربر، تبعد عن مراكش أربع عشرة مرحلة من الشرق.

(٤) نيني : نهر في إفريقية. انظر : معجم البلدان (٢٦٩/٨).

وبات الفريقان على مصافهم، فما أصبحوا حتى زحف بعضهم على بعض، فاقتتلوا قتالاً شديداً. وعظم البلاء فظن المسلمون أنه الفناء فانهزم حسان بعد بلاء عظيم، وقتل من المسلمين خلق كثير، فسمى ذلك اليوم البلاء، وسمي النهر الذي التقوا عليه : نهر البلاء، فاتبعته الكاهنة بمن معها، حتى خرج من حد (قابس) فأسلم إفريقية ومضى على وجهه، وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً منهم خالد بن يزيد العبسي وكان رجلاً مذكوراً، فأحسنت إسارهم، إلا خالد بن يزيد وكان أذكر من كان مع حسان، فحبسته عندها، ثم عمدت إلى دقيق شعير مقلو فأمرت فلت بزيت، والبربر تسمي ذلك (البسيسة)، وقالت لخالد : مارأيت في الرجال أجمل منك وأشجع! وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخاً لولدي، فعمدت إلى دقيق الشعير الملتوت بزيت، وجعلته على ثدييها، ودعت ولديها وقالت : كلا معه على ثدي، ففعلا، فقالت: قد صرتم إخوة، وكانت الكاهنة من جماعة البربر لها رضاع إذا فعلوه يتوارثون بينهم[1].

كما يبدو أن الإحسان إلى الأسرى كان من تقاليد البربر العريقة، حيث إنهم دأبوا على الإحسان إلى الأسرى في معاركهم السابقة، فكيف لا تحسن إليهم الكاهنة بعد معركة نيني؟ وقد يكون لتقرب خالد بن يزيد منها أثر كبير على إحسانها هذا، فمن المحتمل جداً أن خالداً بذل جهوده بعد أن أصبح أسيراً عند الكاهنة لإنقاذ إخوانه الأسرى، فكان له ما أراد.

واكتفت الكاهنة بهزيمة المسلمين في جبل الأوراس، ثم تتبعت حسان حتى أخرجته من حدود إفريقية، لم تسر إلى القيروان فتقضي على المسلمين فيها وتسيطر على هذا البلد كما فعل (كسيلة) من قبل؟

---

(١) هذه الصورة من الرضاع لا يعرفها الإسلام ويشترط أن يكون الرضاع دون الحولين ويتحقق معه وصول لبن حقيقية إلى جوف الرضيع مما يعتبر إرضاعاً وقد اختلف الفقهاء في عدد الرضعات وأميل إلى كونه بخمس رضعات فما أكثر.

لقد استخلف حسان أبا صالح على إفريقية، وقد كانت القيروان عامرة بالمسلمين، فلماذا لم تقض عليهم الكاهنة وتقض على عاصمة المسلمين في إفريقية مدينة القيروان؟

بيد وأن الكاهنة لم تكن ترجوا شيئاً أكثر من خلاص منازل قبيلتها وملك أبنائها في الأوراس، فاكتفت بإبعاد القوة التي كانت تهدد سلامة الأوراس وسكانها[1]، وما دام المسلمون الذين في القيروان ضعفاء مسالمين، فلا خطر على الكاهنة منهم. كما أن تهديد الكاهنة للقيروان بالدمار وسكانها، غير المحاربين بالفناء، لا يخلو من إثارة البربر المسلمين على الكاهنة مما يؤدي إلى خلق المتاعب والمشاكل لها دون مبرر.

ومهما يكن من شيء، فقد بقيت القيروان على حالها لم تمسها الكاهنة بسوء، فبقي من بها من المسلمين يقوم بأمرهم أبو صالح، ولم تحفل الكاهنة لهم وإنما عادت إلى (الأوراس)، وبهذا لا نخطئ إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد لا انتقاض تام، وكان حسان يفهم هذه الحركة هذا الفهم، ولهذا أقام في طرابلس ينتظر المدد وينظم أموره هناك[2].

٦ - طفق حسان يرفق في سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به، وذلك أثناء انسحابه من معركة نيني، مما يدل على أن المسلمين الذي استقروا في القيروان كانوا غير محاربين، فلما فصل من قابس كتب إلى أمير المؤمنين يخبره الخبر بما نزل بالمسلمين من الكاهنة، فكتب إليه أمير المؤمنين : (لقد بلغني أمرك وما لقيت وما لقي المسلمون، فانظر حيث لقيت كتابي هذا، فأقم ولا تبرح حتى يأتيك أمري) فلقيه الكتاب وهو نازل بمكان يقال له

(١) انظر : فتح العرب للمغرب، د. حسين مؤنس، ص : (٢٤٩).
(٢) انظر : فتح العرب للمغرب. ص (٢٤٩) نقلاً عن قادة فتح المغرب : (١٨٦/١).

اليوم : قصور حسان فبنى هناك قصراً لنفسه ونزل قصوراً من حيز برقة فسميت قصور حسان، وكانت (أنطابلس) و(لوبية) و(مراقية) إلى حد (أجدابية) من عمل حسان، فأقام بعمل برقة خمس سنوات[1].

وتوافت على حسان فرسان المسلمين ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فدعا حسان عند ذاك برجل يثق به وبعثه إلى خالد بن يزيد، فأتاه فقال له : إن حسان يقول لك : ما يمنعك من الكتابة إلينا؟ وبعث حسان مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من خالد الأمور، فكتب خالد في ظهر كتاب حسان : (إن البربر متفرقون، لانظام لهم ولا رأي عندهم، فاطو المراحل وجد في السير) وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زاداً للرجل ووجهه إلى حسان، وكان خالداً قد أنضج الخبز فاحترق الكتاب بالنار، فلما كسر حسان الخبزة وقرأ الكتاب الذي كتبه إليه خالد وجده قد أفسدته النار، فقال له حسان : (ارجع إليه)، وعاد الرجل إلى خالد، فكتب إلى حسان بما كتب أولاً وأودعه قربوس[2] السرج حفره ووضع الكتاب وأطبق عليه حتى استوى وخفي مكانه[3].

يجدر بنا أن نتوقف قليلاً هنا، فقد بذل حسان قصارى جهوده لاستطلاع أمر الكاهنة، فاستطاع أن يحصل على معلومات قيمة عن تفرق البربر فلا نظام لهم ولا رأي عندهم، كما أن تدابير الكتمان التي اتخذها خالد بلغت حد الروعة والإتقان، فهو يخفي رسالة إلى حسان تارة في الخبز الذي عمل على إنضاجه حتى يستوي ويخفي مكانه، ولن يستطيع ضابط استخبارات ممتاز محترف في الوقت الحاضر أن يتخذ تدابير أكثر حذراً وأدق مما فعله خالد في تدابيره تلك، وبذلك استطاع أن يوصل إلى حسان علم ما يحتاج إليه[4].

---

(١) انظر ابن الأثير : (١٤٣/٤).
(٢) القربوس : حنو السرج.
(٣) انظر : فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، ص : (٢٧٠).
(٤) نفس المصدر. نقلاً عن قادة تفح بلاد المغرب العربي (١٨٨/١).

٧ – ملكت الكاهنة المغرب كله خمس سنوات، فلما رأت إبطاء المسلمين، عنها قالت للبربر : إن المسلمين إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي! فلا أرى لكم إلا خراب إفريقية كلها، حتى ييأس منها المسلمون، فلا يكون لهم رجوع إلى آخر الدهر! فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون، فذكروا أن إفريقية كانت ظلاً واحداً من طرابلس إلى (طنجة) وقرى متصلة ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصوناً من إقليم إفريقية والمغرب... وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير، مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزائر البحرية.

لقد أضر هذا العمل التخريبي بقضية الكاهنة ضرراً عظيماً، لأنه إذا كان قد وجد من أهل البلاد من يؤيدها في مناهضة العرب وطردهم من البلاد، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدي إزء التخريب الذريع الذي اختارته الكاهنة للبلاد على يديها، وأخذوا يعارضون الكاهنة ويناجزونها، فاضطرب الأمر بيدها، وانقلب أمر البلاد من سيئ إلى أسوأ.

هكذا تضعضع سلطان الكاهنة في بلادها : إدارة سيئة، وظلم للناس، وتخريب للبلاد، وحكم مرتجل لا هدف له ولا غاية.

وقد أخطأت الكاهنة في تقديرها لأهداف المسلمين من الفتح، فقد كان هدفهم استكمال فتح البلاد نشر الإسلام في ربوعها، فلم تكن همتهم منصرفة إلى المدائن والمزارع، وإنما إلى أهل البلاد أنفسهم، ولهذا لم يكن لعمل الكاهنة التخريبي أثر في نفس حسان ولا في سياسته، ولم تجن الكاهنة من أعمالها إلا سخط أهل البلاد عليها

وتركهم إياها وميلهم إلى جانب المسلمين.

٨ - هذه أخبار الكاهنة فماذا عن الروم وحركاتهم في إفريقية بعد اندحار حسان أمام الكاهنة، وفي أثناء بقائه متحفزاً في قصور حسان من أرض برقة بـ(سرت) وجد الروم في خرجوج حسان من إفريقية فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطانهم عليها من جديد، وكان الإمبراطور الجديد - ليونتيوس - الذي خلف جستنيان الثاني سنة ٧٤هـ / ٦٩٥م قد أهمه سقوط قرطاجنة في يد العرب وتخريب حسان لها، إذ لم يجد تسليم هذا الجزء الكبير من الإمبراطورية - دون مقاومة - أمراً سهلاً على نفسه، كما يقول ديل، فما تكاد أخبار هزيمة حسان على نهر نيني ترد إليه، حتى عجل بالعمل فقد أعد حملة كبيرة لإفريقية، ويبدوا أنه بذلك في إعدادها جهداً عظيما، لأنه تخير لقيادتها قائداً من أشهر قواد الدولة وأقدرهم هو البطريق يوحنا وأعد أسطولاً كبيراً لنقل الجند إلى إفريقية.

وظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنة في سنة ٧٨هـ / ٦٩٧م وتمكن من الاستيلاء على المدينة بيسر، وضرب المسلمين الذين كانوا فيها (الذين على رأسهم أبو صالح)، وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة، حتى إنه كان ليقتل الكفار بيده - كما يقول تيوفانس ونقفور - فلما تم له ذلك، اكتفى بها وأراح في قرطاجنة طيلة شتاء هذه السنة، غير حاسب لعودة العرب حساباً، فلم يكلف نفسه عناء الشروع في عمل آخر[1].

٩ - بهاتين الحركتين : حركة الكاهنة، وحركة البطريق يوحنا، تم انتقاص إفريقيا على المسلمين، وخرجت من يدهم جملة، ولم يبق في طاعتهم شبر

---

(١) انظر : فتح العرب للمغرب : (٢٥٤) نقلاً عن قادة فتح المغرب العربي : (١/١٩١).

واحد من الأرض مما يلي قابس غرباً، وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلاً لا اختلاف فيه : أقامت هي في الجنوب في السهل الداخلي، بينما اهتم يوحنا بأن يعيد الرباط الذي يمتد من (سوسة) إلى (شقبنارية).

كان حسان في شغل شاغل لإعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه، وإكمال قضاياه الإدارية لاستعادة إفريقية، وتوطيد أركان الإسلام في ربوعها، بينما كانت الكاهنة وكان الروم في الجهة الثانية يثيرون التذمر ويغرسون الأحقاد ويشيعون الفوضى - كل ذلك يسر لحسان استعادة فتح إفريقية وتحقيق أهداف المسلمين في أرجائها.

١٠ - أقام حسان خمس سنوات على مقربة من سرت في المكان المسمى : قصور حسان، يلح على عبد الملك بن مروان لإرسال الإمدادات إليه، فلماذا تأخر عبد الملك طيلة هذه المدة عن تلبية طلبات حسن الملحة المشروعة؟

كان عبد الملك في هذه الفترة بالذات مشغولاً بمكافحة الفتن الداخلية... وهكذا مرت هذه الفترة الحافلة : ثورات داخلية لابد من تحشيد الجيوش للقضاء عليها، وغزوات للروم في سنة سبع وسبعين الهجرية، وثمانين الهجرية، هذه الغزوات ضرورية لأمن الدولة الأسلامية، وكل ذلك، حتى لا يهاجم الروم دار الإسلام، لأن هذا الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع كما تنص عليها نظم الحروب... وطاعون ذريع في أرض الشام لا يبقي ولا يذر... كل ذلك منع عبد الملك بن مروان من تلبية طلبات حسان الملحة لتدعيمه بالإمدادات العسكرية من أجل استعادة فتح إفريقية وقطع دابر الروم والبربر فيها...

١١ - وسير عبد الملك إلى حسان الجنود والأموال، وتوافدت عليه فرسان المسلمين ورجاله، حتى إذا اكتملت استحضاراته للقتال وتهيئة جيشه

مادياً ومعنوياً، أمره عبد الملك بالمسير إلى إفريقية وقتال الكاهنة، فرحل حسان إليها في أواخر سنة إحدى وثمانين الهجرية، وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبال الأوراس في خلق عظيم، ولما اقترب حسان من الكاهنة، خرجت ناشرة من شعرها، فقالت : يا بني! انظروا ماذا ترون في السماء؟ فقالوا : نرى شيئاً من سحاب أحمر، فقال : لا وإلهي، لكنها رهج خيول العرب، ثم قالت لخالد بن يزيد : إني إنما تبنيتك لمثل هذا اليوم، أنا مقتولة، أوصيك بأخويك هذين خيراً فانطلق فخذ لهما أماناً!... فانطلق خالد فلقي حساناً، فأخبره خبرها، وأخذ لابنيها الأمان... ثم التحم القتال واشتد الحرب والنزال، فانهزمت الكاهنة، فاتبعها حسان حتى قتلها.

كانت هذه المعركة بين المسلمين وبين الكاهنة وجيشها في سنة اثنتين وثمانين الهجرية (٧٠١)م، وبعد مقتل الكاهنة أخلد البربر إلى الطاعة واطمأنت نفوس أكثرهم إلى الإسلام[١]، وبذلك قضى المسلمون على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردهم، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذي احتمى وراءه أهل البلاد، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ولم تبق أمام المسلمين غير مقاومة طفيفة من بعض قبائل البربر.

١٢ - وعاد حسان إلى القيروان بعد ما حسن إسلام البربر وطاعتهم، وذلك في شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين الهجرية[٢]، ليريح جيشه وليكمل نواقص قواته الإدارية، فلما استراح جيشه وأنجز حسان استحضاراته اتجه إلى شمال القيروان إذ لا زالت هناك بقاع يحكمها الروم وقلاع يسيطر عليها البربر، وكانت جبال زغوان في شمال القيروان وفي جنوب قرطاجنة

---

(١) انظر : الفتح العربي في ليبيا ص : (١٣٩).
(٢) البيان المغرب : (٢٩/١) نقلاً عن قادة فتح المغرب : (١٩٨/١).

لاتزال موطناً لمقاومة البربر والروم، ولعل قربها من قرطاجنة جعلها الخط الدفاعي الأول عن تلك المدينة، فأرسل إليها حسان مولاه أبا صالح فنازلها ثلاثة أيام دون جدوى، فأسرع إليها حسان بنفسه ففتحها صلحاً.

ولم يبق على حسان إلا استعادة فتح قرطاجنة، وكان يوحنا ورجاله من الروم قد حصنوها وأعادوا ما تهدم من أسوارها، وكانوا يرقبون حركات حسان، فسار إليهم، فتحصنوا بها. وحاصرهم حسان فنشبت معركة طاحنة بين الطرفين انهزم في أعقابها يوحنا هزيمة شنيعة، فالتجأ إلى قرطاجنة محتمياً بها. وانهزم الأسطول البيزنطي في موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنة في يد حسان، فأدرك اليأس البطريق يوحنا، فجمع أجناده وتولى إلى بيزنطة، ليعود منها مرة أخرى بعدة قوى، ولكنه كان واهماً لأن الظروف لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنة قط.

كانت للروم سفن بباب النساء، فحملوا نساءهم وأولادهم ليلاً، وأسلموا المدينة، ولم يبق بها إلا الملك المسمى بمرياف وأهله وولده، فكتب إلى حسان : (هل لك أن تعاهدني في أهلي وولدي وأشترط لنفسي ما شئته من المنازل وأسلم لك المدينة؟).

ولم يكن للمسلمين علم بفرار الروم منها، فأجابه حسان إلى ذلك، فاشترط الأرض المسماة بمرياف، وهي إذ ذاك قرى كثيرة، ثم أمكنه من المدينة فلم يجد فيها غيره وغير أهله وولده، فوفى له حسان بما أعطاه من العهد، وأقام مرياف مالكاً لهذه الأرض، وهي الناحية بمرياف في تونس[1].

ولما فتح حسان قرطاجنة أرسل أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل إفريقية ففتحها... وكان قد استمد عبد الملك بن مروان، فأمده بأسطول تحت قيادة عبد الملك ابن قطن، فطهر الجزر التي كانت مكمناً للأعداء، كما بعث إلى فاس خيلاً ففتحها.

---

(١) انظر : المسالك والممالك للبكري، ص : (٣٧) نقلاً عن قادة فتح المغرب : (١٩٩/١).

بهذا خلصت إفريقية لحسان، ولم تعد هناك قوة تعارضه أو تنتقص من إمارته على البلاد. نعم، بقيت بضع نواحي لم يصل إليها المسلمون بعد، وبعض قبائل لم تعلم بمقدمهم، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن الفتح الحربي قد تم، وأن واجب حسان الآن هو الاهتمام بنواحي أخرى في تلك البلاد لنشر الإسلام، وتقرير أمور البلاد، وخراجها وشؤونها وما إلى ذلك. أدرك حسان بثاقب فكره وبعد نظره، أن استعادة فتح قرطاجنة لا يمنع الروم من الإغارة عليها بحراً مرة أخرى والتحصن فيها من جديد ما لم ينشئ ميناء جديداً ويكون له أسطول بحري قوي. ولم يلبث حسان أن وقع اختياره على ترشيش، فبدأ يحصن المدينة من جديد، ويبدو أن المدينة ترشيش كان قد اضمحل أمرها حيث بدأ المسلمون يعيدون بناءها ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان، قد كان العرب يسمعون أصوات بعض الرهبان طول الليل في صلواتهم فيستأنسون بهم، فقالوا : هذه البقعة تونس، وقيل : إن المسلمين سموها : تونس لجمالها ولما تدخله من الأنس البهجة على القلوب. وبهذا استطاع حسان أن ينشئ ثانية بإفريقية، وإذا كانت القيروان قد أصبحت من يوم أنشئت محرساً برياً ومعسكراً للجند الإسلامي، فقد أصبحت تونس كذلك رباطاً يحمي القيروان ومحرساً بحرياً وميناءً جديداً للبلاد يقوم مقام قرطاجنة... وبقيام هذه المدينة، حيل بين الروم وبين إفريقية فلم يعودوا يستطيعون النزول إلى أرضها، فأمن المسلمون شرهم وأصبح وجودهم منصرفاً إلى تنظيم البلاد تمهيداً للإسلام، دون أن يزعجهم الروم بهجماتهم المفاجئة بين الحين والحين.

المطلب الثالث : إصلاحاته

أولاً : في سنة اثنتين وثمانين استقامت إفريقية لحسان فدوَّن الدواوين، وصالح على الخراج، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية من

البربر. ثم أوعز إليه عبد الملك بن مروان باتخاذ دار الصناعة لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد، ونزل موضع القيروان وبنى مسجد جماعتها، وخطط مدينة تونس وبدأ بنيانها، وحفر قناة تصل بحيرة تونس بالبحر.

تلك إصلاحات مهمة جداً، منها إدارية مثل بناء تونس وحفر قناتها وبناء مسجد القيروان، ومنها إصلاحات عسكرية، كتجنيد جيش البربر، ومنها إنشاء أسطول بحري إسلامي.

ثانياً : تدوين الدواوين والإصلاحات الإدارية : دون حسان الدواوين، وأقام لكل وظيفة من وظائف الدولة الكبرى ديواناً فيه الكتبة والرؤساء والمسؤولون، ونظم الجيش وقسمه على الثغور وفرض له العطاء من بيت المال، وأقام العمل على النواحي الإدارية من خراج وزكاة وجند وما إلى ذلك مما كان في غير إفريقية من بلاد المسلمين إذ ذاك، وأقام حسان المساجد في المدن والقرى، وأقام فيها الفقهاء للصلاة والوعظ والإرشاد والفتوى في المسائل الدينية، وأقام المدارس الابتدائية بجانب كل مسجد لتعليم أبناء المسلمين دينهم، وتحفيظهم القرآن الكريم، وتطبع على ألسنتهم بلغته واختار حنش ابن عبد الله الصنعاني عاملاً على الزكاة، وفرض حسان الجزية والخراج على من أقام على دينه من النصارى، وعين القضاة للنواحي، وأقام الحراس في النُهُج والطرقات لحفظ الأمن، وقسم الأراضي بين قبائل البربر، فعين لكل قبيلة خطتها، وألزم كل قبيلة زراعة أرضها ودفع زكاتها لبيت مال المسلمين.

وقد عد حسان أرض البربر وبلادهم مفتوحة صلحاً، لذلك أقر الأرض في أيدي البربر وجعلها لهم، واعتنى حسان بالمدن والقرى، فمهد الطرق للسابلة، وأصلح القنوات للري، وجدد بناء مسجد القيروان ووسعه... واعتنى بالقاعدة المتقدمة البحرية التي أنشأها في إفريقية، وأنشأ مرفأها (الميناء) ودار الصناعة ولم يكن لأهل المغرب أي

لغة يتفاهمون بها كلهم، وطريقة يكتبون بها ما يريدون كتابته، ولما كانت العربية هي لغة القرآن والإسلام فقد بدؤوا يقبلون عليها ويتعلمونها، فجد حسان كل الجد في تعليم العربية للبربر لأنها أصل الدين.

وضرب حسان السكة للمغرب دنانير وفلوساً، وكان الناس يتعاملون بسكة القوط والبيزنطيين، وهي تحمل رسم ملوكهم وشعارات دولهم... وكان حسان قد قضى على الروم سياسياً وعسكرياً، وبقي لهم سبب ديني يربط الطوائف النصرانية من الروم الإفريقيين ببيزنطة وهي العلاقات الكنيسية، فقطعها خوفاً من أن يتدرع البيزنطيون فيصلون بالمغرب، فوصل الكنيسة القرطاجنية بالكنيسة المرقصية الأرثوذكسية في مصر وقطعها عن الكنيسة الكاثوليكية في روما وبيزنطة[1].

---

(١) قلت : ولأهل الذمة حقوق وعليهم واجبات، وبيننا وبينهم عقد يعرف بعقد أهل الذمة وهو تأمين من أجاب المسلمين إلى دفع الجزية من الكفار وتعهد للمسلمين بالتزام أحكام الشريعة الإسلامية في الحدود كالقتل والسرقة والعرض، ويتولى عقد الذمة الإمام أو نائبه من أمراء الأجناد فقط، أما غيرهما فليس له حق في ذلك، بخلاف الإجارة والتأمين، فإنه لكل مسلم ذكر أو أنثى أن يجير ويؤمن، وقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلاً من المشركين يوم الفتح فأتت الرسول ﷺ فذكرت له ذلك، فقال : «قد أجرنا من أجرت، وأمنا من أمنتي يا أم هانئ» ولأهل الذمة على المسلمين حفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، وعدم أذيتهم ما وفوا بعهدهم ولم ينكثوه، لقوله ﷺ : «من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة». فإن هم نكثوا عهدهم ونقضوه بارتكاب ما من شأنه نقض العهد حلت دماؤهم وأموالهم، دون نسائهم وأولادهم، وأن لا يؤخذ المرء بذنب غيره، وينتقض عهد الذمة بأمور منها : الامتناع من بذل الجزية، عدم التزامهم بأحكام الشرع التي كانت شرطاً في العقد، تعديهم على المسلمين بقتل، أو قطع طريق، أو تجسس، أو إيواء جاسوس للعدو، أو زنى بمسلمة، وينقض العهد أيضاً : بأن يذكروا الله ورسوله أو كتابه بسوء، أما الخراج الذي ضربه حسان على البربر فهو : ما يضرب على الأراضي التي احتلها المسلمون عنوة، فإن الإمام مخير عند احتلاله أرضاً بالقوة بين أن يقسمها بين المقاتلين وبين أن يوقفها على المسلمين، ويضرب على من هي تحت يده من مسلم وذمي خراجاً سنوياً معلوماً ينفق بعد جبايته في صالح المسلمين العام، كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتحه من أرض الشام، والعراق ومصر، ولو صالح الإمام العدو على خراج معين من أرضه، ثم أسلم أهل تلك الأرض، فإن الخراج يسقط عنهم لمجرد إسلامهم بخلاف ما فتح عنوة فإنه وإن أسلم أهله فيما بعد، يستمر مضروباً على تلك الأرض.

ثالثاً : مؤسس ولاية المغرب : بهذا اكتملت الأسباب ليكون المغرب بلاداً إسلامية صرفة يحكمها عامل خليفة المسلمين ويدين أهلها بالإسلام، ويتخذون العربية لغة.

وسواء أكان السبب الأكبر في ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية أو لم يكن، فإن المغرب الإسلامي القديم اختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة، وحضاراته الهالكة، وحل محله المغرب، أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة، ووجهة واحدة... وكان لحسان أثر بالغ على ذلك... ولقد كان حسان بحق المؤسس الأول لولاية المغرب الإسلامي العربي[1].

المطلب الرابع : أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان حسان قائداً عبقرياً قام في حملته على إفريقية والشمال الإفريقي بعدة أعمال تنم عن شخصيته القيادية، فقد قضى على قوة الروم، وفتت قوة البربر، وفتح قرطاجنة عاصمة الروم في إفريقية، وضيق الخناق على قوات الروم حتى قواتها الضاربة، ثم قاتل البربر وقضى على الكاهنة، ثم بذل قصارى جهده لنشر الإسلام بين البربر، فأصبح بين صفوفه اثنا عشر ألفاً من المقاتلين الشجعان بدلاً من أن يكون هؤلاء في صفوف أعدائه فما هي صفات هذا القائد العبقري الفذ، ومبادئه الاستراتيجية التي طبقها في حملته الجهادية؟

أهم صفاته القيادية : لقد كان حسان رجلاً عاقلاً، رزيناً، مخلصاً، وفياً، صادقاً، نقياً، ورعاً، أميناً حتى كان يسمى : الشيخ الأمين. وكان يتمتع بصفة بعد النظر، واستخدام العقل في محل العقل، والسيف محل السيف. شجاعاً، مقداماً، شهماً ذكياً فطناً متيقظاً، له المقدرة على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة.

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب : (١/٧٢ – ٢١٥).

أهم مبادئه الحربية : مبدأ جمع المعلومات عن العدو، مبدأ اختيار المقصد وإدامته، مبدأ التعرض، مبدأ المباغتة، مبدأ تحشيد القوات، مبدأ الاقتصاد بالجهود، مبدأ إدامة المعنويات، مبدأ الأمور الإدارية[1].

المطلب الخامس : استشهاده

لقد مكث حسان أميراً على إفريقية قرابة اثنتي عشرة سنة، قائداً، ومقاتلاً عبقرياً، سياسياً ماهراً، حتى تم عزله في ولاية عبد العزيز بن مروان أخي عبد الملك خليفة المسلمين لولاية مصر، وكان ذلك سنة خمس وثمانين الهجرية. وقد لزم حسان بيته بعد عزله، ثم غزا بلاد الروم فاستشهد في تلك الغزوة.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب : (وقد لزم حسان بيته بعد عزله، ثم غزا بلاد الروم فمات هناك... وفي رواية : أنه توفي سنة ثمانين هجرية غازياً في أرض الروم)[2].

ولكن هل بعد استشهاده ينسى التاريخ هذا القائد البطل، والسياسي العبقري وما سطره بعرقه ودمه من فتوحات في سبيل نشر هذا الدين القويم؟! أليس يذكر التاريح له أنه : (خاض معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد الروم وقضى على آمالهم نهائياً في البقاء في إفريقية. ويذكر له أنه خاض معركة حاسمة من الدرجة الثانية ضد البربر، فأصبحوا بعدها مهع المسلمين لا عليهم، ويذكر له أنه فتح قرطاجنة فحرم الروم من عاصمتهم التي كانت في نفس الوقت القاعدة الأمنية لهم في إفريقية.

ويذكر له أنه، فتح مدينة فاس، ويذكر له أنه نشر في ربوع إفريقية الإسلام بين البربر، ويذكر له أنه أنجز إصلاحات حيوية في إفريقية، كانت ولا تزال الجذور العريقة

---

(١) راجع المرجع السابق : (١/٢١٨، ٢١٩).

(٢) المرجع السابق : (١/٢٠٥).

لبقاء هذه البلاد إسلامية، ويذكر له، أنه جعل الفتح الإسلامي في إفريقية فتحاً (مستداماً) : صمد أمام الغزو العسكري الغربي، وأمام الغزو الفكري الغربي، وتحمل من أجل الحفاظ على عقيدته وإسلامه كثيراً من التضحيات بالأرواح والأموال رضي الله عنه عن التابعي الجليل، السياسي المحنك الإداري الحازم، الداعية الحصيف، البطل الشجاع، المفكر الفذ، القائد الفاتح، حسان بن النعمان الغساني)(١).

صدق قول الشاعر إذ يقول :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المكـارم

وتعظم في عين الصغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائـم

المبحث الخامس : موسى بن نصير اللخمي

تولى موسى بن نصير – رحمه الله – منصب والي إفريقية والمغرب سنة اثنتين وثمانين الهجرية بعد عزل القائد العبقري حسان بن النعمان عن ولاية تلك المنطقة؟!

المطلب الأول : اسمه ونسبه، ميلاده ونشأته

اسمه ونسبه : (هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد، يكنى : أبا عبد الرحمن من بني لخم، ويقال له : إنه مولى لخم، وقيل : إنه من أراشة من بلى، وقيل : إنه من بكر بن وائل، ويذكر أولاده أنه من بكر بن وائل، وغيرهم يقول : إنه مولى.

إنه عربي، أبوه نصير كان اسمه : نصراً فصغر، كان من بين سبايا (عين تمر) الذين سباهم خالد بن الوليد المخزومي سنة اثنتي عشرة الهجرية، فقد وجد خالد أربعين

---

(١) المرجع السابق : (١/ ٢٢٠).

غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال : وما أنتم؟! فقالوا : رهبان، منهم نصير أبو موسى بن نصير، وكان نصير ينسب إلى بني (يشكر) فقسمهم خالد في أهل البلاد، فأصل موسى من عين التمر، وقد أعتق نصير بعض بني أمية فرجع إلى الشام، ثم أصبح على حرس معاوية وعلى جيوشه، وكانت منزلته عنده مكينة[1].

ميلاده ونشأته : (ولد موسى سنة تسع عشرة الهجرية (٦٤٠م) في خلافة عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - بقرية يقال لها : (كفر مترى)، ونشأ في بيت له صلة مباشرة بالجندية، قريباً من قادة الفتح الإسلامي، وقادة الفكر الإسلامي في الشام دار الخلافة، بتماس شديد بمعاوية بن أبي سفيان ومن حوله من قادة الفتح والفكر، بكنف أبيه نصير الذي كان يمتاز بالجرأة والصراحة والورع، فكان لكل ذلك أثره البالغ في حياة موسى قائداً وإنساناً)[2].

وعندما اشتد عوده، وظهرت عليه بوادر النجابة والحيوية، وأكسبه الزمان تجربة وعلماً، ولاه معاوية بن أبي سفيان أيام خلافته البحر، فغزا قبرص وبنى هناك حصوناً مثل (الماعوصة) و(بانس) وغير ذلك من الحصون التي بناها في (قبرص) وكان نائب معاوية عليها، وكان معاوية قد فتح (قبرص) سنة ثمان وعشرين الهجرية، وفي سنة أربع وستين شهد موسى معركة (مرج راهط) مع الضحاك بن قيس الفهري الذي كان يدعو سراً إلى عبد الله بن الزبير ثم دعا إلى نفسه، فلما قتل الضحاك وانتصر عليه مروان بن الحكم لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان فحماه وأنقذ حياته من خطر داهم، وبذلك ابتدأت الصلة الوثيقة بين عبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير. ثم أصبح بعد ذلك وزيراً ومستشاراً لوالي مصر عبد العزيز بن مروان، ولما تولى عبد الملك الخلافة جعل موسى مساعداً لأخيه بشر بن مروان على الكوفة والبصرة، ثم مسك

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء : (٤/٤٩٦).

(٢) قادة فتح بلاد المغرب : (١/٢٢١، ٢٢٢).

أمور العراق، ثم عزل وجاء الحجاج فخاف موسى بن نصير منه فذهب إلى عبد العزيز ابن مروان الذي أصلح ما وقع من جفوة بين موسى بن نصير وعبد الملك بن مروان.

المطلب الثاني : جهاده في البر

بعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان والي إفريقية ولَّى مكانه موسى بن نصير، وكان ذلك في أواخر سنة خمس وثمانين الهجرية. أو في أوائل سنة ست وثمانين الهجرية.

أولاً : عندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيباً، فكان مما قاله : (وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئاً مريئاً، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان، مع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله) وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية حشد جيشه وأكمل استحضاراته الإدارية، وساوى نفسه برجاله، وأعطاهم ما يستحقون من أعطيات وضاعفها لهم ثلاث، وفتح بابه على مصراعيه لتلبية احتياجاتهم كلها. لقد بدأ موسى بداية موفقة جداً في تحمل مسؤوليته الجسيمة.

ثانياً : وسار موسى متوجهاً إلى الغرب، وكان الأمن هناك غير مستتب، فلما وصل إفريقية وبها صالح الذي استخلفه حسان بن النعمان على إفريقية، وجد أن البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسان، فجمع الناس وألقى فيهم خطاباً بين فيه بوضوح الخطوط العريضة لسياسته العامة في الفتح. قتال العدو القريب أولاً، حتى إذا انتهى من أمره تغلغل بعيداً بالتدريج لقتال العدو البعيد.

ثالثاً : وتنفيذاً لهذه الخطة العسكرية الحكيمة، بدأ باستعادة جبل (زغوان) وما حوله وبينه وبين القيروان مسيرة يوم كامل، وبنواحي زغوان قبائل من البربر، فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس، فاستعاد فتح زغوان وسبى، فكان ذلك السبي أول سبي داخل القيروان. كما وجه ابنه عبد الله بن موسى إلى بعض نواحي إفريقية فأتى بسبي كثير، ثم وجه ابنه مروان فأتى كذلك بسبي كثير، واستطاع موسى بن نصير أن يقضي على جيوب المقاومة في إفريقية ،وخضعت له قبائل البربر، وجعل من منطقة القيروان وما حولها قاعدة أمنية ينطلق منها موسى بن نصير وهو أمين على خطوط مواصلاته، لتنفيذ خططه في الفتح متغلغلاً في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وبعد أن تم لموسى إخضاع المغرب الأوسط من صحراء درعة إلى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة، تطلع موسى نحو طنجة التي كانت تخضع للأمير الرومي يليان (جوليان) منذ أيام عقبة بن نافع.

رابعاً : خرج موسى من القيروان لفتح طنجة، وجعل على مقدمته مولاه طارق ابن زياد، فلم يزل يقاتل البربر ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة وهي قصبة بلادهم وأم مدائنهم، فلما دنا موسى من طنجة بث السرايا، فانتهت خيله إلى السوس الأدنى، فوطئهم وسباهم، وأدوا إليه الطاعة وولى عليهم والياً أحسن فيهم السيرة.

وحاصر موسى طنجة حتى افتتحها ونزلها، وهو أول من نزلها واختط فيها للمسلمين، فأسلم أهلها وخطها موسى قيرواناً للمسلمين. وسار موسى إلى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها، ورأس تلك المدائن (سبتة) وعليها يليان (جوليان)، فقاتله موسى، فألفاه في نجدة وعدة وقوة فلم يطقه، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه، وأخذ في الغارات على من حولهم والتضييق عليهم، والسفن تختلف إليهم بالميرة والإمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة، فهم يذبون عن سبتة ذباً شديداً، ويحمون بلادهم حماية تامة، كانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس مما ساعد على صمودها بوجه المسلمين الفاتحين.

كان بطنجة من البربر بطون البتر والبرانس ممن لم يكن دخل في الطاعة، فوضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط مؤلفة من ألف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان، ولكن مروان انصرف وخلف على جيشه طارق بن زياد وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلا إقليم سبتة، وانتشر الإسلام فيه. وعاد موسى إلى القيروان بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم وترك موسى عندهم خلقاً يسيراً من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام.

المطلب الثالث : جهاده في البحر

١ – مهد موسى لجهاده في البحر بالاهتمام بعمران مدينة تونس وتوسيع دار الصناعة بها، وشق القناة التي توصل بين الميناء (رادس) وبين المدينة على طول اثني عشر ميلاً حتى أقحمه دار الصناعة، فصارت مشتى المراكب إذا هبت الأنواء والرياح، حيث أمر بصناعة مئة مركب.

٢ – أمر موسى بالتأهب لركوب البحر، وأعلمهم أنه راكب بنفسه، فرغب الناس وتسارعوا فلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب الفلك، فعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبد الله بن موسى بن نصير وولاه عليهم وأمره، ثم أمره أن يتوجه إلى هدفه. إنما أراد موسى بما أشار من مسيره، أن يركب أهل الجلد والنكاية والشرف، فسميت هذه الغزوة غزوة الأشراف وسار عبد الله بن موسى بن نصير في مراكبه، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غزيت في بحر إفريقية (البحر الأبيض المتوسط). فأصاب في غزوته تلك صقلية، وافتتح مدينة فيها، فبلغ سهم الرجل مئة دينار ذهباً، وكان

المسلمون ما بين الألف إلى التسعمائة، ثم انصرف قافلاً سالماً، وكان ذلك في سنة خمس وثمانين الهجرية.

٣ - وبعث موسى عياش بن أخيل على مراكب أهل إفريقية، فشتا في البحر، وأصاب مدينة يقال لها : (سرقوسة)، ثم قفل في سنة ست وثمانين الهجرية. وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد بعث عطاء بن أبي نافع الهذلي في مراكب أهل مصر إلى (سردانية) فأرسى بـ(سوسة) فأخرج إليه موسى ما يحتاجه من الأمور الإدارية (الأرزاق، وسلاح، وتجهيزات) وكتب إليه (إن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هذا العام، فأقم لا تغرر نفسك، فإنك في تشرين الآخر، فأقم بمكانك حتى يطيب ركوب البحر فلم يكترث عطاء بنصيحة موسى، وشحن مراكبه ثم رفع متوجهاً إلى هدفه. وفي سردانية غنم المسلمون غنائم ضخمة، ثم انصرف قافلاً فأصابته ريح عاصف، فغرق عطاء وأصحابه.

وفي سنة تسع وثمانين الهجرية عقد موسى لعبد الله بن مرة على بحر إفريقية فأصاب (سردانية) وافتتح مدائناً. فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة والمواد الأخرى. وفي سنة تسع وثمانين الهجرية جهز موسى ولده عبد الله، فافتتح جزيرتي (ميورقة) و(منورقة) وهما جزيرتان في البحر بين صقلية وجزيرة الأندلس.

المطلب الرابع : جهاده في الأندلس

١ - كان فتح الأندلس نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب، لأن الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب، ولأن الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الإسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الإفريقي واستقرار الفتح فيه بانتشار الإسلام، وبوجود القوة الضاربة في جانب

المسلمين. ولم تستعص على موسى غير مدينة سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من إسبانيا القوطية عن طريق البحر، وكان يحكمها من قبل القوط في إسبانيا حاكم اسمه جوليان ويسميه المسلمون يليان أو إليان أو بوليان. وقد اختلفت المصادر في شخصية بوليان هذا، فبعضها يذكر أنه قوطي، وبعضها يزعم أنه رومي، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة... وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس.

٢ - غزوة طريف : وكان موسى يتوق إلى افتتاح الأندلس، وكان عامله على طنجة وهو طارق بن زياد يتطلع إلى الأندلس أيضاً، وبينما كان موسى يرقب الفرص لتحقيق هذه الأمنية، إذا جاءته رسالة من (يوليان) يعرض فيها تسليم معقله (سبتة) ويدعوه إلى فتح إسبانيا. وجرت بينهما المفاوضة في هذا المشروع الخطير، وهنا تختلف الرواية في هذا الاتصال، فيقال إن موسى ويوليان. اتصلا بالمراسلة، وقيل : إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية وإن يوليان هذا استدعى موسى إلى سبتة وهناك جرت المفاوضات بينهما، وقيل : إنهما اجتمعا في سفينة في البحر. على أي حال فقد استجاب موسى لدعوة يوليان وكان هدف يوليان الانتقام من لذريق الذي اعتدى على ابنته وكذلك الوفاء لغيطشة صديقه الوفي الملك السابق قبل لذريق.

واهتم موسي بمشروعه اهتماماً كبيراً. فكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر هذه المشروع، فكتب إليه الوليد بأن يختبرها بالسرايا وأن لا يغرر بالمسلمين فبعث موسى رجلاً من البربر يسمى : طريفاً، ويكنى زرعة، في مئة فارس وأربع مئة راجل فجاز في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر في الأندلس فيما يحاذي طنجة، وهو المعروف اليوم بـ (جزيرة الطريف)، سُمّيت باسمه لنزوله هناك، فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبايا ومالاً كثيراً، ورجع سالماً.

٣ - فتح طارق : وفي رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية (نيسان - إبريل ٧١١م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي، فعبر البحر من سبتة بجيشه تباعاً في سفن يوليان، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم أعني (جبل طارق). وتوالت انتصارات طارق، ففتح مدينة قرطاجنة الجزيرة، ثم زحف غرباً واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة، وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل (الجزيرة الخضراء) وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد، وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء وسيطروا على المجاز إلى الأندلس، فزحف لذريق لصد المسلمين، فكتب طارق إلى موسى بأن لذريق زحف إليه بما لاقبل له به، فأرسل إليه موسى مدداً من خمسة آلاف من المسلمين وعلى رأسهم طريف بن مالك، وأغلبهم من الفرسان، وبهم كملت عدة من مع طارق اثني عشر ألفاً التقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنة اثنتين وتسعين الهجرية (١٩ تموز - يوليو سنة ٧١١م) على وادي (برباط)، أو وادي (لكة) قرب مدينة (شذونة) واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة، وكانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين.

أحدث انتصار طارق في وادي (لكة) دوياً هائلاً في المشرق والمغرب، وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها، فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب، فلحقوا بطارق.

وبدأ طارق يجني ثمار جهاده وانتصاره في وادي لكه ففتح (شذونة) عنوة، ثم مضى إلى (المدور) ثم عطف على (قرمونة)، ثم اتجه إلى إشبيلة فصالحه أهلها على الجزية، ومنها زحف إلى إستجة وكانت تؤلف المركز الأول للمقاومة، إذ كانت فلول القوط قد تجمعت هناك، فظفر طارق بصاحب المدينة وأرغمه على الصلح وفرض عليه الجزية.

وفرق طارق جيشه من إستجة فبعث مغيثاً الرومي مولى الوليد بن عبد الله بن عبد الملك إلى قرطبة في سبع مئة فارس، وبعث جيشاً آخر إلى (مالقة)، كما بعث جيشاً ثالثاً إلى (البيرة) أما هو فسار إلى كورة (جيان) بمعظم جنوده في طريقه إلى (طليطلة) وعبر طارق الواد الكبير، فدخل (طليطلة) سنة ٩٣ الهجرية دون مقاومة تذكر.

لقد تغلغل طارق تغلغلاً عميقاً في أنحاء الأندلس، بشكل لا يتناسب مع ما لديه من قوات، فماذا كان رد فعل موسي بن نصير القائد العام للمغرب كله، والمسؤول الأول تجاه القائد الأعلى في الشام؟[1].

٤ – خطبة طارق الشهير :

«أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، وليس والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولاأقوات لكم إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم. وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العافية من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس، إلا وأنا أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي... وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزباناً ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ثقة منه بأريحيتكم للطعان، واستماحكم

---

١) قادة فتح المغرب العربي : (١/٢٤٠، ٢٥١).

بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة وليكون غنيمة خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين، واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في هزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون)[1].

قلت : تضاربت الأقوال في صحة نسبة هذه الخطبة إلى طارق، فقد ذهب المؤرخ الشامي شوقي أبو خليل إلى إثباتها وعلق على هذه الخطبة فقال : يحلو لبعض المعاصرين التحذلق فقالوا : طارق بربري... فلا يعقل مطلقاً أن يخطب خطبة محبوكة فصيحة مثل هذه الخطبة الرائعة، التي وازن فيها في ترغيب ساحر زخار بين الدين والدنيا...

فأي موجب للشك في نسبة هذه الخطبة لطارق، وطارق اشتهر في قومه بالفصاحة...، ماذا يفيد الارتياب في أمر تتشابه دلائل عديدة في مراجعنا وبشكل صريح، علماً أن الأدلة لا تتكامل على نقضه ففي نفح الطيب، وصف لطارق يقول : (إن طارقاً كان حسن الكلام، ينظم ما يجوز كتبه)... علماً أن والد طارق (زياد) أسلم منذ أيام عقبة بن نافع... لذلك شب طارق في بيت مسلم، لقنه تعاليم الإسلام، أبوه من ناحية، وموسى من ناحية ثانية.

عجباً للأجانب : شرقيهم وغربيهم، إن وجدوا في تاريخهم قصة أو قولاً أو

---

(١) نفح الطيب : (٢٢٥/١).

حادثة تنهض بجيلهم، وتثبت في نفوس النشء روحاً وتربطهم بأمتهم وذاتيتهم صححوها، وإن لم يروا إلا مرجعاً واحداً من مراجعهم بل قد يختلقون أحداثاً، وينسجون قصصاً يلصقونها برجالاتهم لما في ذلك من مصلحة للجيل وفائدة للنشء، وخير للأمة. وعجباً لنا... ما بالنا؟! مراجعنا تذكر أن طارق كان حسن الكلام، ينظم ما يجوز كتبه، وترعرع في بيت مسلم يتلا فيه قرآن كريم، ثم يأتينا من يقول : ما ظن، وكان اجتيازه البحر في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧١٠)[1].

المطلب الخامس : طارق بن زياد في سطور

اسمه ونسبه : أورد ابن عذارى المراكشي، صاحب [البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب] نسب طارق بن زياد فقال : (هو طارق بن زياد بن عبد الله بن لغو بن ورفجوم بن نيرغسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو... فهو نضري)[2].

وفي دائرة معارف الشعب جاء : (وقد اختلف مؤرخو العرب في أصله – أصل طارق – فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسياً همذانياً، وذهب فريق آخر ومنهم الحميدي صاحب جذوة المقتبس، إلى أنه كان بربرياً من إفريقية، ومن قبيلة نفزة البربرية وأنه لم يكن بربري الأصل، وإنما كان ينتسب إلى الصدفة[3].

وذهب شوقي أبو خليل إلى : (أنه كان بربري الأصل... فقد قيل : إنه طويل القامة، ضخم الهامة أشقر اللون، وتنطبق هذه الصفات على عنصر البربر) إن الأدلة الصادقة تؤكد نسبة طارق إلى البربر.

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب : (٢١٤/١).

(٢) البيان المغرب : (٤٣/١).

(١) دائرة معارف الشعب (٢٣٧/٢).

قلت : وإخواننا المسلمون من البرابرة أبطال وشجعان تربوا في أحضان القرآن وأشربت قلوبهم تعاليمه، وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال على مر العصور والأزمان فهم إلى الإسلام منتسبون، وبه يعتزون وما تقوم به المنظمات النصرانية واليهودية، والدول الغربية من إحياء النعرات البربرية والعربية في أوساطنا ما هي إلا هباء منثور، وستتحطم جهودهم على صخرة الإسلام الخالدة، والأيام كفيلة بذلك.

إن إخواننا البرابرة عندما أكرمهم الله بالإسلام قدموا كل ما يملكون في سبيل عقيدتهم ودينهم، بل نستطيع أن نقول إن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالإسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا البرابرة الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره للعالمين، إن هذه العقيدة صهرت المنتسبين إليها عرباً وعجماً في بوتقة الإسلام العظيمة، أي بربري يستطيع أن يقول ما قيل في الخطبة. وهل من الضروري أن يكون جده عنترة، أو زهير بن أبي سلمى، أو عمرو بن كلثوم حتى يقول ما قيل في الخطبة؟ هات طفلاً من الصين أو من أواسط إفريقيا، أو من صحراء نيفادا، وأنشئه على تلاوة وحفظ القرآن، كما نشأ طارق لخرج خطيباً مصقعاً، حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه، فما بالنا نشكك في خطبة طارق؟[١].

ويقول شوقي أبو خليل أيضاً : إنني ما زلت أذكر أيام الطفولة، أيام الصف الرابع الابتدائي عندما كانت هذه الخطبة الرائعة ضمن برنامج القراءة، تعلوها صورة خيالية لطارق يخطب في الجموع، والسفن تحترق في المضيق ما زلت أذكر شعورنا عندما شرح المعلم لنا فتح الأندلس، وقصة حرق السفن والخطبة، لقد عشنا لحظات كأننا ننظر إلى الحادثة تقع أمامنا، وما زلت أحفظ قسماً من الخطبة حتى يومنا هذا، وإن لم يكن حفظها غيباً. وما رددت كلماتها إلا وشعرت بعزة وبروح معنوية تدب في

---

(١) فاتح الأندلس طارق بن زياد : (٤٥، ٤٦).

النفس، مع كبرياء في القلب، وفخر بتاريخ إسلامي مجيد[1].

مناقشة إحراق السفن : وشك آخر يذكره كثيرون، عما اشتهر عن إحراق طارق لسفنه، ونحن نذكر في هذا الصدد ثلاث نقاط تدعونا للتفكير ملياً قبل رفضنا فكرة الإحراق :

يقول شوقي أبو خليل : (١ - لم تتضافر الأدلة على تدعيم الشك أو ترجيحه والعكس صحيح. تتضافر الأدلة على تدعيم الإحراق. ٢ - وفي رواية ابن حيان، الموصوف بأنه صاحب لواء التاريخ في الأندلس، وأفصح الناس بالتكلم فيه، وأحسنهم تنسيقاً له، عندما ذكر المدد الذي أرسله موسى لطارق، قال : (وكان عمل من السفن عدة)، أي جاء المدد على سفن غير السفن التي نقلت طارقاً وجنده إلى أرض الأندلس... وهذا يؤيد الإحراق، وإلا فلا معنى مطلقاً لعبارة تحشر حشراً، يضعها من وصف بأنه صاحب لواء التاريخ في الأندلس، وأفصح الناس بالتكلم فيه!!!

إن عبارة : (وكان عمل من السفن عدة) عبارة تستدرك جواباً لمن يسأل : لقد أحرقت السفن، فكيف نقل المدد؟ فيأتينا الجواب واضحاً : (وكان عمل من السفن عدة) وتاريخ غزوات العرب، أوضح أن موسى بن نصير، قد اهتم ببناء السفن والأساطيل على طول ساحل المغرب، ومن جبل طارق وحتى طرابلس الغرب وبصريح العبارة، جاء في نفح الطيب : (وكان موسى منذ وجه طارقاً لوجهه، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مدداً، كملت بهم عدة من معه اثني عشر ألفاً) وهذا جواب جلي واضح، لمن يسأل : ومن أين جاء موسى بالسفن وقد أحرق طارق السفن التي كانت معه؟! وقبيل المعركة أرسل لذريق من يستطلع أمر المسلمين، فعاد من استطلع ليقول للذريق : (فقد

---

(١) نفس المصدر : (٤٤، ٤٥).

جاءك منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك، قد حرقوا مراكبهم أياساً لأنفسهم من التعلق بها).

٣ - صفحات من التاريخ العربي والإسلامي، تحمل أحداثاً مماثلة في الإحراق، لقد أحرق القائد الفارسي سفنه باليمن في نصرة سيف بن ذي يزن، وأحرق المسلمون سفنهم في صقلية ثانية، وفي كريت (اقريطش) مرة ثالثة في مستهل القرن الثالث الهجري)[1].

قلت : ومع احترامي للقول المائل إلى الإحراق إلا أن بث الشجاعة في النفوس له طرقة عدة، كما يمكن أن ترجع السفن إلى قواعدها سالمة، وينقطع أمل المجاهدين في الرجوع من حيث جاؤوا.

٤ - بين موسى وطارق :

بلغت موسى أخبار فتوحات طارق، فغضب موسى لعصيان طارق لأوامره فقد أمره موسى ألا يتعدى قرطبة على قول، أو موضع هزيمة لذريق - في وادي لكة - على قول آخر، فسارع موسى إلى عبور المجاز ودخول الأندلس، وقيل : إنما جاز موسى باستدعاء من طارق إياه، فقد كتب طارق إلى موسى : (إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث... الغوث...) فلما أتاه الكتاب نادى الناس وعسكر... فاستخلف عبد الله بن موسى على إفريقية وطنجة والسوس، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق إلى مروان بن موسى ابنه يأمره بالمسير، فسار مروان بمن معه، حتى أتى المجاز، فأجاز بمن زحف معه في جموعه. لقد كان نزول موسى إلى الأندلس لسبب حربي، وهو تدعيم الفتح وترصينه، وحتى يحول دون وقوع كارثة أكيدة على المسلمين من جراء تغلغل طارق في الأندلس تغلغلاً لا يتناسب مع ما لديه من رجال.

---

(١) فاتح الأندلس طارق بن زياد : (٤٥، ٤٦).

أما ما تواتر في كتب التاريخ العربي من أن موسى ما كاد يسمع بأخبار الفتح حتى أكل الحسد قلبه، وقرر أن ينال هو الآخر نصيبه من شرف الفتح، وأنه أساء معاملة طارق وضربه بالسوط فمغالى فيه، إذ لا يعقل أن يصدر مثل ذلك عن تابعي جليل وفاتح عظيم كموسى. ثم إن طارقاً كان مولى لموسى، يعمل بأوامره وينفذها نصاً وروحاً، وكان يكتب إليه أخبار الفتح أولاً بأول، فلو أن موسى حسد طارقاً أو أساء الظن به لاستطاع إزاحته من طريقه، وذلك بعزله واستدعائه إلى القيروان فليس من المعقول ولا يستطيع طارق مخالفة أوامر موسى في شيء.

إن كل الدلائل تشير إلى أن طارقاً كان مثالاً للطاعة والنظام، فقد بعث بأولاد غيطشة إلى مولاه موسى عندما وصلوا إليه في طليطلة وقالوا له : أنت أمير نفسك أم على رأس أمير؟ فقال طارق : بل على رأسي أمير، وفوق ذلك الأمير أمير عظيم، وهذا يدل على منتهى الضبط وتقدير المسؤولية والالتزام بسلسلة المراجع. ولعل أوضح دليل على أن موسى قدم الأندلس لمعونة طارق لا لتأديبه، وأن موسى قدم الأندلس لأغراض عسكرية بحتة. هو أن موسى لم يذهب للقاء طارق بعد نزول أرض الأندلس، وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح، وذلك لحماية جناح طارق الأيسر من جهة ولتدعيم قواعد الفتح المتقدمة في الأندلس ولتثبيت قوات العدو بإشغالها في جبهات عديدة بقوات المسلمين الضاربة، فلما تم له ذلك سار موسى إلى طارق ولقيه في طلبيرة على مقربة من طليطلة وحين التقيا قال موسى لطارق : يا طارق إنه لن يجازيك الوليد عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس، فاستبحه هنيئاً مريئاً)، فقال طارق : (أيها الأمير! والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي)، ولم يزل طارق يفتح ومعه موسى إلى أن بلغ إلى جليقية وهي على ساحل البحر المحيط...

وكان عبور موسى إلى الأندلس في رمضان سنة ثلاث وتسعين الهجرية

(٧١٢م) من طنجة على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفاً من قريش والعرب ووجوه الناس... ولقد كان ترصين قواعد الفتح المتقدمة وتأمين خطوط ومواصلات الفتح وحماية الجناح الأيسر الغربي لمنطقة فتح طارق، الأهداف الحيوية الأولى التي حققها موسى بعد إنزال قواته الأندلس.

فتح إشبيلية : وتحرك بقواته نحو إشبيلية، وكانت من أعظم قواعد الأندلس شأنا وأتقنها بنياناً وأكثرها آثاراً وكان دار ملك الروم قبل غلبة القوطيين على الأندلس.

فتح ماردة : وكانت ماردة أيضاً دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر، وهي ذات عز ومنعة، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف، فحاصرها أيضاً، وكان أهلها في منعة شديدة وبأس عظيم، فنالوا من المسلمين دفعات وردّوهم. وعمل موسى دبابة دب المسلمين تحتها إلى برج من أبراج أسوارها جعلوا ينقبونه، وقتل في هذا البرج الكثير من المسلمين، فسمي ذلك الموضع (برج الشهداء) واستمر موسى محاصراً لماردة، ودخلها صلحاً سنة أربع وتسعين الهجرية.

فتح إشبيلية ثانية : وحين كان موسى محاصراً (ماردة)، ثار عجم إشبيلية وارتدوا وقاموا على من فيها من المسلمين، فلما أن فتح ماردة وجه عبد العزيز بن موسى في جيش إلى إشبيلية ففتحها وقتل أهلها. ولم يغادر عبد العزيز بن موسى إشبيلية إلا بعد أن ترك في إشبيلية وباجة ولبلة حاميات إسلامية لتؤمنها من أي تدبير يقوم به القوط، وكانت حامية باجة قوية بقيادة قائد عربي معروف هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى، وجد بني زهرة أحد بيوت إشبيلية التي سيكون لها شأن.

مقتل لذريق : لقد أدرك موسى أن مراكز المقاومة القوطية وعلى رأسها لذريق بدأت تتجمع في منطقة الجزء الشمالي من غرب الأندلس بالذات لعرقلة مسيره، والإفادة من وعورة المنطقة، ظناً منهم أن المسلمين لن يستطيعوا الوصول إليها، فقدر

موسى موقف عدوه تقديراً صائباً، لذلك استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة. وخرج طارق بجيوشه ملبياً أوامر موسى، وتابع موسى سيره بعد ذلك في الطريق إلى طليطلة حيث التقى بطارق في موضع يقال له : تايد أو تايتر وهو نهر في المنطقة وخرج طارق معظماً، ونزل بين يديه، فعاتبه موسى على مخالفته لرأيه في تسرعه لاقتحام الأندلس من الوسط، فاعتذر إليه طارق واستلطفه حتى رضي عنه موسى.

اتبع موسى وطارق الطريق الروماني القديم الممتد من ماردة إلى سلمنقة.. ومضى في فج منسوب إليه بحذاء نهر سمي منذ ذلك الحين بوادي موسى، وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت للهجوم على المسلمين، وانقضوا على جيش موسى من ناحية يسميها بعض المؤرخين من المسلمين (السواقي) وهي (سيجويلادي لوس كورنيخوس) بالقرب من بلدة تماس، وهناك وقعت المعركة الحاسمة الثانية في سنة أربع وتسعين الهجرية ٧١٢م، وفي هذه المعركة لقي لذريق حتفه على يد مروان ابن موسى بن نصير، وهزم القوط هزيمة نكراء.

فتح طليطلة ثانية : ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه الموقعة الحاسمة قد شجع نفر من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ووثبوا عليها فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر، وفي طليطلة سلم طارق إلى موسى الكنوز التي غنمها من الكنائس وغيرها عند فتحه طليطلة لأول مرة، فأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة أربع وتسعين الهجرية يدبر أمرها، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برونزية لصرف رواتب الجند، وذلك بدل السكة القوطية بطليطلة، ثم بعث موسى برسولين إلى الوليد ابن عبد الملك ينهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم، ووقع اختياره على التابعي علي بن رباح وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره ومغيثاً الرومي، فاتح قرطبة ومولى الوليد بن عبد الملك، فلما دخل وفد موسى إلى الوليد قال علي بن رباح : (يا أمير

المؤمنين : تركت موسى بن نصير في الأندلس، وقد أظهره الله ونصره، وفتح على يديه مالم يفتح على يد أحد، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه، بفتح من فتوحه)، ثم دفع إليه الكتاب من عند موسى فقرأه الوليد فلما أتى على آخره خر ساجداً).

فتح شمال الأندلس : ولما انقضى فصل الشتاء واطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد، عزم على متابعة الفتح فأخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبه جزيرة الأندلس. جمع جيوشه، وأكمل أمورها الإدارية، ثم زحف بها نحو (سرقسطة) الواقعة على الضفة اليمنى من نهر أبرة وكان طارق على مقدمته وسار موسى خلفه في جيوشه، فارتقى إلى الثغر الأعلى، وافتتح سرقسطة وأعمالها. وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليهما، وأغنمهما الله تعالى ما فيه، وقد ألقى الله الرعب في قلوب العدو، فلم يعارضهما أحد إلا بطلب الصلح، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله ويكمل ابتداءه، ويوثق للناس ما عاهدوه عليه. ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على سرقسطة حتى رعب أسقفها (بنسيو) ومن معه من الرهبان، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخائر، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده، فسكنت مخاوفهم وعدلوا عن مغادرة المدينة، وفتحت المدينة البيضاء (سرقسطة) أبوابها للمسلمين سنة أربع وتسعين للهجرة. ولم يكد المسلمون يستقرون في هذا البلد حتى قام التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني بإنشاء مسجد للمدينة، وقد قدر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله في هذه النواحي.

وبعد فتح سرقسطة فتح موسى (وشقة) و(لاردة) و(اطركونة)... وحين أوغل موسى وجاوز سرقسطة، اشتد ذلك على الناس وقالوا : أين تذهب بنا؟! حسبنا ما

بأيدينا، وكان موسى قال حين دخل إفريقية وذكر عقبة بن نافع : لقد كان غرر بنفسه حين توغل في بلد العدو، والعدو عن يمينه وعن شماله وأمامه وخلفه، أما كان معه رجل رشيد؟! فسمعه حنش الصنعاني، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ من التغلغل عمقاً في الفتح – قام حنش فأخذ بعنانه، ثم قال : (أيها الأمير إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول : لقد غرر بنفسه وبمن معه، أما كان معه رجل رشيد؟! وأنا رشيدك اليوم أين تذهب؟ تريد أن تخرج من الدنيا؟! أو تلتمس أكثر مما آتاك الله عز وجل وأعرض مما فتح الله عليك، ودوخ لك؟ إني سمعت من الناس ما لم تسمع، وقد ملؤوا أيديهم وأحبوا الدعة. فضحك موسى ثم قال : أرشلك الله وكثر في المسلمين من أمثالك. ثم انصرف قافلاً إلى الأندلس وهو يقول : أما والله لو انقادوا إلي لقدتهم إلى رومية (روما) ثم يفتحها الله على يدي إن شاء الله[1].

ولكن موسى استطاع أن يعيد إلى الجنود نشاطهم وحماستهم للفتح، وبينما كان يعد العدة لفتح جليقية، إذ أتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس والكف عن التوسع في البلاد، وأن يشخص إلى دمشق، فساءه ذلك، وقطع به عن إرادته، إذ لم يكن في الأندلس بلد لم تدخله العرب إلى وقته غير جليقية،، فكان شديد الحرص على اقتحامها، ولكن قدوم مغيث لم يصرف موسى عن المضي في إتمام هذه الغزوة التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة، فبذل جهده للبقاء في الأندلس بعض الوقت ريثما يتم فتح جليقية.

ولاطف مغيثاً – من أجل ذلك – وسأله إمهاله، إلى أن ينفذ عزمه في الدخول إلى جليقية والمسير معه في البلاد أياماً، يكون شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل مغيث

---

(١) قلت : وهذه هي العلاقة بين القيادة والجنود في الجيوش الإسلامية مبنية على التناصح والتعاون على البر والتقوى والسمع والطاعة في العسر واليسر المنشط والمكره ما دامت القيادة تقود الجنود إلى مرضاة الله والقيادة تسمع للنصح ما دام فيه حق وإرشاد.

ومشى معه... فلما اطمأن موسى إلى ذلك، بادر إلى السير شمالاً لفتح قشتالة القديمة تأميناً للحدود الشمالية لإقليم طليطلة... سار موسى بنفسه على الضفة الشرقية لنهر إبره في إقليم قشتالة فأطاعه معظم من مرّ بهم من رؤساء هذه الناحية... وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط، فاطمأن إلى أنه فتح شبه الجزيرة كلها، لذلك شعر أنه لم يعد هناك معنى للاسترسال في الفتح... ولما انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحد القصي، كان لابد أن يعود لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط، بل إلى دمشق رأساً، فقد كان مغيث الرومي رسول الخليفة يتعجله، وكان الوليد بن عبد الملك معجلاً عليه لا يريد أن يتمهل إذ أن رسولاً آخر من الوليد يكنى أبا نصر بعثه إلى موسى بعدما استبطأ في القفول.

عودة موسى وطارق إلى المشرق :

أخذ موسى في طريق العودة في أواخر سنة خمس وتسعين الهجرية (منتصف صيف ٧١٤م)، وكان مغيث الرومي قد خف للقائه، فالتقيا بنواحي ليون، وهناك أدركهما طارق عائداً من استرقة، وساروا جميعاً إلى إشبيلية حيث ركبوا البحر. وقد اختار موسى إشبيلية عاصمة للأندلس واستخلف عليها ابنه عبد العزيز وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري وزيراً معيناً، وترك معه العساكر ووجوه القبائل ومن يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو. واستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إفريقية وابنه مروان على (طنجة) و(السوس) ومر في طريق عودته بـ(القيروان) ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين كانون الأول (ديسمبر ٧١٤م)، ثم ذهب إلى فلسطين وبلغ دمشق سنة ست وثمانين الهجرية.

لما قدم موسى على الوليد قبل وفاته بأربعين يوماً وهذا ما نرجحه ومعه غنائم ضخمة يعجز عنها الوصف، ولكن الظاهر أن قلب الوليد كان متغيراً على موسى، فلم

يحسن لقاء موسى، ثم لم يلبث الوليد أن لقي ربه وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً على موسى، ولهذا كان طبيعياً ألا ينتظر موسى خيراً كثيراً وأن يدرك أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر[1].

وقد نسب المؤرخون إلى سليمان بن عبد الملك أنه أساء معاملة موسى بن نصير وأبقاه في حر الشمس حتى كاد يغمى عليه من شدة التعب والجهد والحر، وأن سليمان حبسه وأمر بتقصي حسابه فأغرمه مغرماً عظيماً، وما نسبه المؤرخون لا يصح لأن سليمان ترك أولاد موسى ولاة على إفريقية، ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان وصاحب الأمر في دولته، ولأن عمر بن عبد العزيز كان من أقرب المقربين إلى سليمان ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبد العزيز عن مثل تلك التصرفات دون أن يقول كلمته لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولأن سيرة سليمان الذي وصفه المؤرخورن بأنه مفتاح الخير، وأطلق الأسرى وخلى السجون وأحسن إلى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز، لا تستقيم مع اتهامه بالتنكيل بموسى وهو شيخ كبير له ماض ناصع مجيد في خدمة المسلمين.

لقد كان موقف سليمان من موسى موقفاً سليماً، وحقائق التاريخ تعلو دائماً على المبالغات المدسوسة عن قصد أو عن غير قصد، ولكن، لماذا عزل الوليد بن عبد الملك موسى عن إفريقية والأندلس وأقر سليمان هذا العزل؟ ولماذا استدعى الوليد موسى من ساحات القتال على عجل ولم يمهله حتى يحقق نياته التوسعية في الفتح؟

أسباب استدعاء موسى إلى دمشق وعزله : يبدو أن الوليد ومن بعده سليمان اعتقدا أن موسى غرر بالمسلمين، وإنه عرضهم للمهالك بتغلغله إلى حدود بعيدة في

---

(١) قلت : من خلال دراستي لسيرة موسى بن نصير لاحظت أنه محسود وله أعداء وهم الذين أوغروا قلب الوليد وسليمان عليه ثم إن مجده وعزه متمثلاً في طاعة ربه وحرصه على نشر دينه وبحثه على الشهادة في سبيله : **﴿ما عندكم ينفذ وما عند الله باق...﴾**.

الأندلس، كما أنهما خشيا من طموح موسى في التغلغل إلى بلاد أبعد من الأندلس فيقود المسلمين إلى رومية، وأن موسى : (أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروبه ودروب الأندلس، ويخوض إليه ما بينها من أمم الأعاجم النصرانية، مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة)، فنمي هذا الخبر إلى الوليد، فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما هم به موسى غرر بالمسلمين إن لم يرجع وكتب له بذلك عهده، ففت ذلك في عزم موسى، وقفل عن الأندلس بعدما أنزل المرابطة والحامية بثغورها، أنزل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها. والظاهر أن الخلفاء لم يكونوا مطمئنين على أمن المسلمين في الأندلس حتى بعد الوليد وسليمان، فقد فكر عمر بن العزيز في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها، إذ خشي تغلب العدو عليهم فإذا كان هذا ما يعتقده عمر بن عبد العزيز الذي تولى الخلافة سنة تسع وتسعين الهجرية، فلماذا نلوم الوليد وقد استدعى موسى سنة خمس وتسعين الهجرية، والفتح كان في أوله، والأندلس بعيدة عن دار الخلافة.

لقد كان طموح موسى في التوسع بالفتح، سبباً واضحاً لاستدعائه إلى دار دمشق، وهذا السبب – فيما أرى – من الأسباب الجوهرية التي جعلت الوليد يستدعيه وهناك سبب آخر وهو أن خصوم موسى دسوا عليه عند الخلفاء أنه يفكر بالاستقلال عن الخلافة وزينوا له ذلك بأساليبهم وكان موسى بوسعه أن يستقل عن الخلافة، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام وتمسكه والتزامه بها جعله لا يفكر بذلك حتى إن المهلب ابن أبي صفرة سأله عن ذلك فقال موسى : (والله لو أردت ذلك مانالوا من أطرافي طرفاً، ولكني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة).

المطلب السادس : أهم صفاته القيادية، ومبادئه الحربية

كان موسى إدارياً حازماً، استطاع السيطرة على منطقة ولايته في إفريقية والمغرب والأندلس سيطرة كاملة بناءة منشئة بكل كفاية وجدارة، وقد أعانته عقليته الجبارة على التفكير العميق في تطوير البلاد التي تحت نفوذه. وكان من أولئك الولاة الذين يفكرون بما يعملون، ويعرفون ما يريدون، وينفذون ما يخططون.

لقد كان من مزايا موسى أنه كان : النصر في ركابه، والحزم في قراراته، والخلق الكريم من مزاياه والحق رائده، والعدل سيرته والكرم هدفه، والمواهب السامية خصاله، كان عاقلاً شجاعاً كريماً، وقد بذل جهوداً عظيمة لنشر الإسلام في إفريقية والمغرب : ترك رجالاً من الدعاة ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام، وفي سنة خمس وثمانين الهجرية تم إسلام أهل المغرب الأقصى، وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة، وجعلوا المنابر في مساجد الجماعات فاستأمن البربر إليه وأطاعوه، وبهذه الخطة العملية الرائعة استطاع موسى أن ينشر الإسلام في ربوع المغرب، وبذلك أشاع الانسجام الفكري بين العرب والبربر بغرس تعاليم الإسلام في نفوس البربر فأصبحوا مع العرب قوة موحدة هائلة وجدت لها متنفساً في فتح الأندلس، فربط موسى بهذا الفتح مصير الفاتحين من العرب المسلمين وإخوانهم البربر المسلمين، وجعلهم يدافعون عن عقيدة واحدة بقيادة واحدة لتحقيق هدف واحد هو : إعلاء كلمة الله ونشر دينه في الأرض حتى تكون كلمة الله هي العليا.

ومن أعمال موسى الإدارية : ضرب أول عملة إسلامية في الأندلس، ومن أعماله الإدارية التي تتسم بالطابع العسكري أيضاً تحسينه (دار الصناعة) التي كانت بتونس، والتي أسسها حسان بن النعمان حيث استطاع موسى بن نصير إن يطوروها ويجري البحر إليها مسيرة اثني عشر ميلاً، حتى أقحمه دار الصناعة، ثم أمر بصناعة

مئة مركب، فأصبح بإمكان هذه الدار إنشاء المراكب وتدريب البحارة وتصليح السفن، مما سهل على موسى جهاده البحري وفتح الأندلس.

ومن أعماله الإدارية الخالدة : نشره اللغة العربية بين البربر، وذلك بإرسال المعلمين والاختلاط الشديد بين العرب والبربر، كما أن إقبال البربر على الإسلام أدى إلى إقبالهم على تعلم اللغة العربية وانتشارها بينهم، مما كان له أكبر الأثر على عروبة المغرب، كما أن اتجاه موسى العملي إلى عدم التفرقة بين العرب المسلمين والبربر المسلمين، في إسناد المناصب إلى الأكفاء منهم جعل من البربر المسلمين سنداً قوياً للعرب المسلمين، وجعل منهم فاتحين يسيرون جنباً إلى جنب مع إخوانهم العرب المسلمين للفتح. ولعل تولية طارق بن زياد، وهو بربري، أخطر المناصب القيادية، هو خير دليل على عدم تفرقة موسى بين المسلمين من بربر وعرب، وأن الكفاءة وحدها هي التي كانت تقدم وتؤخر في نظر موسى، مما جعل البربر يبذلون قصارى جهدهم في الفتح سواء كان ذلك في ساحات إفريقية والمغرب أو في ساحات الأندلس أو جزائر البحر الأبيض المتوسط. لقد كان موسى رجل دولة بكل ما في الكلمة من معاني.

أهم مبادئه الحربية الاستراتيجية :

إنه كان يعرف مزايا الأمم التي قاتلها، فيحارب تلك الأمم على هدى وبصيرة وأنه كان يعرف مزايا الخيل وما يستفاد منها في الحروب وما لا يستفاد. ومن مزاياه الحربية تجربته الطويلة في معاناة الحروب، وإنه كان ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة في الحرب، ومن مزاياه أسلوبه الفذ في معالجة الحصون والمدن المنيعة، فقد كان ماهراً في الحصار وفي قتال المدن، وعنايته الكبيرة بحماية خطوط المواصلات، وتفريق قوات العدو لضربها متفرقة على انفراد، كان يطبق مبدأ اختيار المقصد وإدامته، ومبدأ

التعرض، ومبدأ المباغتة، ومبدأ الأمن، ومبدأ تحشيد القوة، ومبدأ المرونة، ومبدأ إدامة المعنويات، ومبدأ الأمور الإدارية[1].

المطلب السابع : وفاتــه

فقد توالت المصائب على الشيخ المجاهد البطل موسى بن نصير بعد وصوله إلى دمشق سنة ست وتسعين الهجرية ٧١٤م، ولعل من أعظم ما أصابه مقتل ابنه عبد العزيز في الأندلس، وفي سنة سبع وتسعين الهجرية حج بالناس سليمان بن عبد الملك، فأمر موسى بالشخوص والحج معه فذكر موسى لسليمان أنه ضعيف، فأمر له سليمان بثلاثين نجيباً موقورة، وبحجرة من حجره، فحج سليمان، وحج معه موسى، وتوفي موسى في وادي القرى، سنة سبع وتسعين الهجرية، وكان عمره حينها ثمان وسبعين سنة قمرية، لأنه ولد سنة سبع عشرة هجرية كما مر بنا، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك.

وهكذا أغمض البطل عينيه إلى يوم القيامة، لكن التاريخ لم يغمض عينيه عن مآثره الخالدة، ذلك لأنه كان قد جمع من خلال ما أعانه الله سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيد، والذكر الشهير المخلد، الذي لا يبليه الليل والنهار، ولا يعفي جديده بلى الأعصار.

فعلى الأجيال الصاعدة أن تذكر لموسى أنه فتح المغرب الأقصى واستعاد فتح المغرب الأوسط، وأنه رصن الفتح الإسلامي في الشمال الإفريقي، وأنه فتح الأندلس وقسماً من جنوب فرنسا، وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي، رضي الله عن التابعي الجليل، والإداري الحازم، والبطل المغوار، والقوي الأمين، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي)[2].

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء : (٤/٤٩٦).

(٢) راجع : قادة فتح المغرب العربي : (١/٢٢١ - ٣٠٩).

المبحث السادس : عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي

إن عبد الله بن الزبير، ابن أبيه، فاتح صبراتة، وسوسة، يعتبر من أبرز قيادات فتح ليبيا في زمن الفتح المبارك، فمن هو هذا القائد، وما هي أهم أعماله الجهادية، وصفاته القيادية؟ كل ذلك سوف نتناوله في هذه العجالة بشيء من الإيجاز.

المطلب الأول : اسمه، ونسبه، وميلاده

اسمه، ونسبه : هوعبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي، فأبوه أحد العشرة المبشرين بالجنة، فهو ابن حواري رسول الله ﷺ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين، وجدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وعمة أبيه خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، وخالته عائشة أم المؤمنين.

ميلاده : هاجرت أمه أسماء بنت أبي بكر من مكة وهي حامل به فولدته بـ(قباء) في السنة الأولى من الهجرة، فهو أول مولود في الإسلام من المهاجرين بالمدينة، فحنكه رسول الله ﷺ بتمرة لاكها فيه في ثم حنكه بها، فكان ريق رسول الله ﷺ أول شيء دخل جوفه، ثم دعا له وبارك عليه، وأذن أبو بكر الصديق في أذنه حين ولد.

أيامه الأولى : أحضره أبوه الزبير إلى رسول الله ﷺ ليبايعه وعمره سبع سنين أو ثماني سنين، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً تبسم ثم بايعه.

لقد نشأ عبد الله في بيت كريم الآباء والأمهات والعمات والخالات في محيط كله نور وهدى، وجهاد وفداء، قريباً من رسول الله ﷺ، وهكذا نشأ في محيط مناسب ليكون بطلاً مسدداً، فنال شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد لصغر سنه.

المطلب الثاني : جهـاده

١ - شهد عبد الله معركة اليرموك الحاسمة بين المسلمين والروم مع أبيه، فلما انهزم الروم يوم اليرموك جعل يجهز على جرحاهم وشهد خطبة عمر بـ(الجابية).

وشهد ابن الزبير فتح مصر، وكان أحد الشهود على وثيقة الصلح بين المسلمين وبين أهل مصر، وذلك سنة عشرين الهجرية، وشهد مع عمرو بن العاص فتح ليبيا، فلما انتهى عمرو من فتح طرابلس أمر الخيل بالإسراع إلى صبراتة لفتحها، وبقي هو في طرابلس للإشراف على أمورها، وأسرعت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير، فصبحوها من ليلتهم على غرة، فوجدوا أبواب السور مفتوحة وأهلها مشغولون بإخراج الحيوانات للمرعى، فاقتحموها عليهم بالقوة وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا ومن فرّ منهم ركب البحر هارباً إلى صقلية، وهدم المسلمون سورها خوفاً من تحصن الروم بها مرة ثانية، وغنموا كل ما فيها وكان شيئاً كثيراً، وأرسلوا إلى عمرو بن العاص في طرابلس يخبرونه بما فتح الله عليهم فحضر إلى صبراتة.

٢ - وشهد عبد الله فتح (إفريقية) أيام عثمان بن عفان تحت لواء عبد الله بن سعد بن ابي السرح، وكان الفتح على يديه فقد سيره عثمان في جماعة إلى (إفريقية) سنة ست وعشرين الهجرية ليأتيه بأخبار الفتح، فسار مجداً حتى وصل إلى المسلمين هناك وأقام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير عند المسلمين، وسمع (جرجير) يقول : (من قتل عبد الله بن سعد فله مئة ألف دينار وأزوجه ابنتي) فحضر ابن الزبير إلى عبد الله بن سعد وقال له : (تأمر منادياً ينادي : من يأتي برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده)، فركب الرعب قلب (جرجير).

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد : (إن أمرنا يطول مع هؤلاء وهم

في أمداد متصلة بولاد هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيت أن نترك غداً جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم متأهبين، نقاتل نحن الروم في باقي المعسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كان في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم على غرة، فلعل الله ينصرنا عليهم)، فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك.

وفي صباح الغد، نفذ سعد خطة ابن الزبير هذه، فأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم – وخيولهم عندهم مسرجة، ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالاً شديداً، فلما أذن بالظهر وهم الروم بالانصراف على العادة، لم يتركهم ابن الزبير وألح عليهم حتى أتعبهم، ثم عاد عنهم هو والمسلمون، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تعباً... عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحاً من شجعان المسلمين وقصد الروم، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غيشهم المسلمون.

ونظر عبد الله فرأى (جرجير) وقد خرج من عسكره على برذون أشهب ومعه جاريتان تظلانه بريش الطواويس وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد، فاختار ثلاثين فارساً من المسلمين وأخذهم معه... ثم حمل في الوجه الذي فيه (جرجير) وخرج صامداً له وما يظن جرجير وأصحابه إلا أن الزبير رسول إليه حتى وصل إليه ودنا منه، فعرف الشر، فثنى برذونه مولياً، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه ودافه بالسيف وحز رأسه ونصبه في رمحه وكبر... فحمل المسلمون من الوجه الآخر، وانهزم الروم بعد أن قتل ابنُ الزبير (جرجير) فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة وأخذت ابنة (جرجير) سبية، فنفلها عبد الله بن سعد عبدَ الله بن الزبير، وكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار.

ولما أراد ابن أبي السرح أن يبشر عثمان بالفتح قال لابن الزبير : (أنت أولى بهذا) فأرسله إلى عثمان بشيراً، فأخبره بما فتح الله عليه، فأمره عثمان أن يخطب، فلما خطب قال عثمان : (كأنه أبو بكر). لقد كان فتح (إفريقية) على يديه.

٣ – وتولى حرب (إفريقية) معاوية بن حديج السكوني بعد عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فكان ابن الزبير ساعده الأيمن في مهمته الشاقة، فقد كان ابن الزبير مع ابن حديج في جهاده، وحين وجهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل وفتح قمونية، وبث السرايا في البلاد وبعث عبد الله بن الزبير إلى (سوسة) ففتحها وكان ذلك سنة خمس وأربعين الهجرية.

٤ – وحضر عبد الله بن الزبير إلى الشام لغزو (القسطنطينية) أيام معاوية بن أبي سفيان فشهد حصارها وذلك سنة تسع وأربعين وقيل سنة خمسين.

المطلب الثالث : موقفه من الأحداث السياسية

لقد كان ابن الزبير أيام عثمان بن عفان – رضي الله عنه – أحد المقربين إليه، فلما حاصره أهل الأمصار، دافع عنه دفاعاً مستميتاً في يوم (الدار)، فقد استخلفه عثمان على (الدار) قائداً للمدافعين عن عثمان، فكان هو الذي يقاتل بالصامدين دفاعاً عن عثمان، فيخرج الكتيبة ويباشر القتال بنفسه، فجرح بضعة عشرة جرحاً غائراً : (فجرحت بضع عشر جرحاً، وإني لأضع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات، فأرجوا أن تكون خير أعمالي) كما كان يقول ابن الزبير... وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن أرطاة الجسري يمدحه ويلوم رجلاً :

فلو كنت مثل ابن الحواري لم ترم وجالدت يوم الدار إذ عظم الخطب

ولكن عبد الله طـاعـن دونـــه وضارب يوم الدار أذكره الضــرب

لقد كان عبد الله يدين بالطاعة للخليفة القائم مادام هذا الخليفة على الحق، وكان يربأ بنفسه أن يشارك أهل الفتن في إثارتها بقلبه أو لسانه أو سيفه.

وبعد مقتل عثمان بن عفان، شهد معركة (الجمل) وفيه بضع وأربعين جراحة، فأعطت عائشة رضي الله عنها الذي بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف، ثم سجدت شكراً لله، ولم يكن أحد أحب إليها بعد رسول الله ﷺ وبعد أبيها من ابن الزبير، وما سمعت تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له، وأوصت له بحجرتها.

واعتزل ابن الزبير حروب علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما كما اعتزل غيره من كبار الصحابة، وهذا يدل على شدة تعلقه بوحدة كلمة المسلمين وابتعاده عن إراقة دمائهم، ولست أرى في اشتراك عبد الله في معركة الجمل دليلاً عكسياً لكراهية سفك دماء المسلمين، إذ كان ملتاعاً من قتل عثمان وكان لا يريد عقوق والدته وخالته عائشة أم المؤمنين، يرى أن لرأيهما في المطالبة بدم عثمان والحرص على معاقبة قاتليه وزناً لا بد من احترامه وأخذه بعين الاعتبار.

قلت : والموقف الصحيح من الحرب التي وقعت بين الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – هو الإمساك عما شجر بينهم إلا فيما يليق بهم – رضي الله عنهم – لما يسببه الكلام في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين وذلك من أعظم الذنوب، وقبل أن أذكر أقوال السلف فيما شجر بين الصحابة أقدم بعض النصوص التي فيها إشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال، وبما وصفوا به فيها وتلك النصوص هي :

١ – قوله تعالى : **﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن**

فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ [الحجرات : ٩] ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال، لأنهم إخوة، وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان حيث سماهم الله – عز وجل – مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم، فإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان، فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا في موقعة الجمل وبعدها أول من يدخل في اسم الإيمان الذي ذكر في هذه الآية فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيماناً حقيقياً ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار في إيمانهم بحال لأنه كان عن اجتهاد[1].

٢ – روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة) فالمراد بالفئتين جماعة عليّ ومعاوية والمراد بالدعوة الإسلام على الراجح وقيل المراد اعتقاد كل منهما الحق.

٣ – روى الإمام أحمد ومسلم : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين) والفرقة المشار إليها في الحديث هي ما كان من الاختلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما وقد وصف عليه الصلاة والسلام الطائفتين معاً بأنهما مسلمتين وأنهما متعلقتين بالحق، والحديث علم من أعلم النبوة، إذ وقع الأمر طبق ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام، وفيه الحكم بالإسلام على الطائفتين : أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب علي أدنى

---

(١) انظر : العواصم من القواصم لابن العربي ص : (١٦٩، ١٧٠).

الطائفتين إلى الحق وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن علياً هو المصيب وإن كان معاوية مجتهداً وهو مأجور إن شاء الله، ولكن علياً هو الإمام فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : «إذا اجتهد فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

٤ – وروى البخاري بإسناده إلى أبي بكرة قال : بينما النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي ﷺ : «إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين» ففي هذا الحديث رد واضح على الخوارج الذين كفروا علياً ومن معه ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام، لذا كان يقول سفيان بن عيينة : (قوله فئتين من المسلمين تعجبنا جداً) قال البيهقي : وإنما أعجبهم لأن النبي ﷺ سماهما جميعاً مسلمين وهذا خبر من رسول الله ﷺ بما كان من الحسن بن علي بعد وفاة علي في تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان).

روى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن علي – المعروف بابن الحنفية – قال : قال علي : إني لأرجو أن أكون وطلحة والزبير من الذين قال الله – عز وجل – فيهم : ﴿**ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين**﴾ [الحجر : ٤٧] كما شهد – رضي الله عنه – بالحسى للقتلى من الفريقين في موقعه صفين : فقد روى ابن أبي شيبة بإسناده إلي يزيد بن الأصم قال : سئل علي عن قتلى يوم صفين فقال : قتلانا في الجنة وقتلاهم في الجنة) فالواجب على المسلم أن يسلك في اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام – رضي الله عنهم – مسلك الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة وهو الإمساك عما حصل بينهم – رضي الله عنهم – ولا يخوض فيه إلا بما هو لائق بمقامهم قال الشاعر :

دع ما جرى بين الصحابة في الوغى   بسيوفهم بيوم التقى الجمعان

فقتيلــــه منهم وقاتـلـهــم لـهــم وكلاهم في الحشر مـرحـومـان

عودة إلى ابن الزبير : اعتزل ابن الزبير حروب علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان... وبايع معاوية بعد انتهاء الفتنة الكبرى وعودة الوحدة الشاملة إلى صفوف المسلمين، كان معاوية بن أبي سفيان إذا لقيه قال : (مرحباً بابن عمة رسول الله وابن حواري رسول الله ﷺ، ويأمر له بمائة ألف.

وسمع معاوية رجلاً يقول :

ابن رقاش ماجد سميدع يأتي فيعطي عن يد أو يمنع

فقال : (ذاك عبد الله بن الزبير) ودخل على معاوية وعنده جماعة فيهم مروان ابن الحكم، وسعيد بن العاص، فأوسع له معاوية عن سريره، فلما انصرف عبد الله أقبل مروان على معاوية وقال له : (لله درك من رئيس قبيلة يضع الكبير ولا يدني إلا صغيراً، فقال معاوية : نفس عصام سودت عصاماً).

خلافة ابن الزبير[1] :

١ - لما مات معاوية بن أبي سفيان سنة ستين الهجرية، امتنع ابن الزبير عن الدخول في طاعة يزيد بن معاوية، ولما توفي يزيد بن معاوية أوصى بالخلافة لابنه معاوية فبايعه أهل الشام، ولم يمض على خلافته يوماً وقيل ثلاثة أشهر حتى مات وكان ابن الزبير قد دعا لنفسه في مكة وجاءته بيعة معظم الأقطار، فأرسل ولاته إليها، وقد اعتبره الذهبي وابن كثير أميراً للمؤمنين، وقال الذهبي : بويع له بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين، وحكم على الحجاز، واليمن ومصر والعراق، وخراسان، وبعض الشام، ولم يتوثق

---

(١) خلافة ابن الزبير، نقلاً من محاضرات الشيخ عبد العزيز نور ولي، الذي درسنا الدولة الأموية في الجامعة الإسلامية بالمدينة، ولقد أجاد في الرجوع إلى المصادر الموثوقة فاكتفيت بها.

له الأمر، ومن ثم لم يعده بعض العلماء في أمراء المؤمنين، وعد دولته زمن فرقة، فإن مروان غلب على الشام ثم مصر، وقام عند مصرعه ابن عبد الملك بن مروان وقاوم ابن الزبير وقتل رحمه الله ونقل ابن كثير أن ابنه حزم اعتبره أميراً للمؤمنين آنذاك.

٢ - لم يكن الصراع في الشام صراع قبلي في بداية الأمر، ولم يكن انقسام أهل الشام إلى قيسية ويمانية نتيجة تنافس بين الطرفين، وذلك لأنه لم يكن معاوية ولا يزيد قد فضلا أحد الطرفين على الآخر بل قربا كلا الفريقين، وإنما ظهر هذا الانقسام لأن أهل الشام كانوا من بني كلب اليمانية، أما الفاتحين لهذه البلاد فكانوا من القيسية واليمانية، وكان أهل البلاد الأصليين لا يرغبون في انتقال الخليفة من بلد إلى بلد آخر، لذلك رفضوا مبايعة ابن الزبير الذي كان مقره الحجاز وبخاصة أنه رفض طلب الحصين في الانتقال إلى الشام لتتم البيعة له.

أما القيسية الذين سكنوا الشام فلم يكن يهمهم أين يكون مركز الخلافة بقدر اهتمامهم بشخصية الخليفة، وكانوا أعلم بالصحابة وأقدارهم من غيرهم لذلك كانوا يرون أنه لا يتحقق هذا المنصب إلا أحد صحابة رسول الله ﷺ لذلك بايعوا ابن الزبير وعلى رأسهم الضحاك بن قيس الفهري، أما اليمانية من أهل الشام فكانوا على ولائهم لبني أمية، ولذلك اضطرب الناس، فخرج اليمانية إلى الجابية لمبايعة شخص من بني أمية، وأما القيسية فخرجوا إلى مرج راهط، اجتمع الكلبية في الجابية ورشح ثلاثة للخلافة : مروان بن الحكم، وعمرو بن سعيد بن العاص، وخالد بن يزيد بن معاوية، ورجحت أخيراً كفة مروان بن الحكم وذلك ليكون نداً لابن الزبير. سار مروان إلى مرج راهط، واستطاع الكلبية أن يستولوا على دمشق ويضعوا أيديهم على بيت المال، وبذلك أمدوا مروان بالمال والرجال ونشب القتال بين جيش الضحاك، وانتهت، تلك

الموقعة التي دعيت بموقعة مرج راهط بانتصار اليمانية على القيسية واستقر أمر مروان في الشام، ثم اتجه مروان إلى مصر لأهميتها بالنسبة للشام واستطاع انتزاعها وطرد عامل ابن الزبير منها وأخذ بيعتها لنفسه. ولكن مروان لم يعش طويلاً فقد مات في رمضان سنة ٦٥هـ، وعهد بالبيعة إلى ابنه عبد الملك من بعده.

حركة التوابين في العراق : اتجه عبيد الله بن زياد والي العراق عاملاً عليها من قبل مروان ليلقى فيها حركة التوابين وهم جماعة من أهل الكوفة بقيادة الصحابي سليمان بن صرد فتنادوا بأخذ الثأر من قتلة الحسن، وندموا على تفريطهم وخذلانهم له، وقد بلغ عددهم أربعة آلاف مقاتل، اتجهت هذه الجماعة إلى عين الوردة، ولما علم بهم عبيد الله أرسل إليهم الحصين بن نمير بجيش الشام الذي بلغ عدده اثنا عشر ألفاً، ولما التقى الجيشان دعا كل فريق الآخر إليه، فأما جيش الشام فدعا إليه التوابين إلى الدخول في طاعة مروان، وأما التوابون فدعوا جيش الشام إلى تسليم قتلة الحسين وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد، ولما امتنع كل فريق منهم في إجابة الآخر إلى طلبه، اشتبكا في قتال مرير، انتهى بانتصار جيش الشام ومقتل سليمان بن صرد وعدد كبير من جيشه، وعاد الباقون إلى الكوفة، ولم يطاردهم جيش الشام وسميت تلك الموقعة بموقعة عين الوردة.

قال ابن كثير : لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان أنفع له وأنصر من اجتماع سليمان وأصحابه لنصرته بعد مقتله بأربع سنين.

حركة المختار الثقفي بالكوفة : استغل المختار بن أبي عبيد الثقفي فشل حركة التوابين، فدعا الناس إليه زاعماً أنه سيأخذ بثأر الحسين فانضم إليه الشيعة، وكان شعاره (بثارات الحسين) كما استغل الموالي فأخذ يدعوهم إلى الانضمام إليه زاعماً أنه يريد التسوية بين العرب والفرس، ودعا لمحمد بن الحنفية الابن الثالث لعلي بن أبي طالب

- رضي الله عنه - مدعياً أن الإمامة انتقلت إليه فانضم إليه الشيعة والفرس والسبئية، كما استطاع استمالة إبراهيم بن الأشتر النخعي.

التقى جيش المختار بقيادة إبراهيم بن الأشتر النخعي بجيش عبيد الله سنة ٦٧هـ ودارت بينهما معركة سميت بموقعة الخاذر، انتصر فيها جيش إبراهيم وقتل فيها عدد هائل من جيش عبيد الله، كما قتل عبيد الله بن زياد نفسه، وهذه الموقعة زادت من شعبية المختار، وصار سيد الكوفة بلا منازع، أحس عبد الله بن الزبير بخطر المختار فأرسل إليه أخاه مصعب الذي نظم جيشه، وانضم إليه المهلب بن أبي صفرة، وبدأت حقيقة المختار تنكشف لأصحابه، فبدؤوا ينفضون عنه وعلى رأس من انفض عنه قائد جيشه إبراهيم بن الأشتر، التقى المختار وجيشه مع مصعب وجيشه في موقعة هزم فيها المختار وقتل وذلك في رمضان من سنة ٦٧هـ.

وقد ذكر العلماء أنه المقصود بالكذاب في قوله ﷺ : «إن في ثقيف كذاباً ومبيراً» ومما يدل على أنه كذاب ما أخرجه الإمام أحمد عن رفاعة القتباني قال : كنت أقوم على رأس المختار فلما تبينت كذابته هممت وأيم الله أن أسل سيفي فأضرب عنقه حتى ذكرت حديثاً حدثنيه عمرو بن الحمق قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أَمَّنَ رجلاً على نفسه فقتله أعطي لواء الغدر يوم القيامة» وفي رواية : إني دخلت على المختار فألقى لي وسادة وقال : لولا أن أخي جبريل قام عن هذه لما ألقيتها لك!! قال : فأردت أن أضرب عنقه فذكرت حديثاً حدثنيه أخي عمرو بن الحمق قال : قال رسول الله ﷺ : «أيما مؤمن أَمَّنَ مؤمناً على دمه فقتله فأنا من القاتل بريء» وأيضاً ما ذكره الهيثمي عن أبي إسحاق قال : قلت لعبد الله بن عمر : إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، قال : صدق، وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم.

ثورة الأشدق والقضاء عليها : عاد عبد الملك بن مروان بعد القضاء على ثورة

الأشدق لحرب مصعب، والتقى الجيشان في دير الجاثليق، وكاتب عبد الملك قواد مصعب يعدهم ويمنيهم إذا بايعوه فأخفوا ذلك عن مصعب إلا أن إبراهيم بن الأشتر الذي أطلع مصعباً على كتاب عبد الملك وأشار عليه بقتل قواده لإخفائهم أمر الكتب التي جاءتهم، ولابد أن يكون جاءهم ما جاءه ولكن مصعباً رفض ذلك، فأشار عليه بإبعادهم على الأقل حتى تنجلي الحرب، ولكن مصعباً رفض هذا الرأي أيضاً، واشتعلت الحرب بين الطرفين، وانخذل أصحاب مصعب عنه، وانضموا لعبد الملك، فانتصر جيش الشام، وقتل مصعب وإبراهيم وجماعة، وكافأ عبد الملك الجنود الذين انضموا إليه، ثم سار إلى الكوفة ودخلها وبايعة أهلها ثم انتقل منها إلى البصرة فبايعه أهلها أيضاً، وتمكن عبد الملك من العراق سنة ٧١هـ وبقي عليه الحجاز.

قلت : إن رأي إبراهيم بن الأشتر كان صائباً في إبعاده قادة حرب مصعب عن سير المعركة ولكن الله قضى أمراً كان مفعولاً.

المطلب الرابع : وفاة عبد الله بن الزبير

سير عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال ابن الزبير في ذي الحجة سنة ٧٢هـ. فحاصر مكة ورماها بالمنجنيق فَقُتل به خلق كثير، وما زال الحجاج يحث جيشه على قتال أهل مكة وأهل مكة يخرجون إليه طالبين الأمان ويتخلون عن ابن الزبير حتى انفض عنه معظم أصحابه ولم يبق معه إلا القليل، فدخل عبد الله بن الزبير إلى أمه أسماء بنت أبي بكر- رضي الله عنهم - يشكو خذلان الناس له ويستشيرها في أمر القتال فقالت له :

أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وتدعو إليه، فامض فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك فيلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت

إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن قلت: كنت على حق، ولما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين؟ وإلى كم خلودك؟! القتل أحسن، فدنا منها وقبل رأسها وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعياً إلى يومي هذا... ما ركنت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن يستحل حرمه، ولكن أحببت أن أعلم رأيك، فزدتيني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة، ولم يجر في حكم، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضى ربي...[1].

وخرج للقتال حتى قتل فأخذ الحجاج جسده وأمر به فصلب، وكان مقتله في جمادى الأولى سنة ٧٣هـ، وبذلك دخلت الحجاز في طاعة عبد الملك وأخذت البيعة له فيها[2].

المطلب الخامس: أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان يمتاز بصفات أهلته للقيادة ومن تلك الصفات: أنه كان شهماً فصيحاً شديداً البأس ذا أنفة له نفس شريفة وهمة عالية، وكان صوّاماً قوّاماً، بالحق قوّالاً، وللرحم وصّالاً، شديداً على الفجرة ذليلاً للأتقياء والبربرة، حافظاً للقرآن، مبارزاً للشجعان.

وكان له قابلية لإعطاء القرار السريع الصحيح، ذا إرادة قوية ثابتة، يتحمل

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء: (٣/٣٦٣/٣٨٠).

(٢) راجع سير أعلام النبلاء: (٣/٣٧٩).

المسؤولية بلا تردد، يعرف مبادئ الحرب، له نفس لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، خبيراً بنفسيات رجاله وقابلياته، يثق بجنوده ويبادلونه ثقة بثقة وحباً بحب، ذا شخصية قوية نافذة، له ماض ناصع مجيد.

وكان يحرص على تطبيق أكثر مبادئ الحرب أهمية في حروبه، وقد ظهر عملياً بوضوح أنه طبق مبادئ : اختيار المقصد، وإدامته والتعرض، المباغتة، وتحشيد القوة، والأمن، والمرونة، والتعاون، وإدامة المعنويات، والأمور الإدارية.

فرحم الله عبد الله بن الزبير فقد كان الساعد الأيمن لأبيه الزبير في حروبه وخدمته العامة منذ شبابه الباكر حتى قتل الزبير، وكان من أبرز قادة الفتح الإسلامي في إفريقية، وأن على يديه كان انتصار المسلمين في معركتهم الفاصلة ضد جرجير. فرضي الله عن الصحابي الجليل، التقي الورع، الخطيب البليغ، وبطل الإسلام، القائد الفاتح عبد الله بن الزبير الأسدي القرشي(١).

المبحث السابع : عبد الملك بن مروان الأموي

إن عبد الملك بن مروان هو فاتح المدينة الشهيرة جلولاء، كما أنه قاد الناس في معركة حاسمة في أرض بلاد الروم، الذي قال فيه عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – ولد الناس أبناء، وولد مروان أباً)، فمن هو عبد الملك بن مروان يا ترى؟!

المطلب الأول : اسمه، نسبه، ميلاده ونشأته ووفاته

اسمه ونسبه : هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي

---

(١) انظر : قادة فتح المغرب العربي : (٣/٤٥ – ٩٥).

الأموي. أبوه : مروان بن الحكم أمير المؤمنين، وأمه : عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية.

ميلاده : ولد عبد الملك سنة ست وعشرين هجرية[1] (٦٤٦م) بالمدينة في خلافة عثمان بن عفان، وشهد يوم الدار، مع أبيه وهو ابن عشر سنين، وهو أول من سمى : عبد الملك في الإسلام.

نشأته : نشأ عبد الملك نشأة إسلامية منذ صغره، فلم يدرك لحظة في الجاهلية، وقد حفظ القرآن في سن مبكرة وتلقى الثقافة العربية الإسلامية لغة وأدباً وعلماً فبلغ في كل ذلك شأناً بعيداً، ويعد من الطبقة الثانية من التابعين، وكان أول ما شاهده مجد الدولة الإسلامية وسيادتها، وتأثر بأعمال عمر بن الخطاب وسيرته وتتلمذ على عثمان فنشأ تقياً ورعاً قارئاً القرآن عاملاً بتعاليمه مكباً على العلم.

وفاته : وفي مرض موته قيل : كيف تجدك؟ فقال : أجدني كما قال الله تعالى : **﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾** [الانعام : ٩٤].

وعندما ثقل جعل يلوم نفسه ويضرب يده على رأسه وقال : وددت أني كنت أكتسب يوماً بيوم ما يفوتني وأشتغل بطاعة الله، ولما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره، فلما فتحت سمع قصاراً بالوادي فقال : ما هذا؟ فقالوا : قصار، فقال : يا ليتني كنت قصاراً أعيش من عمل يدي، فلما بلغ سعيد بن المسيب قوله قال : الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم.

ولما اشتد مرضه قال بعض الأطباء : إن شرب الماء مات، فاشتد عطشه، فقال : يا وليد اسقني ماء، فقال : لا أعين عليك، فقال لابنته فاطمة : اسقيني ماء، فمنعها الوليد،

---

(١) سير أعلام النبلاء : (٢٤٦/٤).

فقال : لتدعنها أو لأخلعنك، فقال : لم يبق بعد هذا شيء، فسقته فاطمة فمات ودخل عليه الوليد وابنته فاطمة عنده تبكي، فقال : كيف أمير المؤمنين؟ فقالت : هو أصلح!.

المطلب الثاني : جهاده قبل خلافته وبعدها

قبل خلافته : شتا المسلمون بأرض الروم سنة اثنتين وأربعين الهجرية، وهو أول مشتى شتوه بها، فاستعمله معاوية بن أبي سفيان على أهل المدينة وعبد الملك يومئذ ابن ست عشرة سنة، فركب عبد الملك بالناس البحر. وغزا إفريقية تحت لواء معاوية بن حديج السكوني، مرتين : مرة سنة إحدي وأربعين الهجرية، وغزاها سنة خمس وأربعين الهجرية فبعثه ابن حديج إلى (جلولاء) ففتحها، وقد سار عبد الملك إلى (جلولاء) على رأس ألف رجل فحاصرها أياماً دون جدوي، وحين أراد الانصراف وسار بهم رأى رجاله وكانوا في الساقة غباراً شديداً، فظن عبد الملك أن العدو يطارد قواته، لذلك كر راجعاً فرأى سور جلولاء قد وقع، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها.

واختلف الناس في الغنيمة، فكتب ابن حديج في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان، فكتب : (أن العسكر ردء للسرية، فقسم ذلك بينهم، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار وضرب للفرس بسهمين، ولصاحبه بسهم، فقال عبد الملك : (فأخذت لفرسي ونفسي ستمائة دينار واشتريت بها جارية). كما غزا بلاد المغرب مع معاوية بن حديج على بعث أهل المدينة سنة خمسين الهجرية، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئاً كثيراً.

بعد خلافته : أ - في إفريقية : بعث عبد الملك زهير بن قيس البلوي لاسترداد إفريقية من الروم وحلفائهم البربر وذلك سنة تسع وستين الهجرية فانتصر ودخل القيروان، ولكنه قتل بعد ذلك، وبعد مقتل زهير اختار عبد الملك بن مروان قائداً قديراً

هو حسان بن النعمان الغساني، فسيره إلى إفريقية وجعل له الولاية عليها وذلك سنة ثلاث وسبعين الهجرية، ففتح قرطاجنة وأتم تحرير الشمال الإفريقي.

ب - في بلاد الروم : حاصر المسلمون القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان سبع سنوات وكادوا أن يفتحوها، فلما نشبت الاضطرابات الداخلية بين المسلمين اضطر عبد الملك إلى عقد هدنة مع الروم لينصرف إلى معالجة الأزمات الداخلية بين المسلمين، وفي سنة ثلاث وسبعين استعاد عبد الملك ابن مروان سيطرته على الدولة الإسلامية فعين أخاه محمد بن مروان والياً على الجزيرة (وأرمينية) ليكون القائد في الجبهة المتاخمة للروم، وقطع إرسال النقود التي كان يرسلها للروم، فأعلن إمبراطور الروم جستنيان الثاني الحرب وقدم بجيش كبير لغزو المسلمين، فلاقاه محمد بن مروان ودارت بين الطرفين معركة طاحنة هزم فيها الروم هزيمة شنيعة، وكان ذلك سنة أربع وسبعين الهجرية.

وبعد استقرار الأوضاع في دار الإسلام، بدأ التوغل الإسلامي في داخل الأراضي البيزنطية فكانت الصوائف تخرج بانتظام للإغارة علي هذه الأراضي بقيادة محمد بن مروان وغيره من أمراء بني أمية، وفي سنة إحدى وثمانين الهجرية بعث عبد الملك بن مروان عبد الله بن عبد الملك ففتح (قاليقالا) وهي إحدى مدن الروم الكبيرة، وفي سنة أربع وثمانين تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسية داخل دولة الروم في آسيا الصغرى وهي مدينة (المصيفة). وفي سنة سبع وسبعين الهجرية غزا عبد الملك بنفسه الروم، ففتح مدينة (هرقلة).

وهكذا اندفعت قوات المسلمين تفتح المعاقل وتستولي على الحصون بعد تحقيق الوحدة في عهد عبد الملك.

جـ - في المشرق : ضم عبد الملك بن مروان سنة ثمان وسبعين الهجرية خراسان وسجستان إلى أعمال الحجاج بن يوسف الثقفي، فبعث المهلب على خراسان بعد فراغه من قتال الخوراج، فاستعاد خراسان وسجستان وفتح مدناً أخرى ومناطق جديدة.

المطلب الثالث : أعماله في فترة خلافته

استقبل عبد الملك الخلافة لهلال شهر رمضان سنة خمس وستين الهجرية، فكان على أرض الشام ومصر، وكان عبد الله بن الزبير على البلاد الإسلامية الأخرى[1].

١ - في طرق الوحدة : فقد بذل عبد الملك قصارى جهده لإعادة الوحدة الشاملة إلى البلاد الإسلامية... فكان له ذلك حيث انطلق من نقطة الصفر سنة خمس وستين الهجرية حيث تولى الخلافة وحيث كان عرشه مزعزع الأركان حتى في دمشق نفسها، وانتهى في سنة ثلاث وسبعين الهجرية إلى القمة حيث دانت له الدولة الإسلامية كلها وأعاد الوحدة الشاملة إلى دار الإسلام.

---

(١) قلت : إن خلافة عبد الملك بن مروان تبدأ على الصحيح بعد مقتل ابن الزبير ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بمبايعته له، وذكر ابن حجر أن ذلك كان بعد مقتل ابن الزبير، فحتى لو لم تسلم بخلافة لعبد الملك في الفترة السابقة لأنها أقل ما يقال عنها أنها زمن فرقة، وطرق انعقاد الخلافة تكون بالاختيار أو الاستخلاف، كاختيار الأمة للصديق رضي الله عنه أو كاستخلاف الصديق للفاروق وهناك طريق آخر تجب الطاعة بموجبه، ويحرم الخروج عليه بسببه، ولكنه ليس من الطرق الشرعية، ولا يجوز إلا للضرورة من أجل مصلحة المسلمين وحقن دمائهم وذلك هو طريق القهر والغلبة والاستيلاء على الحكم ما دام قائماً في الناس بشرع فقد بايع عبد الله بن عمر عبد الملك بن مروان وبالسيف أخذ الملك وأمر له بالسمع والطاعة على كتاب الله وسنة نبيه.

٢ – بعد الوحدة الشاملة :

أ – إشاعة الاستقرار : قضى على الخوارج في البحرين سنة ثلاث وسبعين الهجرية، وأعاد بناء الكعبة على ما كانت عليه قبل عبد الله بن الزبير، وبعث المهلب بن أبي صفرة إلى حرب الأزارقة. وانطلقت الجيوش الإسلامية للفتح ولاستعادة المناطق التي استعادها العدو في إيران وبلاد الروم وإفريقية، وولى الحجاج سنة خمس وسبعين الهجرية العراق.

وفي سن اثنتين وثمانين ثار عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج فاستطاع الحجاج بمساعدة عبد الملك القضاء على أكبر ثورة داخلية هددت كيان الدولة الإسلامية بعد الوحدة وذلك سنة ثلاث وثمانين الهجرية.

وكان من ثمرات الوحدة أن أعادت الدولة الإسلامية كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون وذلك من نهر جيجون شرقاً إلى قرطاجنة غرباً وإلى أعماق بلاد الروم شمالاً، بعد أن كان عبد الملك يدفع الأتاوة لإمبراطورية القسطنطينية قبل الوحدة.

ب – إصدار العملة : في سنة ست وسبعين الهجرية ضرب عبد الملك الدنانير والدراهم، وهو أول من أحدث ضربها في الإسلام... وبذلك حقق عبد الملك للدولة الإسلامية استقلالها المالي.

جـ – تعريب الدواوين : بقيت أهم دواوين الدولة الإسلامية – ديوان الخراج – وهي التي كانت تشرف على الشؤون المالية للدولة تستعمل اللغات الأجنبية، كما كانت حالها في عهود الدول السابقة قبل ظهور الإسلام، فقام بتعريبها وبذلك أصبحت اللغة العربية هي لغة جميع الدواوين، وكان من نتائج ذلك إبطال اللغات الأجنبية، فتحقق نصر اللغة العربية على تلك

اللغات الأجنبية والأقاليم، فكان هذا من أكبر عوامل انتشار العربية بعد عامل القرآن الكريم.

المطلب الرابع : أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لا شك أن عبد الملك قبل خلافته كان يعتبر من فقهاء المدينة الأربعة المعدودين، وكان أديباً عدوه من القلة الذين لا يلحنون، وكان سياسياً محنكاً ذكياً، وكان رجل دولة بكل ما في الكلمة من معاني : يختار الرجال الأوفياء الأمناء، ويولي الأمور للمختارين من الرجال، ويرى أن قوتهم قوة له وللدولة، وضعفهم ضعف عليه وعلى الدولة، وكان يجمع ولا يفرق، ويوحد ولا يشتت، ويعدل ولا يظلم، ويصالح ولا يخاتل.

أما مميزاته في ميادين الوغى :

فإنه كان لا يستبد برأيه، بل كان يستشير رجاله المقربين في كل صغيرة وكبيرة قبل أن يقدم على تنفيذ أي عمل عسكري، وكانت له موهبة فذة في اختيار الرجال المناسبين للعمل المناسب، وكان يبذل جهوده السلمية قبل خوض كل معركة وحتى أثنائها لتجنب ويلات الحرب، وكان يحاول بكل طاقته استمالة رجال خصمه باذلاً لهم الوعود السخية والمناصب المرموقة والمال الكثير، كان يولي ثقته الكاملة لرجاله، ويتجنب أمر تبديل رأيه فيهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكان ذا رأي سديد، بصيراً بالحرب شجاعاً بالسيف.

فرحمة الله على التابعي الجليل، الإداري الحازم، القائد الفاتح، العالم الأديب، بطل الوحدة، ورجل الدولة، عبد الملك بن مروان الأموي(١).

---

(١) راجع كتاب قادة فتح المغرب : (٢/٩٥ - ١٥٢).

المبحث الثامن : رويفع بن ثابت الأنصاري

رويفع الصحابي الجليل - رضي الله عنه - فاتح جزيرة جربة في تونس الخضراء، الذي عاش حياة الجهاد حتى استشهد في سبيل الله، وقد اعتزل الأحداث السياسية ولم يشارك فيها لا بلسانه ولا بسيفه حتى انكشفت الغمة وعادت الوحدة الشاملة إلى المسلمين، فمن هذا الصحابي، وكيف كانت حياته الجهادية؟

المطلب الأول : اسمه، ونسبه

هو رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة الأنصاري من بني مالك بن النجار صحابياً. روى عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من التابعين، ولكننا لا نعرف متى أسلم ولا عن جهاده تحت لواء الرسول القائد. فقد نال رويفع شرف الصحبة ولكنه لم ينل شرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ.

المطلب الثاني : جهـاده

كانت أرض الشام ميدان جهاد رويفع، فلما أنجز المسلمون فتحها سار رويفع تحت لواء عمرو بن العاص لفتح مصر، وليبيا، والنوبة، كما شهد معارك الفتح التي خاضها عبد الله بن أبي السرح لفتح إفريقية، ومعاوية بن حديج السكوني لفتح المغرب.

وفي سنة خمس وأربعين الهجرية غزا معاوية بن حديج السكوني المغرب فاستعاد فتح طرابلس الغرب وترك فيها رويفع بن ثابت والياً عليها سنة ست وأربعين الهجرية، فغزا منها إفريقية (تونس) ودخلها سنة سبع وأربعين الهجرية، وفتح جزيرة جربة التي كان يسكنها البربر، ثم انصرف من عامه إلى طرابلس مقر عمله.

المطلب الثالث : حياتـه

كان رويفع صحابياً جليلاً، لم يشارك في ما حدث بين علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما من قريب أو بعيد، بل بقي مستقراً في مصر حتى انكشفت الغمة وعادت الوحدة الشاملة بين المسلمين.

سكن مصر واختط بها داراً، وقد ولاه معاوية بن حديج أيام معاوية بن أبي سفيان طرابلس الغرب سنة ست وأربعين الهجرية، وتولى برقة لمسلمة بن مخلد حتى مات بها وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ست وخمسين الهجرية ٦٧٦م وقبره بها، وقبره مشهور في الجبل الأخضر بـ(برقة) في مدينة البيضاء وهو آخر من توفي بالصحابة هناك، روى عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث، وكان فقيهاً من أصحاب الفتيا من الصحابة، وكان خطيباً مفوهاً[1].

المطلب الرابع : أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان رويفع الأنصاري إدارياً حازماً، قوياً أميناً، صادقاً وفياً، تقياً نقياً، كريماً سخياً. وقد بذل قصارى جهده مجاهداً في سبيل الله في ميادين أرض الشام ومصر والشمال الإفريقي.

وقد شهد معارك كثيرة برية وبحرية، فقد سار بجيشه بحراً إلى جزيرة جربة وفتحها وقضى على فساد أهلها الذين كانوا يفسدون في البر والبحر، فنشر فيهم الدين الحنيف وضمهم إلى البربر المسلمين.

لقد كان سلاح رويفع في حربه تقوى الله وحده وكثرة ذكره والاستعانة به

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة : (٨٨/٢).

والتوكل عليه والفزع إليه ومسألته النصر والتأييد والسلامة والظفر. وكان يسوس رجاله سياسة حكيمة قوامها المحبة المتبادلة والهيبة منهم له والمحبة من بعضهم لبعض، يتفقد من أمور أصحابه جميع ما يعود نفعه عليهم ويستزيد محسنهم بالتكرمة، ويجعل عامة أصحابه في لين الكلمة بمنزلة الخاصة من غير أن ينقص أحداً من ذوي البلاء حقه وثوابه.

وكان شجاعاً مقداماً كامل العقل طويل التجربة، بعيد الصوت مأمون النقيبة، بصيراً بتدابير الحرب ومواضعها، حسن التعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة، مدخلاً الأمن عليهم، والخوف على عدوهم مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، حسن السيرة عفيفاً صارماً متيقظاً سخياً... لقد كان قائداً ممتازاً.

وأخيراً : يذكر التاريخ لرويفع الأنصاري رضي الله عنه أنه قضى حياته كلها مجاهداً وإدارياً، ورافق أعلام الفتح الإسلامي من مبدأ سيرها إلى أرض الشام، من المدينة المنورة إلى نهاية مستقرها في الشمال، ويذكر له أنه من الدعاة الأوائل الذين نشروا الإسلام بأرض الشام، ومصر، والمغرب عامة والبربر خاصة.

ويذكر له أنه فتح جزيرة جربة ومات بعيداً عن أهله فاستقرت نفسه مطمئنة في سفوح الجبل الأخضر من أرض ليبيا في برقة حيث لا يزال أهلها يذكرونه بالتقدير والإكبار.

إنه نسي نفسه من أجل عقيدته والمصلحة العامة العليا، فذكره الناس في أيامه ولا يزالون. رضي الله عن الصحابي الجليل، والإداري الحازم، التقي، النقي، الفارس البطل، القائد الفاتح، رويفع بن ثابت الأنصاري النجاري[1].

---

(١) المرجع السابق : (٢/١٥٣ - ١٥٦).

الباب الخامس

عهد الولاة

الفصل الأول

كتاب يهدي وسيف يحمي

لقد فقه صحابة رسول الله ﷺ معاني كتاب يهدي، وسيف يحمي، حيث إنهم حملوا السلاح عندما حان وقت حمل السلاح وفتحوا الكتاب كذلك في وقته المناسب، فلم يكن هناك تعارض عندهم بين طلب العلم الشرعي وتدريسه، وبين حمل السلاح وتطبيق آيات الكتاب في أرض الواقع، لا يوجد اختلاف بين هذه وتلك فلكل وقت فريضة. وهكذا كانت حقيقة علم الصحابة – رضوان الله عليهم – وعلى هذا الطريق سار أئمة أهل السنة والجماعة.

المبحث الأول : كتائب الدعاة والمجاهدين نحو الشمال الإفريقي

إن بداية الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا كان سنة اثنتين وعشرين الهجرية بقيادة الصحابي الجليل عمرو بن العاص – رضي الله عنه – واستمرت بعد تلك الحملات الجهادية على شمال إفريقية حتى كانت حملة القائد الجليل موسى بن نصير اللخمي – رحمه الله – حيث أكمل فتح الشمال الإفريقي عام ثمان وثمانين الهجرية.

ولقد قدم المسلمون خلال فتوحاتهم المباركة للشمال الإفريقي الألوف من الشهداء والدماء والأشلاء في ساحات الوغى والفداء، التي دامت قرابة ست وستين

سنة، وكان من بين أولئك الشهداء أكابر قيادات الفتح الإسلامي منهم (القائد : عقبة ابن نافع الفهري، وأبي المهاجر، وزهير بن قيس البلوي) فرحم الله الجميع وأدخلهم فسيح جناته.

ولا ريب أن جيوش الفتح الإسلامي، قيادات وجنوداً كانوا يحملون الدعوة الإسلامية والعقيدة الصحيحة في شغاف قلوبهم وجوارحهم إلى تلك الشعوب والأمم حيثما نزلوا غرباً وشرقاً، فقد كانوا بالفعل يحملون المصحف والسيف (كتاب يهدي وسيف يحمي) إذ أنهم كانوا دعاة بالدرجة الأولى، ومجاهدين بالدرجة الثانية، لأن هناك تلازم بين العلم والسيف، فالسيف لا يرفع إلابعلم، والعلم لا يتحقق في حقيقة الناس إلا بالسيف والقوة (بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده ولا يشرك به...)[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – في ذلك : (وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو على الكفاية، لا يجب على كل أحد بعينه أن يكون عالماً بالكتاب : لفظه ومعناه، عالماً بالحكمة، بل وجوب ذلك أسبق وأوكد من وجوب الجهاد، فإنه أصل الجهاد، ولولاه لم يعرفوا علام يقاتلون، ولهذا كان قيام الرسول والمؤمنين لذلك قبل قيامهم بالجهاد، فالجهاد سنام الدين وفرعه وتمامه، وهذا أصله وأساسه وعموده ورأسه)[2].

وهكذا سارت الدعوة الإسلامية جنباً لجنب مع فتوحات المسلمين، يحملها إلى العالم قادة ربانيون وعلماء مصلحون، وجنود فاتحون، ورهبان بالليل وفرسان بالنهار، حتى أصبحت أغلب معالم هذه الجيوش في تلك البلاد المفتوحة، إحياء الأمة بالقرآن والسنة، ونشر الدعوة واستفاضة البيان في أوساط العباد وفي ربوع البلاد، والتمكين

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عمر : (٩٢/٢) وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح.
(٢) مجموعة الفتاوى، لابن تيمية : (٣٩٠/١٥).

لشرع الله حتى يحكم العباد والبلاد في تلك الأصقاع، بل قد يصدق على تلك الجيوش تسميتها بجيوش الفقهاء والمحدثين والقراء أكثر من تسميتها بجيوش عسكرية بحته، حيث إنهم كان لا هم لهم إلا تبليغ دعوة الله – سبحانه – واستفاضة بيانه إلى كافة الناس أجمعين، وبسط سيادة القرآن والسنة في جميع مناشط العباد والبلاد.

وهكذا اندمجت جيوش الفقهاء والمحدثين والدعاة مع إخوانهم في الدين من البربر وغيرهم من سكان شمال إفريقية، حيث تراهم حيناً في تعليمهم أصول دينهم وفروعه، حيناً آخر في تربيتهم على كيفية تطبيق مبادئه في أرض الواقع، وحيناً في إعدادهم كدعاة وقادة لحمل العبء معهم، حتى أصبحوا كالرجل الواحد والجسد الواحد : (إذا اشتكى منه عضو اشتكى معه سائر الجسد)، فالأهداف أصبحت متحدة والوسائل مشتركة، والمقاصد واحدة، وزالت بفضل الله تلك الفوارق التي تكون عادة بين الفاتحين وأهل البلاد الأصليين وأصبحوا بنعمة الله إخواناً (لا فرق بين عربي وعجمي إلا بتقوى الله).

لقد اكتمل فتح هذه المنطقة عسكرياً سنة ثمان وثمانين بقيادة موسى بن نصير – رحمه الله – وما أن استقرت الأوضاع السياسية، وتقسيم الولاة، والأمراء التي أخذت قرابة عشر سنوات من قيادة المنطقة حتى كان عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي تولى إدارة سدة الخلافة عام تسع وتسعين الهجرية، حيث عين إسماعيل بن عبيد الله والياً على الشمال الإفريقي وكان يمتاز بحسن السيرة والسلوك مما جعله يؤثر في قبائل البربر تأثيراً إيجابياً بالغاً.

يقول صاحب كتاب فتوح مصر وأخبارها : (تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة تسع وتسعين الهجرية، فولى إسماعيل بن عبيد الله على حرب المغرب وخراجه وصدقاته في المحرم سنة مئة الهجرية، وكان إسماعيل حسن السيرة، وأسلم في زمانه

جميع البربر طوعاً ورغبة واقتناعاً[1].

وبتلك التقريرات الإيجابية عن قبائل البربر التي قدمت من الشمال الإفريقي إلى خليفة المسلمين – عمر بن عبد العزيز – جعلت الخليفة عمر بن عبد العزيز يعجل باتخاذ خطة تعليمية لنشر الإسلام في الشمال الإفريقي : وكانت أهم أهداف الخطة التعليمية التربوية :

الهدف الأول : اختيار علماء ربانيين اشتهروا بالعلم والفقه والدعوة والتجرد للإشراف على التربية والتعليم.

الهدف الثاني : وضع خطة بعيدة المدى لنشر تعليم اللغة العربية، ومحو الأمية في أوساط القبائل البربرية حتى يسهل عليها بعد ذلك فهم القرآن والسنة والتعامل معهما.

الهدف الثالث : الاهتمام بربط الناس بالقرآن المجيد الذي هو حبل الله المتين، ويكون ذلك بفتح الكتاتيب وجمعيات تحفيظ القرآن وتجويده.

الهدف الرابع : البلاغ الواضح البين لعقائد أهل السنة والجماعة.

الهدف الخامس : تعليم الناس الحلال والحرام.

وهكذا شرع خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز بتنفيذ هذه الخطة الواعية، بعد تقريرها وتأطرها وفق المبادئ الإسلامية، والأسس الحركية، حيث تم تعيين أفضل عشرة من فقهاء التابعين ذوي المواصفات المطلوبة من الناحية العلمية الأكاديمية، ومن الناحية العملية السلوكية التربوية لهذه المهمة الجهادية الصعبة.

وبعد ذلك تحركت القافلة العلمية الدعوية في مهمتها الجهادية نحو الشمال الإفريقي حيث استقر بها المسير في مدينة العلم وقلعة الجهاد، مدينة القيروان عاصمة

---

(١) فتوح مصر وأخبارها، ص : (٢١٣).

العلم في الشمال الإفريقي آنذاك، وما أن حطت القافلة رحالها، والتقطت أنفاسها من مشقة الطريق حتى طفقت ترتب أمورها، وتجهز أدواتها، وتحصي مواطن الخير، ومواقع العلم حتى تبدأ من حيث انتهى من كان قبلها من أهل العلم والفضل والجهاد، وهكذا استمرت القافلة العلمية في تنفيذ مهمتها الجهادية في أوساط القبائل البربرية وفق خطة استراتيجية، لنشر الإيمان، وإحياء السنة وإماتة البدعة، واستفاضة العلم ورفع الجهل، وإقامة العدل، وإزالة الظلم.

وقد نجحت هذه القافلة الدعوية في مهمتها الجهادية أيما نجاح، إذ استطاعت في مدة وجيزة من تبليغ دعوة الله إلى كافة أبناء تلك الأصقاع التي شملت الشمال الإفريقي، وامتدت عبر البحر إلى الأندلس، وجنوب فرنسا، بيد أننا نقرر بأن لهذا النجاح المتفوق عوامل ساعدت على تحقيقه في فترة وجيزة، ومن أهم تلك الأسباب والعوامل ما يلي :

أولا : الحالة السياسية آنذاك :

كانت هذه الحقبة من الزمان التي امتازت بهدوء سياسي واستقرار نسبي قد سبقها حلقات جهادية بين الكر والفر. فكانت آخر هذه الحلقات الجهادية حلقة موسى ابن نصير والتي تولى بعدها عمر بن عبد العزيز خلافة المسلمين فشكل عهده حلقة من حلقات الاستقرار السياسي، والاستتباب الأمني في ربوع البلاد وقلوب العباد.

ثانياً : الحالة النفسية الفكرية :

لقد استقر في نفوس أولئك الدعاة العلماء المجاهدين من التابعين، أنه لا يستقيم أمر الفكر والدعوة إلا باستقامة القلوب، ولا تتأثر الشعوب بكلام إلا بكلام القلوب، والذي كان لعامل إخلاصهم لله، وصدقهم مع ربهم، والتزامهم بسنة الرسول ﷺ، وورعهم عن حطام الدنيا الأثر البليغ في نفوس قبائل الأمازيغ البربرية.

ثالثاً : الحالة السلوكية الحركية :

إن هذا الدين ليس شعارات ترفع، ولافتات تصنع، وكلمات تسبكَ، وعبارات تنثر، وإنما هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، وهكذا كانت حقيقة الحالة السلوكية الحركية لتلك القافلة العلمية الدعوية الجهادية في أوساط القبائل البربرية، العمل قبل القول، وبذلك تأثرت القبائل البربرية برجال القافلة الدعوية الجهادية في نواحي العقيدة السليمة، والعبادة الصحيحة، والأخلاق الرفيعة مما ساعد على صبغ الحياة البربرية كلها بصبغة إسلامية في جانب اعتقاد الجنان، ونطق اللسان، وتطبيق الأركان ﴿**صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون**﴾ [البقرة : ١٣٨].

رابعاً : جمال الشريعة الإسلامية :

لا شك بأن حق الجهاد للأمة وحق العلم البيان، وحق الدعوة الحكمة والتدرج، لذلك فقد أخذت هذه القافلة المباركة على عاتقها تطبيق حق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث استطاعت هذه القافلة الدعوية من تطبيق حق الدعوة بالحكمة والتدرج في استيعاب القبائل البربرية، وذلك بتقديم الإسلام والدعوة بسهولة ويسر مما جعل القبائل البربرية تدخل في دين الله أفواجاً، بالتدرج واهتمت ببيان الآتي :

أولاً : بيان مقاصد الشريعة :

وذلك بتقرير نشر مبادئ رفع الحرج عن العباد في الإسلام ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾ [الحج : ٧٨]، وتأصيل مبادئ العبادات الشرعية على قواعد اليسر، ورفع الحرج والتدرج وفق القوانين السنية واعتبار المصالح البشرية.

ثانياً : إبراز مكانة مكارم الأخلاق في الإسلام :

لا ريب أن فحوى الرسالة المحمدية – على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم –

كانت لإتمام مكارم الأخلاق كما قال ﷺ : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] وتلك المكارم تشمل العقائد، والتصورات، والسلوكيات حيث العفة، والأمانة، والصدق، والشهامة، والإحسان، والإكرام، والأخوة في الدين والإيثار، والعدل والإنصاف، وبتطبيق تلك الأخلاق الإسلامية في المنطقة المغربية أصبح ابن الكاهنة - التي حاربت الإسلام والمسلمين - بعد دخوله في الإسلام قائداً من قواد المغرب الأقصى في عهد القائد الزعيم حسان بن النعمان الذي قاسى من أمه الأمرين!!

ثالثاً : تحقيق روح العدل والإنصاف :

وكان ذلك متمثلاً في رفق ولاة المسلمين بالرعية، وتطبيق المبادئ العدلية كما جاءت بها الرسالة المحمدية على القوي والضعيف، مما جعل قبائل البربر تنظر إليهم نظرة إعجاب وتقدير، وتسرع في الإنضمام إلى صفوف هذا الدين العظيم دين الإسلام شريعة، وعبادة، وعقيدة حتى أصبح منهم دعاة للإسلام، وقادة للجهاد حملوا الإسلام دعوة ودولة إلى ربوع الأراضي الأندلسية، والساحات الفرنسية، والجزر الإيطالية، والمجاهل الإفريقية.

تأسيس أول جامعة إسلامية في الشمال الإفريقي :

لا شك أن من أول ما ينبغي على الجيش الفاتح تحقيقه هو إيجاد مدينة يستقر بها المسلمون، وتكون محط رحال الجند، منها تنطلق سراياهم، وبها يحتمون عند الخطر، وتكون المنطلق الطبيعي لنشأة الحياة الإسلامية، وتثبيت شعائر الدين، وإقامة أحكامه في البلد المفتوح، إلا أن هذه الغاية لم تكن سهلة المنال في إفريقية، لصعوبة مراس أهلها وكثرتهم وبعدها عن مركز الخلافة، هذا يعني انعدام المدد المستمر، كما يعني أن اهتمام الخليفة سينصب أولاً على البلاد القريبة منه، ولذلك فإن مشاكل المشرق كثيراً

---

(١) رواه أحمد في مسنده : (٢/٣٨١) وصححه أحمد شاكر.

ما كانت تصرف أنظار ولي الأمر عن التفكير في وضع إفريقية، ولهذه الأسباب لم يتمكن المسلمون من تأسيس مدينة القيروان إلا بعد أكثر من عشرين سنة من بداية الفتح ولقد استهوت ناحية القيروان المسلمين منذ غزوة العبادلة سنة ٢٧هـ، فإن أبي السرح قد نزل فيها مدة وضرب فسطاطه في أرضها...

كما لا يخفى أن أول من بنى مساكن للجند فيها وسماها (قيروان) هو معاوية ابن حديج سنة ٤٥هـ، وكان ذلك عند القرن، (وهو جبل قريب من القيروان)، وفي هذه الغزوة توفي الصحابي أبو زمعة البلوي، وبه سميت مقبرة القيروان بعد ذلك بالبلوية، مما يؤكد قرب المساكن التي بناها ابن حديج من موقع القيروان...

ولما قدم عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ، لاحظ كثرة ارتداد البربر، لذلك قرر ضرورة تأسيس مدينة للمسلمين من العرب والبربر لتحفظ عليهم دينهم ودنياهم. فقال لأصحابه : (إن إفريقية إذ دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر).

فاتفق رأيهم على ذلك، ونظر عقبة فيما بناه ابن حديج فلم يعجبه، فتحول عنه قليلاً وأمرهم بالبناء بعد أن استشارهم حول الموقع الذي امتاز بطيب مرعاه، وبعده عن البحر حتى لا يطرقه العدو ليلاً، وكان المكان وادياً كثير الشجر وتأوي إليه الوحوش والسباع فنادى فيهم عقبة بقوله : (يا أهل الوادي إن حالّون إن شاء الله فاظعنوا، ثلاث مرات قال (الراوي) : فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطن بطن الوادي، ثم قال : انزلوا بسم الله)[1].

---

(١) تكاد المصادر تجمع على ذكر هذه الحادثة وهذه المصادر هي : تاريخ خليفة بن خياط، فتوح مصر والمغرب، فتوح البلدان، تاريخ الطبري، البداية والنهاية، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، وأول من ذكرها خليفة في تاريخه وقد نقلها عنه الحافظ ابن حجر في كتابه الإصابة وحكم على إسنادها=

فنزلوا وقطعوا الأشجار، وبنو المسجد الجامع ودار الإمارة وبنى الناس بيوتهم ومساجدهم، واستمر البناء خمس سنوات كان عقبة يرسل أثناءها السرايا لتوسيع الفتح، ودعوة البربر للإسلام وعظمت مدينة القيروان، وقصدها البربر المسلمون للتعلم والاشتراك مع إخوانهم الفاتحين...

ولما تولى أبو المهاجر إمارة إفريقية بنى مدينة تيكروان على ميلين من مدينة القيروان فانتقل أكثر أهل القيروان إليها، فلما عاد عقبة في إمارته الثانية أعاد عمارة القيروان، وكان في معسكره هذه المرة خمسة وعشرون صحابياً فجمعهم في وجوه العسكر، ودار بهم حول المدينة، وجعل يدعو، وهم يؤمنون ومما قال في دعائه : (اللهم املأها علماً وفقهاً، وأعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزاً لدينك، وذلاً لمن كفر بك، وأعز بها الإسلام وأهله، وادمغ بها أهل النفاق والأهواء والشك والضلالة)[1].

وسرعان ما اتسع بناء القيروان حتى اشتمل سورها على أربعة عشر باباً وسبعة محارس، وقسمت إلى أرباض، وحارات، وشوارع، وأزقة، وأسواق، وحمامات وقد وصفت القيروان في كتب الجغرافيين والمؤرخين بأوصاف جليلة تنبئ بعظمتها وتدل على فضلها، ومن ذلك قول الإدريسي : (ومدينة القيروان أم أمصار، وقاعدة أقطار، وكانت أعظم مدن المغرب قطراً، وأكثرها بشراً، وأيسرها أموالاً، وأوسعها أحوالاً، وأتقنها بناء، وأنفسها، هماً... والغالب على فضلائها التمسك بالخير والوفاء بالعهد والتخلي عن الشبهات، واجتناب المحارم والتفنن في محاسن العلم...)[2].

= بأنه حسن، ومع ذلك شكك في صحتها بعض المعاصرين، زاعمين أنها مجرد أسطورة أملتها الظروف التي أحاطت بتأسيس القيروان ولا يوجد مانع شرعي من حدوثها.

(١) مدرسة الحديث في القيروان للحسين بن محمد : (١/٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨).

(٢) مدرسة الحديث في القيروان : (١/٤٨).

أهمية القيروان في نشأة الحياة العلمية بإفريقية :

لا يخفى أن مدينة القيروان تعتبر أول جامعة إسلامية في شمال إفريقية، بل أصبحت لفترة طويلة قبلة علم لكل سكان القارة الإفريقية، وسكان جنوب البحر الأبيض المتوسط. لذلك أصبحت مدينة القيروان الجامعة الإسلامية صاحبة الرسالة العلمية، والأنشطة الدعوية يصبوا إليها الناس من كل حدب وصوب يعتكفون فيها لتحصيل العلم تفسيراً وحديثاً وفقهاً في أروقة هذه المدينة العلمية صاحبة الرسالة الإسلامية في القارة الإفريقية.

ولا ريب أن هنالك ثمة أسباب جعلت مدينة القيروان تحتل الصدارة العلمية في القارة الإفريقية، وهذه الأسباب تكمن في الآتي :

السبب الأول : (بإنشاء مدينة القيروان أصبحت إفريقية ولاية إسلامية جديدة وجزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، وبالتالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، وعلى رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة، وعى أهلها تلقي مسؤولية نشر الإسلام في المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها، فقد قالوا لعقبة عندما أراد تحديد قبلة الجامع : إن أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا الجامع فأجهد نفسه في تقويمه.

السبب الثاني : لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى في الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشرة صحابياً وقد مكثوا بها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها – ولا شك – نشر اللغة العربية وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم

تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غياباً طويلاً عن القيروان، أما في غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابياً وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوي الشريف في هذه الفترة، مما دعا عقبة أن يوصي أولاده ومن ورائهم جميع المسلمين بتحري حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن.

السبب الثالث : لقد استقطبت القيروان أعداداً هائلة من البربر المسلمين الذين جاؤوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة : (فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدين)، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة.

ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكراً في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام. ومن قبله تألف أبو المهاجر كسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجاً، ودعم حسان بن النعمان جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر، إذا خصص ثلاثة عشر فقيهاً من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، وواصل موسى بن نصير هذه المهمة عندما : (أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين)[1]. وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهاً لتعليم أهله.

السبب الرابع : كان كثيراً من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السراري وأمهات الأولاد، قال أبو العرب : (روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية وماتت، فدفنها في مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها

---

(١) البيان المغرب (٤٢/١) نقلاً عن مدرسة الحديث بالقيروان.

لمكان تلك الصبية)[1].

ومن هنا كان لا بد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية، لذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان في وقت مبكر جداً، فقد روي عن غياث بن شبيب أنه قال: (كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكتاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه)[2]، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين أولهما سنة ٦٠هـ، أي بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثاني سنة ٧٨هـ.

السبب الخامس: إن الموقع الجغرافي لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت في موقع متوسط بين الشرق والغرب يمر بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها، وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمعُ منه أهلُها كما فعل بقي بن مخلد المسند القرطبي (٢٠١ – ٢٧٦)، والمحدث دارس بن إسماعيل القاسي (٣٥٧) وغيرهما كما كان يدخلها من كان يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق.

السبب السادس: لقد كانت التجارة في القيروان رابحة والسلع فيها نافقة، ولذلك أمَّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهماً في ازدهار الحياة العلمية بالقيروان فإن أبا عبد الرحمن المقري المحدث قدم إفريقية سنة ١٥٦هـ، وكيلاً لأحد التجار وسمع منه أهل القيروان، كما قدمها عبد العزيز بن يحيى المدني سنة ٢٢٦هـ وأتى معه بمسك يبيعه، وقد سمع منه محمد بن سحنون وبشر كثير من أهل القيروان، بل من هؤلاء من تاجر بالكتب، فقد جلب أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي (ولد سنة ٢٨٨هـ) إلى القيروان

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان (٥٢/١).
(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٢٥٨/٢).

عدة أحمال من الكتب في مطلع القرن الرابع، فباع كثيراً منها، وحمل ما تبقى منها فباعه في بلاد الأندلس.

السبب السابع : ومما أسهم في إثراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما فعل يزيد بن حاتم (١٥٥ – ١٧٠) ومنهم من كان يرسل في طلب العلماء والكتب النادرة من المشرق كما فعل إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١ – ٢٨٩).

السبب الثامن : وكان بُعْدُ القيروان عن مركز الخلافة سبباً آخر لإثراء الفكر، إذ أنها كانت ملاذاً آمناً لأولئك الذين لاحقتهم جيوش الخلافة بالمشرق وضيقت عليهم فقد شهد آخر القرن الأول ومطلع القرن الثاني وفود عدة من الدعاة إلى المذهب الخارجي، كما كان بها عدد من المعتزلة وكان كل من هؤلاء يبث فكره في مسجد عقبة بن نافع بالقيروان حتى منعهم الإمام سحنون رحمه الله.

السبب التاسع : كما أن القيروان اكتسبت نوعاً من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذي أسسه صحابة رسول الله ﷺ وظهر به على أيديهم كثير من الكرامات واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهي آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب، حتى وصفها أبو إسحاق الجبنياني بقوله : (القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل وقتل على إحياء السنة إلا أئمتها)[١].

وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي، من ذلك ما وصفها به مقديش بأنها : (منبع الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع في جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذاهب،

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان (٥٥/١).

وإلى أئمتها كل علم ينسب... ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام)[1].

(وهكذا أصبحت القيروان دار العلم بإفريقية، برز فيها كبار المحدثين والفقهاء والقراء ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب)[2].

(١) حسن البيان للشيخ / محمد النيفر، ص : (١٨٩) نقلاً عن مدرسة الحديث في القيروان (١/٥٥).
(٢) مدرسة الحديث في القيروان (١/٥٥).

الفصل الثاني

الصحابة الذين دخلوا ليبيا واستقروا في مدينة القيروان

بدأت أجيال المحدثين في القيروان بالصحابة رضوان الله عليهم فقد دخلوا إفريقية فاتحين ومعلمين، أسسوا مدينة القيروان - كما سبق - فكسبت بذلك شرفاً على مدى الأزمان، وهم أول من نشر فيها علم الكتاب والسنة قولاً وعملاً، ومن هنا سأبدأ الحديث عمن نزل القيروان من الصحابة وأثرهم في نشر السنة بها وبإفريقية عموماً.

المبحث الأول : عددهم وتحقيق القول في ذلك[1]

إن مما يلاحظه الناظر في كتب تاريخ المغرب وتراجم رجاله كثرة من دخل إفريقية من الصحابة، قال ابن عذارى : (دخل إفريقية من أصحاب رسول الله ﷺ، من المهاجرين الأولين ناس كثير)[2]، وقد استمر قدومهم إليها من سنة ٢٧هـ إلى سنة ٧٨هـ، وكان يدخلها في كل غزوة جمع غفير منهم، ويتضاءل عدده مع مرور الزمن، فقد كانت عدة جيش عبد الله بن سعد سنة ٢٧هـ عشرين ألفاً أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ، كما كان مع معاوية بن حديج في غزواته الثلاث بشر كثير من

---

(١) اعتمدت في هذا الفصل على كتاب مدرسة الحديث في القيروان، وهو أهمها وكذلك بعض كتب التراجم.

(٢) البيان المغرب : (٨/١).

أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، أما عقبة بن نافع فقد صحبه في غزوته الأولى سنة ٥٠ على الراجح – كما أسلفت – ثمانية عشر صحابياً، وفي غزوته الثانية ٦٢هـ خمسة وعشرون صحابياً، كما دخلها خالد بن ثابت الفهمي سنة ٥٤هـ أميراً، ودخلها سفيان بن وهب الخولاني سنة ٦٠هـ وسنة ٧٨هـ، وهو آخر من دخلها من الصحابة وعلى هذا يكون عدد من وقع التصريح بأسمائهم ضئيلاً جداً بالنسبة للعدد الحقيقي، فقد صرح أبو العرب باسم سبعة عشر منهم.

وذكر المالكي تسعة وعشرين صحابياً، وقد عد منهم عقبة بن نافع، وهو لا صحبة له. وذكر الدباغ ثلاثين صحابياً، وقد ذكر فيهم عقبة بن عامر وهو لم يدخلها، وذكر صاحب الشجرة واحداً وأربعين، وقد تعقبت[1] عشرة منهم، تبين لي أن ثمانية منهم من كبار التابعين، لم تثبت لهم صحبة، وواحد لم يدخلها وواحد كرره، فتمحص له منهم واحد وثلاثون صحابياً.

وبعد النظر في مختلف المصادر والمراجع ولَمٍّ شتات هذه المسألة تحصل لدي عدد خمسة وأربعين صحابياً ممن له رواية، أي بزيادة أربعة عشر رجلاً على أكبر عدد سبقت إليه في تعداد الصحابة الذين نزلوا القيروان وإفريقية وهو ما تمحص لصاحب الشجرة وقد تقدم أنه واحد وثلاثون.

وهذا عدا المخضرمين – وهم ثلاثة – ومن ولدوا على عهد الرسول ﷺ وتوفي وهم دون سن التمييز، وقد بلغ عددهم ثمانية عشر رجلاً فيما وقفت عليه بعد البحث، وهؤلاء عدادهم عند المحدثين في كبار التابعين من حيث الرواية[2].

---

(١) المتعقب هو الأستاذ الحسين بن محمد شواط صاحب كتاب مدرسة الحديث في القيروان.

(٢) انظر : مدرسة الحديث (٢/٤٦٥).

المبحث الثاني : أثر الصحابة الرواة في نشر السنة بالقيروان وإفريقية

لقد ضنت علينا المصادر بالمعلومات المنشودة المتعلقة بالنشاط العلمي للصحابة في القيروان، وأغفلتها إغفالاً تاماً، وقد قمت[1] بتتبع مواضع تراجم هؤلاء الصحابة في كتب أهل المشرق والمغرب، وكتب التاريخ العامة والخاصة، لعلي أظفر بما ينير الطريق في هذه المسألة، ولذلك فقد تضخمت مصادر تراجم الصحابة، ولاحظت أن اهتمام المشارقة بإظهار الجانب العلمي للأفارقة والقيروانيين - وخاصة في مجال الحديث - قليل جداً، حتى إنهم نادراً ما يشيرون في ترجمة الصحابي إلى دخوله إفريقية، فضلاً عن أن يتحدثوا عن نشاطه العلمي فيها، أما أهل القيروان فإن أغلب ما صنفوه في الحديث وفي تاريخ بلادهم وتراجم رجالها قد فقد، وأهمه مسند المحدث محمد بن سحنون (ت٢٥٦)، وقد وصف بأنه كبير، ولعله إن وجد يسد هذه الثغرة، والذي يمكن قوله في هذه المسألة بناء على ما توافر من المادة العلمية هو :

١ - أن الصحابة عموماً منهل علمي طبيعي لنشر سنة النبي ﷺ، وقد أمرهم ﷺ بالتبليغ عنه ما استطاعوا، وقد هجروا أوطانهم وتفرقوا في الأمصار بعد وفاة الرسول ﷺ للقيام بهذه المهمة السامية، لذلك فإن قلة المادة الواردة في هذا الشأن بخصوص القيروان لا تعني عدم قيامهم بنشر السنة فيها، إنما تفسر بقلة التدوين وضياع أكثر ما دون.

٢ - إن الظروف العامة لإفريقية والقيروان في فترة الفتح لم تساعد على طول استقرار الصحابة فيها، وهذا يعني عدم وجود واسطة مستقرة من الصحابة لرواية السنة، فكانوا يقدمون للغزو، وخلال ذلك ينشرون علوم الكتاب والسنة، ثم يعودون للمشرق، فلما تم الفتح النهائي واستقرت الأوضاع

---

(١) القائم بهذا الأمر هو صاحب كتاب مدرسة الحديث.

كان أغلب الصحابة قد توفوا، والباقون ضعفت قواهم - لكبر السن - عن القدوم إليها، لهذا كان أثرهم فيها أقل مما هو في بلاد المشرق.

٣ - إن أطول فترة مكثها الصحابة في شكل جماعي بالقيروان هي الفترة التي أسسوا فيها هذه المدينة، ودامت مدة خمس سنوات (٥٠ - ٥٥ على الراجح) وكان عددهم ثمانية عشر صحابياً في غزوة عقبة الأولى، ومن الطبيعي أنهم في هذه المدة الطويلة قد قاموا برواية علوم الكتاب والسنة، ونشرها بين من أسلم من البربر، ومن استقر في القيروان من عرب الفتح، ولا سيما ما يحتاج إليه في العبادات والمعاملات، خاصة وقد تم بناء المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ودورهم من حوله، ولم تكن هناك حروب في هذه الفترة.

٤ - لقد تكرر دخول كثير من الصحابة الرواة إلى إفريقية ثم القيروان بعد تأسيسها، فقد دخلها عبد الله بن سعد مرتين (٢٧، ٣٣هـ) ودخلها معاوية ابن حديج ثلاث مرات (٣٤، ٤١، ٤٥) وعبد الله بن عمر مرتين (٢٧، ٤٥) وعبد الله بن الزبير مرتين (٦٠، ٧٨) وغيرهم.

ولهذا التردد على إفريقية أثر كبير في نشر الصحابة للسنة، وذلك لأن هؤلاء قد عرفوا البلاد وطبائع أهلها، فهم أقدر على معرفة مداخلها وأصلح الطرق لنشر العلم بها، ولا شك أنه قد أصبح لهم بها أصحاب وتلاميذ.

٥ - إن كثيراً من الصحابة الفاتحين قد اتخذوا بإفريقية السراري وأمهات الأولاد - كما ذكرت المصادر - فقد ولد لعبد الله بن عمر طفلة بموضع القيروان، ولجبلة بن عمرو عقب بإفريقية، كما كان لقيس بن يسار أولاد بإفريقية منهم : أبو محرز القاضي وغيرهم، ووجود عقبهم بها دليل على استمرار

أمهات الأولاد فيها بعد عودة الصحابة ولا شك أنهن سينشرن بإفريقية ما تعلمنه من الصحابة من السنة القولية والعملية.

٦ - إن معظم من دخل إفريقية من الصحابة له رواية عن النبي ﷺ بل إن منهم جماعة من المكثرين، مثل عبد الله بن عمر، له ٢٦٣٠ حديثاً، وابن عباس له ١٦٦٠، وابن مسعود له ٨٤٨ حديثاً، وعبد الله بن عمرو له ٧٠٠ حديثاً، وغيرهم، ولا يمكن لهؤلاء أن يتوقفوا عن نشر العلم الغزير، فإن ذلك أصبح سجية من سجاياهم وطبعاً من طباعهم لا تكتمل حياتهم بدونه.

٧ - لقد ثبتت الرواية في إفريقية عن عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ وهم :

١ - جبلة بن عمرو الأنصاري : وحديثه عندهم عن طريق سليمان ين يسار الذي غزا معه إفريقية سنة ٤٥هـ، واستقر فيها بعد ذلك مدة وأخذ عنه من أهلها خالد بن أبي عمران وغيره.

٢ - رويفع بن ثابت الأنصاري : حدث رويفع بإفريقية وسمع من حنش ابن عبد الله الصنعاني، الذي كان معه في فتح جزيرة جربة، وقد استقر حنش بعد ذلك في القيروان وبقي فيها إلى أن توفي سنة ١٠٠هـ.

٣ - زياد بن الحارث الصدائي : انفرد أهل إفريقية برواية حديث الصدائي الطويل في خبر إسلامه وما سمعه من النبي ﷺ، وقد رواه عبد الرحمن بن زياد الإفريقي عن زياد بن نعيم عن الصدائي.

٤ - سفيان بن وهب الخولاني : سيأتي الحديث في ترجمته وعن طول مكوثه في القيروان، وأثر ذلك في نشره للسنة، وتلاميذه القيروانيين.

٥ - عبد الله بن سعد بن أبي السرح : ذكر ابن عبد الحكم بسنده إلى عبد الله بن ربيعة قال : صلى عبد الله بن سعد للناس لإفريقيا المغرب، فلما

صلى ركعتين سمعوا جلبة في المسجد، فأرعبهم ذلك وظنوا أنهم العدو، فقطع الصلاة، فلما لم ير شيئاً خطب الناس وقال : إن هذه الصلاة اختصرت، وأمر مؤذنه فأقام الصلاة، ثم أعادها[1].

٦ – عبد الله بن عمر بن الخطاب : حدث ابن عمر بإفريقية، وذلك في غزوته الثانية.

٧ – فضالة بن عبيد الأنصاري : حدث في إفريقية بحديثين رواهما عنه حنش الصنعاني، الذي كان معه في فتح جربة سنة ٤٧هـ، وسمعهما منه أهل القيروان.

٨ – المنيذر الأسلمي الإفريقي : سكن إفريقية واختص أهلها بحديثه.

٩ – أبو زمعة البلوي : وبه سميت البلوية، إحدى مقابر القيروان فيما بعد وروى عنه أهل إفريقية أنه حيث حضرته الوفاة بها : أمرهم أن يسووا قبره بالأرض.

١٠ – أبو اليقظان : دخل إفريقيا مع ابن حديج سنة ٤٥هـ، ومنها غزا صقلية وحدث فيها بهذا الحديث : عن ابن عَشّانة المعافري قال : سمعت أبا يقظان صاحب رسول الله ﷺ بصقلية يقول : أبشروا، والله لأنتم أشد حباً لرسول الله – ولم تروه – من عامة من رآه[2].

---

(١) فتوح مصر، ص (٢٦٢)، والحديث ضعيف في سنده ابن لهيعة وهو ضعيف في حفظه.
(٢) مدرسة الحديث في القيروان : (٢/٢٧٩).

المبحث الثالث : كبار الصحابة أو الصحابة الرواة

١ - الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو محمد، رضي الله عنه :

دخل إفريقية سنة ٢٧هـ مع عبد الله بن سعد، وقد صحب النبي ﷺ، وحفظ عنه ثلاثة عشرة حديثاً روى له البخاري في صحيحه، وأصحاب السنن الأربعة وأحمد في مسنده... اختلفوا في تاريخ مولده ووفاته اختلافاً كثيراً، والأكثر على أنه ولد سنة ٣هـ، وتوفي في حدود سنة ٥٠هـ[١].

والحسن بن علي أمه فاطمة الزهراء بنت نبينا عليه الصلاة والسلام، وقد وردت أحاديث كثيرة في بيان مناقبه - رضي الله عنه - ومن هذه المناقب ما رواه البخاري بإسناده إلى أبي بكرة رضي الله عنه قال : «سمعت النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول : «ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين»[٢]. وهذا الحديث فيه منقبة للحسن رضي الله عنه فقد أخبر النبي ﷺ بأنه سيد.

ووصفه عليه الصلاة والسلام للفئتين بالعظيمتين كما في رواية للبخاري[٣]، لأن المسلمين كانوا يومئذ فريقين فرقة مع الحسن - رضي الله عنه - وفرقة مع معاوية - رضي الله عنه - وهذه معجزة عظيمة من النبي ﷺ إذ أخبر بهذا فوقع مثل ما أخبر. أصل القضية أن علي بن أبي طالب لما ضربه عبد الرحمن بن ملجم المرادي يوم الجمعة وليلة السبت وتوفي ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان، سنة أربعين من الهجرة، وبويع لابنه الحسن بالخلافة في شهر رمضان من هذه السنة، وأقام الحسن أياماً

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان : (٢/٤٨٤).
(٢) صحيح البخاري : (٢/٣٠٦).
(٣) صحيح البخاري : (٢/٣٠٦).

يفكر في أمره ثم رأى اختلاف الناس فرقة من جهته وفرقة من جهة معاوية ولا يستقيم الأمر، ورأى النظر في إصلاح المسلمين وحقن دمائهم أولى من النظر في حقه فسلم الخلافة لمعاوية في الخامس من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين وقيل : من ربيع الآخر وقيل : في غرة جمادى الأول وكانت خلافته ستة أشهر إلا أياماً وسمي هذا العام عام الجماعة وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ «لعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين»[1].

فالحديث فيه علم من أعلام النبوة ومنقبة للحسن بن علي، فإنه ترك الملك لا لقلة ولا لذلة ولا لعلة بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة[2].

وفاته : كانت وفاته سنة خمسين من الهجرة بالمدينة المنورة[3].

٢ – الحسين بن علي بن أبي طالب أبو عبد الله، رضي الله عنه :

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي السبط الشهيد بكربلاء ابن بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء – رضي الله عنها – وريحانته في الدنيا ولد بعد أخيه الحسن، وكان مولده سنة أربع للهجرة مر ببلادنا ليبيا في غزوة العبادلة، له صحبة ورواية، عدد أحاديثه ثمانية، أخرج له أصحاب الكتب الستة، والإمام أحمد وغيرهم، وقد وردت أحاديث صحيحة في بيان مناقبه ومناقب أخيه الحسن، روى أبو الحاكم بإسناده إلى ابن عمر – رضي الله عنها – قال : قال رسول الله ﷺ : «الحسن والحسين سيدا شباب الجنة وأبوهماخير منهما»[4]. ومن

---

(١) صحيح البخاري : (٢/٣٠٦).
(٢) سير أعلام النبلاء : (٣/١٤٤ – ١٤٥)، معلم السنن : (٤/٣١١).
(٣) فتح الباري : (١٣/٦٦).
(٤) انظر : صفة الصفوة : (١/٧٦٢)، فتح الباري : (٧/٩٥).

إكرام الله له ولأخيه الحسن أنهما ماتا شهيدين تكميلاً لكرامتهما ورفعاً لدرجتهما أحدهما مات مسموماً والآخر مقتولاً[1].

مقتل الحسين :

لما مات معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – واستخلف من بعده ابنه يزيد قام أهل الكوفة بمكاتبة الحسين بن علي رضي الله عنه، وذكروا له أنهم في طاعته، فخرج إليهم الحسين، فسبقه عبيد الله بن زياد إلى الكوفة، فخذل غالب الناس عنه، فتأخروا رغبة ورهبة، وقتل ابن عمه مسلم بن عقيل، وكان الحسين قد قدمه قبله ليبايع الناس، فجهز إليه عسكراً فقاتلوه رضي الله عنه إلى أن قتل وجماعة من أهل بيته[2].

قلت : وأهل السنة يعتقدون أن الحسين رضي الله عنه قتل مظلوماً، وأن قتله من أعظم المصائب التي وقعت في الإسلام، وهم يلتزمون بما شرعه الله عند المصائب عن الاسترجاع وأن تقادم عهد المصيبة، وما يفعله الشيعة في يوم عاشوراء ليس من الإسلام في شيء بل هو من أمور جاهلية لم يفعلها رسول الله ﷺ ولا أحد من السابقين الأولين ومن التابعين لهم بإحسان، ولا من عادة أهل البيت ولا غيرهم، وقد شهد مقتل علي أهل بيته، وشهد مقتل الحسين من شهده من أهل بيته وقد مرت على ذلك سنون، وهم متمسكون بسنة رسول الله ﷺ في المصائب من صبر واسترجاع وحزن بدون جزع ولا تسخط على إرادة المولى.

مقتله : مات – رضي الله عنه – قتلاً في يوم عاشوراء من شهر الله المحرم إحدى وستون هجرية[3].

---

(١) البداية والنهاية : (٤٦/٨).
(٢) انظر : الكامل لابن الأثير : (٤٦/٤ – ٩٣).
(٣) انظر : البداية والنهاية : (١٦٢/٨).

٣ - عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - (حبر الأمة وترجمان القرآن) :

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب أبو العباس، غزا إفريقية مع ابن أبي سرح سنة ٢٧٠هـ، ومر ببرقة، وطرابلس، وهو الذي تولى قسمة الغنائم في جيش العبادلة وهو من أكثر الصحابة فتوى ورواية، له ١٦٦٠ حديثاً، أخرج له الجماعة وأحمد وغيرهم، ومن تلاميذه الذين سكنوا القيروان، حنش بن عبد الله الصنعاني(١).

وابن عباس هو ابن عم رسول الله ﷺ حبر الأمة، ومفسر كتاب الله وترجمانه، كان يقال له : الحبر والبحر، وروى عن رسول الله ﷺ شيئاً كثيراً، وعن جماعة من الصحابة وأخذ عنه خلق من الصحابة وأم من التابعين، وله مفردات ليست لغيره من الصحابة لاتساع علمه، وكثرة فقهه، وكمال عقله، وسعة فضله، ونبل أصله رضي الله عنه وأرضاه، وأمه أم الفضل لبابة بن الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين وهو والد الخلفاء العباسيين، هاجر مع أبيه قبل الفتح فاتفق لقياهما بالنبي ﷺ بالجحفة وهو ذاهب لفتح مكة فشهد الفتح وحنين والطائف عام ثمان، قيل : كان فيي سنة تسع، وصحب النبي ﷺ ولزمه، وأخذ عنه وحفظ، وضبط الأقوال والأفعال والأحوال وأخذ عن الصحابة علماً عظيماً مع الفهم الثاقب والبلاغة والفصاحة، والجمال والأصالة والبيان(٢).

وقد وردت في بيان فضله أحاديث كثيرة صحيحة عن رسول الله ﷺ كان في بيت ميمونة فوضعت له وضوءاً من الليل قال : فقالت ميمونة زوجة النبي ﷺ وخالة ابن عباس : يارسول الله وضع لك هذا عبد الله بن عباس فقال : «اللهم فقهه في الدين وعلمه من التأويل»(٣).

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان : (٢/٤٩٤).
(٢) انظر : عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام لناصر بن علي : (١/٣٧٨).
(٣) انظر : المسند في الفتح الرباني : (٢٢/٢٩٢).

وفاته : توفي بالطائف سنة ثمان وستين، رضي الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مثواه.

٤ – عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، أبو جعفر :

هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم أبو جعفر القرشي الهاشمي وأمه أسماء بن عميس الخشعمية أخت ميمونة بنت الحارث لأمها، ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها وهو أول من ولد بها من المسلمين وحفظ عن النبي ﷺ وروى عنه رضي الله عنه وأرضاه. مر بليبيا في جيش العبادلة، له ٢٥ حديثاً، أخرج له الجماعة وأحمد وغيرهم. ووردت له بعض المناقب دلت على عظيم شأنه وعلو مكانه.

ومن مناقبه – رضي الله عنه – أنه كان من الذين شبهوا بالنبي ﷺ خلقاً وخلقاً ودعا له ولإخوانه ودعا له خاصة أن يبارك في تجارته، فقد روى الإمام أحمد بإسناده إلى عبد الله بن جعفر أن النبي ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثاً أن يأتيهم ثم أتاهم فقال : «لا تبكوا على أخي بعد اليوم ادعوا إليّ ابني أخي، قال : فجيء بنا كأنا أفرخ، فقال : ادعوا إلي الحلاق فحلق رؤوسنا ثم قال : أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خَلْقي وخُلُقي، ثم أخذ بيدي فأشالها فقال : اللهم اخلُفْ جعفراً في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه، قالها ثلاث مرات».

وكان ابن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إذا سلم على عبد الله بن جعفر قال : السلام عليك يا ابن ذي الجناحين[1].

وكان ممن اشتهروا بالجود والبذل والعطاء، ذكر الذهبي أن أعرابياً قصد مروان، فقال : ما عندنا شيء، فعليك بعد الله بن جعفر، فأتى الأعرابي عبد الله، فأنشأ يقول :

---

(١) انظر : سير أعلام النبلاء : (٣/٤٥٩).

أبو جعفر من أهل بيت النبوة صَلاتُهم للمسلمين طُهُور

أبا جعفر ضَنَّ الأميرُ بماله وأنت على ما في يَدَيْكَ أميرُ

أبا جعفر يا ابن الشهيد الذي له جناحان في أعلى الجنان يطيرُ

أبا جعفر ما مثلك اليومَ أرتجي فلا تتركني بالفلاة أدور

أبا جعفر إن الحجيج ترحلوا وليس لرحلي فاعلمن بعير

فقال عبد الله : يا أعرابي سار الثَّقَلُ، فعليك بالراحلة بما عليها، وإياك أن تُخْدع عن السيف، فإني أخذته بألف دينار[1].

وفاته : ذكر الذهبي أقوالاً في وفاته منها أنه : مات سنة ثمانين وقيل : سنة أربع أو خمس وثمانين وقيل : تسعين[2].

٥ - عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي - رضي الله عنه - :

هو عبد الله بن عمر بن نفيل القرشي العدوي أبو عبد الرحمن مر بأرض الأمل ليبيا في غزوة العبادلة وحدث ابن عمر بإفريقية، وذلك في غزوته الثانية سنة ٤٥هـ، روى عنه ميسرة الزرودي، وهو من أهل إفريقية، كما سأله يزيد بن قاسط وهو من أهلها أيضاً وتجمع عنده بعض أهلها، فلما أراد أن يفارقوه طلبوا نصحاً وسألوه عن أحكام فأجاب، ومن هذه الأحكام ما ذكره المالكي : أن أبا سعيد المقبري استسلف بإفريقية ديناراً جرجيرياً من رجل على أن يعطيه منقوشاً بمصر، فسأل ابن عمر عن ذلك فقال : (لولا الشرط الذي فيه لم يكن به بأس) وعزاه المالكي إلى موطأ ابن وهب، ومدونة سحنون، وهكذا يكون أهل إفريقية قد تعلموا من هذا الصحابي مواعظ وأحكاماً تفيدهم في دينهم، كما أن في سؤال أهل إفريقية له، واجتماعهم إليه

---

(١) سير أعلام النبلاء : ٣/٤٥٩).

(٢) نفس المصدر.

وطلبهم أن يزودهم من علمه دليل على أنهم كانوا حريصين على الاستفاد من وجود الصحابة بينهم وإنهم على وعي بدور الصحابة في الرواية والتعليم لأمور الدين[1].

علمه : عرف ابن عمر بالعلم والفقه، وطول ملازمته النبي ﷺ وحفظ القرآن وفهم آياته وأحكامه، وعاش طويلاً فاحتاج الناس إلى علمه وفقه. ويتحلى إلى جانب علمه النافع الغزير بالتواضع والورع والدقة، فلا يفتي، ولا يجيب عما لم يقع، واشتهر بالرواية عن رسول الله ﷺ.

قال النووي : (واعلم أن ابن عمر أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية عن النبي ﷺ وهم : أبو هريرة، ثم ابن عمر، ثم أنس، وابن عباس، وجابر، وعائشة[2] قال رسول الله ﷺ في حقه : «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل»[3] فما ترك ابن عمر قيام الليل ولا حتى في الليلة التي استشهد فيها والده الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عرضت عليه الخلافة مرات عديدة. منعه الخوف من الله أن يتقلدها قال الذهبي : هو أحد الأعلام في العلم والعمل، وهو من أهل بيعة الرضوان، وممن كان يصلح للخلافة، فعين لذلك يوم الحكمين مع وجود مثل الإمام علي، وفاتح العراق سعد ونحوهما رضي الله عنهما ومناقبه جمة، أثنى عليه النبي ﷺ ووصفه بالصلاح[4]. وقال سعيد بن المسيب فيه يوم وفاته : وما في الأرض أحد أحب إليّ أن ألقى الله عز وجل بمثل عمله منه وكانت سنة وفاته ٧٤هـ[5].

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان : (٤٧٦/٢).

(٢) تهذيب الأسماء واللغات : (٢٨٠/١) للنووي

(٣) الطبقات لابن سعد : (١٤٧/٤).

(٤) انظر : أعلام النبلاء : (٢٠٣/٣).

(٥) نفس المصدر.

٦ – عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه :

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شَمْخ بن فار بن مخزوم الهذلي، الإمام الحبر، فقيه الأمة، أبو عبد الرحمن الهذلي المكي المهاجري البدري، حليف بني زهرة كان من السابقين الأولين، ومن النجباء العالمين، شهد بدراً، وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك على النفل، ومناقبه غزيرة، روى علماً كثيراً[١].

دخل ليبيا في غزوة العبادلة مع جيش عبد الله بن أبي سرح روى عن النبي ﷺ ٨٤٨ حديثاً. أخرج أحاديثه أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد في مسنده والطبراني في معجمه. ولقد حفظ سور عديدة من القرآن من فيّ رسول الله ﷺ وبرع في الحفظ وإتقان التلاوة وبقي ابن مسعود ملازماً للنبي ﷺ حتى أخذ عنه معظم سور القرآن مشافهة، وقد تحدث بذلك فقال : (والله لقد أخذت من فيّ رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم، قال شقيق : فجلست في الحِلق أسمع ما يقولون، فما سمعت راداً يقول غير ذلك)[٢].

وطلب النبي ﷺ من ابن مسعود ذات يوم أن يقرأ عليه القرآن. فقال ابن مسعود : أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال : «إني أشتهي أن أسمعه من غيري، قال فقرأت النساء حتى إذا بلغت : ﴿**فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً**﴾ [النساء : ٤١]، قال لي : «كف، أو أمسك، فرأيت عينيه تذرفان»[٣].

هذا الصحابي الجليل والعلم النحرير، والعابد الزاهد، والفقيه الفذ، والمجاهد الكبير كان في جيوش الفاتحين للشمال الإفريقي ومر ببلادنا ليبيا وكان معلماً ومربياً

---

(١) سير أعلام النبلاء : (٤٦١/١).
(٢) انظر البخاري مع الفتح، رقم : (٥٠٠٠).
(٣) انظر البخاري، الفتح، رقم : (٥٠٥٥).

للجنود الذين معه وكذلك لإخوانه الذين دخلوا في دين الله أفواجاً وكانت أقواله، ومواعظه حكماً، تحيا بها القلوب، وكان يوصي الناس في أخذ العلم، وأن يأخذوه من أكابرهم فقال في ذلك : (لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه من أصاغرهم هلكوا)[١]. وتوفي هذا البحر الزاخر من العلوم والمعارف سنة اثنتين وأربعين هجرية في المدينة المنورة[٢].

٧ - عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - :

هو عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله ﷺ وابن صاحبه، أبو محمد وقيل : أبو عبد الرحمن كان والده أكبر منه بإحدى عشرة سنة أو نحوها، وقد أسلم قبل أبيه وكان اسمه العاص، فلما أسلم غيره النبي ﷺ بعبد الله له مناقب وفضل ومقام راسخ في العلم والعمل حمل عن النبي ﷺ علماً جماً[٣]. مر ببلادنا في غزوة العبادلة ودخل إفريقية وكان يكتب ما يسمعه من النبي ﷺ، بناء على الإذن النبوي الشريف له، وكان غزير العلم، له ٧٠٠ حديث أخرج له أصحاب الكتب الستة[٤] وأحمد وغيرهم، من تلاميذه الذين نشروا العلم بالقيروان : عكرمة مولى ابن عباس.

شدة عبادته :

عن عبد الله بن عمرو، قال : (زوجني أبي امرأة من قريش، فلما دخلتْ عليّ، جعلت لا أنحاش لها مما بقي بي من القوة على العبادة، فجاء أبي إلى كنته، فقال : كيف وجدتِ بعلكِ؟ قالت : خير رجل من رجلٍ لم يُفَتِّش فها كنفاً، ولم يقربْ لها

---

(١) أعلام المسلمين عبد الله بن مسعود لعبد الستار الشيخ : (٣٣٩).
(٢) أسد الغابة : (٣/٣٩٠).
(٣) سير أعلام النبلاء : (٣/٨٠).
(٤) مدرسة الحديث بالقيروان : (٢/٤٩٥).

فراشاً، قال : فأقبل عليّ، وعنفني بلسانه، ثم قال : أنكحتك امرأة ذات حسب، فعضلتها وفعلت، ثم انطلق، فشكاني إلى النبي ﷺ، فطلبني : فأتيته فقال لي : أتصوم النهار وتقوم الليل؟ قلت : نعم، قال : لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأمس النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني)[١]. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال : جمعت القرآن، فقرأته كلَّه في ليلة، فقال رسول الله ﷺ : اقرأه في شهر، قلت : يا رسول الله، دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال : اقرأه في عشرين. قلت : دعني أستمتع قال : اقرأه في سبع ليال. قلت : دعني يا رسول الله أستمتع. قال : فأبى[٢] وصح أن رسول الله ﷺ نازله إلى ثلاث ليال، ونهاه أن يقرأه في أقل من ثلاث[٣].

وفاته : مات عبد الله ليالي الحرة سنة ثلاث وستين وقيل : توفي في مصر، وقيل : بالطائف وقيل : بمكة، وقيل : بالشام[٤].

٨ – المقداد بن عمرو، رضي الله عنه.

هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعي الكندي البهراني ويقال له : المقداد بن الأسود، لأنه ربي في حجر الأسود بن عبد يغوث الزهري فتبناه وقيل : بل كان عبداً له أسود اللون فتبناه، ويقال : بل أصاب دماً في كندة، فهرب إلى مكة، وحالف الأسود، شهد بدراً والمشاهد، وثبت أنه كان يوم بدر راكباً على فرسه وهو أحد السابقين للإسلام[٥]، وكان أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهروا

---

(١) سير أعلام النبلاء : (٣/٩٠).
(٢) المرجع السابق : (٣/٨٣).
(٣) المرجع السابق : (٣/٨٤).
(٤) نفس المرجع السابق : (٣/٩٤).
(٥) سير أعلام النبلاء : (١/٣٨٦ – ٣٨٩).

الإسلام. مر ببلادنا الحبيبة في غزوة العبادلة في جيش عبد الله بن أبي السرح روى ٤٢ حديثاً، وأخرج له أصحاب الستة، والإمام أحمد في مسنده ومالك في موطئه[1].

دروس من سيرته يوم بدر :

عندما استشار رسول الله ﷺ أصحابه أثناء خروجه لملاقاة المشركين في بدر تلكم المقداد بعد أبي بكر وعمر فقال : يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول ﷺ خيراً ودعا له وفي رواية البخاري : (قال : ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، قال ابن مسعود : فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره قوله).

خوفه من الإمارة :

عن المقداد بن عمرو قال : استعملني رسول الله ﷺ، على عمل، فلما رجعت قال لي كيف وجدت الإمارة؟ قلت : يا رسول الله ما ظننت إلا أن الناس كلهم خَوَلٌ لي، والله لا ألي على عمل ما دمتُ حياً.

حرصه على الجهاد :

ذكر الذهبي أن أبا راشد الحُبْراني وافى المقداد فارس رسول الله بحمص على تابوت من توابيت الصيارفة، قد أفضل عليها من عِظَمِه، يريد الغزو، فقلت له : قد أعذر الله إليك. فقال : أَبَتْ علينا سورة البحوث (التوبة) ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً**﴾

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان : (٢/٥٠٠).

[التوبة : ٤١]. توفي رضي الله عنه سنة ثلاث وثلاثين وصلى عليه عثمان بن عفان وقبره بالبقيع(١).

٩ - أبو ذر الغفاري - رضي الله عنه - :

هو جندب بن جنادة بن عبيد بن حزام بن غفارة بن مليل بن بكر بن عبد مناف ابن كنانة، أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد ﷺ، قيل : كان خامس خمسة في الإسلام، ثم إنه رُدَّ إلى بلاد قومه فأقام بها بأمر النبي ﷺ له بذلك، فلما هاجر النبي ﷺ، هاجر أبو ذر رضي الله عنه، ولازمه، وجاهد معه وكان يفتي في خلافة أبي بكر، وعمر وعثمان(٢). مر بليبيا ودخل الشمال الإفريقي في غزوة العبادلة، روى عن النبي ﷺ ٢٨١ حديثاً، أخرج له أصحاب الكتب الستة وغيرهم.

قال في حقه رسول الله ﷺ : «ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر»(٣) قال عنه الذهبي : كان رأساً في الزهد، والصدق، والعلم، والعمل، قوّالاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، على حِدة فيه(٤).

وتجد في كتب الشيعة اتهام لعثمان رضي الله عنه بأنه ظلم أبا ذر ونفاه إلى الربذة وهذا اختلاق منهم وإفك مبين وإنما الذي حدث أن أبا ذر رضي الله عنه هو الذي اختار الربذة بنفسه، وأن عثمان دعاه من الشام ليكون معه في المدينة بعد أن اختلف أبو ذر مع معاوية رضي الله عنهما في الشام وقال عثمان لأبي ذر : (أحببت أن أجعلك بين أصحابك وخفت عليك جهل الناس). قالت أم ذر : (والله ما سيّر عثمان أبا ذر - تعني الربذة - ولكن رسول الله ﷺ قال : «إذا بلغ البناء سلعاً، فاخرج

---

(١) سير أعلام النبلاء : (٣٨٨/١).
(٢) سير أعلام النبلاء : (٤٦/٢ - ٧٨).
(٣) مدرسة الحديث في القيروان : ٤٨٥/٢ - ٤٨٦).
(٤) سير أعلام النبلاء : (٤٦/٢ - ٧٨).

منها») وكان أبو ذر لا يستجيز ادخار النقدين الذهب والفضة وكان يحدث الناس ويقول : لا يبيتن عند أحدكم دينار ولا درهم، ولا تبر ولا فضة، إلا شيء ينفقه في سبيل الله، أو يعده لغريم ذلك فقال : هذا دال على فضل إنفاقه وكراهية جمعه، لا يدل على تحريم[1].

وفاته : توفي رضي الله عنه في الربذة في عام ٣٢هـ، وحضر دفنه عبد الله بن مسعود رضي الله الذي مات بعده بقليل.

١٠ – عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه –.

حضر بدراً مع المشركين، ثم أسلم وهاجر قبيل الفتح. وأما جده أبو قحافة فتأخر إسلامه إلى يوم الفتح وكان عبد الرحمن أسن أولاد الصديق. وكان من الرماة المذكورين والشجعان قتل يوم اليمامة سبعة من كبارهم دخل إفريقية ماراً بليبيا في جيش العبادلة له أحاديث ثمانية أخرج له أصحاب الكتب الستة وأحمد وغيرهم وهو الذي أمره النبي ﷺ في حجة الوداع أن يعتمر بأخته عائشة من التنعيم، توفي سنة ٥٣هـ[2].

١١ – أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري – رضي الله عنه –

هو كعب بن عمرو الأنصاري السلمي المدني البدري العقبي الذي أسر العباس – رضي الله عنهما – يوم بدر، وشهد العقبة وله عشرون سنة وهو الذي انتزع راية المشركين يوم بدر، ومناقبه كثيرة، وهذا الصحابي الذي شهد بدراً وبايع في العقبة مر ببلادنا ودخل الشمال الإفريقي في جيوش الفاتحين، له أحد عشر حديثاً، أخرج له مسلم، والأربعة والبخاري في الأدب المفرد، والإمام أحمد وغيرهم. توفي سنة ٥٥هـ بالمدينة[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/٦٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢/٤٧١).

(٣) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/٥٣٧).

١٢ – فضالة بن عبيد رضي الله عنه :

هو فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب بن أصرم بن جَحْجَبَى الفقيه، أبو محمد الأنصاري الأوسي. صاحب رسول الله ﷺ، من أهل بيعة الرضوان، ولي الغزو لمعاوية، ثم ولي له قضاء دمشق، وكان ينوب عن معاوية في الإمرة إذا غاب. حدث في إفريقية بحديثين رواهما عنه حنش الصنعاني، الذي كان معه في فتح جربة سنة ٤٧هـ وسمعهما من أهل القيروان، أخرج له مسلم، والأربعة، وأحمد وبقي بن مخلد، وابن منده[١].

قاضي دمشق :

كان أبو الدرداء – رضي الله عنه – يقضي على دمشق، فلما حضرته الوفاة أتاه معاوية عائداً، فقال : من ترى للأمر بعدك؟ قال : فضالة بن عبيد فلما توفي قال معاوية لفضالة : إني قد وليتك القضاء فاستعفى منه فقال : والله ما حابيتك بها، ولكني استترت بك من النار، فاستتر منها ما استطعت.

تأمله في آية ووصية لابن محيريز :

ذكر الذهبي رحمه الله أن فضالة قال : لأن أعلم أن الله يتقبل مني مثقال حبة أحب إلي من الدنيا، وما فيها، لأنه تعالى يقول : ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾. وعن ابن محيريز، قال : قلت لفضالة أوصني : فقال : خصال ينفعك الله بهن، إن استطعت أن تعرف ولا تُعرف، فافعل، وإن استطعت أن تسمع ولا تتكلم، فافعل، وإن استطعت أن تجلس ولا يُجلس إليك، فافعل[٢].

وفاته : قال معاوية رضي الله عنه حين توفي فضالة، وهو يحمل نعشه، لابنه

(١) مدرسة الحديث في القيروان : (٤٧٨/٢، ٤٩٦).

(٢) سير أعلام النبلاء : (١١٦/٣).

عبد الله بن معاوية : تعال اعقبني، فإنك لن تحمل مثله أبداً وكانت سنة وفاته ٥٣هـ، وقيل : ٥٩هـ[١].

١٣ - سلمة بن الأكوع رضي الله عنه :

هو سلمة بن عمرو بن الأكوع، واسم الأكوع : سنان بن عبد الله، أبو عامر وأبو مسلم. ويقال : أبو إياس الأسلمي الحجازي المدني، قيل : شهد مؤتة، وهو من أهل بيعة الرضوان، قال مولاه يزيد : سمعته يقول : بايعت رسول الله ﷺ على الموت، وغزوت معه سبع غزوات[٢].

شجاعته : أغار عبد الرحمن بن عُيينة على الإبل التي كانت في ضواحي المدينة فقتل راعيها، وطرد الإبل هو وأناس معه في خيل، وكان مع سلمة رباح غلام النبي ﷺ فأقعده على فرس ليعلم رسول الله، وقام على تل ونادى ثلاثاً : يا صباحاه واتبع القوم فجعل يرميهم وحده ويقول :

أنا ابـن الأكـــوع   واليوم يوم الرضع

حتى لحقت به خيل رسول الله ﷺ وعلى رأسهم أبو قتادة وتغلبوا على العدو وقال رسول الله ﷺ في ذلك : «خير فرساننا أبو قتادة، وخير رَجَّالتنا سلمة»[٣]. ولقد دخل هذا الصحابي الجليل إفريقية ماراً ببرقة وطرابلس في جيش العبادلة سنة ٢٧هـ، روى ٧٧ حديثاً، أخرج له الجماعة وأحمد والطبري وغيرهم[٤].

وكان رسول الله ﷺ يردفه خلفه في الغزو أحياناً ومسح رسول الله على وجهه

---

(١) نفس المصدر : (١١٧/٣).
(٢) سير أعلام النبلاء : (٣٢٦/٣).
(٣) نفس المصدر : (٣٢٧/٣ - ٣٣٠).
(٤) مدرسة الحديث في القيروان : (٤٩٢/١).

مراراً واستغفر له مراراً، حدث إياس بن سلمة عن أبيه قال : (أردفني رسول الله ﷺ مراراً، ومسح على وجهي مراراً، واستغفر لي مراراً عدد ما في يدي من الأصابع)(١).

وفاته : استأذن رسول الله ﷺ في البدو، وخرج في آخر حياته إلى الربذة وقبل وفاته بليال نزل إلى المدينة، توفي سنة أربع وسبعين الهجرية وكان من أبناء التسعين وحديثه من عوالي صحيح البخاري(٢).

١٤ – المسور بن مخرمة، رضي الله عنه :

هو المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن قصي بن كلاب، الإمام الجليل، أبو عبد الرحمن، وأبو عثمان القرشي الزهري وأمه عاتكة أخت عبد الرحمن بن عوف زهرية أيضاً. له صحبة ورواية عداده في صغار الصحابة كالنعمان بن بشير، وابن الزبير وكان ممن يلزم عمر ويحفظ عنه، دخل إفريقية ماراً ببرقة وطرابلس مع ابن أبي السرح، وهو الذي حرض عثمان على غزو إفريقية بلغت أحاديثه اثنان وعشرون، أخرج له أصحاب الكتب الستة وأحمد وغيرهم.

كان كثير الصيام، وكان إذا قدم مكة طاف لكل يوم غاب عنها سبعاً، وصلى ركعتين وشاهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص، وكان من خواص ابن الزبير وكان ابن الزبير لا يقطع أمر دون المسور في مكة.

وفاته : قيل قتل في حصار الحجاج لابن الزبير في مكة سنة ٧٣هـ، ورجح الذهبي أن وفاته سنة ٦٤هـ ودفن في مكة(٣).

---

(١) سير أعلام النبلاء : (٣/٣٣٠).
(٢) نفس المصدر السابق : (٣/٣٣١).
(٣) أسد الغابة : (٤/٣٩٩).

١٥ – سفيان بن وهب الخولاني :

الصحابي المعمر، أبو أيمن، الخولاني المصري، اختلفوا في صحبته والصحيح أن له صحبة ورواية، كما ذكر ابن حجر في تعجيل المنفعة وغيره. غزا المغرب زمن عثمان، ودخلها غازياً مرة أخرى سنة ٦٢هـ، وأميراً سنة ٧٨هـ. حدث بالقيروان ومن تلاميذه في الشمال الإفريقي مسلم بن يسار، وبكر بن سوادة، له ثلاثة أحاديث انفرد بها أهل مصر وإفريقية، أخرج له الطبراني في الكبير والحاكم، وأبو يعلى، وأحمد وابن منده، وأبو نعيم.

وفاته : قيل ٨٢هـ بإفريقية، وقيل : ٩١هـ.

١٦ – بلال بن الحارث المزني، أبو عبد الرحمن :

دخل إفريقية سنة ٢٧هـ في غزوة العبادلة، وكان يحمل لواء قومة مزينة، وعدتهم أربعمائة، وقيل : ثمانمائة، له صحبة، ورواية، أحاديثه ثمانية، روى له الأربعة (أبو داود، النسائي، الترمذي، ابن ماجة) وأحمد، ومالك، توفي سنة ٦٠هـ.

١٧ – جبلة بن عمرو الأنصاري :

دخل جبلة إفريقية مع معاوية بن حديج، في آخر غزواته سنة ٤٥هـ، وبقي بها مدة، لأن هذه الغزوة قد دامت قرابة أربع سنوات حتى إنه أخذ عنه من أهلها خالد بن أبي عمران وغيره، وكان له أثر في نشر السنة بالشمال الإفريقي.

١٨ – جرهد بن خويلد الأسلمي :

دخل إفريقية مع ابن أبي سرح، له ثمانية أحاديث، أخرج له البخاري في صحيحه، وأبو داود، والترمذي، والإمام أحمد، وبقي بن مخلد. توفي سنة ٦١هـ.

١٩ – الحارث بن حبيب بن خزيمة القرشي العامري :

نزل مصر، منها غزا إفريقية، واستشهد بها في بعض غزوات معاوية بن حديج.

دخل الشمال الإفريقي في غزوة العبادلة، وقد أمره عثمان رضي الله عنه على الجيش حتى يصلوا إلى عبد الله بن سعد في مصر، له حديث واحد في مسند بقي بن مخلد، وأخرج له الإمام أحمد في مسنده.

٢٠ – حمزة بن عمرو الأسلمي، أبو صالح :

شهد فتح إفريقية، وله بها آثار محمودة، له عن النبي ﷺ تسعة أحاديث، أخرج له البخاري، ومسلم، وأبو داود والنسائي وغيره. من تلاميذه سليمان بن يسار، وقد دخل القيروان بعد ذلك واستقر بها. توفي هذا الصحابي الجليل سنة ٦١هـ.

٢١ – خالد بن ثابت الفهمي :

دخل إفريقية مرتين : الأولى مع ابن حديج سنة ٤٥هـ، والثانية أميراً عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ٥٤هـ، وكان خالد ولي الإمارة على عهد عمر وغيره، ولم أعثر على من نسب له رواية عن النبي ﷺ.

٢٢ – ربيعة بن عبّاد الدؤلي :

صحب النبي ﷺ وروى عنه، شهد غزو إفريقية مع عبد الله بن سعد وله بها آثار، له خمس أحاديث، أخرج له الطبراني في الكبير، وأحمد في المسند، توفي سنة ٩٥هـ.

٢٣ – أبو رمثة البلوي :

لم يذكر تاريخ دخول أبي رمثة إلى إفريقية، وأجمعوا على صحبته ووفاته بها. كان له عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث، أخرج له أبو داود، والترمذي، والنسائي، وأحمد.

٢٤ - زياد بن الحارث الصدائي :

له صحبة ورواية، ويعد في المصريين وأهل المغرب، دخل إفريقية وشهد فتوحاتها، ولم يذكر التاريخ زمن دخوله. له عن النبي ﷺ أربعة أحاديث.

٢٥ - أبو زمعة البلوي :

اشتهر بكنيته، وقد اختلفوا في اسمه اختلافاً كثيراً، والأكثر على أنه عبيدة بن أرقم دخل إفريقية مع ابن حديج سنة ٤٥هـ وتوفي بها، وسميت مقبرة البلوية في القيروان باسمه، وقد ذكروا أن قلنسوته دفنت معه وفيها من شعر رسول الله ﷺ. له حديثان، أخرج له البغوي في معجمه، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، وابن عبد الحكم في فتوحه.

٢٦ - سلكان بن مالك :

ذكر فيمن غزا المغرب من الصحابة ولم يحددوا تاريخ دخوله، ولم يسندوا إليه رواية.

٢٧ - أبو خبيس البلوي :

غزا إفريقية وعداده في المصريين من الصحابة، له حديث واحد.

٢٨ - عبد الله بن أنيس الجهني :

أبو يحيى المدني حليف الأنصار، شهد فتح إفريقية مع ابن أبي سرح، له ٢٤ حديثاً، أخرج له مسلم، والأربعة، ومالك، وأحمد والبخاري، في الأدب المفرد. توفي سنة ٥٤هـ.

٢٩ - قيس بن يسار بن مسلم الكناني :

نقل المالكي في رياض النفوس عن ابن يونس أن قيساً هذا صحابي، وذكر أنه

دخل إفريقية مع عقبة بن نافع (سنة ٥٠ أو ٦٢هـ) وله عقب بإفريقية : منهم : أبو محيريز القاضي.

٣٠ – أبو لبابة الأنصاري :

اختلفوا في اسمه كثيراً، فقيل : بشر، وقيل : رفاعة بن المنذر، وقيل : غير ذلك له ١٥ حديثاً، أخرج له البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجة، اختلفوا في تاريخ وفاته، والقبر الذي فوق مقبرة قابس بتونس قبره، وقيل : توفي سنة ٤٠هـ أما الإمام ابن حبان فقد قال : إنه توفي في المدينة.

٣١ – مسعود بن الأسود البلوي :

غزا إفريقية، عداده في أهل مصر، وهو الذي استأذن عمر في غزو إفريقية، وحديثه عند أهل القيروان من طريق علي بن رباح الذي سكن القيروان.

٣٢ – المسيب بن حزن القرشي المخزومي أبو سعيد :

شهد فتح إفريقية مع ابن أبي سرح، له سبعة أحاديث، لم يرو عنه غير ابنه سعيد ابن المسيب وهو من سادة التابعين، أخرج له البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي وأحمد وبقي بن مخلد.

٣٣ – المطلب بن أبي وادعة السهمي :

غزا إفريقية مع عبد الله بن أبي سرح في جمع من بني سهم كما ذكر ابن يونس وغيره، له تسعة أحاديث، أخرج له مسلم، والأربعة، ومالك وأحمد، وغيرهم.

٣٤ – المنذر الأسلمي الإفريقي :

نسب إلى إفريقية لكونه سكنها وتوفي بها، واختص أهلها بحديثه، ومن طريق

أبي عبد الرحمن الحبلي دفن في طرابلس وقبره مشهور[1].

ونكتفي بذكر هذا الكم من الأخيار الذين دخلوا وشاركوا في فتح الشمال الإفريقي، بل منهم من قد ساهم مساهمة مباشرة في بناء مدينة القيروان، وأقاموا صرح الإسلام الشامخ في ربوع البلاد وفي قلوب العباد، ونشروا علوم القرآن وعلوم سنة النبي ﷺ القولية والفعلية، كما تلقوها عن الرسول ﷺ.

وأخيراً : ننقل لك بعض الأبيات من نونية القحطاني أبو محمد عبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي، في مدحه لصحابة رسول الله ﷺ.

قل : إن خير الأنبياء محمد	وأجل من يمشي على الكثبان
وأجل صحب الرسل صحب محمد	وكذاك أفضل صحبه العمران
رجلان قد خلقا لنصر محمد	بدمي ونفسي ذانك الرجلان
فهما اللذان تظاهرا لنبينا	في نصره وهما له صهران
بنتاهما أسنى نساء نبينا	وهما له بالوحي صاحبتان
أبواهما أسنى صحابة أحمد	يا حبذا الأبوان والبنتان
وهما وزيراه اللذان هما هما	لفضائل الأعمال مستبقان
وهما لأحمد ناظراه وسمعه	وبقربه في القبر مضطجعان
كانا على الإسلام أشفق أهله	وهما لدين محمد جبلان
أصفاهما أقواهما أخشاهم	أتقاهم في السر والإعلان

---

(١) راجع مدرسة الحديث في القيروان : (٢/٤٩٥ - ٥٠١) وتجدر الإشارة بأن الشيخ الحسين بن محمد بن شواط في كتابه القيم مدرسة الحديث في القيروان، قد ذكر خمسة وأربعين صحابياً بأسمائهم إلا أني اكتفيت بذكر هؤلاء، ولمن أراد المزيد فليراجع هذا المصدر القيم.

أسناهما أزكاهما أعلاهما   أوفاهما في الوزن والرجحان
صديق أحمد صاحب الغار الذي   هو في المغارة والنبي اثنان
أعني : أبا بكر الذي لم يختلف   من شرعنا في فضله رجلان
هو شيخ أصحاب النبي وخيرهم   وإمامهم حقاً بلا بطلان
وأبو المطهرة التي تنزيهها   قد جاءنا في النور والفرقان
أكرم بعائشة الرضي من حرة   بكر مطهرة الإزرار حصان
هي زوج خير الأنبياء وبكره   وعروسه من جملة النسوان
هي عرسه هي أنسه هي ألفه   هي حبه صدقاً بلا أدهان
أوليس والدها يصافي بعلها   وهما بروح الله مؤتلقان
لما قضى صديق أحمد نحبه   دفع الخلافة للإمام الثاني
أعني به الفاروق فرق عنوة   بالسيف بين الكفر والإيمان
هو أظهر الإسلام بعد خفائه   ومحا الظلام وباح بالكتمان
ومضي وخلى الأمر شورى بينهم   في الأمر فاجتمعوا على عثمان
من كان يسهر ليله في ركعة   وتراً فيكمل ختمة القرآن
ولى الخلافة صهر أحمد بعده   أعني علي العالم الرباني
زوج البتول أخا الرسول وركنه   ليث الحروب منازل الأقران
سبحان من جعل الخلافة رتبة   وبنى الإمامة أيما بنيان
واستخلف الأصحاب كي لا يدعي   من بعد أحمد في النبوة ثاني

أكرم بفاطمة البتول وبعلها ... وبمن هما لمحمد سبطان

غصنان أصلهما بروضة أحمد ... لله در الأصل والغصنان

أكرم بطلحة والزبير وسعدهم ... وسعيدهم وبعابد الرحمن

وأبي عبيدة ذي الديانة والتقى ... وامدح جماعة بيعة الرضوان

قل خير قول في صحابة أحمد ... وامدح جميع الآل والنسوان

دع ما جرى بين الصحابة في الوغى ... بسيوفهم يوم التقى الجمعان

فقتيلهم منهم وقاتلهم لهم ... وكلاهما في الحشر مرحومان

والله يوم الحشر ينزع كل ما ... تحوي صدورهم من الأضغان

والويل للركب الذين سعوا إلى ... عثمان فاجتمعوا على العصيان

ويل لمن قتل الحسين، فإنه ... قد باء من مولاه بالخسران

لا تركنن إلى الروافض إنهم ... شتموا الصحابة دون ما برهان

لعنوا كما بغضوا صحابة أحمد ... وودادهم فرض على الإنسان

حب الصحابة والقرابة سنة ... ألقى بها ربي إذا أحياني[1]

---

(١) نونية القحطاني : (٢١ – ٢٥).

الخلاصة

١ – إن الباحث المسلم للتاريخ عليه أن يهتم باللب والغاية في دراسة التاريخ مع الاعتناء بالأخبار وتحقيقها والتركيز على العلل والأسباب مع تفسير هذه الحوادث والاهتداء إلى الروابط التي تجمع بينهما وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات متفاعلة الجزيئات.

٢ – إن علم التاريخ لا ينفصل عن علوم الشريعة بل هو فرع من فروعها يغرف منه المربون في مجال التربية والسلوك والمحدثون في ميدان علم الرجال، والجرح والتعديل، وقد استخدمه علماء الحديث في دحض حجج الكذابين والوضاعين.

٣ – إن فوائد علم التاريخ كثيرة جداً منها : التربية بالأحداث وتنمية السلوك النافع والتأثر بالقدوات، واستيعاب الربانية في حياة الشعوب والأمم والدول والمجتمعات.

٤ – من أهم السنن التي تظهر لدارس التاريخ : سوء عاقبة المكذبين، وسنة إناطة التغيير البشري بالبشر، وسنة الأيام سجال بين الناس، وسنة زوال الأمم بالعلو والطغيان، وسنة هلاك الأمم بالظلم والإجحاف، وسنة لكل أمة أجل، وسنة نصر الله للمؤمنين، وسنة ابتلاء المؤمنين، وسنة التدافع بين الحق والباطل وغير ذلك من السنن.

٥ – ومن فوائد دراسة التاريخ، التعرف على معالم تاريخ الإنسانية مثل : معرفة تاريخ الأنبياء، معرفة سيرة النبي ﷺ، والتعرف على تاريخ الخلفاء الراشدين والتعرف على سير العلماء والمجاهدين والدعاة، ومعرفة أثر الإسلام في حياة البشرية.

٦ - إن دراسة التاريخ تعين الباحث المسلم على التأكيد على جملة من الحقائق الهامة في حياة البشرية مثل، أول شيء عرفته البشرية هو توحيد الله، وحقيقة أن الله خالق كل شيء وحقيقة أن الإنسان خلق سوياً، وحقيقة أن الإنسان يحتاج إلى الذكرى والصبر على المشاق.

٧ - إن دراسة التاريخ تكسب القادة العاملين تجارب ضخمة في سياسة الدول والأمم والشعوب، وتفتح لهم أبواباً في السياسة الشرعية وعلم المقاصد والمصالح والمفاسد.

٨ - إن دراسة التاريخ تكسب الإنسان حصانة فكرية بمنهج أهل السنة والجماعة تحفظه من البدع والأهواء وتعين المسلم الحريص على فهم ومعرفة القرون الفاضلة لتكون نبراساً له في حياته المعاصرة.

٩ - إن دراسة التاريخ بمنهجية إسلامية تكسب الباحث مقدرة خاصة لتفسير الحوادث الإنسانية، وتستمد هذه المنهجية من عقيدة الأمة وكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ ولها طرق خاصة بها في إثبات الحوادث التاريخية تعتمد على الدقة والدليل والبرهان.

١٠ - إن من سمات المنهج العلمي في كتابة التاريخ الإسلامي، استعمال الدليل والوثيقة بعد التأكد منها، وحسن الاستدلال والتنظيم والترتيب، والإيمان الكامل بكل ما دل عليه الكتاب والسنة ومن ذلك الإيمان بالغيب، وبالجزاء والحساب، والقضاء والقدر، ورد كل ما خالفهما وغير ذلك من السمات.

١١ - إن كتابة التاريخ الإسلامي له غاية ووسائل تحققه، ومن أسمى غاياته وأهدافه الارتباط بالعقيدة الإسلامية في تصوراتها وأحكامها، كما أن المنهج التاريخي يعتبر وسيلة من وسائل تثبيت العقيدة وتحقيقها في الواقع العملي، كما ينبه للأخطاء والانحرافات التي وقع بها المسلمون ويحاول أن يربيهم من خلال الأحداث والتنبيه على ترك الانحراف والالتزام بالاستقامة. كما يهتم المنهج

الإسلامي في كتابة التاريخ في بيان فساد التصورات والعقائد الجاهلية، وتعريتها ببيان تناقضها ليحذر المسلم.

١٢ - إن من وسائل تحقيق المنهجية في كتابة التاريخ، التصور الصحيح المستمد من الشريعة ومن مصادرها المتعددة ثم الرجال الأمناء الصادقون الذين يحملون هذا التصور ويعملون على تحقيقه في واقع حياتهم.

١٣ - إن في منهج كتابة التاريخ الإسلامي قواعد في التصور، والاعتقاد من أهمها : الإيمان بوحدة الأمة الإسلامية، ووحدة التاريخ الإسلامي، ووحدة الحضارة الإسلامية، ولا بد من الفهم الصحيح لعقيدة الإيمان بالغيب، ومعرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الأولى، وكذلك لا بد من التأكيد في التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام.

١٤ - إن من أهم قواعد المصادر في كتابة التاريخ، اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل مصدر، لأن التاريخ الإسلامي جزء لا يتجزأ من الدراسات الإسلامية وهو تاريخ أمة ذات عقيدة محركة، وحضارة متميزة، وأخلاق إنسانية رفيعة انبثقت عن تلك العقيدة الصحيحة.

١٥ - إن من أشهر علماء الأمة في كتابة التاريخ الإمام أبا جعفر بن جرير الطبري، وخليفة بن خياط، وابن كثير، وابن خلدون شقوا هذا الطريق وتركوا لنا تراثاً متميزاً في هذا المجال.

١٦ - لقد سكن الشمال الإفريقي أجناس عدة من البشر أهمها البرابرة والرومان والأفارقة والإفرنج.

١٧ - إن من أهم الديانات التي انتشرت في الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلام، النصرانية، والمجوسية، والوثنية.

١٨ - إن لفظة الشمال الإفريقي تطلق على الإقليم الذي يبدأ من نهاية الحدود المصرية شرقاً إلى المغرب الأقصى غرباً وتدخل فيه كل من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.

١٩ - إن الحضارات القديمة عاشت ونمت وازدهرت في الشمال الإفريقي ومن أهمها : حضارة السكان الأصلية من البرابرة، ومن الحضارات الوافدة : الفنيقية والقرطاجنية والرومانية والوندالية والإغريقية والنوميدية، إلا أنها اندثرت وتركت لنا معالم وآثاراً تعين على مبدأ الاعتبار والاتعاظ بالأقوام السابقة.

٢٠ - لقد استفحل أمر النصرانية في الشمال الإفريقي إلا أن التفرقة العقيدية والمذاهب الفكرية، والصراعات المذهبية الحادة مزقته وخصوصاً الصراع العنيف الذي نشب بين الأرثوذكسية البيزنطية والكاثوليكية الرومانية وكان هذا الصراع من أهم عوامل ضعف الدولة القائمة مما جعل أهالي الشمال الإفريقي يقومون بضربات مسددة ضد النصرانية المنحرفة ويتمردون على دولتها المتعسفة ويتطلعون إلى الدين الصحيح لترتوي من ينابيعه المنعشة.

٢١ - إن موقع ليبيا الاستراتيجي جعلها حلقة وصل بين جنوب البحر المتوسط وداخل إفريقيا، فأهل ليبيا احترفوا التجارة منذ أزمان موغلة في القدم.

٢٢ - إن تلك الأمم والدول والشعوب التي سكنت الشمال الإفريقي مضت فيها سنة الله التي لا تبدل ولا تتغير ويحتاج الدارس للتاريخ أن يقف وقفة متأمل معتبر، ومتعظ خائف، ومفكر دقيق.

٢٣ - إن دعاوي المستشرقين في حركة الفتح الإسلامي بعيدة عن الدليل وخاوية من البرهان، وتتهاوى أمام الحقائق الساطعة والأدلة الناصعة والنقد الموضوعي، والبحث التحليلي المبني على المنهجية العلمية والمعرفة التاريخية الصحيحة.

٢٤ - يشهد التاريخ أن أهالي برقة قبلوا دعوة الإسلام بدون مقاومة وإنما برضى وتسليم لدين الفطرة، وكانت برقة القاعدة الأصلية في غزوات الفتح والدرع الحصين عند الملمات، ونقطة الانطلاق والتوغل في الشمال الإفريقي ومجاهيل الصحراء الكبرى.

٢٥ - إن الصحابي الجليل والقائد الأعلى للفتوحات في الشمال الإفريقي عمرو بن العاص رضي الله عنه تعرض لحملات مشينة لتلطيخ سيرته العطرة ولقد وجهت قذائف الحق وصواريخ الإيمان إلى تلك الحملات وبينت سلامته مما نسب إليه وإنها بهتان وظلم وزور.

٢٦ - إن عدالة الصحابيين الجليلين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص تقوم على أسس علمية وحقائق تاريخية وأدلة دامغة، وبراهين ساطعة.

٢٧ - إن عمرو بن العاص رضي الله عنه توقف في فتوحاته عند طرابلس بأمر من الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

٢٨ - إن عثمان رضي الله عنه الخليفة الثالث أمر عبد الله بن أبي سرح رضي الله عنه بمواصلة الفتح بعد أن جمع الصحابة واستشارهم في المدينة، وأشاروا عليه بفتحها إلا أن سعيد بن زيد الذي خالف رأي الصحابة متمسكاً برأي عمر رضي الله عنه في ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين.

٢٩ - لقد تولى قيادات حملات الفتح الإسلام للشمال الإفريقي قادة عظام تميزوا بالقدرة القيادية، والكفاءة الحربية، وتحلوا بالروح العالية في نشر الإسلام ودعوته، والجهاد في سبيله مدة زمنية زادت عن سبعين سنة.

٣٠ - كان قادة الفتح على التوالي هم : عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد، ومعاوية ابن حديج، وعقبة بن نافع، وأبو المهاجر دينار، وزهير بن قيس البلوي، وحسان

ابن النعمان الغساني، وموسى بن نصير اللخمي، وكان سيرة كل قائد من هؤلاء مليئة بالدروس والعبر والحكم، والتخطيط البعيد.

٣١ – من أشهر معارك الشمال الإفريقي حتى زمن حسان، معركة سبيطلة بإفريقية وقعت بين عبد الله بن سعد، والقائد الرومي (جرجير) وانهزم فيها الجيش البيزنطي وقتل قائدهم جرجير.

٣٢ – ومعركة قمونية بالقرب من القيروان حالياً نشبت بين القائد معاوية بن حديج وجيش الروم بقيادة نقفور انهزم فيها جيش الروم وقتل قائدهم.

٣٣ – معركة تهوذة وقعت بين عقبة بن نافع وكسيلة وانهزم فيها جيش المسلمين واستشهد القائد الفاتح العظيم عقبة بن نافع بتهوذة.

٣٤ – معركة ممس (تقع بين القيروان وبين ولاية تبسة) نشبت بين القائد الصحابي زهير بن قيس البلوي، وكسيلة انهزم فيها جيش قبيلة (أوربة).

٣٥ – معركة وادي مسكيانة وقعت بشرق الجزائر بين القائد حسان بن النعمان والكاهنة انتصرت الكاهنة على حسان.

٣٦ – معركة بئر الكاهنة وقت بين حسان بن النعمان وجيش الكاهنة انتصر فيها حسان وقتلت الكاهنة عام ٨٢هـ.

٣٧ – ومن معارك الأندلس الخالدة في تلك المرحلة معركة جزيرة طريف بين المسلمين بقيادة طريف بن مالك وبين القوط الإسبان عام ٩١هـ.

٣٨ – معركة جبل طارق وقعت بين جيش طارق بن زياد والحامية المسيحية القوطية، وانتصر فيها طارق وفتح الجبل الذين سمي باسمه حتى الآن وكان ذلك عام ٩٢هـ.

٣٩ - معركة (وادي بكة أو شذونة) وقعت بين طارق بن زياد والملك القوطي لذريق، انتصر فيها المسلمون وكانت عام ٩٢هـ وتعتبر هذه المعركة حاسمة، لأنها فتحت أبواب الأندلس للمسلمين.

٤٠ - لقد استقر الإسلام فعلياً في الشمال الإفريقي في عهد الخليفة المصلح عمر بن عبد العزيز ولقد ساعدت بعثة الفقهاء العشرة التي أرسلها عمر بن عبد العزيز على تثبيت العقيدة الإسلامية وتطهير النفوس وتعليم الناس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٤١ - لقد كان بجانب كتائب الجهاد المسلح سرايا وجنود من كبار الصحابة الفقهاء العلماء ساهموا في فتح الشمال الإفريقي ومن أشهرهم الحسن والحسين ابنا علي، وأبي ذر الغفاري، والمقداد بن عمرو، وعبد الله بن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وغيرهم كثير وكان لهم أثر في نشر السنة والعلوم الإسلامية بين أهالي الشمال الإفريقي.

٤٢ - إن أمة الإسلام التي حملت دينها لتشعه على أهالي الشمال الإفريقي حملت معها حضارة متميزة عن حضارات الشمال الإفريقي التي قبلها، والتي كانت وثنية أو ذات ديانة منحرفة عن الصراط المستقيم، ولذلك ظهرت أخلاق وضيعة في سلوكهم ومارسوا على أهالي الشمال الإفريقي ظلماً عظيماً وعسفاً وخيماً وكان دافعهم هو الطمع في خيرات البلاد الكثيرة، وحملوا معهم ديانة عبادة الأوثان والانغماس في الشهوات، فانطمست البصائر وزاغت الأبصار وضاع التوحيد، ونزلوا في درجة أحط من منزلة الحيوانية، وجرت فيهم سنة الله في أخذ من يقع في الذنوب والمعاصي والشرك ويبتعد عن منهج الله ونداء الفطرة.

٤٣ – إن عظمة الفتوحات الإسلامية تظهر إذا قارنتها مع من سبق في الشمال الإفريقي من الغزاة الطامعين.

٤٤ – إن كل الجيوش الإسلامية التي دخلت الشمال الإفريقي كان دافعها ومحركها في حركة الجهاد العقيدة والحرص على هداية الناس وإزالة العوائق التي تحول بينهم وبين دين الفطرة.

٤٥ – إن الدولة الإسلامية منذ عصورها الأولى حرصت على الامتداد الطبيعي وضم الشمال الإفريقي لحظيرتها الميمونة.

٤٦ – إن أهالي البلاد انصهروا مع الفاتحين في محاضن الإسلام العظيمة وحملوا لواء الإسلام والدفاع عنه والتوسع من أجل الدعوة في سبيله.

٤٧ – لقد ظهر دور العلماء والمحدثين والفقهاء من الصحابة والتابعين في إدخال القبائل في الإسلام وتعليمها وتزكيتها.

٤٨ – إن حركة المد والجزر والتوسع والانكماش في الفتوحات الإسلامية مرتبط ارتباطاً وثيقاً باستقرار الخلافة والتغلب على الفتن الداخلية.

٤٩ – إن البحر المتوسط أصبح ببركة الفتح الإسلامي بحراً إسلامياً تابعاً للخلافة.

٥٠ – وهذه بعض النتائج التي وصلت إليها وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفاً من الإطالة والإطناب.

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولاً حسناً وأن يبارك فيه وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه. وأختم الكتاب الأول بقول الله تعالى : **﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾**.

وبقول الشاعر :

أنـا الفقيـر إلـى رب الـبريـــات

أنا المسكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهـي ظـالمتـي

والخير إن يأتينا مـن عنـده يأتـي

لا أستطيع لنفسـي جلـب منفعـة

ولا عن النفس لي دفع المضـرّات

والفقر لي وصف ذات لازم أبـداً

كما الغنى أبداً وصـف له ذاتـــي

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم

وكـلهـــم عـنـده عـبد لــه آتـــي

(سبحانك الله وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)، (وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين).

أهم مراجع هذا الكتاب (الكتاب الأول)

١ – أثر الحديث في نشأة التاريخ عن المسلمين، د. بشار عواد، طبعت في بغداد سنة ١٩٦٦م.

٢ – إعادة كتابة صدر تاريخ الإسلام، د. أكرم ضياء العمري، محاضرة مطبوعة على الآلة الكاتبة.

٣ – اختصار علوم الحديث، الشيخ إسماعيل عمر بن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميله. ط دار الشعب بمصر.

٤ – إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لمحمد بن أبي بكر الزرعي المشهور بابن القيم الجوزية، تصحيح محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

٥ – أسد الغابة لمعرفة الصحابة، لأبي الحسن علي بن محمد الجزري، دار الفكر، طبعة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

٦ – البداية والنهاية في التاريخ – عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي – مطبعة السعادة – القاهرة.

٧ – البيان المغرب في أخبار المغرب – أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي، مكتبة صادر، بيروت.

٨ – البدر الطالع، محمد بن علي الشوكاني، نشر دار الباز بمكة.

٩ – التاريخ والحضارة الإسلامية، أحمد شلبي، طبعة مكتبة وهبة.

١٠ – الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري السلاوي – القاهرة – ١٣١٠هـ.

١١ – الاستيعاب في معرفة الأصحاب – أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر – تحقيق علي محمد البجاوي – مطبعة نهضة مصر.

١٢ – الإصابة في تمييز الصحابة، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني العسقلاني المعروف بابن حجر العسقلاني، المطبعة الشرقية.

١٣ – العبر – شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي – تحقيق فؤاد سيد – مطبعة الكويت – ١٩٦١م.

١٤ – الصحاح – إسماعيل الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور، الطبعة الثانية، دار العلم للميلايين، بيروت.

١٥ – الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للميلايين، طبعة سنة ١٩٧٩م.

١٦ – الكامل في التاريخ : لعلي بن محمد الشيباني، دار صادر، دار بيروت.

١٧ – المسالك والممالك – أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرفي – تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني – مطابع دار القلم – القاهرة، ١٣٨١هـ.

١٨ – القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، د. عبد الله محمد الرشيد، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٩م.

١٩ – الطبقات الكبرى – محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري – دار صادر –

بيروت، لبنان - ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م.

٢٠ - العواصم من القواصم، لأبي بكر بن العربي، مكتبة السنة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٨، عابدين، القاهرة.

٢١ - الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، دار الشهاب، القاهرة.

٢٢ - المختصر في علم التاريخ، لمحمد بن سليمان الكافيجي، مكتبة المثنى بغداد، ١٩٦٣م.

٢٣ - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، محمد عبد الرحمن السخاوي، دار الكتاب العربي، حققه حسام المقدسي.

٢٤ - تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري - مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٨ه.

٢٥ - تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة دار القلم، ط٢، سنة ١٣٩٧هـ.

٢٦ - تذكرة الحفاظ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تصحيح عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث العربي.

٢٧ - تفسير التاريخ الإسلامي، د. عماد الدين خليل، الطبعة الأولى ١٩٧٥م، دار العلم للملايين.

٢٨ - تدريب الراوي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، الطبعة الثاني، دار الكتب الحديثة.

٢٩ - تفسير القرآن الكريم، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميله، طبعة دار الشعب بمصر.

٣٠ – تاريخ بغداد، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، المكتبة السلفية بالمدينة.

٣١ – تاريخ المغرب العربي، سعد زغلول عبد الحميد، القاهرة، ١٩٦٥م.

٣٢ – تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي ليبيا، الطبعة الثالثة.

٣٣ – تاريخ ليبيا، جون رايت، كتاب مصوّر، دار الفرجاني، طرابلس، الطبعة الأولى ١٩٧٢م.

٣٤ – تحقيق مواقف الصحابة في الفتن، د. محمد محزون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م.

٣٥ – تهذيب الأسماء واللغات، الإمام النووي – المطبعة المنيرية – مصر.

٣٦ – جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، مطبعة المعارف، القاهرة – ١٣٨٢ .

٣٧ – جامع العلوم وفضله، ليوسف بن عبد البر النمري القرطبي، دار الكتب الحديثة.

٣٨ – جامع الرسائل، للشيخ أحمد عبد السلام بن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، مطبعة المدني.

٣٩ – جوامع السير، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق د. إحسان عباس، د. ناصر الدين الأسد، مراجعة أحمد محمد شاكر. طبعة إدارة إحياء السنة.

٤٠ – حسن البيان عما بلغته إفريقيا في الإسلام من السطوة والعمران، محمد النيفر، المطبعة التونسية ١٣٥٣هـ.

٤١ – دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين، د. جميل عبد الله المصري.

٤٢ – دراسات إسلامية، سيد قطب، طبعة دار الشروق.

٤٣ – رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم لأبي عبد الله بن أبي عبد الله المالكي، نشره الدكتور حسين مؤنس – القاهرة ١٩٥١م.

٤٤ – سير أعلام النبلاء شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد – مطبعة المعارف – القاهرة.

٤٥ – سيرة النبي ﷺ، أبو محمد عبد الملك بن هشام، مطبعة حجازي، القاهرة – ١٣٥٦م.

٤٦ – سنن ابن ماجه، محمد بن إسماعيل القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، الحلبي بمصر.

٤٧ – سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، طبع المكتب الإسلامي.

٤٨ – سنن أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، طبع دار الفكر، بيروت.

٤٩ – سنن الترمذي، محمد بن عيسى، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث.

٥٠ – شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي – مطبعة القدس، القاهرة ١٣٥٠هـ.

٥١ – طبقات ابن سعد، محمد بن سعد، دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ.

٥٢ – صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

٥٣ – صفة الصفوة للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت.

٥٤ – علم التاريخ عند العرب، عبد الحميد العبادي، فصل ملحق بعلم التاريخ، لجنة

التأليف والترجمة بالقاهرة.

٥٥ – علم التاريخ عند المسلمين، فرانز روزنثال، ترجمة صالح أحمد العلي، طبعة مكتبة المثنى، بغداد.

٥٦ – عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام، د. ناصر بن علي، مكتبة الرشيد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

٥٧ – عبد الله بن مسعود، أعلام المسلمين، عبد الستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

٥٨ – فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن الشيخ، الطبعة الخامسة، ١٣٩١هـ.

٥٩ – فاتح الأندلس، طارق بن زياد، شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠م.

٦٠ – في التاريخ فكرة ومنهاج، لسيد قطب، الدار السعودي للنشر، جدة، ط١، ١٣٨٧هـ.

٦١ – فتوح مصر والمغرب، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي، مطابع لجنة البيان العربي.

٦٢ – فتح الباري لشرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية، القاهرة.

٦٣ – قصائد الزهد، محمد أحمد السيد، مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

٦٤ – قادة فتح المغرب العربي، محمود شيت خطاب، دار الفكر، الطبعة السابعة، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

٦٥ – في ظلال القرآن لسيد قطب، دار الشروق، بيروت.

٦٦ – فتح العرب للمغرب، حسين مؤنس – القاهرة – ١٩٤٧م.

٦٧ – لمحات في التربية، محمد أمين المصري، طبع دار الفكر، بيروت، ط٤، سنة ١٣٩٨هـ.

٦٨ – لسان العرب لابن منظور، قدم له عبد الله العلايلي، إعداد وتنصيف يوسف خياط، طبعة دار لسان العرب، بيروت.

٦٩ – ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، د. صالح مصطفى مفتاح المزيني، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الثالثة ١٩٩٤م.

٧٠ – لسان الميزان، أحمد بن علي العسقلاني، ط٢ الثانية، دار الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٧١ – اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار الباز بمكة.

٧٢ – منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمد صامل العلياني السلمي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

٧٣ – مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون، دار إحياء التراث العربية، بيروت.

٧٤ – مفاتيح العلوم لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠١هـ مكتبة الكليات الأزهرية بمصر.

٧٥ – مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، طبع دار صادر، بيروت.

٧٦ – مجموع الفتاوى، لأحمد بن عبد الحليم الحراني، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية.

٧٧ – مناقب عمر بن الخطاب، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق الدكتورة

زينب القاروط، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٧٨ – مدرسة الحديث في القيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

٧٩ – ميزان الاعتدال، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

٨٠ – معجم ما استعجم، للبكري، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٦٦٤هـ / ١٩٤٥م.

٨١ – معجم البلدان الليبية للطاهر الزاوي، الطبعة الأولى – طرابلس، ليبيا. ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

٨٢ – نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أبو العباس أحمد القلقشندي، القاهرة، ١٩٥٩ – الطبعة الأولى.

٨٣ – نفح الطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة – القاهرة، ١٣٦٧هـ، الطبعة الأولى.

٨٤ – نونية القحطاني، لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي، الطبعة الثالثة. ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م، مكتبة السوادي للتوزيع.

٨٥ – نماذج من شعر إيليا أبو ماضي، عبد اللطيف شرارة، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م.

الفهرس

الإهداء ٥

المقدمة ٧

الباب الأول : قواعد في دراسة التاريخ ١٦

الفصل الأول : مفهوم التاريخ ثمرة دراسته ١٧

مصطلح التاريخ ودلالاته ١٧

أهداف دراسة التاريخ وثمراته ٢٠

المبحث الأول : فوائد دراسة التاريخ ٢٢

المطلب الأول : الفوائد التربوية ٢٣

المطلب الثاني : إدراك السنة الربانية ٢٥

المطلب الثالث : التعرف على معالم تاريخ الإنسانية ٤٠

المطلب الرابع : التأكيد على جملة من الحقائق الهامة في حياة البشرية ٤٢

الفصل الثاني : أهمية المنهج في الدراسات التاريخية ٤٨

المبحث الأول : مصادر طرق إثبات الحقائق التاريخية ٥٤

المبحث الثاني : مصادر تفسير الحوادث والحكم عليها ٥٧

المبحث الثالث : سمات المنهج العلمي عند علماء المسلمين ٦٠

المبحث الرابع : غاية المنهج في كتابة التاريخ الإسلامي ووسائل تحقيقه . ٦٢

المبحث الخامس : وسائل تحقيق المنهج ٦٧

الفصل الثالث : قواعد في منهج كتاب ةالتاريخ الإسلامي ٦٩

المبحث الأول : قواعد في التصور والاعتقاد ٦٩

المبحث الثاني : الحكم الشرعي في المخلفات الحضارية ٧٠

المبحث الثالث : الفهم الصحيح للقضاء والقدر ٧٣

المبحث الرابع : الإيمان بالغيب ٧٦

المبحث الخامس : معرفة حق الصحابة وتميز أهل القرون الأولى ٨٠

المبحث السادس : التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام ٨١
المبحث السابع : الإيمان بالسنن الربانية ٨٣
الفصل الرابع : قواعد في المصادر : ٨٦
المبحث الأول : اعتماد المصادر الشرعية وتقديمها على كل المصادر . ٨٧
المبحث الثاني : عدم التسليم لكل ما ورد في الكتب المنزلة قبل القرآن ٩٠
المبحث الثالث : معرفة شروط المؤرخ المقبول ٩١
المبحث الرابع : معرفة حدود الأخذ من كتب أصحاب الأهواء والزندقة . ٩٣
المبحث الخامس : معرفة ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين ٩٦
المبحث السادس : قواعد في أسلوب العرض ٩٦
الفصل الخامس : نبذة عن بعض مشاهير مؤرخي المسلمين ١٠٦
المبحث الأول : الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري ١٠٦
المبحث الثاني : خليفة بن خياط ١١٢
الباب الثاني : الشمال الإفريقي قبل الفتح الإسلامي ١١٥
الفصل الأول : سكانه ١١٦
المبحث الأول : أصل كلمة إفريقية ومدلولها ١١٦
المبحث الثاني : العنصر البشري ١١٨
الفصل الثاني : ديانته ١٢٥
المبحث الأول : الديانة المجوسية ١٢٥
المبحث الثاني : الديانة اليهودية ١٢٦
المبحث الثالث : الديانة المسيحية ١٢٦
الفصل الثالث : حدوده ١٣٢
الباب الثالث : ليبيا قبل الفتح الإسلامي ١٣٤
الفصل الأول : معالم ليبيا ١٣٥
الفصل الثاني : سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي ١٣٨
المبحث الأول : العنصر البربري ١٣٨
المبحث الثاني : العنصر القرمنتي ١٣٩

المبحث الثالث : العنصر الفينيقي ١٤١
المبحث الرابع : العنصر القرطاجني ١٤٥
المبحث الخامس : النصر الروماني ١٤٧
المبحث السادس : عنصر الوندال ١٥٠
المبحث السابع : العنصر الإغريقي ١٥٤
المبحث الثامن : العنصر النوميدي ١٥٩
الباب الرابع : الفتح الإسلامي لشمال إفريقية ١٦٥
الفصل الأول : دواعي الفتح الإسلامي ١٦٧
المبحث الأول : الأمة المسلمة ودورها الريادي ١٦٧
المبحث الثاني : مبشرات الفتح الإسلامي ١٦٩
المبحث الثالث : دعاوي المستشرقين... شبهات وردود ١٧١
الفصل الثاني : بدايات الفتح المبارك ١٧٩
المبحث الأول : حملة عمرو بن العاص على برقة ١٨٠
المبحث الثاني : حملة عمرو بن العاص على طرابلس ١٨٥
المبحث الثالث : حملة عمرو بن العاص على صبراتة ١٨٨
المبحث الرابع : حملة عمرو بن العاص على مدينة شروس وعودته إلى مصر .. ١٩٠
المبحث الخامس : فاتح ليبيا في سطور ١٨٢
المبحث السادس : أهم صفاته القيادية ١٩٤
المبحث السابع : قواعد ومبادئ في الاستراتيجية العسكرية ١٩٨
المبحث الثامن : أعمال عمرو بن العاص في عهد الرسول ٢٠١
الفصل الثالث : تثبيت دعائم الإسلام في المنطقة ٢٠٩
المبحث الأول : حملة عبد الله بن سعد على إفريقية ٢٠٩
المبحث الثاني : فاتح إفريقية (تونس) في سطور ٢١٥
المبحث الثالث : مناقب عبد الله بن سعد ٢١٧
المبحث الرابع : مبادئ في الاستراتيجية العسكرية ٢٢١
المبحث الخامس : أهم صفاته القيادية ٢٢٢

المبحث السادس : أعماله في عهد الخليفتين عمر وعثمان ٢٢٣
الفصل الرابع **٢٢٤**
المبحث الأول : حملة معاوية بن حديج على ليبيا وإفريقية ٢٢٥
المبحث الثاني : معاوية بن حديج في سطور ٢٢٨
الفصل الخامس : عقبة بن نافع قائد فتح الشمال الإفريقي ٢٣٤
المبحث الأول : بداية الفتح المبارك ٢٣٤
المبحث الثاني : تأسيس أول مدينة إسلامية في الشمال الإفريقي ٢٣٦
المبحث الثالث : فاتح المغرب في سطور ٢٣٧
المبحث الرابع : مناقبه ٢٤٠
المبحث الخامس : أهم صفاته القيادية ٢٥١
الفصل السادس : قادة فتح المغرب الأوسط والأقصى ٢٥٤
المبحث الأول : أبو المهاجر دينار ٢٥٤
المبحث الثاني : أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية ٢٥٩
المبحث الثالث : زهير بن قيس البلوي ٢٦١
المبحث الرابع : حسان بن النعمان الأزدي الغساني ٢٦٨
المبحث الخامس : موسى بن نصير اللخمي ٢٨٧
المطلب الأول : اسمه، نسبه، وميلاده، ونشأته ٢٨٧
المطلب الثاني : جهاده في البر ٢٨٩
المطلب الثالث : جهاده في البحر ٢٩١
المطلب الرابع : جهاده في الأندلس ٢٩٢
المطلب الخامس : طارق بن زياد في سطور ٢٩٧
المطلب السادس : أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية ٣٠٩
المطلب السابع : وفاته ٣١١
المبحث السادس : عبد الله بن الزبير بن العوام ٣١٢
المطلب الأول : اسمه، نسبه، ميلاده ٣١٣
المطلب الثاني : جهاده ٣١٣

المطلب الثالث : موقفه من الأحداث السياسية ٣١٥
المطلب الرابع : وفاة عبد الله بن الزبير ٣٢٣
المطلب الخامس : أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية ٣٢٤
المبحث السابع : عبد الملك بن مروان الأموي ٣٢٥
المطلب الأول : اسمه، ونسبه، وميلاده، ونشأته، ووفاته ٣٢٥
المطلب الثاني : جهاده قبل خلافته وبعدها ٣٢٧
المطلب الثالث : أعماله في فترة خلافته ٣٢٩
المطلب الرابع : أهم صفاته القيادية والحربية ٣٣١
المبحث الثامن : رويفع بن ثابت الأنصاري ٣٣١
المطلب الأول : اسمه، ونسبه ٣٣٢
المطلب الثاني : جهاده ٣٣٢
المطلب الثالث : حياته ٣٣٢
المطلب الرابع : أهم صفاته القيادية ٣٣٣
الباب الخامس : عهد الولاة ٣٣٥
الفصل الأول : كتاب يهدي وسيف يحمي ٣٣٦
المبحث الأول : كتائب الدعاة والمجاهدين نحو الشمال الإفريقي ٣٣٦
الفصل الثاني : الصحابة الذين دخلوا ليبيا واستقروا في مدينة القيروان . ٣٥٠
المبحث الأول : عددهم وتحقيق القول في ذلك ٣٥٠
المبحث الثاني : أثر الصحابة الرواة في نشر السنة بالقيروان وإفريقية .. ٣٥٢
المبحث الثالث : كبار الصحابة أو الصحابة الرواة ٣٥٦
الخلاصة ٣٧٩
أهم مراجع هذا الكتاب ٣٨٨
الفهرس ٣٩٦